أحاديث

إصلاح القلوب

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

أحاديث

إصلاح القلوب

ⓗ دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن
أحاديث إصلاح القلوب./ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -المدينة المنورة، ١٤٤٤هـ.
٦٦٤ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٤-٨٠-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨
١-أدعية. أ.العنوان .
ديوي ٢١٢,٩٣ ١٤٤٤/٨٥٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٤-٨٥٧١
ردمك: ٤-٨٠-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع
طباعة ـ نشر ـ توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة
00966532627111
00966590960002
daremslm@gmail.com
daremslm

مركز سطور للبحث العلمي
Sutor.center@gmail.com
بحث علمي - صفّ - تنسيق - تصميم

أَحَادِيثُ

إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ

تأليف

عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإنَّ أولى ما صُرِفَت فيه الهمم والعزائم إصلاح القلوب وعلاجها وحفظ صحَّتها ودفع أسقامها وحمايتها ممَّا يفسدها، وهو المقصود بالقصد الأوَّل؛ لعظم خطرها وشدَّة تأثيرها على الأبدان صلاحًا أو فسادًا، كما قال ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرجل: «داوِ قلبكَ؛ فإنَّ حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم»[(٢)]، أي: أنَّ مراده منهم إصلاحُ القلوب الَّتِي بصلاحها يصلح البدن وبفسادها يفسد.

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في التَّواضع والخمول (٢٤٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٥٤).

وهذه سلسلة نافعة في «**إصلاح القلوب**» قدَّمتها في حَلْقات يوميَّة عبر قناة السُّنَّة النَّبَوِيَّة، أرجو الله أن يعظم بها النَّفع والبركة، وأن يجعلها معونة لنا أجمعين على صلاح قلوبنا، فهي طوع تدبيره سبحانه، وهو وليُّها ومولاها لا شريك له.

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

١
القلب هو الأصل

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ -وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ-: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)]. متَّفق عليه.

يعدُّ هذا الحديث أصلًا عظيمًا في باب إصلاح القلوب، وأنَّ صلاح الجوارح بصلاحه وفسادها بفساده.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الجملة: القلب هو الأصل، كما قال أبو هريرة: «القلب ملك الأعضاء والأعضاء جنوده؛ فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده». وهذا كما في حديث النُّعمان بن

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

بشير المتَّفق عليه؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

فصلاحُه وفساده يستلزم صلاحَ الجسد وفسادَه؛ فيكون هذا ممَّا أبداه لا ممَّا أخفاه.

وكلُّ ما أوجبه الله على العباد لا بُدَّ أن يجب على القلب؛ فإنَّه الأصل، وإن وجب على غيره تبعًا فالعبد المأمور المنهيُّ إنَّما يعلم بالأمر والنَّهي قلبه وإنَّما يقصد بالطَّاعة والامتثال القلب والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به؛ كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أوَّل المعصية منه؛ بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك؛ ولهذا قال في حقِّ الشَّقِيِّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] الآيات، وقال في حقِّ السُّعداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] في غير موضع.

والمأمور نوعان: نوع هو عمل ظاهر على الجوارح، وهذا لا يكون إلَّا بعلم القلب وإرادته. فالقلب هو الأصل فيه؛ كالوضوء، والاغتسال، وكأفعال الصَّلاة مِنَ القيام والرُّكوع والسُّجود، وأفعالِ الحجِّ مِنَ الوقوف والطَّواف، وإن كانت أقوالًا فالقلب أخصُّ بها؛ فلا بُدَّ أن يعلم القلب وجود ما يقوله أو بما يقول ويقصده»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٣ - ١١٥).

فتبيَّن بهذا أنَّ القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال:

* فما أمر الله به مِنَ الأفعال الظَّاهرة لا بُدَّ فيها من معرفة القلب وقصده.

* وكذلك ما أمر به مِنَ الأقوال لا بُدَّ فيها من معرفة القلب وقصده.

وبهذا أيضًا يعلم أنَّ القلب إذا عمر بالإيمان بالله وحُبِّه وتعظيمه وخوفه ورجائه والتَّوكُّل عليه وإخلاص الدِّين له طابت الجوارح وصلحت، بل لا يَتِمُّ شيء مِنَ المأمور به ظاهرًا إلَّا بها؛ وإلَّا فلو عمل أعمالًا ظاهرة بدون هذه كان منافقًا، ثمَّ هي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالًا ظاهرة توافقها في الزَّكاء والاستقامة.

فمعرفة أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرِّعة عليها، وهي موطن نظر الرَّبِّ، كما روى مسلم في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»[(١)]. وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ.

وروى مسلم وأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**التَّقْوَى هَهُنَا؛ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»[(٢)].

فالقلوب هي الأساس، فإذا استقامت على تقوى الله جَلَّ وَعَلَا حقًّا وصدقًا؛ استقامت الجوارح كلُّها عملًا بطاعة الله وطلبًا لنيل رضاه جلَّ في علاه.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧).

وفي المسند عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ**»(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد باستقامة إيمانه: استقامةُ أعمال جوارحه؛ فإنَّ أعمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلَّا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أنْ يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ الله، ومحبَّة طاعته، وكراهة معصيته.

وقال الحسن لرجل: «داوِ قلبكَ؛ فإنَّ حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم»(٢)، يعني: أنَّ مراده منهم ومطلوبه صلاحُ قلوبهم، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ وعظمتُه ومحبَّتُه وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤهُ والتَّوكُّلُ عليهِ، وتمتلئَ مِنْ ذَلِكَ، وهذا هوَ حقيقةُ التَّوحيد، وهو معنى: «**لا إله إلَّا الله**»، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى يكونَ إلهُها الَّذِي تألَهُه وتعرفه وتحبُّه وتخشاه هوَ الله وحده لا شريكَ لهُ، ولو كانَ في السَّماوات والأرض إله يُؤَلَّه سوى الله؛ لفسدت بذلك السَّماوات والأرض، كما قالَ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

فعُلم بذلك أنَّه لا صلاحَ للعالَم العلويِّ والسُّفلِيِّ معًا حتَّى تكونَ حركاتُ قلوب أهلها كلُّها لله، وحركاتُ الجسدِ تابعةٌ لحركةِ القلب وإرادته، فإنْ كانت حركتُه وإرادتُه لله وحدَه؛ فقد صَلَحَ وصَلَحَتْ حركاتُ الجسدِ كلِّه، وإنْ كانت

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٨٤١).
(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في التَّواضع والخمول (٢٤٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٥٤).

حركةُ القلب وإراداته لغيرِ الله تعالى؛ فسدَ وفسدت حركاتُ الجسد بحسب فسادِ حركة القلب»(١).

«وفي «السُّنن» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، وَأَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»(٢). ومعنى هذا أنَّ حركات القلب والجوارح إذا كانت كلُّها لله فقد كَمُلَ إيمانُ العبد بذلك ظاهرًا وباطنًا، ويلزمُ من صلاح حركات القلب صلاحُ حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلَّا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعثِ الجوارحُ إلَّا فيما يُريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكَفَّتْ عمَّا يكرهه، وعمَّا يخشى أنْ يكونَ ممَّا يكرهه وإنْ لم يتيقَّن ذلك»(٣).

ولهذا فإنَّ أمر استقامة القلب أمرٌ عظيم؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس رُبَّمَا يُعْنَى باستقامة الظَّاهر ويغفل عن إقامة باطنه على الطَّاعة وحُسن الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والبعد بالقلب عن أدواء القلوب وأمراضها الَّتِي تبعده عَنِ الاستقامة.

والقلوب تتسلَّل إليها أدواءٌ وأسقامٌ وأمراضٌ تُضْعِف ما فيها من إيمان وتُنقص ما فيها من دين وطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا فإنَّ مِن الاستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحرص المرء على مداواة القلوب والنُّفوس، والمجاهدة في البعد بها عَنِ الأمراض والأسقام الَّتِي تصيبها فتُسقِمها وتمرضها،

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٠).
(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٢).

فكما أنَّ الأبدان تمرض فإنَّ القلوب تمرض، بل مرضها أشدُّ من مرض البدن وأخطر.

ومن أعظم ما ينبغي أن يُعْنَى به تجاه القلب: العناية بسلامته من هذه الأمراض والأسقام، فهذا الَّذِي ينفع العبد النَّفع العظيم يوم يلقى الله ويقف بين يديه سبحانه، قال الله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السَّليم: هو القلب الَّذِي سلِم مِنَ الشِّرك والشَّكِّ، وسلِم من كُلِّ أمرٍ يُسخط الله، وسلِم مِنَ الإصرار على البدع والمعاصي، ويلزم من هذه السَّلامة من هذه الأشياء الاتِّصاف بأضدادها مِنَ الإخلاص لله، واليقين، والإقبال على طاعة الله، ومحبَّة الله جَلَّ وَعَلَا، وتعظيمه وتعظيم شرعه؛ فإنَّ القلب إذا كان متَّصفًا بهذه الأشياء سليمًا من أضدادها كان بذلك قلبًا سليمًا له النَّجاة يوم القيامة والفوز بالدَّرجات العلا يوم يلقى الله سبحانه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اختلفت عبارات النَّاس في معنى القلب السَّليم، والأمر الجامع لذلك: أنَّه الَّذِي قد سلم من كُلِّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كُلِّ شُبْهة تعارض خبره، فسلم من عبوديَّة ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبَّة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتَّوكُّل عليه والإنابة إليه والذُّلِّ له وإيثار مرضاته في كُلِّ حال، والتَّباعد من سخطه بكُلِّ طريق، وهذا هو حقيقة العبوديَّة الَّتِي لا تصلح إلَّا لله وحده.

فالقلب السَّليم: هو الَّذِي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما،

بل قد خلصت عبوديَّته لله تعالى: إرادةً، ومحبَّةً، وتوكُّلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً.

وخلص عمله لله؛ فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتَّى يسلم مِنَ الانقياد والتَّحكيم لكُلِّ مَن عدا رسوله ﷺ؛ **فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كلِّ أحد في الأقوال والأعمال:**

* من أقوال القلب، وهي العقائد.
* وأقوال اللِّسان، وهي الخبر عمَّا في القلب.
* وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبَّة والكراهة وتوابعها.
* وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كلِّه دقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلا يتقدَّم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، أي: لا تقولوا حتَّى يقول ولا تفعلوا حتَّى يأمر.

قال بعض السَّلف: ما من فِعْلَة وإن صغرت إلَّا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأوَّل: سؤال عن عِلَّة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظٌّ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدُّنيا في محبَّة المدح مِنَ النَّاس، أو خوف ذمِّهم

أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحقِّ العبوديَّة وطلب التَّودُّد والتَّقرُّب إلى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحلُّ هذا السُّؤال: أنَّه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظِّك وهواك؟

والثَّاني: سؤال عن متابعة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ذلك التَّعبُّد، أي: هل كان ذلك العمل ممَّا شَرَعْتُه لك على لسان رسولي أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأوَّل: سؤال عَنِ الإخلاص، **والثَّاني:** عَنِ المتابعة؛ فإنَّ الله سبحانه لا يقبل عملًا إلَّا بهما.

فطريق التَّخلُّص مِنَ السُّؤال الأوَّل: بتجريد الإخلاص.

وطريق التَّخلُّص مِنَ السُّؤال الثَّاني: بتحقيق المتابعة.

وسلامةِ القلب؛ من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتِّباع.

فهذا حقيقة سلامة القلب الَّذِي ضُمِنَت له النَّجاة والسَّعادة»(١).

وللقلب السَّليم علامات تدلُّ عليه وعلى سلامته ونقائه وزكائه:

ومن هذه العلامات: أن يكون قلبًا مترحِّلًا عَنِ الدُّنيا، متجافيًا عنها، غيرَ مُغْتَرٍ بها، عالمًا بحقيقة حالها، وأنَّها دار الفناء والزَّوال، وأنَّها مرتحلة وليست

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٠ - ١٢).

باقية، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَل»[(١)].

ومن علامات القلب السَّليم: أن تكون همَّته واحدة، وهي نيل رضا الله والبعد عن مساخطه جلَّ في علاه.

ومن علامات القلب السَّليم: جدُّه ومجاهدته للبعد عَنِ المعاصي والآثام والبدع وفعل الحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومن علاماته: العناية بتصحيح العمل أكثر مِنَ العناية بالعمل نفسه؛ إخلاصًا لله وصدقًا مع الله جَلَّ وَعَلَا ونصحًا في عبادة الله واستشعارًا لِمنَّة الله عليه واتِّهامًا للنَّفس بالتَّقصير في جنب الله ومجاهدةً لها في طاعة الله.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن معتنيًا بقلبه عاملًا على إصلاحه مجتهدًا في تزكيته وتنقيته، ومِنَ الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[(٢)].

وجاء في الحديث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لشدَّاد بن أوس: «**إِذَا اكْتَنَزَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ فَاكْتَنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي**

(١) رواه البخاريُّ -تعليقًا- في: «باب في الأمل وطوله»، ووصله ابن حجر في تغليق التَّعليق (٥/ ١٥٨).
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[(١)].

وهو حديث صحيح اشتمل على جماع الخير وأبواب البِرِّ وجماع الفضيلة، والنَّبيُّ ﷺ أكدَّ تأكيدًا عظيمًا على العناية بهذا الدُّعاء والعناية بتحقيق ما فيه مِنَ المطالب العظيمة والمقاصد الجليلة، وبخاصَّة العناية بسلامة القلب؛ وذلك بتنقيته وتزكيته وتطهيره من كُلِّ أمرٍ يُسخط الله، ولاسِيَّما الشِّرك بالله، أو الشَّكُّ في دين الله، أو الإصرار على البدع والمعاصي، أو نحو ذلك مِنَ الآفات الَّتي تعرِض للقلوب وتُضِرُّ بها إضرارًا بالغًا.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقنا أجمعين لكُلِّ خير، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيب.

---

(١) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٩٣٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٢٢٨).

٢
أوصاف القلوب

روى ابن ماجه عَنِ النَّوَّاس بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»(١).

وروى الإمام أحمد عن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، فَنَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا: أَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلُهُ: أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ**»(٢).

جدير بالمسلم -مع المواظبة على هذا الدُّعاء-: أن يعرف أوصاف القلوب الزَّائغة وأحوالها؛ ليعرف مقدار ما ناله وظفر به من خير وعافية،

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أحمد (٢٦٥٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٠٩١).

ومقدار ما سلَّمه الله منه من شرٍّ وفساد؛ ليحمد الله على العافية، ويسأله: المعافاة الدَّائمة، وأن يحفظ له قلبه ويُسَلِّمه مِنَ الزَّيغ والانحراف. خاصَّة وأنَّ القلب سريع التَّقلُّب، فعَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَ غَلَيَانًا**». رواه أحمد والحاكم[1].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يُقِيمُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ**». رواه أحمد وابن ماجه[2].

وذلك لشدَّة تأثير الفتن على القلوب.

وقد ذكر الله أوصافًا عديدة للقلوب المريضة العليلة في كتابه تحذيرًا وإنذارًا من تلك الحال[3].

فمن هذه الأوصاف: العمى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. والمعنى: أنَّه معظم العمى وأصله، وهو العمى الضَّارُّ في الدِّين؛ لأنَّه بسببه لا يبصر الحقَّ ولا يشاهده، كما لا يشاهد الأعمى المرئيَّات.

وليس المراد: نفيَ العمى الحسِّيِّ عَنِ البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ

(١) رواه أحمد (٢٣٨١٦)، والحاكم (٣١٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٧٧٢).

(٢) رواه أحمد (١٩٧٥٧) واللَّفظ له، وابن ماجه (٨٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) انظرها بتوسُّع في شفاء العليل لابن القيِّم (١/ ٢٩٩ - ٣٣١).

عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ [النُّور:٦١]، وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]. وإنَّما المراد: أنَّ العمى التَّامَّ في الحقيقة عمى القلب، حتَّى إنَّ عمى البصر بالنِّسبة إليه كلا عمى، حتَّى إنَّه يصحُّ نفيه بالنِّسبة إلى كماله وقوَّته، وهذا كقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ**»[(١)]. وقوله: «**إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ**»[(٢)]. وقوله: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[(٣)]. وقوله: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ**»[(٤)]. وقوله: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[(٥)]. فلم يُرِد: نفي الاسم عن هذه المُسَمَّيات، إنَّما أراد: أنَّ هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحقُّ ممَّن يُسَمُّونه بها، فهكذا قوله: لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الَّتي في الصُّدور.

ومن أوصافها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمَّد:٢٤]. أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه، قد أغلق على ما فيها مِنَ الشَّرِّ وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا. وكأنَّ القلب بمنزلة الباب المرتج، الَّذِي قد ضُرِب عليه قفل؛ فإنَّه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عَنِ القلب؛ لم يدخل الإيمان.

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٦).
(٢) رواه مسلم (٣٤٣).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٤) رواه البخاريُّ (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).
(٥) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

وكذلك من أوصافها: الختم والطَّبع، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. وقال تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النَّحل:١٠٨]. والختم والطَّبع: هو التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه؛ فلا يدخله شيء. فهما متقاربان في المعنى، لكن يختصُّ الطَّبع بأنَّه: ختم يصير سجيَّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق.

ومن أوصافها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام:٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]. وهي جمع كِنَان كعِنَان وأعنة، وأصله: مِنَ السَّتر والتَّغطية، وقد أقرُّوا على أنفسهم بذلك، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فُصِّلت:٥]. **فذكروا:**

* **غطاء القلب**، وهي: الأكنَّة.
* **وغطاء الأذن**، وهو: الوقر.
* **وغطاء العين**، وهو: الحجاب.

والمعنى: لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنى: إنَّا في ترك القبول منك بمنزلة مَن لا يفقه ما تقول ولا يراك، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**قُلُوبُنَا فِي**

أَكِنَّةٍ مِثْلِ الْكِنَانَةِ الَّتِي فِيهَا السِّهَامُ»(١). وقال مجاهد: «كَجُعْبَةِ النَّبْلِ»(٢). وقال مقاتل: «عَلَيْهَا غِطَاءٌ فَلَا نَفْقَهُ مَا تَقُولُ»(٣).

ومن أوصافها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف:١٠٠].

وهذا يتضمَّن معنيين:

أحدهما: أنَّ أعينهم في غطاء عمَّا تضمَّنه الذِّكر: من آيات الله، وأدلَّة توحيده، وعجائب قدرته.

والثَّاني: أنَّ أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن، وتدبُّره، والاهتداء به. وهذا الغطاء للقلب أوَّلا، ثمَّ يسري منه إلى العين.

ومنها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]. وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النِّساء:١٥٥]. أي: لا تفقه ولا تفهم ما تقول، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة ومجاهد: «عَلَى قُلُوبِنَا غِشَاوَةٌ فَهِيَ فِي أَوْعِيَةٍ فَلَا تَعِي وَلَا تَفْقَهُ مَا تَقُولُ»(٤). وكأنَّهم ادَّعوا: أنَّ قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان؛

(١) تفسير البسيط (١٩/ ٤١٩).
(٢) رواه عبد الرَّزَّاق في تفسيره (٢٦٨٨).
(٣) تفسير البسيط (١٩/ ٤١٩).
(٤) جامع البيان للطَّبريِّ (٢/ ٢٢٨)، الكشف والبيان للثَّعلبيِّ (٣/ ٤٤٠).

فأكذبهم الله، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فأخبر سبحانه: أنَّ الطَّبع والإبعاد عن توفيقه وفضله، إنَّما كان بكفرهم الَّذِي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطَّبع واللَّعنة، والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه، ثمَّ نأمرهم بالإيمان؛ وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطَّبع على القلوب والختم عليها.

ومنها: الحجاب، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلت:٥]. وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]. والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابًا؛ يحول بينهم وبين فهمه، وتدبُّره، والإيمان به. ويبيِّنه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ [الإسراء:٤٦]. وهذه الثَّلاثة هي الثَّلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلت:٥]. فأخبر سبحانه: أنَّ ذلك جعله؛ فالحجاب يمنع رؤية الحقِّ، والأكنَّة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

ومنها: الرَّان، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]. أي: غطَّى عليها بسبب كثرة الذُّنوب والمعاصي منهم؛ فأحاطت بقلوبهم. وهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها، قال مجاهد:

«هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى تُحِيطَ الذُّنُوبُ بِالْقَلْبِ وَتَغْشَاهُ فَيَمُوتَ الْقَلْبُ»(١).
وقال مقاتل: «غَمَرَتِ الْقُلُوبَ أَعْمَالُهُمُ الْخَبِيثَةُ»(٢).

وفي سنن النَّسائِيِّ والتِّرمذيِّ(٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». قال التِّرمذيُّ هذا حديث صحيح.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلَّمَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ»(٤)، فأخبر سبحانه: أنَّ ذنوبهم الَّتي اكتسبوها أوجبت لهم رَيْنًا على قلوبهم.

ومنها: الصَّمم والوقر، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمَّد:٢٣]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٤]. قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أَعْمَى اللهُ قُلُوبَهُمْ فَلَا

(١) تفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٥).
(٢) تفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٥).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٥٩٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٠٩٥٨)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٦٨٠٩).

يَفْقَهُونَ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، مِثْل: الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً»[١]. وقال مجاهد: «بَعِيدٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ»[٢]. والمعنى: أنَّهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أنَّ مَن دُعِي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

ومنها: البكم، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾. والبكم جمع أبكم، وهو الَّذِي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب، وبكم اللِّسان. كما أنَّ النُّطق نطقان: نطق القلب، ونطق اللِّسان. وأشدُّهما بكم القلب كما أنَّ عماه وصممه أشدُّ من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه: بأنَّهم لا يفقهون الحقَّ ولا تنطق به ألسنتهم.

والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه. وقد سُدَّت عليهم هذه الأبواب الثَّلاثة؛ فسُدَّ السَّمع بالصَّمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقد جمع سبحانه بين الثَّلاثة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]. فإذا أراد سبحانه هداية عبد؛ فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد ضلاله؛ أصمَّه وأعماه وأبكمه.

ومنها: الغشاوة، وهي: غطاء العين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣]. وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإنَّ ما في القلب يظهر على العين من الخير والشَّرِّ، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ بنحوه (٣/ ٣٠٩).
(٢) جامع البيان للطَّبريِّ (٢١/ ٤٨٥).

ومن أوصافها: الصَّدُّ عَنِ السَّبيل فلا تبصره، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر:٣٧]. أي: صُدَّ عَنِ الحقِّ والهدى، بسبب الباطل الَّذي زُيِّن له.

ومنها: الشَّدُّ على القلب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٨-٨٩]. فهذا الشَّدُّ على القلب، هو: الصَّدُّ والمنع؛ ولهذا قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يريد: امنعها، والمعنى: قسِّها واطبع عليها، حتَّى لا تلين ولا تنشرح للإيمان»[1].

ومنها: الصَّرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٧]. فأخبر سبحانه: عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عَنِ القرآن وتدبُّره؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا له فالمحلُّ غير صالح ولا قابل، فإنَّ صلاحيَّة المحلِّ بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيِّئة.

ومن أوصافها: إزاغتها عَنِ الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّفُّ:٥]. وقال عن عباده المؤمنين أنَّهم سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره نقلاً عن تفسير القرطبيِّ (٨/ ٣٧٤).

وأصل الزَّيغ: الميل، ومنه: زاغت الشَّمس إذا مالت، فإزاغة القلب إمالته، وزيغه ميله عَنِ الهدى إلى الضَّلال.

ومن أوصافها: إماتة القلوب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النَّمل:٨٠] وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠]. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]. فوصف الكافر بأنَّه ميِّت، وأنَّه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أنَّ القلب الحَيَّ هو الَّذي يعرف الحقَّ ويقبله ويُحبُّه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحقِّ والباطل ولا إرادة للحقِّ وكراهة للباطل، فصار بمنزلة الجسد الميِّت.

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدَّائمة في الدُّنيا والآخرة.

٣
القلوب آنية

عَنْ أَبِي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيِّ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**». رواه الطَّبرانِيُّ في المعجم الكبير، وفي مسند الشَّاميِّين[١].

قال الحافظ العراقيُّ: «رواه الطَّبرانِيُّ وإسناده جيِّد». وقال الهيثميُّ: «إسناد حسن».

لقد شبَّه ﷺ قلوب العباد بالآنية، وحال كلِّ إناء بما جعل فيه من خير أو شرٍّ، كما قيل: كلُّ إناء بالَّذِي فيه ينضح، فقلوب الأبرار تغلي بالخير والبرِّ، وقلوب الفُجَّار تغلي بالإثم والفجور، قال مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْأَبْرَارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ، وَاللهُ يَرَى هُمُومُهُمْ؛ فَانْظُرُوا هُمُومَكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللهِ». رواه أبو نعيم في الحلية[٢].

وقالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ آنِيَةً لَا يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا الصُّلْبَ الرَّقِيقَ الصَّافِيَ، قَالَ: الصُّلْبُ فِي طَاعَةِ اللهِ، الرَّقِيقُ عِنْدَ ذِكْرِ اللهِ،

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (٨٤٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢١٦٣).
(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٠).

الصَّافِي النَّقِيُّ مِنَ الدَّرَنِ». رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف[(١)].

وقوله في الحديث: «**وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**»؛ لأنَّ القلب إذا لان ورقَّ صار كالمرآة الصَّافية، فقبل الخير ووعاه بما رزق من الصَّفاء والنَّقاء بخلاف القلوب غير النَّقيَّة؛ فإنَّه لا ينفذ إليها الحقُّ ولا تقبله.

ثمَّ إنَّ حركة اللِّسان تدلُّ على ما في القلب من خير أو شرٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمَّد:٣٠]، أي: لا بُدَّ أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبيَّن بفلتات ألسنتهم، فإنَّ الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشَّرِّ.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ فِي الصُّدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا وَمَغَارِفُهَا أَلْسِنَتُهَا؛ فَانْتَظِرِ الرَّجُلَ حَتَّى يَتَكَلَّمَ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ بَيْنِ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَعَذْبٍ وَأُجَاجٍ؛ يخْبِرُكَ عَنْ طَعْمِ قَلْبِهِ اغْتِرَافُ لِسَانِهِ». رواه أبو نعيم في الحلية[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في كتابه (الدَّاء والدَّواء)-: «أي: كما تطعم بلسانك طعمَ ما في القدور من الطَّعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرَّجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

ورقَّة القلب وليونته تعدُّ علامة دقيقة على صحَّة القلب وسلامته غير أنَّها خفيَّة لا ترى، فلا يراها إلَّا العليمُ بذات الصُّدور سبحانه، إلَّا أنَّ ثمَّة علامات

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٥٦٨٧).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

ظاهرة تدلُّ على صحَّة القلب، ولا يلزم من وجودها أو علم العبد بها من نفسه أو من غيره، أن يُزَكِّي نفسه أو غيره، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]، لكنَّها علامات وشواهد ودلائل على صحَّة القلب، فإذا وجدت في العبد فليحمد الله، وليجاهد نفسه على المحافظة عليها، وليسأل ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثَّبات»[(١)].

وأبرز هذه العلامات الظَّاهرة فيما ذكر العلَّامة ابن قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه: (إغاثة اللَّهفان)[(٢)] **ستُّ علامات:**

الأولى: ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمواظبة على ذكره، والإكثار من ذلك، وألَّا يفتر من ذكر الله ولا يسأم ولا يملُّ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، قال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويدخل في ذكر الله سبحانه: تعلُّم العلم وتعليمه، والتَّفقُّه في دين الله؛ فإنَّ هذا من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن الإقامة لذكره، كما في الحديث: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا**»، قيل: وما رياض الجنَّة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[(٣)]، والمراد بحلق الذِّكر أي: مجالس العلم، الَّتي يُبَيَّن فيها الحلال والحرام، وتُوَضَّح فيها الأحكام، ويُعَرَّف النَّاس بربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبأسمائه وصفاته، وبأوامره ونواهيه.

(١) الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص١٥٩).
(٢) (١/ ١١٧).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

العلامة الثَّانية: أن يألم عند فوات الوِرد، كأن يكون له -مثلًا- وِرد من اللَّيل يُصَلِّي، أو حزب من القرآن، أو نحو ذلك، فإذا فاته يألم لفواته أعظم من تألُّم الحريص على المال بفواته للرِّبح في ماله؛ لأنَّ الَّذِي هو فيه أعظم، والرِّبح الَّذِي فيه أكبر.

العلامة الثَّالثة: شحُّ صاحبه بالوقت، لحرصه الشَّديد عليه، من أن يضيع، أو أن يذهب سُدًى بغير فائدة؛ لأنَّ جميع المصالح إنَّما تنشأ من حفظ الوقت، فمتى أضاع الإنسان وقته، ضاعت مصالحه، وما فات من الوقت لا يستدرك، ولهذا: جاءت السُّنَّة بالحثِّ على اغتنام الوقت، ولا سِيَّما وقت الشَّباب، والتَّحذير من تضييعه، وعلامة المقت، كما قيل تضييع الوقت؛ لأنَّ المصالح لا تتحقَّق إلَّا بحفظ الإنسان لوقته ورعايته له، وعنايته به.

فمن علامات صحَّة قلب المرء شحُّه بوقته أن يذهب ضائعًا في الأمور الَّتِي لا فائدة فيها، فضلًا عن الأمور المُحَرَّمات، من غيبة، ونميمة، وسخرية، واستهزاء، وغير ذلك.

العلامة الرَّابعة: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله، فيجعل همَّه لله، ويترك ما سوى ذلك، وقد جاء في المسند وغيره، عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(١).

العلامة الخامسة: من علامات صحَّة القلب؛ الاهتمام بتصحيح الأقوال

(١) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٤٠٤).

والأعمال والنِّيَّات على الإخلاص، بحيث تكون كلُّها خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يبتغي بها إلَّا وجه الله.

العلامة السَّادسة: تعظيم الصَّلاة، والمعرفة بقدرها، والإدراك لمكانتها، والرِّعاية لها، والأنس بمجيئها، ودخول وقتها، وحسن إقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، وإذا دخل في الصَّلاة ووجد فيها راحته ونعيمه وقرَّة عينه وسرور قلبه. وفي الحديث: يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ**»(١)، ويقول: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢)، فيدخل فيها بقلب منيب خاضع خاشع له سبحانه.

وجميع أمور الدُّنيا وشواغلها وهمومها وغمومها كلُّها تنزاح عنه، مقبلًا على صلاته وعبادة ربِّه ومولاه مطمئنًا خاشعًا.

وفرق بين مَن يُصَلِّي وهو يوافي في صلاته الرَّاحة وسرور القلب، وقُرَّة العين، ونعيم البال، وبين مَن يُصَلِّي وهو قلق ومتضجِّر ويريد الرَّاحة والخلاص من هذه الصَّلاة.

ولهذا: الأوَّل يشتدُّ عليه الخروج من صلاته، إذا انتهت الصَّلاة اشتدَّ عليه الأمر؛ لأنَّه خرج من لذَّة وقُرَّة عين، وراحة بال، فيشتدُّ عليه الخروج منها، ويتمنَّى أن لو طالت أيضًا، بخلاف الآخر: إذا انتهت الصَّلاة فرح بالخروج منها، والخلاص من هذا الحمل الثَّقيل الَّذِي على كاهله.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣١٢٤).

وتبقى الصَّلاة ميزانًا يوميًّا يزن به العبد نفسه، وإذا حضر وقت الصَّلاة ظهر للعبد من نفسه حال قلبه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أنَّ ما تقرَّ به العين أعلى من مجرَّد ما يحبُّه، فالصَّلاة قُرَّة عيون المُحِبِّين في هذه الدُّنيا؛ لما فيها من مناجاة مَن لا تقرُّ العيون ولا تطمئنُّ القلوب ولا تسكن النُّفوس إلَّا إليه، والتَّنعُّم بذكره والتَّذلل والخضوع له والقرب منه، ولا سِيَّما في حال السُّجود وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربِّه فيها، ومن هذا قول النَّبِيِّ: يا بلال أرحنا بالصَّلاة فأعلم بذلك أنَّ راحته في الصَّلاة، كما أخبر أنَّ قُرَّة عينه فيها، فأين هذا من قول القائل نُصَلِّي ونستريح من الصَّلاة؟!

فالمُحِبُّ راحته وقُرَّة عينه في الصَّلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك بل الصَّلاة كبيرة شاقَّة عليه، إذا قام فيها كأنَّه على الجمر حتَّى يتخلَّص منها وأحبُّ الصَّلاة إليه أعجلها وأسرعها؛ فإنَّه ليس له قُرَّة عين فيها ولا لقلبه راحة بها، والعبد إذا قرَّت عينه بشيء واستراح قلبه به فأشقُّ ما عليه مفارقته، والمتكلِّف الفارغ القلب من الله والدَّار الآخرة المبتلى بمحبَّة الدُّنيا أشقُّ ما عليه الصَّلاة وأكره ما إليه طولها مع تفرُّغه وصحَّته وعدم اشتغاله، **وممَّا ينبغي أن يعلم: أنَّ الصَّلاة الَّتِي تقرُّ بها العين ويستريح بها القلب هي الَّتِي تجمع ستَّة مشاهد:**

المشهد الأوَّل الإخلاص، وهو أن يكون الحامل عليها والدَّاعي إليها رغبة العبد في الله ومحبَّته له وطلب مرضاته والقرب منه والتَّودُّد إليه وامتثال أمره،

بحيث لا يكون الباعث له عليها حظًّا من حظوظ الدُّنيا البتَّة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربِّه الأعلى محبَّةً له وخوفًا من عذابه ورجاءً لمغفرته وثوابه.

المشهد الثَّاني مشهد الصِّدق والنُّصح، وهو أن يُفَرِّغ قلبه لله فيها، ويستفرغ جهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهرًا وباطنًا؛ فإنَّ الصَّلاة لها ظاهر وباطن: فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها الخشوع والمراقبة وتفريغ القلب لله والإقبال بكُلِّيَّته على الله فيها؛ بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره، فهذا بمنزلة الرُّوح لها والأفعال بمنزلة البدن فإذا خلت من الرُّوح كانت كبدن لا روح فيه.

المشهد الثَّالث مشهد المتابعة والاقتداء، وهو أن يحرص كلَّ الحرص على الاقتداء في صلاته بالنَّبِيِّ، ويُصَلِّي كما كان يُصَلِّي ويعرض عمَّا أحدث النَّاس في الصَّلاة من الزِّيادة والنُّقصان والأوضاع الَّتِي لم ينقل عن رسول الله شيء منها ولا عن أحد من أصحابه.

المشهد الرَّابع مشهد الإحسان وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنَّه يراه، وهذا المشهد إنَّما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتَّى كأنَّه يرى الله سبحانه فوق سمواته مستويًا على عرشه يتكلَّم بأمره ونهيه ويُدَبِّر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كلَّه بقلبه ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا، يحبُّ ويبغض ويرضى ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء

من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور. ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلِّها؛ فإنَّه يوجب الحياء والإجلال والتَّعظيم والخشية والمحبَّة والإنابة والتَّوكُّل والخضوع لله سبحانه والذُّلَّ له ويقطع الوسواس وحديث النَّفس ويجمع القلب والهمَّ على الله.

المشهد الخامس مشهد المنَّة، وهو أن يشهد أنَّ المنَّة لله سبحانه كونه أقامه في هذا المقام وأَهَّلَه له ووفَّقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]. فالله سبحانه هو الَّذي جعل المسلم مسلمًا والمُصَلِّي مُصَلِّيًا، كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨]. وقال ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠]. فالمنَّة لله وحده في أن جعل عبده قائمًا بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

المشهد السَّادس مشهد التَّقصير، وأنَّ العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه؛ فهو مقصِّر، وحقُّ الله سبحانه عليه أعظم، والَّذي ينبغي له أن يقابل به من الطَّاعة والعبوديَّة فوق ذلك بكثير، وأنَّ عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبوديَّة ما يليق بها»[١].

أعاننا الله أجمعين على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأصلح لنا شأننا كلَّه.

---

(١) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (٣٤).

٤
محركات القلوب

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ**». قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ»(١). متَّفق عليه.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قَالَ: أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(٢). رواه التِّرمذيُّ والنَّسائِيُّ وابن ماجه.

جمع هذان الحديثان ثلاثَ خصال عظيمة من خصال القلوب هي خير

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١٠٨٣٤)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

عدَّةٍ ومُدَّخرٍ للقاء الله؛ الحبَّ، والرَّجاء، والخوف؛ حبَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ورجاءه، والخوف منه سبحانه، ولا بُدَّ منها في الطَّاعات كلِّها والعبادات جميعها، قال الله جَلَّ وَعَلَا في شأن الحبِّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا في شأن الرَّجاء: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا في شأن الخوف: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وجمع جَلَّ وَعَلَا هذه الثَّلاثةَ في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء:٥٧].

ومقامُ الحبِّ من العبادة مقام الرُّوح من الجسد، وهو الَّذِي يهيِّج النَّفس ويُحَرِّكها إلى القيام بالعبادة وطاعة المحبوب سبحانه والبعد عن مناهيه، فالحبُّ أساسٌ للعبادة بل هو روح لها لا قيام للعبادة إلَّا عليه. والرَّجاء قائدٌ للنَّفس، لا سير لها في الطَّريق ولا استقامة لها عليه إلَّا به، والخوف سائق للنَّفس وحاجز لها عن الحرام والآثام.

عن وهب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «النَّفس كنفوس الدَّوابِّ، والإيمان قائد، والعمل سائق، والنَّفس حرون، فإن فتر قائدها حرنت على سائقها، وإن فتر سائقها ضلَّت عن الطَّريق»(١). رواه الآجرِّيُّ في أدب النُّفوس.

شبهت النَّفس بالدَّابَّة الحرون لكثرة تقلُّبها وعدم تحكُّم الإنسان بها، إلَّا إذا أعانه الله عليها بالعلم والعمل، قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ العلم قائد والعمل

(١) رواه الآجُرِّيُّ في أدب النُّفوس (١٣).

سائق، والنَّفس حرون؛ فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلم حار السَّالك ولم يدرِ أين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حار السَّالك عن الطَّريق فسلك غيره مع علمه أنَّه تركه؛ فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره، وهذا حائر عن الطَّريق زائغ عنه مع علمه به»[(١)].

فالرَّجاء قائدٌ لها إلى كُلِّ فضيلة، يحدو إلى الطَّاعات، ويأخذ بالعبد مأخذ الجدِّ في العبادات، والخوف سائقٌ وزاجر للعبد للمضيِّ في الطَّاعة والبعد عن الحرام والإثم، والرَّجاء إنَّمَا يكون نافعًا إذا كان قائدًا للطَّاعات، والخوف إنَّمَا يكون نافعًا إذا كان حاجزًا عن المُحَرَّمات والآثام ولا يُغلَّب رجاءٌ على خوف ولا خوفٌ على رجاء؛ بل يؤتى بهما جميعًا فإنَّهما بمثابة الجناحين للطَّائر، فمَن غلَّب الرَّجاء على الخوف أمِن من مكر الله، ومن غلَّب الخوف على الرَّجاء قنِط من رحمة الله، وقد ثبت ... عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رجلًا سأل النَّبِيَّ ﷺ عن الكبائر قال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ**»[(٢)].

فالأمن من مكر الله يتطرَّق إلى النَّفس عندما يغلِّب العبد الرَّجاء، والقنوط من رحمة الله، يتطَرَّق إليها عندما يغلِّب العبد الخوف، والواجب على العبد أن يأتي بالرَّجاء والخوف معًا بتوازن.

فما أحوج العبد إلى العناية بهذه الأركان الثَّلاثة للتَّعبُّد؛ محبَّة الله، ورجائه،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٠/ ٥٤٤).
(٢) رواه ابن أبي حاتم في التَّفسير (٥٢٠١)، والبزَّار (١٠٦ كشف).

والخوف منه سبحانه، لتستقيم له طاعة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكُلُّ تفريطٍ يقع في النَّاس غُلُوًّا أو تقصيرًا راجعٌ إلى الإخلال بأحد هذه الأصول الثَّلاثة.

وتُعَدُّ هذه الثَّلاثة مُحَرِّكات نافعةً عظيمة النَّفع للقلوب، إذا وجدت في القلب حَرَّكته وسار سيرًا حثيثًا إلى الله طلبًا لرضاه وبُعدًا عن مساخطه سبحانه، وقلَّت آفاته أو ذهبت.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا بُدَّ من التَّنبيه على قاعدة تُحَرِّك القلوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فتعتصم به؛ فتقلُّ آفاتها أو تذهب عنها بالكُلِّيَّة بحول الله وقوَّته. فنقول: اعلم أنَّ مُحَرِّكات القلوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: المحبَّة، والخوف، والرَّجاء. وأقواها المحبَّة وهي مقصودة تراد لذاتها لأَنَّهَا تراد في الدُّنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنَّه يزول في الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، والخوف المقصود منه الزَّجر والمنع من الخروج عن الطَّريق، فالمحبَّة تلقي العبد في السَّير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوَّتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرَّجاء يقوده؛ فهذا أصل عظيم يجب على كُلِّ عبد أن يتنبَّه له؛ فإنَّه لا تحصل له العبوديَّة بدونه وكُلُّ أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره. فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبَّة تبعثه على طلب محبوبه، فأيُّ شيء يُحَرِّك القلوب؟ **قلنا: يُحَرِّكها شيئان:**

أحدهما: كثرة الذِّكر للمحبوب؛ لأنَّ كثرة ذكره تُعَلِّق القلوب به، ولهذا

أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالذِّكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] الآية.

والثَّاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النَّحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النَّحل:١٨]. فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السَّماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النِّعم الباطنة من الإيمان وغيره؛ فلا بُدَّ أن يثير ذلك عنده باعثًا، وكذلك الخوف تُحَرِّكه مطالعة آيات الوعيد والزَّجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرَّجاء يُحَرِّكه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرَّجاء»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كانت المحبَّة أصل كُلِّ عمل دينيٍّ فالخوف والرَّجاء وغيرهما يستلزم المحبَّة ويرجع إليها؛ فإنَّ الرَّاجي الطَّامع إنَّما يطمع فيما يحبُّه لا فيما يبغضه والخائف يفرُّ من الخوف لينال المحبوب، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء:٥٧] الآية، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:٢١٨]. ورحمته: اسم جامع لكُلِّ خير، وعذابه: اسم لكُلِّ شرٍّ، ودار الرَّحمة الخالصة هي الجنَّة، ودار العذاب الخالص هي النَّار، وأمَّا الدُّنيا فدار استدارج»(٢).

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١/ ٩٥ - ٩٦).
(٢) التُّحفة العراقيَّة لابن تيميَّة (ص٦٦).

وهذه الثَّلاثة فرائض افترضها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على عباده لا بُدَّ أن تكون في قلوبهم، وقد سمَّاها أهل العلم: «أركان التَّعبُّد القلبيَّة»؛ لأنَّها أسس يقوم عليها الدِّين ينبغي استصحابها في كُلِّ طاعة يُتَقَرَّب بها إلى الله سبحانه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد علم أنَّ العبادة إِنَّمَا تبنى عَلَى ثلاثة أصول: الخوف، والرَّجاء، والمحبَّة؛ وكلٌّ منها فرض لازم، والجمع بين الثَّلاثة حتم واجب؛ فلهذا كان السَّلف يذُمُّون مَن تعبَّد بواحد منها وأهمل الآخرين؛ فإنَّ بدع الخوارج ومن أشبههم إِنَّمَا حدثت من التَّشديد في الخوف والإعراض عن المحبَّة والرَّجاء، وبدع المرجئة نشأت من التَّعلُّق بالرَّجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممَّن ينسب إِلَى التَّعبُّد، نشأت من إفراط المحبَّة والإعراض عن الخوف والرَّجاء»[(١)].

وقد اجتمعت هذه الأركان الثَّلاثة في فاتحة الكتاب، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]؛ أمَّا المحبَّة ففي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الحمد هو الثَّناء على الله جَلَّوَعَلَا مع حبِّه، والثَّناء إذا كان عن غير حبٍّ يُسمَّى مدحًا ولا يُسَمَّى حمدًا، والله جَلَّوَعَلَا يُحمد لنعَمه الَّتِي لا تعدُّ ولا تحصى، ويُحمد جَلَّوَعَلَا على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة وجلاله وجماله وكبريائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأمَّا الرَّجاء ففي قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فإنَّ المسلم إذا قرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (٣/ ٢٩٢) من مجموع رسائل الإمام ابن رجب.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ تحرَّك في قلبه الرَّجاء، وإذا قرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، تحرَّك في قلبه الخوف، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، أي: أعبدك يا ربِّ مخلصًا لك العبادة بمحبَّتك ورجائك وخوفك.

وقد جاءت هذه الأركان الثَّلاثة مبيَّنة مفصَّلة موضَّحة في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ففي القرآن آيات فيها ذِكر المحبَّة، والتَّرغيبُ فيها، وبيان آثارها وثمارها وعوائدها الحميدة، ومكانتها من الدِّين، وفضلِ مَن قامت في قلوبهم: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وبُيِّنت علاماتها ودلائلها وشواهدها، وبُيِّنت أيضًا الأمور الجالبة لها والَّتِي تُنَمِّي المحبَّة وتقوِّيها في قلب المسلم.

وفيه آيات ذكر فيها الرَّجاء وبيان مقامه العظيم، وذكر الأمور الَّتِي تُحَرِّك الرَّجاء في القلب من النَّعيم والثَّواب والرَّحمة والمَنِّ والعطاء، وعموم آيات الوعد والثَّواب وهي كثيرة في كتاب الله تُحَرِّك في قلب المسلم الرَّجاء. وكذلك أسماء الله الدَّالَّة على المغفرة والرَّحمة والإنعام والإكرام والفضل، والتَّوبة ونحوها؛ تُحَرِّك في القلب الرَّجاء.

وفيه آيات كثيرة فيها بيان الخوف والدَّعوة إلى تحقيقه، وأن يكون قلب المسلم خائفًا من الله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فجعل ذلك شرطًا في الإيمان وأساسًا في الدِّين، وعمومُ آيات الوعيد في ذِكر العقوبة

والنَّار والبطش والانتقام وغير ذلك، كُلُّها تُحَرِّك في قلب الإنسان الخوف من الله والخوف من عذابه سبحانه.

لقد خوَّفنا الله من سخطه وعقابه والنَّار فوجب علينا أن نخاف، ورغَّبنا في الجنَّة وما فيها من كريم النُّزل وطيب النَّعيم فوجب علينا أن نقبل ونرغب بقلوب عامرة بحبِّ الكريم المنعم سبحانه.

ويُشَبِّه أهل العلم هذه الأصول وحاجة العبد إليها في سيره إلى الله بالطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والرَّجاء والخوف بمثابة الجناحين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرَّأس والجناحان فالطَّير جيِّد الطَّيران، ومتى قطع الرَّأس مات الطَّائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكُلِّ صائد وكاسر، ولكن السَّلف استحبُّوا أن يُقَوَّى في الصِّحَّة جناح الخوف على جناح الرَّجاء، وعند الخروج من الدُّنيا يُقَوَّى جناح الرَّجاء على جناح الخوف»[(١)].

عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لَا يَرْجُو عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذنبه»[(٢)]. رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم.

وهذه الكلمة -كما قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «من جواهر الكلام»[(٣)]، ومن

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ١٨٨).
(٢) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (٣٠٩).
(٣) جامع المسائل (١/ ١٦٩).

أحسنه وأبلغه وأتمِّه، فمَن رجا نصرًا أو رزقًا من غير الله خذله الله، والرَّجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشَّرِّ، والعبد إنَّمَا يصيبه الشَّرُّ بسبب ذنوبه، ولا يجتمع هذان الوصفان إلَّا لعبد مُوَفَّق لنيل ما يرجو من الخير وللأمنة ممَّا يحذر من الشَّرِّ.

جعلنا الله بمنِّه من المُحِبِّين الصَّادقين الرَّاجين رحمته الخائفين من عذابه.

٥
فقر القلوب

روى ابن ماجه وغيره عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ فَقَالَ: «**آلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا، حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيهْ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ**»[(١)].

يبقى الفقر هاجسًا مؤرِّقًا وأمرًا مُقلِقًا، لاسيَّما عندما يُبتلى العباد بابتلاءاتٍ يكون فيها نقصٌ في الأموال والأرزاق والثِّمار، ففي ظلِّ مثل هذه الابتلاءات يذكر النَّاس الفقر ويتباحثون كثيرًا في أسباب علاجه وتخطِّي أزماته وتجاوز مشكلاته، ولكنَّ الأمر كما ذكر نبيُّنا في هذا الحديث العظيم: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ**» أي: أنَّ ديننا المبارك دينٌ عظيم فيه حلٌّ لجميع المشكلات وتجاوزٌ لجميع الأزمات وتخطٍّ لكُلِّ المحن، فهو دينٌ عظيم مبارك؛ فمَن وفَّقه الله للأخذ بآداب الدِّين وهداياته وتوجيهاته وإرشاداته هُدِي إلى صراطٍ مستقيم في أيِّ محنة كانت أو أيِّ بليَّة نزلت، فلا بُدَّ من فزعٍ إلى دين الله عَزَّ وَجَلَّ في المشكلات كلِّها والمصائب جميعها.

---

(١) رواه ابن ماجه (٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وإذا كان التَّخوُّف لدى النَّاس من الفقر -الَّذِي هو قلَّة ذات اليد- يشتدُّ ويزداد في بعض الظُّروف والأحوال إلَّا أنَّ نوعًا من الفقر آخر ينبغي أن تشتدَّ العناية به بشكل أعظم وأكبر؛ روى ابن حبَّان في صحيحه عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَرَى كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَى؟**»، قُلْتُ: «**نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ**»، قَالَ: «**فَتَرَى قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الْفَقْرُ؟**»، قُلْتُ: «**نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ**» -وهذا هو المفهوم السَّائد للفقر لدى جميع النَّاس- فقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**»(١).

نعم، مَن كان غنيَّ القلب فإنَّه لا يضرُّه شيء وإن قلَّت ذات يده، بل لا يزال راضيًا قنوعًا بما قسَم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له، ومَن كان فقير القلب وإن أوتي من المال النَّصيب الأوفر؛ فإنَّه لا يزال يرى حظَّه قليلًا ونصيبه مبخوسًا، ويطلب المزيد؛ كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**». رواه البخاريُّ(٢)، ورواه أحمد وزاد: «**لَا يَبْتَغِي إِلَيْهِمَا ثَالِثًا**»(٣). أي: وهلُمَّ جرًّا إلى ما لا نهاية له، هذا طبع في الإنسان إلَّا مَن رحم الله. وقوله: «**وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ**» أي: لا يزال حريصًا على جمع الدُّنيا حتَّى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره، وقد حثَّ ﷺ في تمام الحديث على

---

(١) رواه النَّسائِيُّ في الكبرى (١١٧٨٥)، وابن حبَّان في صحيحه (٦٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٤٣٩).

(٣) رواه أحمد (١٣٥٥٢).

التَّوبة؛ لأنَّ الغالب أنَّ الَّذِي عنده طمع شديد في المال قد لا يحترز من بيوع مُحَرَّمة، وأنَّ دواء ذلك التَّوبة إلى الله.

فعاد الأمر في هذه المشكلة وفي كلِّ مشكلة إلى القلب؛ إصلاحًا له وإقامةً له على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إيمانًا وتوكُّلًا ورضًى وقناعةً وغير ذلك من معاني الإيمان العظيمة وهداياته الجليلة، والتَّوبة النَّصوح من كلِّ تفريط بدر أو تقصير حصل.

ومَن يتأمَّل هدايات هذا الدِّين في علاج هذا المؤرق -أعني: الفقر- ومشكلتَه الَّتِي تتأزَّم بها كثيرٌ من القلوب يرى فيه هداياتٍ عظيمة وتوجيهاتٍ سديدة فيها صلاحٌ للعبد، ليس في أمر دنياه فقط بل في صلاح الدِّين والدُّنيا والآخرة، كما جُمِعَتْ هذه الثَّلاثة في الدُّعاء العظيم المبارك: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**». رواه مسلم(١).

وهنا تتأكَّد حاجة العبد إلى اليقين بالله، وأنَّ الأمر كلَّه بيد الله، وأنَّ الرزَّاق جلَّ في علاه في السَّماء؛ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذَّاريات:٢٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ [فاطر:٣]، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرُّوم:٣٧]، ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الزُّمر:٥٢]، ﴿قُلۡ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ:٣٦]، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [سبأ:٣٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فربُّنا جلَّ في علاه هو القابض الباسط، الخافض الرَّافع، المعطي المانع، المعِزُّ المذلُّ، الَّذي بيده الأمر لا شريك له؛ فأساس الأمور وقاعدة صلاحها: إيمانٌ صادقٌ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحُسن توكُّل عليه جلَّ في علاه، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. لا بُدَّ من تحقيق هذا الإيمان وإقامة هذا الأصل العظيم في القلوب حتَّى يكون ذُلُّ العبد وفزعه والتجاؤه ورِقُّه لربِّه جلَّ في علاه، وحينئذ لا يلتفت إلى مخلوق ولا يذلُّ له لنيل شيء من حطام الدُّنيا، وإنَّما يكون ذلُّه وخضوعه وانكساره لمولاه وسيِّده جلَّ في علاه.

إنَّ مَن يتوكَّل على الله حقًّا فتح الله له من أبواب الرِّزق والتَّيسير والتَّوفيق من حيث يحتسب العبد ومن حيث لا يحتسب، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطَّلاق:٢-٣]، يقول نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1].

وفي هذا الباب العظيم حثَّ الإسلام على العمل ورغَّب فيه وحضَّ عليه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فينبغي أن يكون المرء في هذا الباب همَّامًا نشيطًا بعيدًا عن التَّواني والعجز والكسل، حتَّى وإن لم يكن عنده شيءٌ يتحرَّك به من المال، فإنَّ القليل مع الهمَّة وحُسن التَّوكُّل يكون كثيرًا، وبيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ المسألة لا تحلُّ للرَّجل القويِّ، فقد جاءه رجلان من الأنصار يسألانه من الصَّدقة فرفع بصره إليهما فإذا هما جَلْدَيْن -أي قويَّين-؛ قال: «**إِنَّ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا، وَلَا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ**»(١)، أي: أن يكتسب ببدنه.

وحثَّ الإسلام على العمل والبُعد عن التَّقاعس والكسل مع الثِّقة بالله وحُسن الالتجاء إليه جلَّ في علاه. وأرشد أهل الفقر وقلَّة ذات اليد إلى الاقتصاد في المعيشة والقناعة بما آتاه الله جَلَّ وَعَلَا عبده، وعدم التطلُّع إلى ما في أيدي مَن كانوا أكثر منهم مالًا، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء:٣٢]، وجاء أيضًا بالتَّعوُّذ بالله من الفقر، فإنَّه لا يعيذ منه إلَّا الله، حيث صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ**»(٢)، وكان يقول إذا أصبح ثلاثًا وإذا أمسى ثلاثًا: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَمِنَ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(٣).

ثمَّ إنَّ كثيرًا من النَّاس يظنُّ أنَّ مَن وُسِّع عليه في المال وكثُر الرِّزق في يده أنَّ هذا إكرامٌ من الله له، ويظنُّون في الوقت نفسه أنَّ مَن ضُيِّق عليه في المال

(١) رواه أبو داود (١٦٣٣)، والنَّسائِيُّ (٢٥٩٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه أبو داود (١٥٤٤)، والنَّسائِيُّ (٥٤٦١)، وابن ماجه (٣٨٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وقال الألبانِيُّ: «حسن الإسناد».

وقُتِّر عليه فيه أنَّ هذا من إهانة الله له؛ وهذا ظنٌّ خاطيء سائد عند عدد ليس بالقليل من النَّاس، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ هكذا يظنُّون، قال الله: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧]. أي: ليس الأمر كما يظنُّ هؤلاء، بل إنَّ مَن وسَّع الله عليه في المال أو ضيَّق عليه في المال كلٌّ منهما مبتلى، هذا مبتلى بغناه، وهذا مبتلى بفقره، والحياة الدُّنيا ميدان ابتلاء وامتحان، فالغنى فتنة والفقر فتنة، ولهذا جاء في السُّنَّة الصَّحيحة التَّعوُّذ منهما، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ**»[(١)]، فهذا فتنة وهذا فتنة، والمؤمن الموفَّق فائز في كِلا الامتحانين كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(٢)]، فالمؤمن في سرَّائه فائزٌ بثواب الشَّاكرين، وفي ضرَّائه فائز بثواب الصَّابرين.

هذا وإنَّ من أعظم خصال المؤمن تحقيقَ عبوديَّةِ الافتقارِ إلى الله والاضطرارِ إليه فهي روحُ العبادة ولُبُّها، بأن يعلم علمَ يقينٍ أنَّه مفتقرٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، محتاجٌ إليه، لا يستغني عنه طرفة عين، وذلك أنَّ الإنسان بل وجميعَ المخلوقات عبادٌ لله تعالى، فقراءُ إليه، مماليكُ له، وهو ربُّهم ومليكُهم وإلَهُهم، لا إله لهم سواه، فالمخلوقُ ليس له من نفسه شيءٌ أصلًا، بل نفسُه وصفاتُه وأفعالُه وما ينتفع به أو يستحقُّه وغيرُ ذلك إنَّما هو من خلق الله، والله عَزَّوَجَلَّ ربُّ ذلك

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٧٦).
(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

كلِّه، ومليكُه وبارئُه وخالقُه ومصوِّرُه، ومدبِّرُ شؤونه، فما شاء الله كان وما لَم يشأ لَم يكن، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر:٢].

فالمخلوقُ فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إليه، من كلِّ وجه، يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فليس المخلوق مستغنيًا بنفسه ولا بغير ربِّه سبحانه.

وقد جاء في الحديث القُدُسيِّ أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرِ لَكُمْ...**»(١)، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا يقتضي أنَّ جميع الخلق مُفتَقِرون إلى الله تعالى في جلب مصالِحِهم، ودفع مضارِّهم، في أمور دينهم ودنياهم، وأنَّ العبادَ لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كلِّه، وأنَّ مَن لَم يتفضَّل الله عليه بالهدى والرِّزق؛ فإنَّه يحرمهما في الدُّنيا، ومَن لَم يتفضَّل الله عليه بمغفرة ذنوبه أَوْبَقته خطاياه في الآخرة»(٢).

فالأمورُ كلُّها بيده، الهدايةُ والعافيةُ والرِّزقُ والصِّحَّةُ وغيرُ ذلك، وما شاء سبحانه من ذلك كان، وما لَم يشأ لَم يكن، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٦).

كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النَّحل:٤٠]، فعطاؤُه سبحانه كلام، وعذابُه كلام، فإذا أراد شيئًا من عطاء أو عذاب أو غير ذلك؛ قال له كن فيكون، فكيف يُلجأ إلى سواه، أو يُخضع لمن دونه، أو يُطلب ويدعى غيره؟

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧]، «فالعبد لا بدَّ له من رزقٍ، وهو محتاجٌ إلى ذلك، فإذا طلب رزقَه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا له، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا له»(١).

إنَّ فقرَ المخلوق واحتياجَه لربِّه أمرٌ ذاتِيٌّ له، لا وجود له بدونه، لكنَّ المخلوقين يتفاوتون في إدراك ذلك الافتقار أو العزوب عنه، والعبد فقيرٌ إلى الله من جهتين، من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة، كما قال الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنَّه معبودُه الَّذِي يحبُّه حبَّ إجلال وتعظيم، وقلبُه «لا يصلح ولا يفلح، ولا يُسرُّ ولا يلتذُّ، ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئنُّ إلَّا بعبادة ربِّه والإنابة إليه، ولو حصل له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات لَم يطمئنَّ ولم يسكن، إذ فيه فقرٌ ذاتِيٌّ إلى ربِّه من حيث هو معبودُه ومحبوبُه ومطلوبُه، وبهذا يحصل له الفرحُ والسُّرورُ واللَّذَّةُ والنِّعمةُ والسُّكونُ والطُّمأنينة، والعبد يفتقر إلى الله من جهة استعانته به للاستسلام لأمره، والانقياد لحكمه، والخضوع لشرعِه؛ إذ لا يقدر على

(١) انظر: العبوديَّة لابن تيميَّة (ص٨٢)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٢).

تحصيل شيء من ذلك والقيام به إلَّا إذا أعانه الله»[١].

نسأل الله أن يوفِّقنا لتحقيق ذلك وحسن القيام به، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

(١) انظر: العبوديَّة لابن تيميَّة (ص٩٧)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٤).

٦
تقوى القلوب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»(١). رواه مسلم.

أفاد هذا الحديث: أنَّ محلَّ التَّقوى ومَنْبَعَها هو القلب، فمتى عمر القلب بها؛ خضعت الجوارح وانقادت؛ لأنَّها تبع له.

وقد أضاف الله التَّقوى إلى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجُّ:٣٢]. وإنَّما أضاف التَّقوى إلى القلوب؛ لأنَّ حقيقة التَّقوى تقوى القلوب. **وتقييد التَّقوى بالقلوب فيه إشارة إلى أنَّ التَّقوى قسمان:**

※ **تقوى القلوب**، والمراد بها: التَّقوى الحقيقيَّة الصَّادقة الَّتي يتَّصف بها المؤمن الصَّادق.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

* **وتقوى الأعضاء**، والمراد بها: التَّقوى الصُّوريَّة الكاذبة الَّتِي يتَّصف بها المنافق، الَّذِي كثيرًا ما تخشع أعضاؤه، وقلبه ساهٍ لاهٍ.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]؛ لأنَّ التَّقوى، محلُّها القلب، والله هو المُطَّلع عليه، المجازي على ما فيه من بِرٍّ وتقوى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦]. فخصَّ المُتَّقين بالانتفاع؛ لأنَّ التَّقوى القائمة في قلوبهم تحدث فيها الرَّغبة في الخير، والرَّهبة مِنَ الشَّرِّ، النَّاشِئَتَيْنِ عَنِ الأدلَّة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب:٣٢]. أي: مرض شهوة الزِّنا، فإنَّه مفتون، يحرِّكه إلى المعصية أدنى شهوة؛ لأنَّ قلبه غير صحيح، فأقلُّ سبب يدعوه إلى الحرام يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، بخلاف القلب الصَّحيح المُتَّقي لله؛ فإنَّه لمَّا كان ليس فيه شهوة لِمَا حرَّم اللّه، فإنَّه لا تكاد تُمِيلُه ولا تُحرِّكه الأسباب، لصحَّة قلبه، وسلامته مِنَ المرض.

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشُّعراء: ٨٨-٨٩].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقلب السَّليم هو الَّذِي سلم مِنَ: الشِّرك، والغِلِّ، والحقد، والحسد، والشُّحِّ، والكِبْرِ، وحُبِّ الدُّنيا، والرِّياسة. فسلم من كُلِّ آفة تبعده عَنِ الله، وسلم من كُلِّ شبهة تعارض خبره، ومن كُلِّ شهوة تعارض

أمره، وسلم من كُلِّ إرادة تزاحم مراده، وسلم من كُلِّ قاطع يقطع عَنِ الله، فهذا القلب السَّليم في جنَّة مُعَجَّلة في الدُّنيا، وفي جنَّة في البرزخ، وفي جنَّة يوم المعاد، **ولا تتمُّ له سلامته مطلقًا حتَّى يسلم من خمسة أشياء:**

١- من شرك يناقض التَّوحيد.

٢- وبدعة تخالف السُّنَّة.

٣- وشهوة تخالف الأمر.

٤- وغفلة تناقض الذِّكر.

٥- وهوى يناقض التَّجريد والإخلاص»(١).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم: «كرمُ الخَلْقِ عند الله بالتَّقوى، فرُبَّ من يحقِرُه النَّاس لضعفه وقلَّةِ حظِّه مِنَ الدُّنيا، وهو أعظمُ قدرًا عند الله تعالى ممَّن له قدرٌ في الدُّنيا، فإنَّ النَّاسَ إنَّما يتفاوتُون بحسب التَّقوى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وسئل النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أكرمُ النَّاسِ؟ قال: «**أَتْقَاهُمْ للهِ** عَزَّوَجَلَّ»(٢). وفي حديث آخر: «**الْكَرَمُ التَّقْوَى**»(٣)، والتَّقوى أصلُها في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحجُّ:٣٢]»(٤).

---

(١) الجواب الكافي (ص١٢١).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في اليقين (٢١)، وضعَّفه الألبانيُّ في ضعيف الجامع (٤٢٩٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (٣/ ٩٩٠).

والله لا ينظر إلى الصُّور والأموال، وإنَّما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[1].

وفي القرآن الكريم آيات عديدة في الحثِّ على التَّقوى، وبيان ثمارها وثواب المُتَّقين، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطَّلاق:٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطَّلاق:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلاق:٢-٣]. فتقوى الله جَلَّوَعَلَا لها شأن عظيم ولها آثار مباركة، وكُلَّما جاهد العبد نفسه على تحقيقها؛ وجد التَّيسير في أموره، والرِّزق الطَّيِّب، والمخرج الملائم لكُلِّ ما يعرِض له من مشكلات، ونال بذلك تكفير السَّيِّئات وغفران الذُّنوب ورفعة الدَّرجات.

والتَّقوى ليست مُجَرَّد كلمة تقال، أو دعوى تُدَّعى؛ لأنَّ مِنَ السَّهل على كُلِّ إنسان أن يقول: أنا مِنَ المُتَّقين، وليست العبرة بهذا، وإنَّما العبرة بتحقيق التَّقوى، وقيامها حقيقة في قلب العبد.

ومعنى التَّقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، وتقوى العبد لربِّه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وعقابه؛ وقاية تقيه، وذلك لا يكون إلَّا بفعل طاعته واجتناب معصيته. فالله تارة يأمر بتقواه، فهو الَّذِي يُخشى ويُرجى، وكلُّ خير يحصل للعباد فهو منه. وتارة يأمر سبحانه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

باتِّقاء النَّار، كما قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة:٢٤]، وتارةً يأمر باتِّقاء يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

والقرآن الكريم جاء فيه آيات متعدِّدة، شارحة معنى التَّقوى، مُفسِّرة مدلولها، مُبيِّنة صفات أهلها، ومن ذلك:

قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في أوَّل سورة البقرة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ثمَّ ذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صفاتهم، قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٣-٥].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ثمَّ ذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صفاتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٥]؛ فذكر من صفاتهم ملازمة الاستغفار، وعدم الإصرار على الذُّنوب.

ومِنَ الآيات العظيمة الجامعة لمعنى التَّقوى، وبيان صفات أهلها قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة البقرة، في الآية الَّتي تُعْرَف عند أهل العلم بآية البرِّ، قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧]؛ فذكر عَزَّوَجَلَّ أنَّ من صفات المُتَّقين صلاح عقيدتهم وصلاح أعمالهم.

وجاء عَنِ السَّلف رَحِمَهُمُاللَّهُ عبارات عديدة في توضيح التَّقوى، وهي متقاربة:

قال ابن عبَّاس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: «الْمُتَّقَونَ: الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللهِ عُقُوبَتَهُ»(١).

وقال الحسن رَحِمَهُاللَّهُ: «الْمُتَّقُونَ اتَّقَوْا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، وَأَدَّوْا مَا افْتُرِضَ عَلَيْهِمْ»(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُاللَّهُ: «لَيْسَ تَقْوَى اللهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللهِ: تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللهُ»(٣).

وقال ابن مسعود رَضِيَاللَّهُعَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]: «**أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ**»(٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُاللَّهُ: «وأمَّا التَّقوى؛ فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢).
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٠).
(٣) رواه البيهقيُّ في الزُّهد (٩٦٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/ ٢٣٠).
(٤) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٢٢)، وابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٤٥٥٣).

واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتَّقوى، قالوا: وما التَّقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»(١).

وهذا أحسن ما قيل في حدِّ التَّقوى، فإنَّ كُلَّ عمل لا بُدَّ له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة، حتَّى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض؛ لا العادة، ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه، وغير ذلك. بل لا بُدَّ أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الاصلين في مثل قول النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا**»(٢). ونظائره.

فقوله: «**عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ**» إشارة إلى الأصل الأوَّل، وهو الإيمان الَّذِي هو مصدر العمل، والسَّبب الباعث عليه.

وقوله: «**تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ**» إشارة إلى الأصل الثَّاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية الَّتِي لأجلها يُوقع العمل، ولها يقصد به»(٣).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤)، والبيهقيُّ في الزُّهد (٩٦٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).
(٣) الرِّسالة التَّبوكيَّة لابن القيِّم (ص١٣).

إنَّ تقوى الله جَلَّوَعَلَا هي الأساس، الَّذِي تدور عليه سعادة العبد في الدُّنيا والآخرة، وبها ينال شريف المواهب، ورفيعَ المقامات، وجليل المنازل، وخير المناقب؛ جاء في الصَّحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للرَّسول ﷺ «**مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟**» قال: «**أَتْقَاهُمْ**»(١). وهذا معنى مقرَّرٌ في كتاب الله جَلَّوَعَلَا؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣].

وروى الإمام أحمد في مسنده، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: «**بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: «**بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»، قَالَ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»(٢).

وليحذر المرء من أن يخِلَّ بهذا المعيار، وأن تنقلب عنده الموازين؛ فإنَّ أساس الرِّفعة، وأساس الشَّرف، وعلوَّ الفضيلة والمنقبة، إنَّما هو بتقوى الله

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٧٠٠).

تَبَارَكَ وَتَعَالَى، جاء في المسند وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**»(١).

جعلنا الله أجمعين من عباده المُتَّقين وأوليائه المُقَرَّبين.

---

(١) رواه أبو داود (٥١١٦)، والتِّرمذيُّ (٣٢٧٠)، وأحمد (٨٨٥٧)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

٧
غيث القلوب

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[١]. متَّفق عليه.

بيَّن النَّبيُّ ﷺ أنَّ: «مثل ما بعثه الله به مِنَ الهدى والعلم، مثل الغيث الَّذي تشربه الأرض، فتخرج فنون الثَّمرات، وتمسكه أرض لتنتفع به النَّاس، وأرض ثالثة؛ لا تنتفع بشربه، ولا تمسكه لغيرها.

فتبيَّن أنَّ القلوب تشرب ما ينزله الله مِنَ الإيمان والقرآن، وذلك شراب لها، كما أنَّ المطر شراب للأرض، والأرض تعطش وتروى، كذلك القلب يعطش إلى ما ينزله الله ويروى به»[٢].

(١) رواه البخاريُّ (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).
(٢) جامع المسائل لابن تيميَّة (١/ ١٢٥).

وهو سبحانه الَّذِي يطعمه هذا الشَّراب، فيحيا القلب به. «وحصول العلم في القلب كحصول الطَّعام في الجسم، فالجسم يُحِسُّ بالطَّعام والشَّراب؛ وكذلك القلوب تُحِسُّ بما يتنزَّل إليها مِنَ العلوم الَّتِي هي طعامها وشرابها»[١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

* «شبَّه ﷺ العلم والهدى الَّذِي جاء به بالغيث؛ لما يحصل بكُلٍّ واحد منهما: مِنَ الحياة، والمنافع، والأغذية، والأدوية، وسائر مصالح العباد؛ فإنَّها بالعلم والمطر.

* وشبَّه القلوبَ بالأراضي الَّتِي يقع عليها المطر؛ لأنَّها المَحَلُّ الَّذِي يمسك الماء، فينبت سائر أنواع النَّبات النَّافع، كما أنَّ القلوب تعي العلم، فيثمر فيها ويزكو، وتظهر بركته وثمرته.

ثمَّ قسَّم النَّاس إلى ثلاثة أقسام -بحسب قبولهم واستعدادهم: لحفظه، وفهم معانيه، واستنباط أحكامه، واستخراج حكمه وفوائده-:

* **أحدها:** أهلُ الحفظ والفهم، الَّذِين حفظوه وعقلوه، وفهموا معانيه، واستنبطوا وجوه الأحكام، والحكم، والفوائد منه. فهؤلاء بمنزلة الأرض الَّتِي قبلت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ. فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط؛ فإنَّه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء. فهذا مثل الحُفَّاظ الفقهاء، أهل الرِّواية والدِّراية.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤١).

* **القسم الثَّاني:** أهل الحفظ الَّذِين رُزِقُوا حِفْظَه ونقلَه وضبطَه، ولم يُرْزَقوا تَفَقُّهًا في معانيه، ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحكم والفوائد منه، فهم بمنزلة مَن يقرأ القرآن، ويحفظه، ويراعي حروفه وإعرابه، ولم يُرْزَق فيه فهمًا خاصًّا عن الله، كما قال عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إلَّا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه**»[1]، والنَّاس متفاوتون في الفهم عَنِ الله ورسوله أعظم تفاوت، فرُبَّ شخص يفهم مِنَ النَّصِّ حُكْمًا أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين، فهؤلاء بمنزلة الأرض الَّتِي أمسكت الماء للنَّاس، فانتفعوا به؛ هذا يشرب منه، وهذا يسقى، وهذا يزرع.

فهؤلاء القسمان هم السُّعداء، والأوَّلون أرفع درجة وأعلى قدرًا، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* **القسم الثَّالث:** الَّذِين لا نصيب لهم منه، لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلة الأرض الَّتِي هي قيعان، لا تنبت، ولا تُمْسِك الماء. وهؤلاء هم الأشقياء.

والقسمان الأوَّلان اشتركا في العلم والتَّعليم، كُلٌّ بحسب ما قَبِلَه، ووصل إليه؛ فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه.

والقسم الثَّالث لا علم ولا تعليم، فهم الَّذِين لم يرفعوا بهدى الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء شَرٌّ مِنَ الأنعام، وهم وقود النَّار.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٠٤٧).

فقد اشتمل هذا الحديث الشَّريف العظيم على:

- التَّنبيه على شرف العلم والتَّعليم، وعظم موقعه، وشقاء مَن ليس من أهله.

- وذكر أقسام بني آدم بالنِّسبة فيه إلى: شقيِّهم، وسعيدهم.

- وتقسيم سعيدهم إلى: سابق مُقَرَّب، وصاحب يمين مقتصد.

- وفيه دلالة على أنَّ حاجة العباد إلى العلم، كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنَّهم إذا فقدوا العلم؛ فهم بمنزلة الأرض الَّتِي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد(١): «النَّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّراب؛ لأنَّ الطَّعام والشَّراب يُحْتَاج إليه في اليوم مرَّة أو مرَّتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»(٢).

«والرَّبُّ تعالى له الكمال، الَّذِي لا يقدر العباد قدره في أنواع؛ علمه، وحكمته، ومحبَّته، وفرحه، وبهجته، وغير ذلك ممَّا أخبرت به النُّصوص النَّبويَّة، ودلَّت عليه الدَّلائل الإلهيَّة... وهو في كُلِّ ذلك غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه، فهو الَّذِي يجعل في قلوب العباد من: أنواع الأغذية، والأقوات، والمسارِّ، والفرح، والبهجة. ما لا يجعله غيره، وهو إذا فرح بتوبة التَّائب فهو الَّذِي جعله تائبًا، حتَّى فرح بتوبته، لم يحتج في ذلك إلى أحد سواه.

والتَّعبير بلفظ: القوت، والطَّعام، والشَّراب، ونحو ذلك. عمَّا يُقِيت القلوب

---

(١) انظر: مسائل حرب (٣٤٣).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٦٢).

ويُغَذِّيها كثير جدًّا... وكثيرًا ما توصف القلوب بالعطش والجوع، وتوصف بالرِّيِّ والشِّبع. وفي الصَّحيحين أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ بِقَدَحٍ، فَشَرِبْتُ، حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلِي عُمَرَ**»، قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله؟ قال: «**العلم**»(١). فجعل العلم بمنزلة الشَّراب الَّذِي يشرب»(٢).

ولهذا شُبِّهت حياة القلوب بعد موتها بحياة الأرض بعد موتها، وذلك بما ينزله عليها مِنَ الماء، فيسقيها وتحيا به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

«أي: ألم يجئ الوقت الَّذِي تلين به قلوبهم، وتخشع لذكر الله -الَّذِي هو القرآن- وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل مِنَ الحَقِّ الَّذِي جاء به محمَّد ﷺ؟! وهذا فيه الحثُّ على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله مِنَ الكتاب والحكمة، وأن يتذكَّر المؤمنون المواعظ الإلهيَّة والأحكام الشَّرعيَّة كُلَّ وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، أي: ولا يكونوا كالَّذِين أنزل الله عليهم الكتاب، الموجب لخشوع القلب والانقياد التَّام، ثمَّ لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزَّمان واستمرَّت بهم الغفلة؛ فاضمحلَّ إيمانهم، وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾،

(١) رواه البخاريُّ (٧٠٠٦)، ومسلم (٢٣٩١).
(٢) جامع المسائل -المجموع الأولى- لابن تيميَّة (ص١٢٤).

فالقلوب تحتاج في كُلِّ وقت إلى أن تُذَكَّر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإنَّ ذلك سبب لقسوة القلب، وجمود العين.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]. فإنَّ الآيات تدلُّ العقول على العلم بالمطالب الإلهيَّة، والَّذِي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والَّذِي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر؛ قادر على أن يحيي القلوب الميِّتة، بما أنزله مِنَ الحقِّ على رسوله. وهذه الآية تدلُّ على أنَّه لا عقل لمَن لم يهتد بآيات الله، ولم يَنْقَد لشرائع الله»[(١)].

وشبَّه الله ما أنزله على القلوب بالماء الَّذِي ينزله على الأرض، وجعل القلوب كالأودية في حظِّها ونصيبها مِنَ القرآن، «والقرآن مورد يرده الخلق كلُّهم، وكُلٌّ ينال منه على مقدار ما قسم الله له، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرَّعد:١٧].

وهذا مثل ضربه الله سبحانه، لما أنزل مِنَ العلم والإيمان، والقلوب الَّتِي تنال ذلك؛ شبَّه الإيمانَ بالماء النَّازل، والقلوبَ بالأودية؛ فمنها كبار، ومنها صغار. وبيَّن أنَّ الماء كما يختلط بما يكون في الأرض، كذلك القلوب فيها شبهات وشهوات تخالط الإنسان، وأخبر: أنَّ ذلك الزَّبد يجفأ جفاء، وما ينفع النَّاس

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعدِيِّ (ص٨٤٠).

يمكث في الأرض، كذلك الشُّبهات تجفوها القلوب، وما ينفع يمكث فيها»[(١)].

الحاصل: أنَّ هذه القلوب أوعية؛ فخيرها أوعاها للخير والرَّشاد، وشرُّها أوعاها للبغي والفساد.

نقل ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ذمِّ الهوى، عن أحمد بن خضرويه قال: «القلوب أوعية فإذا امتلأت مِنَ الحَقِّ؛ أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت مِنَ الباطل؛ أظهرت زيادة ظُلَمِها على الجوارح»[(٢)].

والعبد لا يزال بخير ما كان مجتهدًا؛ في إصلاح قلبه، وطهارته، وسلامته مِنَ الآفات، وعمارته بحُبِّ الله، وإجلاله، وتعظيمه سبحانه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يكن أكثر تطوُّع النَّبيِّ ﷺ وخواصِّ أصحابه بكثرة الصَّوم والصَّلاة، بل بِبِرِّ القلوب وطهارتها وسلامتها، وقوَّة تعلُّقها بالله خشية له ومحبَّة وإجلالًا وتعظيمًا، ورغبةً فيما عنده، وزهدًا فيما يفنى.

وفي المسند عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنِّي أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ قَلْبًا**»[(٣)].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: «أنتم أكثر صلاة وصيامًا من أصحاب محمَّد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: وَلِمَ؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدُّنيا، وأرغبَ في الآخرة».

---

(١) درء تعارض العقل والنَّقل (٧/ ٤٢٨).
(٢) ذمُّ الهوى لابن الجوزيِّ (ص٦٦).
(٣) رواه أحمد (٢٤٣١٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٥٠٢).

وقال بكر المزنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»[(١)].

قال بعض العلماء المُتَقَدِّمين: «الَّذِي وقر في صدره هو حبُّ الله والنَّصيحة لخلقه»[(٢)].

وسُئِلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز، بعد وفاته عن عمله؟ فقالت: والله، ما كان بأكثر النَّاس صلاةً ولا بأكثرهم صيامًا، ولكن والله، ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدَّة الخوف، حتَّى نقول: ليصبحنَّ النَّاس ولا خليفة لهم.

قال بعض السَّلف: ما بلغ مَن بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النُّفوس وسلامة الصُّدور والنُّصح للأُمَّة... ونصَّ كثير مِنَ الأئمَّة على: أنَّ طلب العلم أفضل من صلاة النَّافلة، وكذلك الاشتغال بتطهير القلوب أفضل مِنَ الاستكثار مِنَ الصَّوم والصَّلاة، مع غشِّ القلوب ودغلها. ومثل مَن يستكثر مِنَ الصَّوم والصَّلاة مع دغل القلب وغشِّه، كمثل مَن بذر بذرًا في أرض دغلة كثيرة الشَّوك؛ فلا يزكو ما ينبت فيها مِنَ الزَّرع، بل يمحقه دغل الأرض ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دغلها[(٣)] زكى ما ينبت فيها»[(٤)].

رزقنا الله أجمعين العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وأصلح قلوبنا، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

---

(١) المغني عن حمل الأسفار للعرقي (ص٣٢) رقم (١).
(٢) لطائف المعارف لابن رجب (ص٢٥٤ - ٢٥٥).
(٣) الدغل: الشجر الكثير الملتف الصحاح للجوهري (٤/ ١٦٩٧).
(٤) لطائف المعارف لابن رجب (ص٢٥٤ - ٢٥٥).

٨
استقامة القلب

روى الإمام أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[(١)].

في هذا الحديث أنَّ صلاح القلب بالإيمان مستلزم لصلاح الجسد؛ فأساس الاستقامة ومدارها على القلب، والقلب هو أساس الصَّلاح ومعدنه ومنبعه.

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: «والمراد باستقامة إيمانه: استقامةُ أعمال جوارحه، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلَّا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أنْ يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ الله، ومحبَّة طاعته، وكراهة معصيته»[(٢)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٥٥٤).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١١).

تَدَّعُونَ ﴾ [فُصِّلت:٣٠-٣٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤]. في هذا عظم شأن الاستقامة وعظم ثوابها، لكنَّ ذلك لا يكون ولا يتحقَّق إلَّا إذا استقام القلب على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه لا يستقيم إيمان عبدٍ إلَّا إذا استقام قلبه، فالقلب أساس الاستقامة والصَّلاح، ولهذا فإنَّ أمر استقامة القلب أمرٌ عظيم، وكثير من النَّاس رُبَّما يعنى باستقامة الظَّاهر ويغفل عن إقامة باطنه على الطَّاعة وحُسن الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والبعد بالقلب عن أدواء القلوب وأمراضها الَّتِي تبعدُ عن الاستقامة.

والقلوب تتسلَّل إليها أدواء وأسقام وأمراض تُضعف ما فيها من إيمان وتُنقص ما فيها من دين وطاعة لله سبحانه؛ ولهذا فإنَّ من الاستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحرص المرء على مداواة قلبه والبعد به عن الأدواء الَّتِي تصيب القلوب فتُسقِمها وتمرضها، وكما أنَّ الأبدان تمرض فإنَّ القلوب تمرض مرضًا أشدَّ من مرض البدن، وقد أخبر نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن أمراض عديدة تصيب القلوب وتتسلَّل إليها، وأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّها أصابت كذلك الأمم السَّابقة قبلنا.

وقد جمع ﷺ في حديث واحد جملة من الأمراض والأدواء الَّتِي تصيب القلوب محذِّرًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه منها، روى الحاكم في المستدرك بإسنادٍ ثابت من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ**» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا دَاءُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: «**الْأَشَرُ،**

وَالْبَطَرُ، وَالتَّكَاثُرُ، وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ، وَالتَّحَاسُدُ؛ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ»[(١)]. فعدَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ستَّة أمراض وأدواء تصيب النَّاس ثمَّ إذا اشتدَّت بهم هذه الأمراض والأسقام وقع البغي وهو الغلوُّ وتجاوز الحدود والانتهاك للأنفس والأعراض والأموال دون مبالاتِ من يفعل ذلك بعقاب ولا حساب ولا وقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الحديث يعدُّ علَمًا من أعلام النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخبر عن أمورٍ أصابت الأمم قبل أُمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبر أنَّها ستصيب الأُمَّة، فوقع الأمر طبقًا لما أخبر ووفقًا لما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثمَّ إنَّ هذا الخبر خرج مخرج التَّحذير والإنذار، فلم يقل ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمجرَّد العلم به، بل قال ذلك مُحَذِّرًا ومنذرًا قال: «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي**»، وإذا كانت هذه الأدواء ستصيب الأُمَّة فالواجب على كلِّ فرد من أفراد الأُمَّة أن يحتاط لنفسه من أن تصيبه؛ فإنَّه من المُتَقَرِّر في واقع النَّاس عندما يُتحدَّث عن انتشار بعض الأمراض الخطيرة أنَّهم يحتاطون للسَّلامة منها اهتمامًا وسؤالًا عن العلاج وطرق الوقاية واتِّخاذ الأسباب المُحَقِّقة للسَّلامة!! وهكذا في مثل هذا المقام، بل ينبغي أن يكون الاهتمامُ أشدَّ، فإذا كانت هذه الأمراض ستصيب الأُمَّة ولا بُدَّ فينبغي على العبد أن يحترز وأن يحتاط لنفسه وأن يأخذ بأسباب الوقاية حتَّى لا يهلك بهذه الأمراض والأسقام العظيمة.

وإذا تأمَّل المتأمِّل في هذه الأمراض المذكورة في هذا الحديث يجد أن من ورائها إكبابًا على الدُّنيا وافتتانًا بها، فتصبح في نفوس النَّاس هي الشُّغل

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٧٣١١)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣٦٥٨).

الشَّاغل، حتَّى إنَّ بعض النَّاس لتصبح حاله في هذا المقام لا همَّ له إلَّا الدُّنيا، وتكون هي مبلغَ علمه وغايةَ مراده، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»(١)، والدُّنيا متاعٌ زائل؛ يغُرُّ أهله ويُفتنون بها وهم عنها زائلون، لا تبقى لهم ولا يبقون لها، وكم أهلكت من أقوامٍ بتكالبهم عليها وافتتانهم بها وجعْلها أكبر همهم ومبلغ علمهم، وقد تولَّد في النَّاس من قديم الزَّمان أمراضٌ خطيرة وأدواء فتَّاكة ولا تزال باقيةً في النَّاس بسبب هذه الدُّنيا والتَّكالب عليها، سمَّاها النَّبيُّ ﷺ: «**دَاءَ الْأُمَمِ**» وهي: «**الْأَشَرُ، وَالْبَطَرُ، وَالتَّكَاثُرُ، وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ؛ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ**».

فتأمَّل في هذه الأدواء الخطيرة والأمراض الفتَّاكة فكم فتكت بأمم قبل أُمَّة محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكم أوردتهم من موارد ومهالك، وكم أوصلتهم إلى معاطب، ويخبر نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن تلك الأدواء الَّتِي أصابت مَن قبلنا ستصيب هذه الأمة: «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ**».

وكلُّ عبدٍ ناصح لنفسه إذا سمع هذا الحديث وقف موقف الحذِر من أن يصاب بهذه الأدواء المعطِبة والأمراض المهلِكة الَّتِي أخبر الصَّادق المصدوق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّها ستصيب هذه الأُمَّة محذِّرا ومنذِّرًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وجميع هذه الأدواء تتولَّد من التَّكالب على الدُّنيا والافتتان بها وزخرفها والانكباب عليها طمعًا في جمعها وتحصيلها مع غفلةٍ عمَّا خُلق العبد لأجله وأوجد لتحقيقه.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

و«**الأشر**»: كفران النِّعم، و«البطر»: الطُّغيان عند وجودها، و«**التَّكاثر**»: التَّفاخر بكثرة الأموال والأولاد، و«**التَّناجش في الدُّنيا**»: بسبب التَّكالب عليها والطَّمع فيها، و«**التَّباغض**»: التَّعادي والتَّدابر والتَّقاطع، و«**التَّحاسد**»: تمنِّي زوال النِّعم عن الآخرين، والحاسد عدوُّ نعمة الله. ثمَّ يتولَّد من مجموع هذه الأدواء وقوع البغي بتجاوز الحدِّ، حتَّى إنَّ الإنسان إذا استشرى فيه البغيُّ لا يبالي فرُبَّما أراق دماءً معصومة وهتك أمورًا مُحَرَّمة وتعدَّى على أموالٍ محترمة دون مبالاةٍ ولا خوف من عقاب.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحرص على السَّلامة من هذه الأدواء حرصًا أشدَّ من حرصه على السَّلامة من أدواء البدن وأمراضه؛ فإنَّ أدواء القلوب أخطر ومغبتها وسوء عاقبتها أعظم، وليجاهد المرء نفسه على سلامة قلبه من هذه الأدواء المعطبة، وليسأل ربَّه ومولاه أن يُزَكِّي قلبه وأن يصلح نفسه وأن يؤتي نفسه تقواها، فإنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلِيُّها ومولاها، ولا عاصم ولا مسلِّم من هذه الأهواء إلَّا ربُّ العالمين جلَّ في علاه.

وقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ في حديث آخر ويُعَدُّ آية أخرى من آيات النُّبُوَّة عن الوقت الَّذِي تنتهي فيه تلك الأمراض، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**»[1]؛ المال يصبح مُتَوَفِّرًا لدى الجميع، فالتَّباغض الَّذِي كان من

(١) رواه مسلم (١٥٥).

أجل هذا المال والتَّحاسد والتَّناجش ونحو هذه الأسقام الَّتِي كانت لأجل المال تنتهي؛ لأنَّ المال أصبح مُتَوَفِّرًا وزائدًا حتَّى إنَّ من عنده مال يريد أن يقدِّم صدقة أو زكاة فلا يجد أحدًا يقبل منه.

وهذا يُوَضِّح أنَّ الأموال فتنة؛ فتنة لمَن آتاه الله المال، وفتنة لمَن لم يؤته الله المال، وكم من إنسان لم يُوَفَّق في هذا الامتحان سواءً مَن آتاه الله المال أو مَن لم يؤته؛ لأنَّ هذا ممتحن بماله وهذا ممتحن بعدم وجود المال، والدُّنيا دار ابتلاء وامتحان، والمُوَفَّق من عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن يمضي في دنياه على الاستقامة على طاعة الله.

وقد قال ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[1]. رواه مسلم.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تتمُّ الرَّغبةُ بالآخرةِ إلَّا بالزُّهدِ في الدُّنيا، **ولا يستقيمُ الزُّهدُ في الدُّنيا إلَّا بعد نَظَرَيْن صحيحَيْن:**

* **نظر في الدُّنيا**، وسرعةِ زوالِهَا وفنائِها واضمحلالِها ونَقصِها وخِسَّتِها، وأَلَمِ المزاحمةِ عليها، والحرصِ عليها، وما في ذلك من الغصصِ والنَّغصِ والأنكادِ، وآخر ذلك الزَّوالُ والانقطاعُ، مع ما يعقُبُ من الحَسرَةِ والأَسفِ؛ فطالِبُها لا ينفَكُّ من هَمٍّ قَبلَ حُصُولِها، وهَمٍّ حالَ الظَّفرِ بها، وغَمٍّ وحزنٍ بعد فَواتِها، فهذا أَحدُ النَّظرَيْن.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

* **النَّظر الثَّاني النَّظرُ في الآخرةِ**، وإقبالِها ومجيئِها ولا بُدَّ، ودوامِها وبقائِها، وشرفِ ما فيها من الخيراتِ والمَسرَّات، والتَّفاوتِ الَّذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال اللهُ سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمةٌ، وهذه خيالاتٌ ناقصةٌ مُنقَطِعَةٌ مُضمَحِلَّةٌ.

فإذا تمَّ له هذان النَّظران آثَرَ ما يقتضي العقلُ إيثارَه، وزَهِدَ فيما يقتضي الزُّهدُ فيه...»[(١)].

وذَكَرَ: نحوَ هذا المعنى في موضعٍ آخر، وزادَ عليه أمرًا ثالثًا، فقال: «**والَّذي يُصحِّح هذا الزُّهدَ ثلاثةُ أشياء:**

* **أحدها:** عِلْمُ العبد أنَّها ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، وأنَّها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد:٢٠].

وقال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (ص١٣٦).

وسمَّاها عَزَّوَجَلَّ متاعَ الغُرورِ، ونهى عن الاغترارِ بها، وأخبرَنا عن سوءِ عَاقِبَةِ المُغترِّين بها، وحذَّرنا من مِثلِ مَصارِعِهم، وذمَّ من رَضِيَ بها، واطمأنَّ إليها.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا**»(١).

وفي «المُسنَد»(٢) عنه ﷺ حديثٌ معناه: إنَّ اللهَ جعل طعامَ ابنِ آدم، وما يَخرُجُ منه مثلًا للدُّنيا؛ فإنَّه وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحهُ فلينظُرْ إلى ماذا يصير.

فما اغترَّ بها ولا سَكَنَ إليها إلَّا ذو همَّةٍ دَنِيَّةٍ، وعقلٍ حَقِيرٍ، وقَدْرٍ خَسِيسٍ.

* **الثَّاني:** علمُهُ أنَّ وراءَها دارًا أعظَمُ منها قدرًا، وأجلُّ خطَرًا، وهي دار البقاء، وأنَّ نِسبتَها إليها كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟**»(٣)، فالزَّاهدُ فيها بمَنزِلَةِ رَجُلٍ في يده دِرْهمُ زَغَلٍ، قيل له: اطرَحْهُ، ولك عِوضُهُ مائةُ ألفِ دينارٍ مثلًا، فألقَاه من يدِه رجاءَ ذلك العِوَض، فالزَّاهد فيها لكمالِ رغبَتِهِ فيما هو أعظمُ منها زَهِدَ فيها.

* **الثَّالثُ:** معرفتُهُ أنَّ زُهدَهُ فيها لا يمنعُهُ شيئًا كُتِبَ له منها، وأنَّ حِرصَهُ عليها لا يَجلِبُ له ما لم يُقْضَ له منها، فمتى تيَقَّنَ ذلك، وصار له به علمُ يَقينٍ؛ هان عليه الزُّهد فيها؛ فإنَّه متى تيَقَّن ذلك، وثَلِجَ له صدرُه، وعلم أنَّ مَضمونَهُ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٢٧٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

منها سيأتيه؛ بقي حِرصُه وتَعبُهُ وكدُّهُ ضائعًا، والعاقلُ لا يرضى لنفسِه بذلك.

فهذه الأمورُ الثَّلاثةُ تُسهِّلُ على العبدِ الزُّهدَ فيها، وتُثَبِّتُ قَدمَه في مقامِه، والله المُوفِّقُ لمن يشاء»[١].

أصلح الله قلوبنا أجمعين وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا، وأعاذنا من أمراض القلوب وأسقامها، وجمعنا على الحقِّ والهدى إنَّه سميع قريب مجيب.

(١) انظر: طريق الهجرتين (٢/ ٥٥٠ - ٥٥٤).

٩
طهارة القلوب

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَغْرَمِ**»(١). متَّفق عليه.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي: بِالثَّلْجِ، وَالْبَرَدِ، وَالْمَاءِ الْبَارِدِ. اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا طَهَّرْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ ذُنُوبِي، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»(٢). رواه مسلم، وأحمد واللَّفظ له.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ -بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي- أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٧٧)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه مسلم (٤٧٦)، أحمد (١٩٤٠٢).

بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ. اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ: بِالثَّلْجِ، وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ**»(١).

متَّفق عليه.

هذه دعوات عظيمة، مأثورة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلاة وخارجها، تكرَّر فيها سؤالُ الله: تطهيرَ القلوب وتنقيتها، وغسلها مِنَ الخطايا بالماء والثَّلج والبرد. ممَّا يدلُّ على عظيم العناية بطهارة القلوب الطَّهارة التَّامَّة، كما يُنَقَّى الثَّوب الأبيض مِنَ الدَّنس.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»، كيف يطهِّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التَّخصيص بذلك؟ وقوله -في لفظ آخر-: «**وَالْمَاءِ الْبَارِدِ**»، والحارُّ أبلغ في الإنقاء.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا؛ فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشَّهوة وتنجِّسه، فإنَّ الخطايا والذُّنوب له بمنزلة الحطب الَّذي يمُدُّ النَّار ويوقدها، ولهذا كُلَّما كثرت الخطايا؛ اشتدَّت نارُ القلب وضعفُهُ. والماء يغسل الخبث ويطفيء النَّار؛ فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوَّة، فإن كان معه ثلج وبرد؛ كان أقوى في التَّبريد، وصلابة الجسم، وشدَّته؛ فكان أذهب لأثر الخطايا»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

(٢) إغاثة اللَّهفان (١/ ٩٧).

والله عَزَّوَجَلَّ دعا عباده إلى أن يُطَهِّروا قلوبهم ويُنَقُّوها من عللها وأدوائها؛ لتكون قلوبًا طاهرةً نقيَّةً، وقد دلَّ القرآن والسُّنَّة على أهمِّيَّة تطهير القلوب وتنقيتها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:١-٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجمهور المُفَسِّرين مِنَ السَّلف، ومَن بعدهم على أنَّ المراد بالثِّياب -ههنا-: القلب. والمراد بالطَّهارة: إصلاح الأعمال، والأخلاق»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة:٤١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية: على أنَّ طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنَّه سبحانه لمَّا لم يرد أن يُطَهِّر قلوب القائلين بالباطل المُحَرِّفين للحَقِّ؛ لم يحصل لها الطَّهارة...

ودلَّت الآية: على أنَّ مَن لم يُطَهِّر الله قلبه؛ فلا بُدَّ أن يناله الخزي في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنَّة على مَن في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلَّا بعد طيبه وطهره؛ فإنَّها دار الطَّيِّبين، ولهذا يقال لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى:

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٨٦).

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٣٢]»[1].

وإذا كان مطلوبًا مِنَ العبد: العمل على إصلاح قلبه وتطهيره وتنقيته من أدوائه وأسقامه؛ فإنَّ عليه أن يعرف: حقيقة مرض القلب، وكيف يمرض؟ وبِمَ يمرض؟ وأنواع مرضه؟ لتكون هذه المعرفة معينة له على إصلاحه وتطهيره، وللإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفاصيل نافعة في هذا الباب حرَّرها في كتابه إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر حقيقة مرض القلب، قال الله تعالى عَنِ المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]. وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:٥٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. أمرهُنَّ أن لا يَلِنَّ في كلامهِنَّ... فيطمع الَّذِي في قلبه مرض الشَّهوة، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر:١].

أخبر الله سبحانه عَنِ الحكمة الَّتِي جعل لأجلها عِدَّة الملائكة المُوَكَّلين بالنَّار تسعة عشر، **فذكر سبحانه خمس حكم:**

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٩٤ – ٩٥).

* فتنةَ الكافرين؛ فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

* وقوَّةَ يقين أهل الكتاب؛ فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك، لما عندهم عن أنبيائهم -من غير تلقٍّ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عنهم- فتقوم الحُجَّة على معاندهم، وينقاد للإيمان مَن يرد الله أن يهديه.

* وزيادةَ إيمان الَّذِين آمنوا؛ بكمال تصديقهم بذلك، والإقرار به.

* وانتفاءَ الرَّيب عن أهل الكتاب؛ لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

* وحيرةَ الكافر ومَن في قلبه مرض، وعمى قلبه عَنِ المراد بذلك، فيقول: ماذا أراد الله بهذا مثلًا؟

وهذا حال القلوب عند ورود الحَقِّ المُنَزَّل عليها:

* قلبٌ يفتتن به كفرًا وجحودًا.

* وقلبٌ يزداد به إيمانًا وتصديقًا.

* وقلبٌ يتيقَّنه؛ فتقوم عليه به الحُجَّة.

* وقلبٌ يوجب له حيرة وعمًى؛ فلا يدري ما يراد به»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]. فهو شفاء لما في الصُّدور من مرض الجهل والغَيِّ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ شفاؤه العلم والهدى، والغيَّ مرضٌ

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٩ - ٢١).

شفاؤه الرُّشد. وقد نزَّه الله سبحانه نبيَّه عن هذين الدَّاءين، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجم:١-٣]. ووصف رسولُه ﷺ خلفاءَه بضدِّهما، فقال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[(١)]، وجعل كلامه سبحانه موعظة للنَّاس عامَّة، وهدًى ورحمة لمَن آمن به خاصَّة، وشفاء تامًّا لما في الصُّدور؛ فمَنِ استشفى به صحَّ وبرىء من مرضه»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا عُرِفَ هذا؛ **فالقلب محتاج:**

* إلى ما يحفظ عليه قُوَّته، وهو: الإيمان، وأوراد الطَّاعات.

* وإلى حِمْيَة عَنِ المُؤذي الضَّارِّ، وذلك باجتناب: الآثام، والمعاصي، وأنواع المخالفات.

* وإلى استفراغه من كُلِّ مادَّة فاسدة تعرض له، وذلك بالتَّوبة النَّصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوُّره للحقِّ، وإرادته له؛ فلا يرى الحقَّ حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له. وتفسد به إرادته له؛ فيبغض الحقَّ النَّافع، أو يُحِبُّ الباطل الضَّارَّ، أو يجتمعان له وهو الغالب؛ **ولهذا يُفَسَّر المرض الَّذِي يعرض له:**

- تارة بالشَّكِّ والرَّيب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]. أي: شكٌّ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢١ - ٢٢).

- وتارةً بشهوة الزِّنا، كما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

فالأوَّل: مرض الشُّبهة، **والثَّاني:** مرض الشَّهوة.

والصِّحَّة تحفظ بالمثل والشِّبه، والمرضُ يدفع بالضِّدِّ والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضدِّه. والصِّحَّة تحفظ بمثل سببها، وتضعف أو تزول بضدِّه»[(١)].

و«مرض القلب نوعان:

نوع لا يتألَّم به صاحبه في الحال: وهو النَّوع المُتَقدِّم: كمرض الجهل، ومرض الشُّبهات والشُّكوك، ومرض الشَّهوات. وهذا النَّوع هو أعظم النَّوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحسُّ بالألم؛ ولأنَّ سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلَّا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضدِّه، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرُّسل وأتباعهم؛ فهم أطبَّاء هذا المرض.

والنَّوع الثَّاني: مرض مؤلم له في الحال: كالهَمِّ، والغَمِّ، والغيظ. وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعيَّة: كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضادُّ تلك الأسباب، وما يدفع موجبها مع قيامها. وهذا كما أنَّ القلب قد يتألَّم بما يتألَّم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن؛ فكذلك البدن يتألَّم كثيرًا بما يتألَّم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٣ - ٢٤).

فأمراض القلب الَّتِي تزول بالأدوية الطَّبيعيَّة؛ من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه، وعذابه بعد الموت.

وأمَّا أمراضه الَّتِي لا تزول إلَّا بالأدوية الإيمانيَّة النَّبويَّة؛ فهي الَّتِي توجب له الشَّقاء، والعذاب الدَّائم -إن لم يتداركها بأدويتها المضادَّة لها- فإذا استعمل تلك الأدوية؛ حصل له الشِّفاء...

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه...

وكذلك: الجهل مرض يؤلم القلب؛ فمِنَ النَّاس مَن يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنَّه قد صحَّ من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنَّما تزيده مرضًا إلى مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه؛ بسبب جهله بالعلوم النَّافعة، الَّتِي هي شرط في صحَّته وبرئه، قال النَّبِيُّ ﷺ -في الَّذِين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم-: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»(١). فجعل الجهل مرضًا، وشفاءَه سؤال أهل العلم.

وكذلك: الشَّاكُّ في الشَّيء المرتاب فيه؛ يتألَّم قلبه، حتَّى يحصل له العلم واليقين...

وهو كذلك: يضيق بالجهل والضَّلال عن طريق رشده وينشرح بالهدى والعلم، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

والمقصود: أنَّ من أمراض القلوب: ما يزول بالأدوية الطَّبيعيَّة، ومنها ما لا

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

يزول إلَّا بالأدوية الشَّرعيَّة الإيمانيَّة. والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء. وذلك أعظم ممَّا للبدن»(١).

و«القرآن متضمِّن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

وقد تقدَّم: أنَّ جماع أمراض القلب، هي: أمراض الشُّبهات، والشَّهوات. والقرآن شفاء للنَّوعين؛ ففيه مِنَ البيِّنات والبراهين القطعيَّة ما يُبيِّن الحقَّ مِنَ الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتَّصوُّر والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السَّماء كتابٌ متضمِّن للبراهين والآيات على المطالب العالية: مِنَ التَّوحيد، وإثبات الصِّفات، وإثبات المعاد، والنُّبوَّات، وردِّ النِّحَل الباطلة، والآراء الفاسدة. مثلَ القرآن؛ فإنَّه كفيل بذلك كلِّه، متضمِّن له على أتمِّ الوجوه، وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانًا. فهو الشِّفاء على الحقيقة من أدواء الشُّبه والشُّكوك، ولكن ذلك موقوف على: فهمه، ومعرفة المراد منه. فمَن رزقه الله تعالى ذلك؛ أبصر الحقَّ والباطل عيانًا بقلبه.

وأمَّا شفاؤه لمرض الشَّهوات؛ فذلك بما فيه مِنَ: الحكمة، والموعظة

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٦ - ٢٨).

الحسنة بالتَّرغيب والتَّرهيب، والتَّزهيد في الدُّنيا، والتَّرغيب في الآخرة والأمثال، والقصص الَّتِي فيها أنواع العبر والاستبصار.

فيرغب القلب السَّليم -إذا أبصر ذلك- فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عمَّا يضرُّه؛ فيصير القلب: محبًّا للرُّشد، مبغضًا للغَيِّ»(١).

والمعافى مَن عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصَّبر عن كُلِّ معصية، فرفل في أثواب العافية. أصلح الله قلوبًا أجمعين.

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٧٠ - ٧٢).

١٠
مخموم القلب

رَوَى ابْنُ ماجَه وغيرُه عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «**أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟**» قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: «**صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟**» قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ؛ لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**»[(١)].

هذا حديثٌ عظيم الشَّأن، وندرك عظم شأنه من السُّؤال الجليل الَّذِي ذُكِر للنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟**» فهذا السُّؤال يدلُّ على جلالة قَدْر هذا الحديث.

وقول الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ «**أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟**» سؤالٌ عائد إلى إدراكهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم تفاضلَ أهل الإيمان في الإيمان، وإدراكهم أنَّ أمور الإيمان وخصاله وأعماله متفاضلة ليست في درجة واحدة؛ فجاء جواب النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -في بيان «أيُّ النَّاس أفضل»- يتعلَّق بأمرين عظيمين: القلب، واللِّسان. خصَّهما بالذِّكر؛ وهذا فيه دلالة ظاهرة بيِّنة على خطورة هذين العضوين من الإنسان، خطورة القلب وخطورة اللِّسان، فإنَّ إيمان

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

المرء لا يستقيم إلَّا إذا استقام لسانه، ولا يستقيم لسانه إلَّا إذا استقام قلبه، فَإِذَا استقامَ القَلبُ استقامَت الجَوارح، وإذا استقامَ اللِّسانُ استقامَت الجوارحُ؛ واللِّسانُ تُرجُمَان القلب، وخليفتُه في ظاهر البَدن، فإذا أَسنَدَ القلبُ إلى اللِّسان الأمرَ نفَّذ، فاللِّسانُ تابعٌ للقلبِ، والجوارح تابعة لهما؛ فرجع صلاح العبد في أحواله كلِّها وأعماله جميعها إلى صلاح هذين العضوين: القلب واللِّسان، ولهذا خصَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في باب الأفضليَّة «أيُّ النَّاس أفضل» ما يتعلَّق بصلاح القلب وصلاح اللِّسان.

وفي هذا المعنى قيل:

ومـا المـرء إلَّا قلبـه ولسانـه ... إذا حصلت أخبـاره ومداخله

إذا ما رداء المرء لم يك طاهرًا ... فهيهات أن يُنَقِّيه بالماء غاسله(١)

أي: ليس المرء إذا حصلت أخباره ومداخله، أي: جمعت سيرته إلَّا بقلبه ولسانه، فإذا لما يكن للقلب واللِّسان نقاء وزكاء وصلاح، فالمظاهر الأخرى لا تفيد ولا تنفع ما لم يكونا نقيَّين؛ فإنَّما قيمة المَرْء ومكانته تبرُز من خلال هذين العضوين.

فالتَّفاضل بين أهل الإيمان ليس عائدًا فقط إلى العمل الظَّاهر الَّذِي يشاهَد، بل عائدٌ بالدَّرجة الأولى إلى باطن الإنسان، إلى أمورٍ خفيَّة في الإنسان لا يعلمها إلَّا الله ولا يطَّلع عليها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمُتَحَدِّث قد يتحَدَّث بكلام قليل أو كثير وقد يكون صادقًا وقد يكون كاذبًا، حتَّى في كلمة التَّوحيد: «لا إله إلَّا الله» الَّتِي هي أعظم الكلمات قد يقولها بعض النَّاس مرَّات وكرَّات

(١) البيت ينسب لمنصور بْن مُحَمَّد الكريزي، ينظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٢٩).

لكن لا يكون صادقًا فيها، ولهذا قال نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ**»[١]، فالصِّدق شرط من شروط قبول هذه الكلمة العظيمة.

فالقلب واللِّسان عليهما مدار الصَّلاح أو الفساد؛ ولهذا ينبغي على المرء أن تعظم عنايته بقلبه ولسانه.

قَالُوا: «**صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ**» يعني: نعرف معنى صادق اللِّسان، لكن ما معنى مخموم القلب؟ قالوا: «**فَمَا مَخْمُومُ**[٢] **الْقَلْبِ؟**» إذا رجعت إلى اللُّغة في بيان هذه المفردة «مخموم»، يقال: خممتُ الشَّيء أو خممت البيت، أي: كنستُه، ويقال الخمامة، أي: القمامة والكناسة. وهي الشَّيء القَذِر الَّذِي بقاؤه في البيت يُعَدُّ مؤذيًا غير مريح لأهل البيت، والتَّعامل معه بأن يُخم ويُقم ويُرمى مع الكناسة والقمامة والخمامة، فعاد المعنى في قوله: «مَخْمُومُ القَلْبِ» إلى نظافة القلب ونقائه.

قال أبو عبيد: «التَّفسير هو في الحديث، وكذلك هذا عند العرب، ولهذا قيل: خممت البيت إذا كنسته، ومنه سُمِّيت الخمامة، وهي مثل: القمامة والكناسة»[٣].

قَالُوا: «**فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟**» قَالَ: «**التَّقِيُّ النَّقِيُّ**» التَّقوى معروفة، والنَّقيُّ: من النَّقاء وهو النَّظافة والنَّزاهة، نقي من ماذا؟ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**النَّقِيُّ؛ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»، نقيٌّ من هذه الأمور؛ نقيٌّ من الإثم،

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨)، ومسلم (٣٢).
(٢) العين (٤/ ١٤٧)، مقاييس اللغة (٢/ ١٥٦)
(٣) انظر: غريب الحديث (٣/ ١١٨).

والإثم هذا فيما يتعلَّق بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والبغي هذا فيما يتعلَّق بينك وبين العباد، فقلب فيه النَّزاهة والنَّظافة والنَّقاء فيما يتعلَّق بينك وبين الله وفيما يتعلَّق بينك وبين العباد.

وهذا القلب أكثر القلوب خيرًا وحرصًا على البِرِّ تقرُّبًا إلى الله، فهو يجيش بأنواع البِرِّ وينبع منه عيون الخير وتتفجَّر منه ينابيع البِرِّ وتغشاه مبارُّ الله ونعمه على الدَّوام.

«**وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»؛ مَن يتأمَّل هذا الحديث يدرك أنَّ هذه الأشياء الغِلَّ والحسد وما شاكلها هي في الحقيقة خمامة لا يليق أن تبقى في قلب المسلم، كما هو الشَّأن في أنَّه لا يليق أن تُبقِي خمامة في بيتك أيضًا، فلا يليق أن تُبقي هذه الأشياء في قلبك. وإذا كان الإنسان لا يرضى وجود الوسخ والقذر في البيت فكيف يرضى بوجود هذه الأمور العظيمة أو الخمامات العظيمة في قلبه؟!

ولهذا خير النَّاس عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَن يعمل على تنقية قلبه من هذه الأوساخ وتنزيه قلبه من هذه الأقذار وتطهيره من هذه الأرجاس، يُطَهِّر قلبه من هذه الأشياء فيلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقلب النَّقي القلب السَّليم: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء:٨٩]، أمَّا إذا لقي الله بقلب وسخ فيه القذر وفيه الوسخ فهذه مصيبة عظيمة. ولهذا في دعاء الرَّفع من الرُّكوع في حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يقول إذا رفع من الرُّكوع: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ**

وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ»[١]؛ كما أنَّ الثَّوب الأبيض يصاب بأوساخ يُنَظَّف منها، فالقلب أيضًا يحتاج أن يُنَظَّف من الأوساخ وهي الخمامة الَّتِي تكون في القلب؛ الغِلُّ والحسدُ ومثل هذه الأشياء الَّتِي تصيب القلب فتمرضه وتُعطبه وتضرُّه مضرَّة عظيمة.

إذًا عاد الأمر في الأفضليَّة أفضل النَّاس عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بصلاح القلب وصلاح اللِّسان؛ أمَّا لسانهم فصادق، وأمَّا قلبهم فمخموم، أي: نظيف نقيٌّ ليس فيه الأوساخ والأقذار، قلب يتَّقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويخاف الله جلَّ في علاه، وهذه التَّقوى لله عَزَّوَجَلَّ تثمر نقاء القلب وطهارته من هذه الأوساخ.

قال «**النَّقيُّ**» ثمَّ بيَّن ذلك؛ ما معنى نقيٍّ؟ قال: «**لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**» هذا النَّقيُّ، أي: نقيٌّ من هذه الأوساخ والأقذار.

فهذا الحديث جمع هذين الأمرين في ذكر الأفضل أفضل النَّاس عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الدُّعاء العظيم، الدُّعاء الَّذِي علَّمه النَّبِيُّ ﷺ شدَّاد بن أوس قال: «**إِذَا اكْتَنَزَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ**» جمع فيه بين الأمرين القلب واللِّسان، صدق اللِّسان ونقاء القلب، قال: «**فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ**

---

(١) رواه مسلم (٤٧٦).

شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[(١)].

فذكر الأمرين في هذا الدُّعاء:

- «قلبًا سليمًا»، والقلب السَّليم هو القلب المخموم القلب النَّظيف، أي: قلبًا نقيًّا زكيًّا مطهَّرًا من الشِّرك والنِّفاق والغلِّ والحسد ومن كلِّ أمراض القلوب وأسقامها، وإذا زكى القلبُ وطاب صلحت الجوارح وحسُنت، وقد جاء في دعاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء:٨٧ - ٨٩]، أي: سليمٍ من الشِّرك والنِّفاق، وسلِيمٍ من الرِّياء ونحوه، وسلِيمٍ من أمراض القلوب وأسقامها وهي كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ. وإذا سلِم القلب تبِعته الجوارح في السَّلامة.

- «ولسانًا صادقًا»، **وصدق اللِّسان:** أن يكون كلُّ ما يخرج من اللِّسان مطابقًا لهذا القلب السَّليم؛ لأنَّه مرتبط به، ولهذا قيل: الصِّدق مواطأة القلب اللِّسان. وإذا كان اللِّسان صادقًا فإنَّ الجوارح كلَّها تتبعه على الاستقامة.

ومن الحكم العظيمة المأثورة: «الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ»[(٢)]. وهي مقولةٌ مشهورة فيها بيانٌ لخطورة هذين العضوين من الإنسان وأنَّهما أهمُّ الجوارح نفعًا إذا صلحا، وأعظم الجوارح ضررًا إذا فسدا؛ فالمرء ليس بوجهه أو برجله أو بيده أو بسائر أعضائه، وإنَّما قيمة المرْء ومكانته تنبعُ وتبرُز من خلال هذين العضوين الخطيرين: اللِّسان والقلب.

---

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٤)، والطَّبرانيُّ في الكبير (١١٧٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٢٢٨).

(٢) انظر: الأمثال، لأبي عبيد (ص٩٨).

واللِّسان يؤثِّر على الأعضاء غاية التَّأثير وهو تبعٌ للقلب، ولهٰذا جاء في الحديث الَّذِي رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(١).

إذا عُلِم هذا؛ فإنَّ على المرء العاقل النَّاصح الحصيف أنْ يُعنى بهذين العضوين غاية العناية، وأن يهتمَّ بهما غاية الاهتمام، فإنَّهما إن صلحا صلح البدن كلُّه وإن فسدا فسد البدن كلّه، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يتعلَّق بالقلب: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٢)، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن اللِّسان: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»(٣). رواه التِّرمذيُّ وغيرُه من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله ﷺ في الحديث المُتَقَدِّم في بيان صفة القلب المخموم بأنَّه: «النَّقِيُّ؛ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»، خصَّ هذه الأمور الأربعة؛ لأنَّها من أعظم آفات القلوب.

- أمَّا الإثم فهو الذُّنوب الَّتِي تُؤَثِّم وتوجب العقوبة في حقوق الله؛ من الشِّرك، وسوء الظَّنِّ بالله، وتعلُّق القلب بالأهواء المخالفة للشَّرع.

---

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٥٥٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٠٧)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

- وأمَّا البغيُ فتهيجه بالعدوان على النَّاس، فدخل في هذا الذُّنوبُ المتعلِّقةُ بحقِّ اللّه، والمتعلِّقةُ بحقِّ العباد.

- وأمَّا الغِلُّ فهو ما يجده المرء في قلبه من نار العداوة والحقد.

- وأمَّا الحسد فهو كراهية نعم الله على العباد وتمنِّي زوالها عمَّن فاقه في خير ونعمة.

وكثيرٌ من النَّاس يهتمُّ بصورته الخارجيَّة ومظهره المشاهَد ولا يهتمُّ بالمَخْبَر، ولهٰذا يكون منه أنواع من الزَّلل والخطل ولا يبالي بذلك ممَّا يخرِم مكانته ويضعف منزلته ويوقعه مواقع الذُّل والهوان، بخلاف ما إذا عُنيَ المرء بقلبه وحافظ عليه واعتنى بإصلاحه وإقامته في ضوء هدي الشَّريعة وآدابها القويمة واعتنى بسلامته من هذه الآفات؛ صَلَحت حاله كلُّها.

والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، نسأله جلَّ في عُلاه أن يُصلح قلوبَنا وأن يسدِّد ألسنتَنا، وأن يوفِّقنا للأعمال الصَّالحات والطَّاعات الزَّاكيات، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

١١
هداية القلوب مِنَّةٌ إلهيَّة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»(١). رواه أحمد وأهل السُّنن.

في هذا الحديث: أنَّ هداية القلوب مِنَّةٌ إلهيَّة وعطيَّةٌ ربانيَّة؛ يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم فضلًا منه ومنًّا، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٧-٨].

ولنتأمَّل هذا السِّياق العظيم من سورة الحجرات، في بيان شأن الهداية، وأنَّها بيد الله سبحانه؛ يَهْدِي مَن يشاء، ويُحَبِّب الإيمان إلى قلوب مَن يشاء،

(١) رواه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥١)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١٠٣٦٨)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ويُزَيِّنه في قلوب مَن يشاء، ويُكَرِّه لقلوب عباده وأوليائه وأصفيائه الكفر والفسوق والعصيان، ومَن كان شأنه كذلك؛ فهو الرَّاشد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين؛ هو إلقاء محبَّته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأمَّا تحبيب العبد الشَّيء إلى غيره؛ فإنَّما هو بتزيينه، وذكر أوصافه، **وما يدعو إلى محبَّته. فأخبر سبحانه: أنَّه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين:**

* حبَّه، وحُسْنَه الدَّاعي إلى حُبِّه.

* وألقى في قلوبهم كراهة ضدِّه مِنَ الكفر والفسوق والعصيان.

وأنَّ ذلك محض فضله ومِنَّته عليهم، حيث لم يَكِلْهم إلى أنفسهم، بل تولَّى هو سبحانه هذا التَّحبيب والتَّزيين وتكريه ضدِّه؛ فجاد عليهم به فضلًا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله، ومَن يصلح له ومَن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه»(١).

إنَّ المعرفة: بأنَّ هذه الهداية للقلوب هبةٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، وعطيَّةٌ منه جَلَّوَعَلَا، ومنَّة؛ تُوَلِّد في العبد أنواعًا مِنَ الأعمال، الَّتي تستوجبها هذه المعرفة:

وأوَّل ذلك: حمد الله جلَّ في علاه، وشكره على نعمائه، والاعتراف بأنَّ الفضل فضله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا

(١) شفاء العليل (١/ ١٩٣).

ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، وكان نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يوم الأحزاب يحمل التُّراب مع أصحابه رضي عنهم أجمعين، ويقول: «**وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا**»(١). فالفضل فضله، والْمَنُّ منُّه جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فوائده: أنَّه يضيف الحمد إلى وليِّه ومستحِقِّه، فلا يشهد لنفسه حمدًا بل يشهده كُلَّه لله، كما يشهد النِّعمة كلَّها منه، والفضل كلَّه له، والخير كلَّه في يديه. وهذا من تمام التَّوحيد، فلا يستقرُّ قدمه في مقام التَّوحيد إلَّا بعلم ذلك وشهوده، فإذا علمه ورسخ فيه؛ صار له مشهدًا، وإذا صار لقلبه مشهدًا؛ أثمر له مِنَ المحبَّة والأنس بالله والشَّوق إلى لقائه والتَّنعُّم بذكره وطاعته، ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدُّنيا ألبتة»(٢).

وثاني هذه الأمور: أن يُقبِل العبد على الله جَلَّ وَعَلَا داعيًا سائلًا راجيًا طامعًا؛ فإنَّ الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، والهداية منَّته وفضله جلَّ في علاه، ومِن دُعَاء نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما جاء في المسند وغيره، عن رفاعة الزُّرقيِّ، قال: لمَّا كان يوم أحد وانكفأ المشركون قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ**، إلى أن

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٢٠)، ومسلم (١٨٠٣).

(٢) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (ص٤٢).

قال: **اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ»**[(١)]. وهي دعوة عظيمة؛ جدير بالمسلم: أن يجعلها من جملة دعائه الَّذِي يدعو الله جَلَّ وَعَلَا به.

وكان من أكثر دعاء نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**[(٢)]. ولمَّا قال له عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو اللهَ بِهِ»**، قال: **«قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي. وَاذْكُرْ بِالْهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ»**. رواه مسلم[(٣)].

ثالث هذه الأمور: أن يستشعر العبد ضعفه وقلَّة حيلته، وأنَّه لا حول له ولا قُوَّة إلَّا بالله؛ جاء عَنِ التَّابعِيِّ الجليل مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، قال: «لو أُخرج قلبي فجُعل في يدي هذه اليسار، وجيء بالخير كلِّه وجُعل في يدي اليمين؛ لم أستطع أن أجعل شيئًا مِنَ الخير في قلبي، إلَّا أن يكون الله هو الَّذِي يضعه سبحانه»[(٤)]. فالعبد لا حول له ولا قُوَّة إلَّا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا صلاح لقلبه ولا زكاء إلَّا إذا أصلحه الله.

ورابع هذه الأمور: أنَّ هذا الاستشعار لهذه المِنَّة والعطيَّة؛ يُبعد عَنِ العبد عُجبه وغروره بنفسه؛ لأنَّ الإنسان رُبَّمَا أصابه عجبٌ بعمله من: صيام، أو

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٢٧٢٥).
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠١).

صلاة، أو صدقة، أو طلب للعلم، أو غير ذلك. فإذا استحضر هذه المِنَّة كان ذلك أعظمَ طاردٍ للعُجْب، ومُبعِدٍ له عَنِ النَّفس؛ لأنَّ العبد يستشعر أنَّ هذه الهداية بتفاصيلها وجميع جوانبها، إنَّما هي محض مِنَّة الله عليه وفضله جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمِنَّة لله وحده في أن جعل عبده قائمًا بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النَّحل:٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكُلَّمَا كان العبد أعظم توحيدًا؛ كان حظُّه من هذا المشهد أتمَّ.

وفيه مِنَ الفوائد: أنَّه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل ورؤيته؛ فإنَّه إذا شهد أنَّ الله سبحانه هو المانُّ به المُوَفِّق له الهادي إليه؛ شغله شهود ذلك عن رؤيته والإعجاب به وأن يصول به على النَّاس، فيُرفع من قلبه فلا يُعْجَب به، ومن لسانه فلا يَمُنُّ به ولا يتكَثَّر به، وهذا شأن العمل المرفوع»(١)

ولهذا؛ فإنَّ دواء العُجب كما جاء في القرآن أن تقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [الكهف:٣٩]، وأنَّ العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أو عمله- أن يضيف النِّعمة إلى موليها ومسديها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ

(١) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (ص٤٠).

جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف: ٣٩]، فتذكر نعمة الله عليك، وأنَّ الأمور كلَّها بمشيئته، وأنَّه لا قوَّة لك إلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعطي المانع الرَّافع الخافض القابض الباسِط، والأمر كلُّه بتدبيره ومنِّه وفضله جَلَّ وَعَلَا.

خامس هذه الأمور: أن يجدَّ العبدُ مجاهدًا نفسه على نيل هذه الهداية؛ ببذل أسبابها، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فالمقام يتطلَّب مِنَ العبد مجاهدةً للنَّفس، وأخذًا بأسباب الهداية، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١). وليحذر من مسالك طرق الزَّيغ والضَّلال وأبواب الفتن والشَّرِّ، وَلْيَنأى بنفسه عنها، وَلْيَبتعد عن مسالكها؛ حفظًا لإيمانه، وطلبًا لهداية قلبه. فإنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ ﴾ [الصَّف:٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وملاك هذا الشَّأن أربعة أمور: نيَّةٌ صحيحة، وقوَّة عالية يقارنهما: رغبة، ورهبة. فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشَّأن، ومهما دخل على العبد مِنَ النَّقص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه؛ فهو من نقصان هذه الأربعة، أو نقصان بعضها. فَلْيَتأمَّل اللَّبيب هذه الأربعة الأشياء، وَلْيَجعلها سَيْره وسُلُوكه، ويبني عليها: عُلُومَه، وأَعْمَالَه، وأَقْوَالَه، وأَحْوَالَه. فما نتج من نتج إلَّا منها، ولا تخلَّف مَن تخلَّف إلَّا مَن فقدها»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (ص٤٦).

قوله: «ملاك هذا الشَّأن» أي: جماع ذلك وما ينتظم به هذا الأمر، ومثل هذا التَّعبير ورد في السُّنَّة في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لمَّا سأل النَّبيَّ ﷺ عن عمل يدخله الجنَّة ويباعده مِنَ النَّار، فذكر له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مباني الإسلام، ثُمَّ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ: بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟**» ثمَّ أخبره بذلك، ثمَّ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**» فقلت له: بلى يا نَبِيَّ الله. فأخذ بلسانه، فقال: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، فقلت: يا رسول الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»، أو قال: «**عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[(١)]. فملاك الأمر: جماعه وأساسه الَّذي إن وفَّاه؛ تحقَّقت المصالح الأخرى، وإن ضيَّعه ضاعت المصالح كُلُّها.

فلا يجتمع للمرء أمره، ولا تنتظم مصالحه إلَّا إذا اجتمعت له هذه الأمور الأربعة، فهي مُحَرِّكات وأسس ودعائم، إن وجدت؛ أتى ما بعدها تبعًا لها، وإن لم توجد؛ ضاعت على الإنسان مصالحه، وانفرط عليه أمره.

وكُلُّها تتعَلَّق بالقلب، وبهذا يُعلم مكانة القلب ومنزلته، وأنَّه هو المُحَرِّك للِّسان والبدن، وأنَّه إذا طاب طاب اللِّسان وطابت الأعضاء، وإذا خاب خاب اللِّسان وخابت الأعضاء، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(٢)].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وأوَّل هذه الأمور الأربعة: النِّيَّة الصَّحيحة، والنِّيَّة بين العبد وبين الله، وفي الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(١). فالنِّيَّة: هي أساس الدِّين وقاعدته الَّتِي عليها يبنى؛ ولهذا من أهمِّ وأولى ما ينبغي أن يعتني به المسلم، في سيره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في صلاته، وصيامه، وحجِّه، وجميع طاعاته؛ إصلاحُ النِّيَّة. والأعمال ليست معتبرة إلَّا إذا قامت على النِّيَّة الصَّالحة، بأن يقصد العبد بعمله وجه الله وطلب مرضاته، لا غرض له في أعماله وقرباته وطاعاته، إلَّا نيل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يريد ثواب الله وأجره، ورحمته وفضله، والنَّجاة من عقابه وسخطه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، فلا يشكر جَلَّ وَعَلَا عمل العامل ولا يرضاه، إلَّا إذا قام على نِيَّة صحيحة.

والأمر الثَّاني: «**قوَّة عالية**» أي: قوَّة في القلب بأن يكون القلب –مع هذه النِّيَّة الصَّالحة– قويًّا في الإقبال على الطَّاعات؛ ليس فاترًا ولا متوانيًا ولا متراخيًا، وهذه القوَّة العالية في القلب هي الَّتِي ترقِّيه في دروب الكمال والفضائل.

فالمقصود: قوَّة القلب، وليس قوَّة البدن!! لأنَّ قوَّة القلب هي الَّتِي تحمل العبد على حسن الطَّاعة؛ ألست ترى بعض كبار السِّنِّ، يعاني من ضعف في القُوَّة والبدن ولين العظام وارتخاء الأعصاب، ورُبَّمَا يحسُّ بآلام وأوجاع، ثمَّ إذا نودي للصَّلاة تحامل على نفسه، ونهض بجسمه الضَّعيف وعظامه

---

(١) رواه البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).

الواهية؛ لا يستطيع النُّهوض إلَّا بمشقَّة عظيمة، ثمَّ يتوضَّأ ويذهب مُتَّكأ على عصاه ويخطو خطوات ثقيلة إلى أن يصل المسجد بجهدٍ جهيد، ثمَّ يقف في الصَّفِّ وتقرُّ عينه بهذا الوقوف فيه، فما الَّذي حمله على القيام لهذه الصَّلاة إلَّا قوَّةُ قلبه، بخلاف بعض الأقوياء بدنيًّا ينادَون للصَّلاة ولا يستجيبون -مع علمهم بمكانة الصَّلاة وفضلها وثوابها وعظم آثارها-؛ لضعف قوَّتهم القلبيَّة.

روى البيهقيُّ في شعب الإيمان عن شميط بن عجلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا فِي أَعْضَائِهِ، أَلَا تَرَوْنَ الشَّيْخَ يَكُونُ ضَعِيفًا يَصُومُ الْهَوَاجِرَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَالشَّبَابُ يَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ»[١].

نعم، قد يتعجَّب المرء وهو يرى بعض كبار السِّنِّ بأبدانهم الضَّعيفة يتحامل الواحد منهم على نفسه متَّكئًا على عصاه يجرُّ قدميه لا يتخلَّف عن الصَّلوات الخمس في بيوت الله، لكن يزول عنه هذا العجب إذا علم أنَّ هذا عائد إلى ما آتاهم الله من قُوَّة إيمان في قلوبهم، بخلاف ضعيفي الإيمان لا يتمكَّن الواحد منهم من النُّهوض إلى الصَّلاة ولو كان من أقوى النَّاس بدنًا وأصحِّهم جسمًا.

والأمر الثَّالث والرَّابع: الرَّغبة والرَّهبة، وهاتان الخصلتان -وهما من صفات القلوب- من أعظم المُحَرِّكات، الَّتِي تُحَرِّك العبد للإقبال على الفضائل، والتَّخلِّي عَنِ القبائح والرَّذائل، وكُلَّما قويت في القلب الرَّغبة والرَّهبة؛ قوي إقباله على الفضائل واجتنابه للرَّذائل.

---

(١) (٢٩٠٥).

فإذا عظم رجاء العبد فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حرَّكه هذا الرَّجاء العظيم إلى أن يقبل على الطَّاعات، وأن يستكثر مِنَ الحسنات، والأعمال المُقَرِّبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى راجيًا بتلك الأعمال ثواب الله.

وإذا قوي في قلبه الخوف مِنَ الله، ومِنْ عقابه، ومن ناره، ومن سخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حجزه عَنِ الرَّذائل، ومنعه عَنِ المُحَرَّمات خشيةً مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالرَّجاء قائد يقود العبد إلى الفضائل؛ الصَّلاة، وعموم الطَّاعات، وأنواع القربات. والخوف سائق وزاجر، فإذا حَدَّثت المرءَ نفسُه بارتكاب معصية؛ جاء هذا الزَّاجر وردعه ومنعه وحال بينه وبين المعصية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء:٥٧].

أسأل الله جلَّ في علاه أن يحفظ قلوبنا أجمعين، وأن يحبِّب إلينا الإيمان، وأن يزيِّنه في قلوبنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يجعلنا أجمعين مِنَ الرَّاشدين، مَنًّا منه وفضلًا.

١٢
المواعظ حياة القلوب

عن الْعِرْبَاض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ(١).

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ كَانَ عَبْدُ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِنَّمَا هُنَّ كَلِمَاتٌ يَسِيرَاتٌ». رواه أبو داود[(١)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**». فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**». قَالَ فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ. رواه البخاريُّ ومسلم واللَّفظ له[(٢)].

هذه الأحاديث -ولها نظائر كثيرة في السُّنَّة- تدلُّ على مكانة الوعظ العليَّة وعظم نفعه وقُوَّة تأثيره على القلوب وجلًا وخوفًا وإقبالًا على الله، وأنَّ مجالس الوعظ هي حياةُ القلوب ويقظتُها.

وعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ -يَا حَنْظَلَةُ-؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا

(١) رواه أبو داود (١١٠٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٠٤)، ومسلم (٨٨٥).

رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً**». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

وفي لفظ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَعَظَنَا فَذَكَرَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ. فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ. فَقَالَ: «**مَهْ**». فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَقَالَ: «**يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ**». رواه مسلم[(٢)].

فالقلوب في مجالس الوعظ والتَّذكير تتحرَّك خوفًا ورجاء ورغبةً ورهبةً لقُوَّة تأثير الوعظ عليها لما يرد فيها من مواعظ القرآن وهدي الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأعظم واعظ للقلوب كتابُ الله، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).

﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النُّور:٣٤].

فجعله تعالى شفاء لما في الصُّدور وهدى ورحمة للمؤمنين؛ لما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالتَّرغيب والتَّرهيب والتَّزهيد في الدُّنيا والتَّرغيب في الآخرة والأمثال والقصص الَّتِي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب ويقبل كُلَّما عظم حظُّه من مواعظ القرآن.

ومَن وفَّقه الله لحسن الانتفاع بمواعظ القرآن حاز خيرات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النِّساء:٦٦].

قال السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رتَّب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، **وهو أربعة أمور:**

أحدها: الخيريَّة في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المُتَّصفين بأوصافهم من أفعال الخير الَّتِي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأنَّ ثبوت الشَّيء يستلزم نفي ضِدِّه.

الثَّاني: حصول التَّثبيت والثَّبات وزيادته، فإنَّ الله يُثبِّت الَّذِين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الَّذِي هو القيام بما وُعِظُوا به، فيُثَبِّتهم في الحياة الدُّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنَّواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يُوَفَّقُون لفعل الأوامر وترك الزَّواجر الَّتِي تقتضي النَّفس فعلها، وعند حلول المصائب الَّتِي يكرهها العبد، فيُوَفَّق للتَّثبيت بالتَّوفيق للصَّبر أو للرِّضا أو للشُّكر. فينزل

عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثَّبات على الدِّين، عند الموت وفي القبر.

وأيضًا فإنَّ العبد القائم بما أُمِرَ به، لا يزال يتمرَّن على الأوامر الشَّرعيَّة حتَّى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثَّبات على الطَّاعات.

الثَّالث: قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء:٦٧] أي: في العاجل والآجل الَّذِي يكون للرُّوح والقلب والبدن، ومن النَّعيم المقيم ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الرَّابع: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص لشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنة للعلم بالحقِّ، ومحبَّته وإيثاره والعمل به، وتوقُّف السَّعادة والفلاح على ذلك، فمَن هُدِيَ إلى صراط مستقيم، فقد وُفِّقَ لكل خير واندفع عنه كلُّ شرٍّ وضير»(١).

وقد ذكر الله سبحانه أنَّ المنتفعين بمواعظ القرآن هم المُتَّقون، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النُّور:٣٤].

لأنَّ المُتَّقين هم الَّذِين يحسنون الانتفاع بعظاته فتهديهم إلى سبيل الخير والرَّشاد، وتزجرهم عن طريق الغيِّ والفساد، وأمَّا غير المُتَّقين فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحُجَّة من الله، ليهلك من هلك عن بيِّنة.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٨٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]؛ وهنا لطيفة تُزيل إشكالًا يفهم هنا: وهو أنَّه ليس من شرط هذا المُتَّقي المؤمن أن يكون كان من المُتَّقين المؤمنين قبل سماع القرآن، فإنَّ هذا أوَّلًا ممتنع؛ إذ لا يكون مؤمنًا متَّقيًا مَن لم يسمع شيئًا من القرآن.

وثانيًا: أنَّ الشَّرط إنَّما يجب أن يقارن المشروط، لا يجب أن يتقدَّمه تقدُّمًا زمانيًّا، كاستقبال القبلة في الصَّلاة.

وثالثًا: أنَّ المقصود أن يَبِينَ شيئان:

أحدهما: أنَّ الانتفاع به بالاهتداء والاتِّعاظ والرَّحمة هو -وإن كان موجبًا له- لكن لا بُدَّ مع الفاعل من القابل؛ إذ الكلام لا يُؤَثِّر فيمَن لا يكون قابلًا له، وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم، وهذا حال كُلِّ كلام.

الثَّاني: أن يُبيِّن أنَّ المُهْتدين بهذا هم المؤمنون المُتَّقون، ويستدلُّ بعدم الاهتداء به على عدم الإيمان والتَّقوى»(١).

فالموعظة إذًا لا تنفع إلَّا لمَن آمن بالله وخافه ورجاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النَّازعات:٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥).

وقد جعل الله سبحانه مراتب الدَّعوة بحسب حال المَدْعُوِّين، فمنهم المتسجيب الَّذِي لا يعاند فهذا يُدْعَى بطريق الحكمة، ومنهم القابل الَّذِي عنده نوع غفلة وتأخُّر فهذا يُدْعَى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنَّهي المقرون بالرَّغبة والرَّهبة، ومنهم المعاند الجاحد فهذا يجادل بالَّتِي هي أحسن، قال الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النَّحل:١٢٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر سبحانه مراتب الدَّعوة وجعلها **ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنَّه:**

* إمَّا أن يكون طالبًا للحقِّ، راغبًا فيه، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره إذا عرفه. فهذا يُدْعَى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال.

* وإمَّا أن يكون معرضًا، مشتغلًا بضدِّ الحقِّ، ولكن لو عُرِّفه عَرَفه وآثره واتَّبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالتَّرغيب والتَّرهيب.

* وإمَّا أن يكون معاندًا، معارضًا؛ فهذا يجادل بالَّتِي هي أحسن»[١].

كم تحتاج قلوب العباد إلى المواعظ الحسنة والنَّصائح الرَّفيقة الموقظة للقلوب، المُجَدِّدة للإيمان الطَّاردة للغفلة والعصيان.

والواعظ أثره في قلوب العباد عظيم ونفعه كبير، إن رزقه الله الإخلاص وحسن الموعظة والسَّبق إلى الخير والعمل بما يدعو إليه، وأمَّا مَن لم ينتفع

---

(١) الصَّواعق المرسلة (٢/ ٨٦٤).

بعلمه، فإنَّ موعظته لا تقبلها القلوب؛ لأنَّ النُّفوس كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجبولة على عدم الانتفاع بكلام مَن لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة مَن يصف له الطَّبيب دواء لمرض به مثله، والطَّبيب معرض عنه غير ملتفت»(١).

ومن نعمة الله على عبده المؤمن أن جعل له في قلبه واعظًا يزجره عن طريق الغفلة وسبلِ الانحراف.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **«ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»**(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد بيَّن في هذا الحديث العظيم - الَّذِي مَن عرفه انتفع به انتفاعًا بالغًا إن ساعده التَّوفيق؛ واستغنى به عن علوم كثيرة- أنَّ في قلب كلِّ مؤمن واعظًا، والوعظ هو الأمر والنَّهي والتَّرغيب

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٧٥ - ٧٦).
(٢) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

والتَّرهيب، وإذا كان القلب معمورًا بالتَّقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم؛ قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ سِرَاجًا يَزْهَرُ»[(١)][(٢)].

أصلح الله قلوبنا وأنار بصائرنا ويسَّر لنا أبواب الخير.

(١) مصنف أبي شيبه (٣٠٤٠٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥).

١٣

صلاح القلوب بالقرآن

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**». رواه أحمد والنَّسائِيُّ وابن ماجه[١].

وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**». رواه البخاريُّ[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**». رواه البخاريُّ[٣].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ**

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٢)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٧٩٧٧)، وابن ماجه (٢١٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٠٢٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٠٢٦).

الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ[(١)] رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ». متَّفق عليه[(٢)].

إنَّ أعظم أبوابِ إصلاح القلوب، وزيادةِ الإيمانِ، وثباتِه، وقوَّتِه؛ تلاوةُ القرآن الكريم، وتدبُّره؛ فإنَّ الله أنزلَه على عبادِه: هدًى، ورحمةً، وضياءً، ونورًا، وبشرى، وذِكرى للذَّاكرين.

قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل:٨٩].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

---

(١) الأترج: هُوَ التُّفَّاح. المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٤٩٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٤٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

فهذه الآياتُ الكريماتُ فيها فضلُ القُرآن الكريم كتابِ ربِّ العالمين، وأنَّ اللهَ جعَله مباركًا وهدًى للعالمين، وجعل فيه شفاءً مِنَ الأسقام، سِيَّمَا أسقامَ القلوب وأمراضها منْ شُبهات وشَهوات، وجعَله بُشرى ورَحمة للعالمين وذكرَى للذَّاكرين، وجعَله يهدي لِلَّتي هيَ أقوَم، وصرَّف فيه مِنَ الآيات والوعيد؛ لعلَّهم يتَّقون أو يُحْدِثُ لهم ذِكرى.

وذلك أنَّ الَّذي يقرأُ القرآن، ويتدبَّر آياتِه، ويتأمَّل هداياته؛ يجدُ فيه منَ العُلوم والمعارف ما يصلحُ قلبَه، ويقوِّي إيمانَه، ويزيدُه وينمِّيه؛ لأنَّه يجد في «خطابِ القُرآن مَلِكًا له الملكُ كلُّه، وله الحمدُ كلُّه، أزمَّةُ الأمورِ كلُّها بيده، ومصدرُها منه، ومردُّها إليه، مستويًا على عرشه، لا تخفى عليه خافيةٌ في أقطار مملكتِه، عالِمًا بما في نفوس عبيدِه، مطَّلِعًا على أسرارهم وعلانيَّتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمعُ ويرَى، ويعطي ويمنَع، ويثيبُ ويعاقبُ، ويكرمُ ويُهين، ويخلقُ ويرزقُ، ويميتُ ويحيي، ويقدِّر ويقضِي ويُدَبِّر، ويدعو عبادَه ويدلُّهم على ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم، ويرغِّبهم فيه، ويحذِّرهم ممَّا فيه هلاكهم، ويتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبَّبُ إليهم بنعمِه وآلائه، فيذكِّرهم بنعمِه عليهم، ويأمُرُهم بما يستَوجِبُون به تمامَها، ويحذِّرهم منْ نقمِه، ويذكِّرهم بما

أعدَّ لهم مِنَ الكرامة إنْ أطاعوه، وما أعدَّ لهم مِنَ العقوبة إنْ عَصَوْهُ، ويخبِرُهم بصُنْعِه في أوليائه وأعدائه، وكيفَ كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويُثني على أوليائه بصالِح أعمالهم، وأحسنِ أوصافهم، ويذمُّ أعداءَه بسيِّء أعمالهم، وقبيح صفاتِهم، ويضربُ الأمثال، وينوِّع الأدلَّة والبراهين، ويجيبُ عن شُبَه أعدائه أحسنَ الأجوبة، ويصدِّقُ الصَّادقَ، ويكذِّبُ الكاذبَ، ويقول الحقَّ، ويهدي السَّبيل، ويدعو إلى دار السَّلام، ويذكُر أوصافَها وحُسنَها ونعيمَها، ويحذِّر من دار البَوَارِ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكِّر عبادَه فقرَهم إليه وشدَّةَ حاجتهم إليه من كلِّ وجه، وأنَّهم لا غِنًى لهم عنه طرفةَ عيْنٍ، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنَّه الغنيُّ بنفسِه عن كلِّ ما سِواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بنفسِه، وأنَّه لا يَنَالُ أحدٌ ذَرَّةً منَ الخير فما فوقَها إلَّا بفضلِه ورحمتِه، ولا ذرَّةً منَ الشَّرِّ فما فوقَها إلَّا بعدلِه وحكمتِه.

ويشهدُ من خطابِه عتابَه لأحبابه ألطفَ عتابٍ، وأنَّه مع ذلكَ مُقيلُ عثراتِهم، وغافرُ زلَّاتهم، ومقيمُ أعذارهم، ومصلحُ فاسدهم، والدَّافعُ عنهم، والمحامي عنهم، والنَّاصِرُ لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمُنجي لهم من كلِّ كربٍ، والموفِّي لهم بوعدِه، وأنَّه وليُّهم الَّذي لا وليَّ لهم سِواه، فهو مولاهُم الحقُّ، ونصيرُهم على عدوِّهم، فَنِعْمَ المولَى ونِعْمَ النَّصير.

فلا يزالُ العبدُ يستَفيد منْ هذا التَّدبُّر لكتاب الله إصلاحًا لقلبه؛ لأنَّ قلبه يشهدُ فيه مِنَ العلوم ما يزيد في إيمانِه ويقوِّيه، وكيفَ لا؟! وهو يجدُ في القُرآن مَلكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنه، فكيفَ لا يحبُّه وينافسُ في القُرب

منه، وينفقُ أنفاسَه في التَّودُّد إليه، وكيفَ لا يكون أحبَّ إليه ممَّا سواه، وكيفَ لا يؤثِّر رضاه عن رضَى كلِّ مَن سواه، وكيفَ لا يلهَجُ بذكرِه، ويصير حبُّه والشَّوقُ إليه والأُنْسُ به؛ هو غذاؤه وقوَّتُه ودواؤه، بحيث إنْ فقد ذلك فَسَدَ وهَلَكَ، ولم ينتفع بحياته»(١).

قال الآجُريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن تدبَّر كلامَه عَرَفَ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرفَ عظيمَ سلطانِه وقدرتِه، وعرفَ عظيمَ تفضُّلِه على المؤمنين، وعرفَ ما عليه من فَرض عبادتِه، فألزَم نفسَه الواجبَ، فحذر ممَّا حذَّره مولَاه الكريمُ، فرغِبَ فيما رغَّبه، ومَن كانت هذه صفتُه عند تلاوتِه للقُرآن وعند اسْتِمَاعِه مِن غيره كانَ القُرآنُ له شفاءً؛ فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأَنِس ممَّا يستوحشُ منه غيرُه، وكان همُّه عند التِّلاوة للسُّورة -إذا افتتحها-: متى أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُو؟ ولم يكُن مرادُه: متى أَخْتِمُ السُّورةَ؟ وإنَّما مرادُه: متَى أعقِلُ عَنِ الله الخطابَ؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوةَ القُرآن عبادة، لا تكونُ بغفلةٍ، والله الموفِّق لذلك»(٢).

ولهذا فإنَّ الله الكريم أمَر عبادَه وحثَّهم على تدبُّر القرآن، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد:٢٤].

وأخبر سبحانَه أنَّه إنَّما أنزله لتتدبُّر آياته، فقال: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩].

---

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص٢٨ - ٢٩).
(٢) أخلاق أهل القرآن للآجُرِّيِّ (ص٣٦ - ٣٧).

وبيَّن سبحانه: أنَّ سببَ عدم هداية مَن ضلَّ عن الصِّراط المستقيم؛ هو تركُه لتدبُّر القرآن، واستكباره عن سَماعه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٨].

وأخبر سبحانه عَنِ القرآن: أنَّه يزيد المؤمنين إيمانًا إذا قرؤوه وتدبَّروا آياته، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وأخبر عن صالح أهل الكتابِ: أنَّ القرآن إذا تُلي عليهم؛ يخرُّون للأذقان سجَّدًا يبكون، ويزيدهم خشوعًا وإيمانًا وتسليمًا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وأخبر سبحانه: أنَّه لو أنزل القرآن الكريم على جبل لخشع وتصدَّع من خشية الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل هذا مثلًا للنَّاس يبيِّن لهم عظمةَ القرآن، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

ووصفه بأنَّه أحسَن الحديث، وأنَّه ثنَّى فيه مِنَ الآيات وردَّد القولَ فيه ليُفهَم، وأنَّ جلودَ الأبرار عند سماعِه تقشعرُّ خشيةً وخوفًا، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمر:٢٣].

وعاتبَ سبحانه المؤمنين على عَدم خشوعِهم عند سماع القُرآن، وحذَّرهم من مشابهة الكفَّار في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

فهذه الآيات المتقدِّمة فيها أوضَحُ دلالةٍ على أهمِّيَّة القُرآن، ولُزوم العناية به، وعلى قوَّة أثَره على القُلوب، وأنَّه أعظَم شيءٍ في إصلاحها، سِيَّمَا إذا كانت القراءة بتدبُّر وتأمُّل، واجتهاد لفَهم معانيه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبالجملة فلا شيءَ أنفَع للقَلب من قراءة القُرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر، فإنَّه جامعٌ لجميع منازلِ السَّائرين، وأحوالِ العاملين، ومقاماتِ العارفين، وهُو الَّذي يورث المحبَّة والشَّوق والخوف والرَّجاء والإنابة والتوكُّل والرِّضى والتَّفويض والشُّكر والصَّبر، وسائر الأحوال الَّتي بها حياةُ القَلب وكماله، وكذلك يزجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمُومة الَّتي بها فساد القَلب وهلاكه.

فلو علمَ النَّاس ما في قراءة القُرآن بالتَّدبُّر؛ لاشْتَغَلُوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر، حتَّى مرَّ بآية وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلة، فقِراءة آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ؛ خيرٌ من قراءة خَتْمَةٍ بغير تدبُّر وتفهُّم،

وأنفع للقَلب، وأدعَى إلى حُصُول الإيمان، وذَوْقِ حلاوة القُرآن...»[(١)].

فالقُرآن الكريم هُو من أعظم مقوِّيات الإيمان في القلوب، وأنفَع دواعي زيادتِه، وهُو يَزيد إيمانَ العَبد من وجوه متعدِّدة.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويُقَوِّيه من وجوهٍ كثيرةٍ، فالمؤمنُ بمجرَّد ما يتلو آياتِ الله، ويعرفُ ما رُكِّبَ عليه من الأخبار الصَّادقة، والأحكام الحَسَنة؛ يحصُلُ له من أمور الإيمان خيرٌ كثيرٌ، فكيفَ إذا أحسَنَ تأمُّلَه، وفَهم مقاصِدَه و أسرارَه؟»[(٢)].

لكن ينبَغي أن يُعلَم أنَّ صلاح القلوب بتلاوة القرآن، لا ينال إلَّا لِمَن اعتَنى بفَهْم القُرآن وتطبيقِه والعملِ به، لا أن يقرَأه قراءةً مجرَّدةً دونَ فهمٍ أو تدبُّرٍ، وإلَّا فكم قارئٍ للقُرآن، والقُرآن حجيجُه وخصيمُه يوم القيامة.

فقد ثبتَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[(٣)].

وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «...**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[(٤)].

فهو حجَّةٌ لكَ، ويزيدُ في إيمانِك إن عملتَ به، وحجَّةٌ عليك، وينقصُ إيمانُك إن فرَّطت به، وأهملتَ حدوده.

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٧).
(٢) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧٢ - ٧٣).
(٣) رواه مسلم (٨١٧).
(٤) رواه مسلم (٢٢٣).

قال قتادة: «لم يجالس هذا القُرآنَ أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادةٍ أو نقصانٍ»[(١)].

فينبَغي للمُسلم قَبل أنْ يقرَأَ القُرآنَ أن يتعلَّم كيفيَّةَ الاستفادةِ منه، حتَّى يتمَّ له الانتفاعُ به، وقَد ذكَر ابنُ القيِّم في هذا قاعدةً جليلةَ القَدْر، عظيمةَ النَّفع، فقال: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقُرآن؛ فاجمَع قلبَك عند تلاوتِه، وسماعِه، وألقِ سمعَك، واحضُرْ حضُورَ مَن يخاطبُه به مَن تكلَّم به سبحانه، منه إليه»[(٢)].

فمَن طبَّق هذه القاعدةَ، وسار على هذا النهَج عند تلاوته للقُرآن أو سماعِه إيَّاه؛ ظَفر بالعِلم والعَمل معًا، وطاب قلبه وصلح، وزاد إيمانُه وثبت ثبوتَ الجبالِ الشَّوامخ، والله المسؤول أنْ يوفِّقنا لذلك ولكلِّ خيرٍ.

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٧٨٨)، والفريابيُّ في فضائل القرآن (٧٧).

(٢) الفوائد لابن القيِّم (ص٣).

١٤
تأثير القرآن على القلوب

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي». رواه البخاريُّ(١)، وفي رواية: قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطُّور:٣٥]. كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِفِنَاءِ بَيْتِهِ بِمَكَّةَ جَالِسٌ، إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَشَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا تَجْلِسُ؟**» قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُهُ إِذْ شَخَصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينِهِ فِي الأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ، وَأَخَذَ يُنْغِضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْقِهُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَابْنُ مَظْعُونٍ يَنْظُرُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ، وَاسْتَفْقَهَ مَا يُقَالُ لَهُ، شَخَصَ بَصَرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَصَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٠٢٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٥٤).

حَتَّى تَوَارَى فِي السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَانَ بِجِلْسَتِهِ الأُولَى، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ كُنْتُ أُجَالِسُكَ وَآتِيكَ، مَا رَأَيْتُكَ تَفعَلُ كَفِعْلِكَ الْغَدَاةَ قَالَ: «**وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟**» قَالَ: رَأَيْتُكَ تَشْخَصُ بِبَصَرِكَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي، فَأَخَذْتَ تُنْغِضُ رَأْسَكَ كَأَنَّكَ تَسْتَفْقِهُ شَيْئًا يُقَالُ لَكَ. قَالَ: «**وَفَطِنْتَ لِذَاكَ؟**» قَالَ عُثْمَانُ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَانِي رَسُولُ اللهِ آنِفًا، وَأَنْتَ جَالِسٌ**» قَالَ: رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:٩٠]. قَالَ عُثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي، وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا». رواه أحمد(١).

في هذه الأخبار العظيمة قُوَّة تأثير القرآن على القلوب حين سماع آياته وأنَّه كان سببًا في إسلام خلق ودخولهم في دين الإسلام، وتغيُّر قلوبهم بسماعه من الكفر والضَّلال إلى الإيمان والهدى، وقد قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [التَّوبة:٦]، فإذا سمعه العربيُّ فهم معناه وشعر أنَّه معجز للبشر، وفهم حججه البيِّنة على التَّوحيد والرِّسالة والبعث، وإذا أكرمه الله فألقى إليه السَّمع وهو شهيد لا يلبث أن يظهر له الحقُّ ولا يلبث أن يؤمن.

قال القاضي عياض ضمن حديث له عن وجوه الإعجاز في القرآن(٢):

(١) رواه أحمد (٢٩١٩).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٧٣).

«ومنها الرَّوعةُ الَّتِي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبةُ الَّتِي تعتريهم عند تلاوته؛ لقُوَّةِ حاله وإنافةِ خطره، وهي على المُكَذِّبين به أعظم، حتَّى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدُهم نفورًا كما قال تعالى، ويَوَدُّون انقطاعه لكراهتهم له... وأمَّا المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إيَّاه مع تلاوته توليه انجذابًا و تكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر:٢٣]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

ويدلُّ على أنَّ هذا شيء خُصَّ به أنَّه يعتري مَن لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما رُوي عن نصرانِيٍّ -أنَّه مرَّ بقارئ- فوقف يبكي، فقيل له: ممَّ بكيت؟ قال: للشَّجا والنَّظم.

وهذه الرَّوعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم مَن أسلم لها لأوَّل وهلة وآمن به، ومنهم مَن كفر».

ثمَّ ذكر قصَّة إسلام جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المتقدِّمة.

ثمَّ قال: «وعن عتبة بن ربيعة أنَّه كلَّم النَّبِيَّ ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ

وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ
بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن
فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ
دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ
فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلت:١-١٣].

فامسك عتبة بيده على فِيِّ النَّبِيِّ ﷺ وناشده الرَّحم أن يَكُفَّ».

وفي رواية: «فجعل النَّبِيُّ ﷺ يقرأ وعتبة مصغٍ ملقٍ يديه خلف ظهره معتمد عليهما حتَّى انتهى إلى السَّجدة فسجد النَّبِيُّ ﷺ وقام عتبة لا يدري بما يراجعه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتَّى أتوه فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلَّمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قطُّ فما دريت ما أقول له»(١).

ومَن يطالع كتب التَّاريخ والسِّير يجد أخبارًا عجيبة لخلق كان سببُ إسلامهم سماعَ القرآن وتأثرهم عند سماعه، فأحدث فيهم تحوُّلًا من الكفر المظلم في قلوبهم إلى الإيمان ونوره وضيائه.

روى البزَّار في مسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: «قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتُحِبُّونَ أَنْ أُعْلِمَكُمْ، أَوَّلَ إِسْلَامِي؟ قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كُنْتُ أَشَدَّ

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٧٥).

النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَيْنَا أَنَا فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ فِي بَعْضِ طُرُقِ مَكَّةَ إِذْ رَآنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكَ هَذَا الأَمْرُ فِي مَنْزِلِكَ وَأَنْتَ تَقُولُ هَكَذَا، فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ أُخْتَكَ قَدْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَرَجَعْتُ مُغْتَضِبًا حَتَّى قَرَعْتُ عَلَيْهَا الْبَابَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَسْلَمَ بَعْضُ مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ ضَمَّ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ إِلَى الرَّجُلِ يُنْفِقُ عَلَيْهِ قَالَ: وَكَانَ ضَمَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى زَوْجِ أُخْتِي، قَالَ: فَقَرَعْتُ الْبَابَ، فَقِيلَ لِي: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: أَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَقَدْ كَانُوا يَقْرَؤُونَ كِتَابًا فِي أَيْدِيهِمْ فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتِي قَامُوا حَتَّى اخْتَبَئُوا فِي مَكَانٍ وَتَرَكُوا الْكِتَابَ، فَلَمَّا فَتَحَتْ لِي أُخْتِيَ الْبَابَ قُلْتُ: أَيَا عَدُوَّةَ نَفْسِهَا أَصَبَوْتِ؟ قَالَ: وَأَرْفَعُ شَيْئًا فَأَضْرِبُ بِهِ عَلَى رَأْسِهَا، فَبَكَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ لِي: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اصْنَعْ مَا كُنْتَ صَانِعًا فَقَدْ أَسْلَمْتُ، فَذَهَبْتُ فَجَلَسْتُ عَلَى السَّرِيرِ فَإِذَا بِصَحِيفَةٍ وَسَطَ الْبَابِ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الصَّحِيفَةُ هَا هُنَا؟ فَقَالَتْ لِي: دَعْنَا عَنْكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَإِنَّكَ لَا تَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَا تَتَطَهَّرُ، وَهَذَا لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَمَا زِلْتُ بِهَا حَتَّى أَعْطَتْنِيهَا فَإِذَا فِيهَا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَلَمَّا قَرَأْتُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَذَكَّرْتُ مِنْ أَيْنَ اشْتُقَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقَرَأْتُ فِي الصَّحِيفَةِ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد:١]. فَكُلَّمَا مَرَرْتُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ ذَكَرْتُ اللهَ، فَأَلْقَيْتُ الصَّحِيفَةَ مِنْ يَدِي، قَالَ: ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى نَفْسِي فَأَقْرَأُ فِيهَا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد:٧]. قَالَ: قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللهِ، فَخَرَجَ الْقَوْمُ مُبَادِرِينَ فَكَبَّرُوا اسْتَبْشَارًا بِذَلِكَ، ثُمَّ قَالُوا لِي: أَبْشِرْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الدِّينَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، إِمَّا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَإِمَّا أَبُو جَهْلِ ابْنُ هِشَامٍ**»، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ فَقُلْتُ: دُلُّونِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَيْنَ هُوَ؟ فَلَمَّا عَرَفُوا الصِّدْقَ مِنِّي دَلُّونِي عَلَيْهِ فِي الْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ فِيهِ»(١). فأتاه وأعلن إسلامه بين يديه.

وروى ابن سعد عن أبي عون الدَّوسيِّ، والبيهقيُّ عن ابن إسحاق، وابن جرير وأبو الفرج الأمويُّ عن العبَّاس بن هشام، عن أبيه أنَّ الطُّفيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّث: «أنَّه قدم مكَّة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطُّفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: يا طفيل إنَّك قدمت بلادنا وهذا الرَّجل الَّذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وفرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا.

وإنَّما قوله: كالسِّحر يُفَرِّق بين المرء وأبيه وبين الرَّجل وأخيه وبين الرَّجل وزوجته، وإنَّا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا فلا تكلِّمه ولا تسمع منه.

قال: فو الله ما زالوا بي حتَّى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلِّمه وحتَّى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا فَرَقًا من أن يبلغني شيء من قوله.

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يُصَلِّي عند الكعبة، فقمت

(١) رواه البزَّار في مسنده (٢٧٩).

قريبًا منه، فأبى الله تعالى إلَّا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا فقلت في نفسي: إنِّي لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرَّجل ما يقول، فإن كان الَّذِي يأتي به حسنًا قبلت وإن كان قبيحًا تركت؟ فمكثت حتَّى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت: إنَّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا، وإنِّي شاعر فاسمع ما أقول.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**هات**»، فأنشدته.

فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا أقول، فاسمع**».

ثمَّ قرأ: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]. إلى آخرها و: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق:١]. إلى آخرها و: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]. إلى آخرها وعرض عليَّ الإسلام، فلا والله ما سمعت قولًا قطُّ أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه فأسلمت»[(١)].

وروى البخاريُّ ومسلم: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ؛ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ

(١) رواه ابن هشام في السِّيرة (١/ ٣٨٢)، وابن سعد في الطَّبقات (٤/ ٢٢٣)، وإسماعيل الأصبهانِيُّ في دلائل النُّبوَّة (ص٢١٢).

السَّمَاءِ. فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ -هُوَ بِنَخْلٍ- عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١-٢]»[١].

والقصص والشَّواهد في هذا الباب كثيرة الدَّالةُ على قُوَّة تأثير القرآن على القلوب وأنَّه باب صلاحها وزكائها لمَن ألقى السَّمع وهو شهيد، اللَّهُمَّ اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجِلاء همومنا وغمومنا.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩).

١٥
أمثال القرآن

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَا تَحُتُّ وَرَقَهَا؟**» فَوَقَعَ فِي نَفْسِي: أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»، فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِي قُلْتُ: يَا أَبَتَاهْ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَهَا لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: مَا مَنَعَنِي إِلَّا أَنِّي لَمْ أَرَكَ، وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا فَكَرِهْتُ». متَّفق عليه[(١)].

وقد خرج هذا الحديث مخرج التَّفسير لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

فهذا مَثَلٌ بديعٌ عظيمُ الفائدةِ، مُطابقٌ لما ضُرِب له تمام المطابقة، وقد بدأه الله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٩٢)، ومسلم (٢٨١١).

أي: ألم ترَ بعين قلبِك فتعلمَ كيف مثَّل الله مثلًا وشبَّهه شبهًا للكلمة الطَّيِّبة كلمة الإيمان، وختمَه بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنَّ القصد من ضرب هذا المثل وغيرِه من الأمثال هو تذكيرُ النَّاس ودعوتُهم إلى الاعتبار وعقلِ الخطاب عن الله.

ولاشكَّ أنَّ هذا البدء والختم في الآية فيه أعظم حَضٍّ على تعلُّمِ هذا المثل وتَعَقُّلِه، وفيه دلالة على عِظم شأن الأمثال المضروبة في القرآن، وأهمِّيَّة عقلها وتعلمها؛ فإنَّها من أعظم دلائل الإيمان الَّتِي اشتمل عليها القرآن، وبها تتَّضح حقيقتُه، وتستبينُ تفاصيلُه وشُعَبُه، وتظهرُ ثمرتُه وفوائدُه.

والمَثَلُ: هو عبارة عن قولٍ في شيء يُشبِه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة لتبيين أحدهما من الآخر وتصويره، ولا ريب «أنَّ ضربَ الأمثالِ ممَّا يأنسُ به العقلُ، لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى -وكلامه المشتمل على أعظم الحِجَج وقواطع البراهين-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقد اشتمل منها [أي: القرآن] على بضعة وأربعين مثلًا، وكان بعضُ السَّلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتدُّ بكاؤُه ويقول: لست من العالِمين»[(١)]، وكان قتادة يقول: «اعقلوا عَنِ الله الأمثال»[(٢)].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضرب في القرآن أمثالًا كثيرة، جلُّها في بيان التَّوحيد وتقرير الإيمان وإبطال الشِّرك، وما من شكٍّ أنَّ التَّفكُّر في هذه الأمثال المضروبة في

(١) توضيح المقاصد شرح نونيَّة ابن القيِّم (١/ ٣٣).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٢٦٥).

القرآن يُعَدُّ حياةً للقلوب ويقظةً لها من غفلتها؛ ولهذا قال سبحانه في خاتمة الآية: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم:٢٥]، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزُّمر:٢٧]؛ فإنَّ المثل من شأنه أنَّه يُقَرِّب المعاني إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الرُّوم:٢٨]، أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، وفي القرآن أمثال كثيرة يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنَّها الحقُّ من ربِّهم، ويهديهم الله بها إلى أقوم السُّبل فتكون صلاحًا لقلوبهم وأعمالهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَرْبُ. الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التَّذكير، والوعظ، والحثُّ، والزَّجر، والاعتبار، والتَّقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحسِّ؛ وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذَّمِّ، وعلى الثَّواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر»[١].

وهذه وقفة مع مثل ضربه الله في القرآن لبيان قوَّة تأثير القرآن على القلوب، لما تحوي عليه آياته المحكمات ومواعظه المُؤَثِّرات وهداياته النَّافعات من تأثير عظيم على القلوب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيِّم (٤/ ٩).

قال السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعًا مُتصدِّعًا من خشية الله؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإنَّ مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النُّفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التَّكلُّف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكُلِّ زمان ومكان، وتليق لكُلِّ أحد»(١).

وقد بيَّن الله جَلَّ وَعَلَا قوَّة تأثير القرآن بأنَّه لو أُنزل على جبل لتصدَّع من خشية الله؛ وإذا كان هذا شأن الجبل في قوَّة تأثير القرآن عليه، وهو جبلٌ أَصَمُّ صُلْبٌ مُصْمَتٌ؛ لتصدَّع من خشية الله فما الشَّأن في قلب الإنسان؟!

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخبر عنها (أي الجبال) فاطرُها وباريها أنَّه لو أنزل عليها كلامه؛ لخشعت ولتصدَّعت من خشية الله، فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها ويُذْكَر الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب»(٢).

فالواجب على المسلم أن يعتبر بهذا المثل، وأن يتَّعظ، وأن يعمل على أن يكون للقرآن أثر على قلبه، وأن يكون منتفعًا بهدايات القرآن، وأن يتفقَّد نفسه فيما كان فيها من إخلال وتقصير في هذا الجانب العظيم.

وما من شكٍّ أنَّ هذا التَّأثير للقرآن الكريم متوقِّفٌ على حسن التَّدبُّر لآياته

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٥٣).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٢١).

والتَّأمُّل في معانيه والعقل لدلالاته، لا أن يكون حظُّ الإنسان منه مُجَرَّد القراءة بل لا بُدَّ من تأمُّل، حتَّى وإن احتاج التَّأمُّل من المرء أن يقف مع آية واحدة يومًا أو ليلةً كاملة؛ لأنَّ التَّأثُّر به والانتفاع موقوف على حُسن التَّدبُّر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما أنزل هذا الكتاب لِتُتَدَبَّر آياته كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وجاء في غير ما آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الحثُّ على تدبُّر القرآن، والإنكار على من ضيَّع ذلك وفرَّط فيه وأهمله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النِّساء:٨٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمَّد:٢٤].

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنَّ تدبُّر القرآن وتأمُّل معانيه أمنة للعبد من الضَّلال وسلامةٌ له من الباطل، فقال سبحانه: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٨]، أي: لو أنَّهم تدبَّروا القول لما نكصوا على الأعقاب، ولما كانوا من أهل الضَّلال؛ فتدبُّر القول الَّذِي هو القرآن أمنةٌ للعبد من الضَّلال، وسلامةٌ له من الغواية، وحمايةٌ له من الباطل وحصنٌ له من كُلِّ شرٍّ.

وهكذا الشَّأن في الاستشفاء بالقرآن، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس:٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء:٨٢]؛ فالقرآن شفاء للصُّدور من أدوائها وأسقامها وأمراضها، وشفاء لها من أمراض الشُّبهات وأمراض الشَّهوات،

وفيه حَلٌّ لكُلِّ المشكلات الَّتِي تعرض للإنسان والعقبات الَّتِي تقف في طريقه، ولكن لا يصل المرء إلى ذلك ولا ينتفع بهدايات القرآن الكريم إلَّا إذا وُفِّق للتَّدبُّر والتَّأمُّل في معانيه.

وعليه؛ فإنَّ العبد في هذا المقام تجاه القرآن الكريم يحتاج إلى إحسان مع القرآن في ثلاثة أبواب: إحسان في القراءة، وإحسان في الفهم، وإحسان في العمل.

وليحذر من الهجر للقرآن قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، وهو يتناول ذلك كلَّه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هجر القرآن أنواع:**

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثَّاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثَّالث: هجر تحكيمه والتَّحاكم إليه في أصول الدِّين وفروعه، واعتقاد أنَّه لا يفيد اليقين، وأنَّ أدلَّته لفظيَّة لا تحصل العلم.

والرَّابع: هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المُتَكَلِّم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتَّداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التَّداوي به، وكلُّ هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[١].

---

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص١١٨).

فالعبد لا يكون تاليًا للقرآن حقَّ التِّلاوة إلَّا بهذه الأمور الثَّلاثة؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة:١٢١]، وقد بيَّن العلماء -رحمهم الله تعالى- أنَّ تلاوة القرآن تشمل هذه الأمور الثَّلاثة بما في ذلك العمل؛ فإنَّ العمل بالقرآن يُعَدُّ تلاوة للقرآن، فمَن صلَّى وأحسن في صلاته، ومَن صام وأحسن في صيامه، وحجَّ وأحسن في حجِّه، وبرَّ والديه وأحسن في برِّه، وتصدَّق وأحسن في صدقته؛ فهذه كلُّها تُعَدُّ تلاوة للقرآن، لأنَّ اتِّباع ما جاء به القرآن من تلاوة القرآن، والله سبحانه يقول: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشَّمس:٢]، أي: تبعها، فاتِّباع القرآن تلاوة له، بل لا يكون تاليًا للقرآن حقًّا حتَّى يعمل بالقرآن، ولهذا جاء في الحديث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ**»[1]، فقيَّده بهذا القيد «**الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ**» بمعنى: أنَّه لا يكون من أهله إلَّا بالعمل به، ومن المعلوم أنَّ العمل بالقرآن فرع عن التَّأمُّل والتَّدبُّر والفهم للقرآن الكريم، لا أن يكون حظُّ المرء من القرآن مُجَرَّد التِّلاوة وإقامة الحروف دون إقامة لحدود القرآن، وقد قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «أُنزل هذا القرآن ليُعمل به، فاتَّخذ النَّاس قراءته عملًا»[2]؛ أي: جعلوا العمل بالقرآن هو قراءته فقط، والقرآن إنَّمَا أنزل ليُعمل به؛ لأنَّ فيه هدايات وإخراجًا من الظُّلمات وإرشادًا إلى الحقِّ والهدى وبيانًا للطَّاعات، ولا يستقيم لعبد تحقيق ذلك إلَّا إذا أحسن التَّدبُّر ثمَّ أحسن العمل.

فما أحوج قلوبنا إلى القرآن الكريم معرفةً بعظمته وإدراكًا لمكانته واهتداءً

(١) رواه مسلم (٨٠٥).
(٢) رواه الآجُرِّيُّ في أخلاق أهل القرآن (٣٧).

بهداياته ولزومًا لما يدعو إليه من صلاح العباد وفلاحهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم، ويعينُ العبد على تحقيق هذا المطلب إدراكه أنَّ القرآن كلام ربِّ العالمين وتنزيل العليِّ الحكيم أنزله سبحانه هدايةً للعباد وصلاحًا للنَّاس يخرجهم به من الظُّلمات إلى النُّور، ومعرفته بصفات القرآن العظيمة ونعوته الجليلة الدَّالَّة على عظيم مكانته ورفعة شأنه؛ لتكون هذه المعرفة عونًا له على الإقبال على القرآن تدبُّرًا واهتداءً بهداياته العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، جمعت هاتان الآيتان الكريمتان سبع صفات عظيمة للقرآن:

الأولى: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهو كتاب مُنَزَّلٌ من ربِّ العالمين، تكلَّم الله جَلَّ وَعَلَا به وسمعه منه جبريل، ونزل به جبريل على محمَّد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، ومن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سمعه الصَّحابة الكرام، ومن الصَّحابة سمعه تابعوهم، ومن التَّابعين تابعو الأتباع، وهكذا تلقَّاه الآخِر عن الأوَّل بالأسانيد المضبوطة مصونًا محفوظًا مؤيَّدًا بتأييد الله جلَّ في علاه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

الثَّانية: في قوله: ﴿نُورٌ﴾ أي: يُهْتَدى به في الظُّلمات، فيستضيء به السَّالك وينجو بإضاءته من المهالك، فلا هداية إلَّا بنور القرآن، ولا خروج

من الظُّلمات بأنواعها والشُّرور بأصنافها ولا نجاة إلَّا بنور القرآن.

الثَّالثة والرَّابعة: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾؛ «كتاب» بمعنى مكتوب وهو من الكَتْبِ وهو الجمع والضَّمُّ؛ لأنَّه جمع العلوم والأخبار والقصص والأحكام على أتمِّ الوجوه وأكملها وأتقنها وأحسنها. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي: للحقِّ مُوَضِّح له مرشدٌ إليه، يهدي العباد إلى الَّتِي هي أقوم ويدلُّهم إلى الَّتِي هي أرشد، ففيه بيان مصالح العباد كلِّها ومنافعهم جميعها في دنياهم وأخراهم.

الخامسة: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾؛ فهو كتابٌ فيه هداية العباد إلى سبل السَّلام، أي طرق الخير ودروبه، وهي شعب الإيمان وخصال الدِّين المُتَنَوِّعة العظيمة.

والسَّادسة: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، فهو كتابٌ يخرج العباد من الظُّلمات بأنواعها؛ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والسُّنَّة والطَّاعة والعلم وذكر الله جلَّ في علاه.

السَّابعة: في قوله في تمام هذا السِّياق: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: سبيلٍ قويمٍ واضحة بيِّنة يصل من خلالها العبد إلى رضوان الله والفوز بجنَّات النَّعيم، وهو دينه الَّذِي رضيه لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يرزقنا قلوبًا مُعَظِّمةً للقرآن، مدركةً لمكانته، معتنيةً به، متدبِّرةً له، مهتديةً بهداياته؛ إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدُّعاء، وهو أهل الرَّجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٦
تعظيم القرآن

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ أَوْصَى رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «لَا، قُلْتُ: فَلِمَ كُتِبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْوَصِيَّةُ أَوْ فَلِمَ أُمِرُوا بِالْوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ». متَّفق عليه(١).

أفاد هذا الحديث العظيم: أنَّ القرآن الكريم هو وصيَّة رسول الله ﷺ لأُمَّته أن يُعَظِّموا هذا القرآن وأن يقدروا له قدره ويعرفوا له مكانته، ويُعْنَوا بحفظه حسًّا ومعنًى؛ فيُكرمَ ويُصَان وتُتَّبعَ أوامره وتُجتنبَ نواهيه ويُدَاوم على تلاوته وتعلُّمه وتعليمه، وأن يدركوا أنَّ هذا القرآن؛ نعمةٌ عظمى، وعطيَّةٌ كبرى، وهبةٌ جليلة، منَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها على أُمَّة الإسلام.

والله جَلَّ وَعَلَا حمِد نفسه على إنزال هذا القرآن والمنِّ به على العباد، وتمدَّح إلى عباده بهذه النِّعمة العظيمة والمِنَّة الجسيمة، وذكر جلَّ شأنه عِظم مقام هذه النِّعمة ورفعة شأنها في مواضع عديدة من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٤٠)، ومسلم (١٦٣٤).

لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:١-٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

فالقرآن شرف أُمَّة الإسلام ومفخرتها العظمى ومنقبتها الخالدة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرف:٤٤]، أي: شرفٌ لكم وعِزٌّ ومفخرة ورفعة ومنَّة عظيمة ومنقبة خالدة منَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليكم بها، وعنها تُسألون يوم القيامة، أي: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا سائلكم عن هذا القرآن. كيف أنتم مع هذا القرآن؟

هل عظَّمتموه حقَّ تعظيمه! وقدرتم له قدره! وعرفتم له مكانته! وتَلَوْتُمُوه كما ينبغي علمًا وعملًا؟! أم أنَّ حظَّكم منه هجرًا وصدودًا وإعراضًا وتنكُّبًا؟!

نعم، عن هذا القرآن يسأل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ يوم القيامة؛ عن شأنهم مع هذا الكتاب العظيم؟!

فيا ويل مَن كان حظُّ القرآن منه الهجر والصُّدود والإعراض، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

ويا ويل مَن أعرض عن القرآن عن تلاوته وعن فهمه والعمل به، ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه:٩٩-١٠١].

ويا ويل ثمَّ ويل مَن يكون شأنه مع القرآن استخفافًا واستهزاء، وسخريةً وتهكُّمًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ﴾ [التَّوبة:٦٥-٦٦].

ويا ويح مَن يلحد في آيات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويميل بها عن مقاصدها العظيمة وغاياتها الجليلة وأهدافها النَّبيلة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٠-٤٢].

وعندما لا يعي النَّاس قدر القرآن ومكانته العظمى ومنزلته العليَّة، وأنَّه

مفخرة أُمَّة الإسلام وعزُّها ورفعتها؛ يظهر في أوساطهم صنوفٌ من الاستهانة بالقرآن والاستخفاف به، وعدم التَّعظيم لمقامه، وعدم إنزاله منزلته اللَّائقة به، وعدُّ هذه الصُّور يطول به المقام، لكن علينا أن نعظِّم كتاب ربِّنا وأن نعيَ أنَّه عزُّنا وشرفنا، وأنَّ إضاعتنا لهذا القرآن وعدم تعظيمنا له ضياع لنا في الدُّنيا والآخرة. نحن قوم أعزَّنا الله بالقرآن ورفع شأننا بالقرآن وأعلى مقامنا بالقرآن؛ فمتى ضيَّعنا القرآن ضِعنا.

إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنزل هذا القرآن ليُعمل به وليكون منهج حياةٍ للمسلمين؛ يهتدون بهداياته، ويستضيئون بإضاءاته، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويحلِّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويصدِّقون أخباره. ومتى كان المسلمون كذلك مع القرآن كانوا في عزٍّ ورفعة وسموٍّ وعُلُوٍّ في الدُّنيا والآخرة.

لنحاسب أنفسنا كيف نحن مع هذا الكتاب العظيم!! كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي لا يقادَر قدره ولا تُدرك عظمته ومكانته وعُلُوُّ شأنه، كيف نحن مع هذا القرآن!! هل عظَّمناه حقَّ تعظيمه وعرفنا له مكانته؟ هل عرفنا أنَّ فضله على غيره من الكلام كفضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على خلقه؟ هل علِمنا وتيقَّنَّا أنَّه سبب عزِّنا وسبيل هدايتنا ورفعتنا في الدُّنيا والآخرة؟ هل اعتنينا بتنشئة أبنائنا وتربيتهم على تعظيم القرآن والحفاوة به والعناية به تلاوةً وفهمًا وعملًا؟

يا أُمَّة القرآن: يجب علينا أن نعظِّم هذا الكتاب، وأن نعرف له مكانته وقدره، وأن تُعمر قلوبنا بتعظيمه.

وهذه وقفة تذكير في بيان بعض الجوانب من تعظيم القرآن:

إنَّ من تعظيم القرآن أن نستشعر عظمة مَن تكَلَّم به جلَّ في علاه، وأنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السَّجدة:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشُّعراء:١٩٢-١٩٣]، فلنستشعر هذه العظمة للقرآن الكريم باستشعار عظمة وجلال وكمال مَن تكَلَّم به وأنزله جلَّ وعزَّ.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن نعتقد أنَّه أعظم الكلام وأفضله وأجلُّه على الإطلاق، لا كان ولا يكون في الكلام مثله ولا قريبًا منه، والفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بينه وبين خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى:١١]، وكذلك ليس كمثل كلامه كلام، قال أبو عبد الرَّحمن السُّلَميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»(١).

وإنَّ من تعظيم القرآن أن نعمُر قلوبنا بمحبَّة القرآن؛ فإنَّ محبَّته من محبَّة مَن تكَلَّم به جلَّ شأنه، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَن أراد أن يعلم أنَّه يحِبُّ الله فليعرِض نفسه على القرآن؛ فإنَّ أحبَّ القرآن؛ فإنَّه يُحِبُّ الله، فإنَّما القرآن كلامه عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن نعتقد كمال القرآن، وأنَّه لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأنَّه سالمٌ من الاضطراب أو التَّعارض أو التَّناقض، قال الله عَزَّوَجَلَّ:

(١) انظر: خلق أفعال العباد للبخاريِّ (ص٤٠).
(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السُّنَّة (١٢٥).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء:٨٢]، وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فُصِّلت:٤٢].

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن نتلقَّاه كلَّه بالقبول، وأن لا يُرَدَّ شيء منه، فإنَّ مَن ردَّ شيئًا من القرآن فإنَّما يَرُدُّ على مَن تكلَّم به جلَّ في علاه، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «القرآن كلام الله؛ فمَن ردَّ شيئًا من القرآن فإنَّما يَرُدُّ على الله عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن يُحذر أشدَّ الحذر من الاستهزاء بشيء من آياته أو الانتقاص لشيء من مضامينه؛ فإنَّ هذا كفرٌ بالله جلَّ في علاه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التَّوبة:٦٥-٦٦].

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن نعتقد شموله ووفاءه بجميع المطالب، وأنَّه اشتمل على بيان كلِّ ما يحتاج إليه العباد من مصالحهم الدِّينيَّة والأخرويَّة، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النَّحل:٨٩]، فهو كتاب قد استوفى جميع حاجات العباد ومطالبهم، ففيه أكمل العقائد وأعظم الآداب وأكمل العبادات، قد استوفى جميع الحاجات والمطالب.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن ننتصر للقرآن، وأن نكون أنصارًا للقرآن؛ ذابِّين عنه مدافعين عن حماه، كلٌّ بحسب ما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من قدرةٍ وبيان، وأنَّه نزل من عند الله بالحقِّ والهدى لا شكَّ فيه ولا مرية ولا ريب، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في السُّنَّة (١١٩).

ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرَّعد:١].

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن نحذر أشدَّ الحذر من الهجر للقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، وقد بيَّن العلماء أنَّ الهجر للقرآن يكون بالهجر للتِّلاوة، ويكون بالهجر للتَّدبُّر والتَّأمُّل، ويكون بالهجر للعمل بالقرآن.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن نجاهد أنفسنا على تلاوة هذا الكتاب جَهدنا حقَّ التِّلاوة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ [البقرة:١٢١]، ومعنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ كما بيَّن العلماء أي: بالجمع بين القراءة، وحُسن الفهم للمعاني، والعمل بدلالات القرآن وهداياته العظيمة.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: الرِّضى بحكمه والخضوع لما جاء به وعدم معارضته بكلام البشر لا في قليل ولا كثير؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن يقصد تاليه وحافظُه بذلك وجه الله لا الرِّياء والسُّمعة والشُّهرة؛ فإنَّ أوَّل مَن تُسعَّر بهم النَّار يوم القيامة رجل قرأ القرآن «**لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ**»(١)، ولا ليتأكَّل به كمَن يقرأ القرآن في الطُّرقات وفي الأسواق لأجل ذلك، ففي التِّرمذيِّ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٩١٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن لا يُعرَّضَ لعدوٍّ يمتهنه أو زنديقٍ ينال منه، ففي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ**»(١).

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن لا يقرأه المرء وهو جُنُب، وأن لا يمسَّ القرآن إلَّا طاهر، لعموم قول الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، ولقول النَّبِيِّ ﷺ في كتابه لعمرو بن حزم: «**لا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»(٢).

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن لا يُعرَّض القرآن لشيء من الامتهان؛ فلا تُمَدُّ الأرجل إليه، ولا يُتَّكئ عليه، ولا يُتوسَّد، ولا يُلقى في الأرض ويُطرح ونحو ذلك؛ فإنَّ من التَّعظيم للقرآن أن يتجنَّب المرء ذلك كلَّه وأن يُحْذَر من ذلك أشدَّ الحذر.

وإنَّ من التَّعظيم للقرآن: أن يحرص تاليه على نقاء فمه وطهارته وهو يقرأ كلام الله، روى ابن ماجه عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ لِلْقُرْآنِ؛ فَطَيِّبُوهَا بِالسِّوَاكِ**»(٣).

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يُوَفِّقنا أجمعين لتعظيم القرآن والعمل به، وأن يجعلنا أجمعين بمنِّه وفضله وجوده وكرمه من أهل القرآن الَّذِين هم أهل الله وخاصَّته.

---

(١) رواه مسلم (١٨٦٩).
(٢) رواه الطَّبرانِيُّ في الكبير (١٣٢١٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٧٧٨٠).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٩١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

١٧
صلاح النِّيَّة

روى الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في كتابه الصَّحيح -الَّذِي هو أصحُّ كتاب بعد كتاب الله جَلَّ وَعَلَا- عن الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

هذا الحديث ساقه البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مواضع عديدة مِنَ الصَّحيح، بإسناده رَحِمَهُ اللَّهُ **إلى علقمة بن وقَّاص اللَّيثِيِّ:**

ففي الموضع الأوَّل منها: قال علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «سمعت عمر بن الخطَّاب يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**»». وذكر الحديث.

وفي موضع آخر: قال علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «سمعت عمر بن الخطَّاب يخطب قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ...**»»(٢). وذكر الحديث.

---

(١) رواه البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٩٥٣).

فهاتان الرِّوايتان لهذا الحديث العظيم -وكلتاهما في صحيح الإمام البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تفيدان أنَّ هذا الحديث العظيم المبارك، ذكره النَّبِيُّ ﷺ في خطبته العامَّة على منبره صلوات الله وسلامه عليه؛ تنبيهًا للأُمَّة، وإيقاظًا لها، واستشعارًا لهذا المقام العظيم من مقامات إصلاح القلوب. وتأسَّى به الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وخطب به على المنبر؛ مذكِّرًا بمقام النِّيَّة ومنزلتها العليَّة، ولا يزال دعاة الخير وأئمَّة الصَّلاح النَّاصحون لعباد الله؛ يذكِّرون في كُلِّ مقام في المنبر وغيره، بأهمِّيَّة النِّيَّة ومكانتها العظيمة، وأنَّها أعظم ما تستصلح به القلوب.

ثمَّ إنَّ الإمام البخاريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ صدَّر كتابه الصَّحيح بهذا الحديث العظيم؛ فهو أوَّل حديث ذكره في كتابه المبارك، وصنع مثل صنيعه جماعة من أهل العلم، حيث صدَّروا بهذا الحديث العظيم مُؤَلَّفاتهم، وبدءوا به مُصَنَّفاتهم؛ تنبيهًا من هؤلاء الأئمَّة على أنَّ النِّيَّة يحتاج إليها عبد الله المؤمن، حاجة ماسَّة في طلبه للعلم، وفي عباداته كُلِّها؛ فإنَّ الأعمال معتبرة بنِيَّاتها، فلا صلاة معتبرة عند الله، ولا صيام، ولا حجَّ، ولا صدقة، ولا بِرَّ، ولا أيَّ قربة. إلَّا إذا قامت على نِيَّة صالحة، بحيث يكون قد ابتُغِيَ بالعمل وجه الله تعالى.

فالأعمال معتبرة عند الله جَلَّ وَعَلَا بنِيَّاتها؛ فإذا كانت النِّيَّة لله خالصة ويُبتغى بالعمل وجه الله جَلَّ وَعَلَا؛ قَبِل الله مِنَ العامل عمله، وإن لم يكن العمل كذلك؛ رُدَّ على عامله، وإن كثُر وتعدَّد وتنوَّع، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمر:٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة شهيرة.

ولهذا تكاثرت النُّقول عن أهل العلم؛ تعظيمًا لهذا الحديث، وبيانًا لمكانته العليَّة، حتَّى قال الإمام الشَّافعيُّ وغيره من أهل العلم: «هذا الحديث -أي: حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ثلث العلم»(١)، وجاء عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «يدخل هذا الحديث في سبعين بابًا من أبواب الفقه»(٢).

فهو يدخل: في الصَّلاة، وفي الصِّيام، وفي الصَّدقة، وفي الحجِّ، وفي كُلِّ طاعة. فكُلُّ تلك الطَّاعات لا تعتبر إلَّا بالنِّيَّة، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضرب في الحديث مثالًا يقاس عليه في كُلِّ طاعة، قال: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**» أي: مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله نِيَّةً وقصدًا؛ فهجرته إلى الله ورسوله ثوابًا وأجرًا. فإذا صلحت النِّيَّة تحقَّق الثَّواب وثبت الأجر، وإذا فسدت النِّيَّة رُدَّ العمل ولم يُقبل؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل مِنَ العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجهه جَلَّ وَعَلَا.

وقول الإمام الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الحديث: «إنَّه ثلث العلم»، يُوَضِّحه قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث:

(١) رواه البيهقيُّ في معرفة السُّنن والآثار (٥٨٩).
(٢) رواه الخطيب البغداديُّ في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١٨٨٨).

حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[١]، وحديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]، وحديث النُّعمان بن بشير: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ**»[٣]»[٤].

وبيان ذلك[٥]: أنَّ دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إنَّما هو:

- فِعلٌ للمأمورات، وترْك للمحظورات، واتِّقاء للمتشابهات. وجُمِع ذلك كُلُّه في حديث النُّعمان؛ ولا يتمُّ ذلك إلَّا بأمرين:

- أن تكون صورة العمل الظَّاهرة موافقة للسُّنَّة؛ وهذا ما بُيِّن في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

- وأن يكون في باطنه لله عَزَّ وَجَلَّ خالصًا؛ وهذا ما بُيِّن في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

فما أحوج العبد إلى إصلاح نِيَّته، ومعالجة قصده، وتصحيح إرادته في جميع أعماله؛ في صلاته وصيامه وحجِّه وجميع طاعاته، بأن لا يبتغي بشيء من ذلك إلَّا وجه الله؛ لأنَّه ليس شيء من ذلك يكون مقبولًا مرضيًّا مشكورًا عند الله تعالى إلَّا إذا كان لله خالصًا.

ولن يدخل معه في قبره -من صالح عمله وسديد قوله- إلَّا ما قصد به

(١) رواه البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللَّفظ له.
(٣) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٤) رواه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٤٧).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٢٨).

وجه الله تعالى، أمَّا تلك الأعمال الَّتِي يعملها العامل: يريد بها شهرة، أو يريد بها سمعة، أو يريد بها مراءاة، أو يريد بها دنيا فانية، أو رئاسة زائلة، أو غير ذلك مِنَ الحظوظ. فكُلُّ ذلك لا يكون عند الله مقبولًا، ولا يكون عنده جَلَّ وَعَلَا مرضيًّا؛ لأنَّ من شرط العمل المقبول أن يكون قد ابتُغي به وجه الله، قال الله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

وإصلاح النِّيَّة يحتاج إلى مجاهدة مستمرَّة للنَّفس؛ لأنَّ النِّيَّة تتفلَّت، والصَّوارف الَّتِي تصدُّ العبد عَنِ الإخلاص -في الدُّنيا- كثيرة، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. ولهذا فإنَّ معالجة النِّيَّة ومجاهدة النَّفس على الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا أمر مطلوب مِنَ المسلم إلى آخر نفَس وإلى آخر لحظة مِنَ الحياة؛ لأنَّه لا يزال تأتيه الصَّوارف والصَّوادُّ عَنِ الإخلاص من هنا وهناك؛ فيحتاج كُلَّ وقت وكُلَّ حين إلى معالجة نيَّته وإصلاح مقصده وإطابة إرادته.

وقد ورد عَنِ السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ نقول عظيمة، في التَّأكيد على النِّيَّة وإصلاحها، والعناية التَّامَّة بها، نقل جملة منها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه جامع العلوم والحكم، قال:

«عن يحيى بن أبي كثير، قال: تعلَّمُوا النِّيَّة؛ فإنَّها أبلغُ من العَمَلِ[(١)].

وعن زُبَيدٍ اليامِيِّ، قال: إنِّي لأحبُّ أن تكونَ لي نيَّةٌ في كلِّ شيءٍ، حتَّى في

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٧٠).

الطَّعام والشَّراب، وعنه أنَّه قال: انْوِ في كلِّ شيءٍ تريدُه الخيرَ، حتَّى خروجك إلى الكُناسَةِ[(١)].

وعن داود الطَّائيِّ قال: رأيتُ الخيرَ كلَّه، إنَّما يجمعُه حُسْنُ النِّيَّة، وكفاك به خيرًا وإنْ لم تَنْصَبْ[(٢)].

قال داود: والبِرُّ هِمَّةُ التَّقيِّ، ولو تعلَّقت جميع جوارحه بحبِّ الدُّنيا لَرَدَّتْهُ يومًا نيَّتُهُ إلى أصلِهِ[(٣)].

وعن سفيانَ الثَّوريِّ قال: ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي؛ لأنَّها تتقلَّبُ عليَّ[(٤)].

وعن يوسُفَ بن أسباط قال: تخليصُ النِّيةِ مِنْ فسادِها أشدُّ على العاملينَ مِنْ طُولِ الاجتهاد[(٥)].

وعن مُطَرِّف بن عبدِ الله قال: صلاحُ القلب بصلاحِ العملِ، وصلاحُ العملِ بصلاحِ النِّيَّةِ[(٦)].

وعن بعض السَّلَف قال: مَنْ سرَّه أن يَكْمُلَ له عملُه فليُحسِن نيَّته؛ فإنَّ

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (٣٥٣٣).
(٢) ذكره أبو طالب المكِّيُّ في قوت القلوب (٢/ ٢٧٥).
(٣) لم أقف عليه في غير جامع العلوم والحكم (١/ ٦٩).
(٤) رواه الخطيب البغداديُّ في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (٦٩٢).
(٥) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (١٩٤٦).
(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٩٩).

الله عَزَّوَجَلَّ يأجُرُ العَبْدَ إذا حَسُنَت نيَّته حتَّى باللُّقمة(١).

وعن ابن المبارك قال: رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمهُ النيَّةُ، وربَّ عمل كبيرٍ تُصَغِّره النيَّةُ(٢).

وقال ابن عجلان: لا يصلحُ العملُ إلَّا بثلاثٍ: التَّقوى لله، والنيَّةِ الحسنَةِ، والإصابة(٣).

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: إنَّما يريدُ الله عَزَّوَجَلَّ منكَ نيَّتَك وإرادتكَ»(٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النيَّة هي ممَّا يخفيه الإنسان في نفسه، فإن كان قصده ابتغاء وجه ربِّه الأعلى؛ استحقَّ الثَّواب، وإن كان قصده رياء النَّاس؛ استحقَّ العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون:٤-٦]، وقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النِّساء:١٤٢]، وفي حديث أبي هريرة الصَّحيح(٥) في الثَّلاثة الَّذين أوَّل مَن تُسعَّر بهم النَّار في الَّذي تَعلَّم وعَلَّم ليقال: عالم قارئ، والَّذي قاتل ليقال: جريء وشجاع، والَّذي تصَدَّق ليقال: جواد وكريم. فهؤلاء إنَّما كان قصدهم مدح النَّاس لهم وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم؛ لم يقصدوا بذلك وجه الله، وإن كانت صور أعمالهم صورًا حسنة،

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (١٥٥٢).
(٢) ذكره أبو طالب المكِّيُّ في قوت القلوب (٢/ ٢٦٨).
(٣) ذكره أبو طالب المكِّيُّ في قوت القلوب (٢/ ٢٦٤).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٨).
(٥) رواه مسلم (١٩٠٥).

فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممَّن يستحقُّ العذاب، كما في الحديث: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ: لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاء، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاء، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَلَهُ مِنْ عَمَلِهِ النَّار**»(١). وفي الحديث الآخر: «**مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَطْلُبُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ**»(٢).

وفي الجملة: القلب هو الأصل، كما قال أبو هريرة: «القلب ملك الأعضاء والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك؛ طابت جنوده، وإذا خبث؛ خبثت جنوده»(٣). وهذا كما في حديث النُّعمان بن بشير المُتَّفق عليه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٤). فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده، فيكون هذا ممَّا أبداه لا ممَّا أخفاه»(٥).

إنَّ الإخلاص لله سبحانه هو حقيقة دين الإسلام، ومفتاح دعوة الرُّسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النِّساء:١٢٥]، وحقيقة الإخلاص «إفراد الرَّبِّ -جلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جدُّه، ولا إله غيره- بالمحبَّة والإجلال والتَّعظيم والخوف والرَّجاء

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه أبو نعيم، الطب النبوي (٩٤).
(٤) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٥) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٣ - ١١٤).

وتوابع ذلك: من التَّوكُّل والإنابة والرَّغبة والرَّهبة، فلا يُحبُّ سواه، وكُلُّ ما كان يُحَبُّ غيره فإنَّمَا يُحَبُّ تبعًا لمحبَّته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبَّته، ولا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يُتَوَكَّل إلَّا عليه، ولا يُرْغَب إلَّا إليه، ولا يُرْهَب إلَّا منه، ولا يُحْلَف إلَّا باسمه، ولا يُنْذَر إلَّا له، ولا يُتَاب إلَّا إليه، ولا يُطَاع إلَّا أمره، ولا يُتَحَسَّب إلَّا به، ولا يُسْتَغَاث في الشَّدائد إلَّا به، ولا يُلْتَجأ إلَّا إليه، ولا يُسْجَد إلَّا له، ولا يذبح إلَّا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يُعْبَد إلَّا إيَّاه بجميع أنواع العبادة»(١).

وعلى العبد في هذا المقام أن يجاهد نفسه على السَّلامة من كُلِّ قادح في الإخلاص أو ناقض له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبَّة المدح والثَّناء والطَّمع فيما عند النَّاس، إلَّا كما يجتمع الماء والنَّار، والضَّبُّ والحوت. فإذا حدَّثتك نفسك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطَّمع أوَّلًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثَّناء فازهد فيهما زهد عُشَّاق الدُّنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطَّمع والزُّهد في الثَّناء والمدح؛ سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الَّذِي يُسَهِّل عليَّ ذبح الطَّمع والزُّهد في الثَّناء والمدح؟ قلت: أمَّا ذبح الطَّمع؛ فيُسَهِّله عليك علمك يقينًا أنَّه ليس من شيء يُطْمَع فيه إلَّا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يُؤْتِي العبدَ منها شيئًا سواه.

وأمَّا الزُّهد في الثَّناء والمدح؛ فيُسَهِّله عليك علمك أنَّه ليس أحد ينفع

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص١٩٦).

مدحه ويزين، ويضُرُّ ذَمُّة ويشين إلَّا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابِيُّ للنَّبِيِّ: إنَّ مدحي زين، وذَمِّي شين. فقال: «**ذلك الله** عَزَّوَجَلَّ»[1].

فازهد في مدح مَن لا يزينك مدحه، وفي ذَمِّ مَن لا يشينك ذمُّه، وارغب في مدح مَن كُلُّ الزَّين في مدحه، وكُلُّ الشَّين في ذمِّه، ولن تقدر على ذلك إلَّا بالصَّبر واليقين، فمتى فقدت الصَّبر واليقين؛ كنت كمَن أراد السَّفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة: ٢٤]»[2].

ألا ما أحوجنا إلى أن نقرأ مرَّات وكرَّات قول نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[3]. لنداوي قلوبنا ونتفقد نيَّاتنا.

اللَّهمَّ أصلح نيَّاتنا أجمعين، واهدنا إليك صراطًا مستقيمًا، ولا تكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٢٦٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) الفوائد لابن القيِّم (ص٢١٩).

(٣) رواه البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).

١٨
القلب مستقرُّ التَّوحيد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**». رواه البخاريُّ[١].

وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه أحمد[٢].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ**

(١) رواه البخاريُّ (٩٩).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠٠٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٢٧٨).

أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». رواه مسلم(١).

قلب المؤمن مُستَقَرُّ التَّوحيد والمحبَّة والمعرفة والإيمان وفيه أنواره، وبه يزكو القلب؛ فإنَّه يتضمَّن نفي إلهيَّة ما سوى الحقِّ من القلب وإثبات إلهيَّة الحقِّ في القلب وهذا حقيقة لا إله إلَّا الله، وهو أفضل ما حصَّلته القلوب واكتسبته النُّفوس.

وما من ريب أنَّ أعظمَ المقاصد وأجلَّ الغايات وأنبلَ الأهداف توحيدُ ربِّ الأرض والسَّماوات، والإقرار له جَلَّ وَعَلَا بالوحدانيَّة، وإفراده جَلَّ وَعَلَا بالذُّلِّ والخضوع والانكسار، وإسلام الوجه له؛ خضوعًا وتذلُّلًا رغبًا ورهبًا، خوفًا ورجاءً، سُجودًا ورُكوعًا، وإخلاصُ الدِّين له جَلَّ وَعَلَا، والبراءةُ من الشِّرك كلِّه؛ قليله وكثيره، دقيقه وجليله، وهو الغاية العظمى الَّتِي خُلِقَ الخلق لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وهو الغاية الَّتِي أرسل الله جَلَّ وَعَلَا لأجلها رسله الكرام وأنزل كتبه العظام لتحقيقها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهو أعظم نِعَم الله الَّتِي أنزل على عباده، قال تعالى في أوَّل سورة النَّحل -سورة النِّعم-: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ

(١) رواه مسلم (٣٨٥).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النَّحل: ٢]، فهذه أوَّلُ نعمة ذُكِرَت في هذه السُّورة، فدَلَّ ذلك على أنَّ التَّوفيقَ لذلك هو أعظمُ نِعَمِ اللهِ تعالى الَّتِي أسبغها على عباده، كما قال سبحانه: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان:٢٠]، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ»(١). وقال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ مِنَ العبادِ نعمةً أعظَمَ من أنْ عرَّفهم لا إلَهَ إلَّا اللهُ»(٢).

وبالتَّوحيد يحيا قلب العبد حياة حقيقيَّة ملؤها رضا الرَّحمن والفوز بالكرامة والإنعام، وبدون التَّوحيد يحيا حياة بهيمة الأنعام، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ففاقد التَّوحيد ميِّتٌ، ولو كان يمشي على الأرض، ومحقِّق التَّوحيد هو الَّذِي يحيا الحياة الحقيقيَّة، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي: أحييناه بالإيمان والتَّوحيد، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وبالتَّوحيد أمن الأوطان وراحة الأبدان وسعادة الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النُّور: ٥٥].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في السُّنن (١٧٣٠).

(٢) انظر: كلمة الإخلاص لابن رجب (ص٥٣).

وبالتَّوحيد سعادة الإنسان وطُمأنينة نفسه وراحة قلبه، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]، أي: إنَّما أنزلناه عليك لتسعد به ويسعد به مَن اتَّبعك.

وبأنوار التَّوحيد تتبدَّد ظلمات الذُّنوب وأمراض القلوب، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ أشعَّة لا إله إلَّا الله تُبَدِّد من ضباب الذُّنوب وغيومها بقدر قوَّة ذلك الشُّعاع وضعفه، فلها نور وتفاوت أهلها في ذلك النُّور قُوَّةً وضعفًا لا يحصيه إلَّا الله تعالى، فمِن النَّاس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشَّمس، ومنهم: مَن نورها في قلبه كالكوكب الدُّرِّيِّ، ومنهم: مَن نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر: كالسِّراج المضيء، وآخر كالسِّراج الضَّعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملًا ومعرفةً وحالًا، وكُلَّما عظم نور هذه الكلمة واشتدَّ؛ أحرق من الشُّبهات والشَّهوات بحسب قُوَّته وشِدَّته، حتَّى إنَّه رُبَّمَا وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلَّا أحرقه، وهذا حال الصَّادق في توحيده الَّذِي لم يشرك بالله شيئًا، فأيُّ ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النُّور أحرقها»(١).

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٣٣٨).

وبالتَّوحيد تنزاح عن القلب الأوهام وتنطرد الوساوس والأفكار الرَّديئة، ويحصل للقلب طمأنينته وراحته وهدوؤه وسكونه، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٣]، هذا توحيد الله والَّذي ينزاح: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، هذا التَّوحيد، والَّذي ينزاح: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٢-٥].

وبالتَّوحيد تنطرد الشَّياطين ولا تطيق البقاء في مكان يُصدع فيه بالتَّوحيد، وإذا سمع الشَّيطان الأذان ولَّى وأدبر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**»(١). والأذان كلُّه توحيد وتمجيد وتعظيم لله جَلَّوَعَلَا، وآية الكرسيِّ هي آية التَّوحيد وبيان براهينه وحججه ودلائله وبيِّناته، ففي «صحيح مسلم» عن أبيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وهو من قرَّاء الصَّحابة- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ**

---

(١) رواه مسلم (٣٨٩).

مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[١]، أي: هنيئًا لك هذا العلم العظيم، الَّذِي ساقه الله إليك، ومنَّ عليك به.

وفي هذا دلالة واضحة على مكانة التَّوحيد في قلوب الصَّحابة؛ فإنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما سأل أبيًّا عن أعظم آية في كتاب الله اختار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آية التَّوحيد الَّتِي أُخْلِصَتْ لبيان التَّوحيد وتقريره وبيان حججه وبراهينه، ممَّا يدلُّ على عظم شأنها وعُلُوِّ مقامها. وإذا قرأ المؤمن آية الكرسيِّ إذا أوى إلى فراشه؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتَّى يصبح.

وبالتَّوحيد يسلم العبد بإذن الله من كيد الأشرار؛ من السَّحرة والكهنة والعرَّافين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجُّ: ٣٨]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

وبالتَّوحيد ينال العبد الخيرات كُلَّها وسعادة الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ الله جَلَّ وَعَلَا قضى أنَّ السَّعادة والنَّعيم إِنَّمَا يكون لأهل الإيمان والتَّوحيد: في دنياهم، وفي قبورهم، وفي أخراهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

والتَّوحيد هو أَوْلى أمرٍ وأعظم أمر ينبغي أن يُذَكَّر النَّاس به؛ قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٥، ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ

(١) رواه مسلم (٨١٠).

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٢-١٣٤]، وفي وصيَّة لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وفي الصَّحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا نَحْوَ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلُّوا فَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ؛ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»(١).

والطَّريقة المثلى لتمتين التَّوحيد وتجديده في القلب حسن المعرفة بالله وجلاله وجماله وعظمته والتَّفكُّر في آياته العظيمة الدَّالَّة على تفرُّده وكماله، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تيقَّن أنَّ الضُّرَّ والنَّفع والعطاء والمنع والهدى والضَّلال والسَّعادة والشَّقاء كُلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنَّه الَّذي يُقَلِّب القلوب ويصرفها كيف يشاء، وأنَّه لا مُوَفَّق إلَّا مَن وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا مَن خذله وأهانه وتخلَّى عنه، وأنَّ أصحَّ القلوب وأسلمَها وأقومَها وأرقَّها وأصفاها وأشدَّها وألينها مَن اتَّخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كُلِّ ما سواه وأخوف عنده من كُلِّ ما سواه وأرجى له من كُلِّ ما سواه، فتتقدَّم محبَّته في قلبه جميع المحابِّ فتنساق المحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

للسُّلطان، ويتقدَّم خوفه في قلبه جميع المخوفات فتنساق المخاوف كلُّها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرَّجاء فينساق كُلُّ رجاء تبعًا لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهيَّة في هذا القلب، والباب الَّذِي دخل إليه منه توحيد الرُّبوبيَّة، أي: باب توحيد الإلهيَّة هو توحيد الرُّبوبيَّة، فإنَّ أوَّل ما يتعلَّق القلب يتعلَّق بتوحيد الرُّبوبيَّة ثمَّ يرتقي إلى توحيد الإلهيَّة»[١].

الحاصل أنَّ التَّوحيد هو مقصود الخلق وأوَّل دعوة الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومفتاح دعوتهم، وأوَّل منازل الطَّريق وأوَّل مقام يقوم فيه السَّالك إلى الله تعالى، وهو أوَّل واجب يجب على المُكَلَّف وأوَّل ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدُّنيا، فهو أوَّل واجب وآخر واجب فالتَّوحيد أوَّل الأمر وآخره، وهو أساس صلاح القلوب وزكائها.

وفَّقنا الله أجمعين لما يُحِبُّه ويرضاه من القول والعمل، وجمع قلوبنا على دينه الَّذِي ارتضاه لنفسه وبعث به رسوله ﷺ.

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٤١٢).

١٩
معرفة الله

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: جَاءَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وقَالُوا: «**جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، مَا كَانَ؟ قَالَ: كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**». رواه البخاريُّ[(١)].

إنَّ من أعظم الفقه للقلوب: معرفتَها بربِّها، وعظمته وجلاله، وكبريائه وكماله، وشمول علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال قدرته، وأنَّه الرَّبُّ لا شريك له، والخالق لا ندَّ له، والمَلِك لا نظير له، المُتَصَرِّف في الخلق عطاءً ومنعًا، وخفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وعزًّا وذُلًّا، وحياةً وموتًا. يقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطَّلاق:١٢].

والواجب على كُلِّ مسلم: أن يعرف ربَّه سبحانه بالعظمة والجلال، والكمال والكبرياء، وسعة العلم والاطِّلاع، وعموم القدرة وشمولها، ونفوذ المشيئة، وأنَّه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن يعرفه سبحانه بعلمه الشَّامل

---
(١) رواه البخاريُّ (٧٤١٨).

المحيط؛ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء، وبالإرادة الكاملة؛ فلا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه، وبنفوذ مشيئته؛ فما شاء الله كان في الوقت الَّذِي يشاء على الوجه الَّذِي يشاء، وبقدرته على كُلِّ شيء، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وبالحكمة البالغة؛ فلم يخلق الخلق عبثًا ولا أوجدهم سدًى وهملًا.

فمَن عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معرفةً صحيحة مُسْتَمَدَّة من كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ عظُمت صلته بالله، وحسُن إقباله عليه جلَّ في علاه.

روى المروزيُّ في كتابه تعظيم الصَّلاة عن أحمد بن أبي الحواريِّ، قال: سمعت أحمد بن عاصم الإنطاكيَّ، يقول: «مَن كان بالله أعرف كان مِنَ الله أخوف». قال أحمد: صدق والله[(١)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيء؛ أعظم منها إلى: معرفة باريها وفاطرها، ومحبَّته، وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزُّلفى عنده. ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكُلَّما كان العبد بها أعلم؛ كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب. وكُلَّما كان لها أنكر؛ كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنْزِل العبد من نفسه حيث يُنْزِله العبد من نفسه...»[(٢)].

وفي القرآن الكريم ما يزيد على الأربعمائة آية، فيها ربط الأمور كُلِّها بمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معطي لما منع ولا

(١) رواه المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٧٨٦).
(٢) توضيح المقاصد شرح نونية ابن القيم (١/ ٢٤).

مانع لما أعطى، ولا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، ولا هادي لمَن أضلَّ ولا مُضِلَّ لمَن هدى، ولا مباعد لمَن قرَّب ولا مقرِّب لمَن باعد.

الخلْق خلْقُه والأمر أمْره: يُعْطِي ويَمْنَع، ويَخْفِضُ ويَرْفَع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُحْيِي ويُمِيت، ويَهْدِي ويُضِلُّ، له الأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والهداية: أمرها بيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السَّجدة:١٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النُّور:٤٦].

والفضل كُلُّه والرِّزق: بيد الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور:٣٨]، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرَّعد:٢٦].

والتَّوبة بيد الله؛ فمَن شاء الله شرح صدره لها، ومنَّ عليه بها؛ يقول الله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التَّوبة:١٥].

والصَّلاح وزكاء القلوب واستقامتها على طاعة الله: أمرٌ بيد الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١].

والملك كُلُّه بيد الله؛ يُؤْتيه مَن يشاء، ويَنْزِعه مِمَّن يشاء، قال الله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

كذلك صور العباد: من أسمر وأحمر، وطويلٍ أو قصير، وجميلٍ أو ذميم، أو غير ذلك. كُلُّ ذلك وفق مشيئته تبارك تعالى؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران:٦].

كذلك التَّناسل ووجود الذُّرِّيَّة: فمِن النَّاس مَن له بنين، ومنهم مَن له بنات، ومنهم مَن له بنين وبنات، ومنهم مَن هو عقيم، كُلُّ ذلك بمشيئته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشُّورى:٤٩-٥٠].

إلى غير ذلك مِنَ الآيات البيِّنات، والدَّلائل الظَّاهرات على كمال قدرة الرَّبِّ جلَّ في علاه، ونفوذ مشيئته، وأنَّ الأمر أمره، والملك ملكه، والخلق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ عطاءً ومنعًا، خفضًا ورفعًا، قبضًا وبسطًا، عِزًّا وذُلًّا، حياةً وموتًا، صحَّةً ومرضًا، الأمر كُلُّه بيد الله وطوْع تدبيره جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعِقْد هذا: أن يشهد قلبك الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم: عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، وأشخاصه وذواته. سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر

الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه، تَنْفُذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، مُنَزَّهًا عَنِ العيوب والنَّقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذَرَّة في السَّموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة الظَّلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللُّغات على تفنُّن الحاجات، تمَّت كلماته صدقًا وعدلًا، وجلَّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شَبَهًا ومِثْلًا، وتعالت ذاته أن تُشْبه شيئًا مِنَ الذَّوات أصلًا، ووسعت الخليقة أفعاله: عدلًا، وحكمةً، ورحمةً، وإحسانًا، وفضلًا.

له الخلق والأمر، وله النِّعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثَّناء والمجد، أوَّل ليس قبله شيء، آخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسماؤه كُلُّها أسماء: مدح، وحمد، وثناء، وتمجيد. ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلُّها صفات كمال، ونعوته كلُّها نعوت جلال، وأفعاله كلُّها: حكمة، ورحمة، ومصلحة، وعدل.

كُلُّ شيء من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشد لمَن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السَّموات والأرض وما بينهما باطلًا، ولا ترك الإنسان سُدًى عاطلًا، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه؛ ليتوَسَّلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعَرَّف إلى عباده بأنواع التَّعرُّفات، وصرف لهم الآيات، ونوَّع لهم الدَّلالات، ودعاهم إلى محبَّته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من

عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمه السَّابغة، وأقام عليهم حُجَّته البالغة، أفاض عليهم النِّعمة، وكتب على نفسه الرَّحمة، وضمَّن الكتاب الَّذِي كتبه أنَّ رحمته تغلب غضبه»[(١)].

وهذه العقيدة العظيمة إذا ثبتت في القلوب؛ تحقَّقت آثارها العظيمة في العبد: استقامةً على طاعة الله، وحُسن توَكُّلٍ على الله جَلَّوَعَلَا، ودوام إلحاحٍ عليه بالدُّعاء وسؤال الثَّبات والتَّوفيق، وحُسن إقبال على الله بالعبادة، وبُعدًا عَنِ العُجْب والاغترار، ورضًا بالقضاء، وصبرًا على ما قَدَّره الله جَلَّوَعَلَا وقضاه، وبُعدًا عَنِ الجزع والتَّسخُّط، إلى غير ذلك من الآثار الإيمانيَّة والعوائد الحميدة الَّتِي تعود على العبد بكُلِّ خير وفضيلة ورفعة في دنياه وأخراه.

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما؛ عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ، هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟»** قُلْتُ: «بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: **«قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[(٢)].

وروى الإمام أحمد في المسند؛ عن قيس بن سعد بن عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: **«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، قُلْتُ: بَلَى -يا رسول الله- قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**[(٣)].

وفي المسند من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **«أَكْثِرُوا مِنْ**

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ١٩٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٢٠٥)، (٤٨٣٦)، (٩٠٤٦)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) مسند أحمد (١٥٤٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة تحت حديث (١٥٢٨).

قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»(١).

وفي المستدرك للحاكم، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ، مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تقول: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»(٢).

وفي قول الله تعالى في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَقَدِّم: «**أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**». ما يُبيِّن لنا معنى هذه الكلمة العظيمة؛ فهي كلمةُ إسلامٍ واستسلامٍ، وتفويضٍ وتوكُّلٍ على الملِك العلَّام، كلمةُ إيمانٍ بالقضاءِ والقدرِ، وأنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ المخلوقاتِ جميعَها طَوعُ تدبيرِه وتسخيرِه وقضائِه وقدرِه، فما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلِيِّ العظيم.

فهي كلمةُ التجاءٍ واستعانةٍ وتوكُّل على الله، وإقرارٍ مِنَ العبد بضَعفِه وفَقرِه واحتياجِه إلى الله، في كُلِّ نفَسٍ ولحظةٍ وطرفةِ عينٍ، وأنَّه لا غنى له عن ربِّه، في أيِّ شأنٍ من شؤونه أو أمرٍ من أموره.

ومعناها: لا تحوُّل من كفرٍ إلى إيمان، ومن عصيانٍ إلى طاعة، ومن فقرٍ إلى غنى، ومن ضَعفٍ إلى قُوَّة، ومن نقصانٍ إلى زيادةٍ وتمامٍ؛ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ. ولا قوَّةَ عند العبد على القيام بأيِّ شأنٍ من شؤونه، أو أمرٍ من أموره، أو تحقيق

---

(١) مسند أحمد (٨٤٠٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة تحت حديث (١٥٢٨).

(٢) المستدرك (٥٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٦١٤).

أيِّ هدفٍ من أهدافه؛ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان:٢٩-٣١]؛ فالأمور كُلُّها بيد الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر:٢].

فالعبد فقيرٌ إلى الله جَلَّوَعَلَا من كُلِّ وجه، والله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عَنِ العباد وعن أعمالهم من كُلِّ وجه، وهو القائل جلَّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخاطب تعالى جميع النَّاس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنَّهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إيَّاهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، الَّتي لولا إعداده إيَّاهم [بها]، لما استعدوا لأيِّ عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنِّعم الظَّاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرِّزق والنِّعم شيء.

فقراء في صرف النِّقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشَّدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرَّت عليهم المكاره والشَّدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التَّربية، وأجناس التَّدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبِّهم له، وتعبُّدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلَّموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذَّات إليه، بكُلِّ معنى، وبكُلِّ اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن المُوَفَّق منهم، الَّذِي لا يزال يشاهد فقره في كُلِّ حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرَّع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كُلِّ وقت، فهذا أحرى بالإعانة التَّامَّة من ربِّه وإلهه، الَّذِي هو أرحم به من الوالدة بولدها»[١].

اللَّهُمَّ، يا ربَّ العالمين؛ زكِّ قلوبنا، وقوِّ إيماننا، وأصلح أعمالنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، تَعْلَم عجزنا وفقرنا وضعفنا وقِلَّة حيلتنا، وأنَّه لا حَوْل لنا ولا قُوَّة إلَّا بك، اللَّهُمَّ، اهدنا جميعًا إليك صراطًا مستقيمًا، وأصلح لنا شأننا كُلَّه، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٦٨٧).

٢٠
معرفة أسماء اللّه وصفاته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». متَّفق عليه(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ: بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا». رواه أحمد(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ». فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ:

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).
(٢) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**». متَّفق عليه(١)، وفي لفظ آخر قال له: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ**»(٢).

ففيه: أنَّ مَن أحبَّ صفات الله؛ أحبَّه الله، وأدخله الجنَّة.

إنَّ معرفةَ أسماءِ الله وصفاتِه الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّة، والَّتي تدلُّ على كمالِ الله المطلق من كافَّة الوجوه، لَمِنْ أعظَمِ أبوابِ إصلاح القلوب، وذهابِ همومها، وغمومها، وأسقامها؛ وذلك لأنَّ الاشتغالَ بمعرفتِها وفهمِها، والبحثَ التَّامَّ عنها مشتملٌ على فوائد كثيرة وعظيمة، **منها:**

أوَّلًا: أنَّ علم توحيد الأسماء والصِّفات؛ أشرفُ العلوم وأجلُّها على الإطلاق، فالاشتغالُ بفهمِه، والبحثُ عنه؛ اشتغالٌ بأعلى المطالب، وحصولُه للعَبد من أشرف المواهب.

ثانيًا: أنَّ معرفة الله تدعو إلى: محبَّته، وخَشْيَته، وخوفِه، ورجائِه، وإخلاص العمل له. وهذا عينُ سعادة العبد، ولا سبيلَ إلى معرفة الله إلَّا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتَّفقُّه في فهم معانيها.

ثالثًا: أنَّ اللهَ خلقَ الخَلق؛ ليعرفوه ويعبدوه، وهذا هُو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغالُ بذلك اشتغالٌ بما خُلِقَ له العبدُ، وتركُه وتضييعُه؛ إهمالٌ لما خُلِق له، وقبيح بعَبدٍ -لم تَزل نِعَمُ الله عليه متواترةٌ، وفضلَه عليه عظيمٌ من كلِّ وجه- أن يكون جاهلًا بربِّه معرضًا عن معرفته.

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٢) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٥٥)، ووصله التِّرمذيُّ (٢٩٠٣).

رابعًا: أنَّ أحد أركان الإيمان، بل أفضلَها وأصلَها الإيمانُ بالله، وليس الإيمان به مجرَّد قوله: آمنتُ بالله من غير معرفتِه بربِّه، بل حقيقةُ الإيمانِ أن يعرفَ الَّذي يؤمنُ به، ويبذُلَ جهدَه في معرفةِ أسمائِه وصفاتِه، حتَّى يبلغ درجةَ اليقين، وبحسب معرفته بربِّه يكون إيمانُه، فكلَّما ازداد معرفةً بربِّه؛ ازداد إيمانُه، وكلَّما نقصَ نقصَ، وأقربُ طريقٍ يوصله إلى ذلك تدبُّر صفاته وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

خامسًا: أنَّ العلمَ به تعالى أصلُ الأشياء كلِّها، حتَّى إنَّ العارف به حقيقة المعرفة، يستدلُّ بما عرف من صفاته وأفعاله، على ما يفعَله، وعلى ما يشْرَعُه مِنَ الأحكام؛ لأنَّه لا يفعل إلَّا ما هو مقتضَى أسمائه وصفاته، فأفعالُه دائرةٌ بين العَدل والفَضل والحكمة؛ ولذلكَ لا يَشْرَع ما يشْرَعه مِنَ الأحكام إلَّا على حسب ما اقتضَاه حمدُه وحكمتُه وفضلُه وعدلُه، فأخبارُه كلُّها حقٌّ وصدقٌ، وأوامرُه ونواهيه عدلٌ وحكمة.

ومن هذه الفوائد: أنَّ معرفَةَ الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى مقتضيةٌ لآثارها مِنَ العبوديَّة والخضُوع، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّة خاصَّة، هي من مقتَضَياتِها، وموجبات العلم بها، والتَّحقُّق بمعرفتها، وهذا مطَّردٌ في جميع أنواع العبوديَّة، الَّتي على القَلب والجَوارح.

وبيانُ ذلك: أنَّ العبد إذا عَلِم بتفرُّد الرَّبِّ تعالى؛ بالضُّرِّ، والنَّفع، والعَطاء، والمَنع، والخَلق، والرَّزق، والإحياء، والإماتة؛ فإنَّ ذلك يُثْمر له عبوديَّةَ التَّوكُّل عليه باطنًا، ولوازم التَّوكُّل وثمراتِه ظاهرًا.

وإذا عَلِم بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ، لا يخفى عليه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، وأنَّه يعلم السِّرَّ وأَخْفَى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، فإنَّ هذا يُثمر له: حفظ اللِّسان، والجوارح، وخطرات القَلب عن كلِّ ما لا يُرضي اللهَ، وأن يجعَلَ تعلُّقاتِ هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضَاه.

وإذا عَلِم بأنَّ اللهَ غنيٌّ كريمٌ برٌّ رحيمٌ واسعُ الإحسان؛ فإنَّ هذا يوجبُ له قوَّةَ الرَّجاء، والرَّجاءُ يثمر أنواعَ العبوديَّة الظَّاهرة والباطنة بحسب معرفتِه وعلمِه.

وإذا عَلِم بكمالِ الله وجمالِه؛ أوجبَ له هذا محبَّةً خاصَّةً، وشوقًا عظيمًا إلى لقاء الله، وهذا يُثمر أنواعًا كثيرةً مِنَ العبادة.

وبهذا يُعلم أنَّ العبوديَّةَ كلَّها راجعةٌ إلى مُقتضَيات الأسماء والصِّفات.

فإذا عرفَ العبدُ ربَّه، المعرفةَ الحقيقيَّةَ المطلوبةَ، السَّالمةَ من طُرُق أهل الزَّيغ في معرفة الله، والَّتي تُبنى على تحريفِ الأسماء والصِّفات، أو تعطيلِها، أو تكييفِها، أو تشبيهِها، فمَن سَلِم من هذه المناهج الكلاميَّة الباطلةِ -الَّتي هيَ في الحقيقة أعظَم ما يحُولُ بينَ العبد وبينَ معرفة ربِّه، وأعظَم ما يُنْقِصُ الإيمانَ ويُضْعِفُه- وعرفَ ربَّه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، الَّتي تعرَّف بها إلى خلقِه، والَّتي وردت في الكتاب والسُّنَّة، وفَهِمَها على منهج السَّلف الصَّالح؛ فقَد وُفِّقَ لأعظم أسباب زيادةِ الإيمان.

وقول الرَّسولُ ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ**

أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[١]. فيه حثٌّ على إحصاء هذا العدد من أسماء الله، وليس المُراد بالإحصَاء عدَّها فقَط، وإنَّما المرادُ العمَلَ بما تقتضيه، فلا بدَّ من فَهْم معاني الأسماء والصِّفات، ومعرفَةِ ما تدلُّ عليه، حتَّى يتسنَّى الاستفادةُ التَّامَّةُ بها.

قال أبو عُمَر الطَّلَمَنْكِيُّ: «مِنْ تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته، الَّتي يستحقُّ بها الدَّاعي والحافظ ما قال رسولُ الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصِّفات وما تتضمَّن مِنَ الفوائد، وتدلُّ عليه مِنَ الحقائق، ومَن لم يعلَم ذلك لم يكن عالمًا لمعاني الأسماء ولا مستفيدًا بذكرها ما تدلُّ عليه من المعاني»[٢].

وقد ذكر ابنُ القيِّم: لإحصائها ثلاثَ مراتبَ:

المرتبة الأولى: إحصاءُ ألفاظِها وعددِها.

المرتبة الثَّانية: فهمُ معانيها ومدلولاتِها.

المرتبة الثَّالثة: دعاءُ الله بها، وهذا شاملٌ لدُعَاء العبادة ودُعَاء المسألة[٣].

وقال ابنُ سعديٍّ مبيِّنًا معنى «أحصاها» الواردة في حديث أبي هريرة المتقدِّم: «أي: مَن حَفِظَها وفَهِمَ معانيها، واعتقدها وتعبَّد الله بها دخَلَ الجنَّةَ، والجنَّةُ لا يدخُلها إلَّا المؤمنون، فعُلِم أنَّ ذلك أعظمَ ينبوعٍ ومادَّةٍ لحصولِ

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٦).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

الإيمانِ وقوَّتِه وثباتِه، ومعرفةُ الأسماء الحسنى هي أصلُ الإيمان، والإيمانُ يرجِعُ إليها»(١).

فمَنْ عَرَف اللهَ هذه المعرفَةَ؛ كان مِن أقوى النَّاس إيمانًا، وأشدِّهم طاعةً وتعبُّدًا لله، وأعظمِهم خوفًا ومراقبةً له سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال ابنُ جرير الطَّبريُّ في «تفسيره» لهذه الآية: «يقولُ تعالى ذكره: إنَّما يخافُ اللهَ فيتَّقي عقابَه بطاعتِه؛ العلماءُ بقُدْرتِه على ما يشاءُ من شيءٍ، وأنَّه يفعَلُ ما يريد؛ لأنَّ مَن عَلِم ذلك أيقَن بعقابِه على معصيتِه، فخافه ورهبه خشيةً منه أن يعاقبَهُ»(٢).

وقال ابنُ كثير: «أي: إنَّما يخشاه حقَّ خشيتِه العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفةُ للعظيم العليم الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ المنعوتِ بالأسماءِ الحسنى، كلَّما كانت المعرفةُ به أتَمَّ، والعلمُ به أكمَلُ؛ كانت الخشيةُ له أعظَمَ وأكثَرَ»(٣).

وقد جمع هذا المعنى أحد السَّلف في عبارة مختصرة، فقال: «مَن كانَ بالله أعرَفَ كانَ مِن الله أخْوَف»(٤).

---

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٢٦).

(٢) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٠/ ٤٦٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٤).

(٤) رواه المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٧٨٦).

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفَة بَارِيهَا وفاطِرِها، ومحبَّتِه وذِكره والابتهاج به، وطلبِ الوسيلةِ إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيلَ إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافِه وأسمائِه، فكلَّما كانَ العبدُ بها أعلم كانَ بالله أعرف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلَّما كانَ لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكرَه ومنه أبعَد، والله يُنزِلُ العبدَ من نفسِه حيثُ يُنزلُه العبدُ من نفسِه...»[(١)].

فمعرفةُ الله عَزَّوَجَلَّ تُقوِّي جانبَ الخوفِ والمراقبة، وتُعظمُ الرَّجاء في القلبِ، وتزيدُ في إيمانِ العبد، وتثمِرُ أنواعًا كثيرةً مِنَ العبادة، ولا سبيلَ إلى هذه المعرفة، ولا طريقَ إليها إلَّا تدبُّر «كتاب الله، وما تعرَّف به سبحانه إلى عبادِه على ألسنَة رسلِه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسَه عنه ممَّا لا ينبَغي له ولا يليقُ به سبحانه، وتدبُّر أيَّامه وأفعالِه في أوليائِه وأعدائِه، الَّتي قصَّها على عبادِه، وأشهَدَهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها على أنَّه إلٰهُهم الحقُّ المبينُ، الَّذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، ويستدلُّوا بها على أنَّه على كلِّ شيء قدير، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنَّه شديدُ العقاب، وأنَّه غفورٌ رحيم، وأنَّه العَزيز الحكيم، وأنَّه الفعَّال لما يريد، وأنَّه الَّذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأنَّ أفعاله كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرَّحمة والعَدل والمصلحة، لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلك، وهذه الثَّمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلَّا بتدبُّر كلامِه، والنَّظر في آثار أفعالِه»[(٢)].

(١) توضيح المقاصد شرح نونيَّة ابن القيِّم (١/ ٢٤).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٥).

وقد ذكر ابن القيِّم كلامًا نافعًا جامعًا مؤدِّيًا إلى هذه البصيرة، فقال: «وعَقْد هذا: أن يشهَدَ قلبُك الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويِّه وسفليِّه، وأشخاصِه وذواتِه، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأَمْرُ الممالك تحت تدبيره، نازلٌ من عنده وصاعدٌ إليه، وأملاكُه بين يديه تنفِّذُ أوامرَه في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزَّهًا عَنِ العيوب والنَّقائص والمثال، هو كما وصف نفسَه في كتابه، وفوقَ ما يصفه به خلقُه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليمٌ لا يخفى عليه مثقال ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض، بصيرٌ يرى دبيبَ النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة الظَّلماء، سميعٌ يسمَعُ ضجيجَ الأصوات، باختلافِ اللُّغات على تَفَنُّنِ الحاجات، تَمَّتْ كلماتُه صدقًا وعدلًا، وجلَّت صفاتُه أن تُقاس بصفاتِ خلقِه شِبْهًا ومِثْلًا، وتعالت ذاتُه أن تُشْبِهَ شيئًا مِنَ الذَّوات أصلًا، ووسِعت الخليقةَ أفعالُه عدلًا، وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا، له الخلق والأمر، وله النِّعمة والفَضل، وله المُلك والحمد، وله الثَّناء والمجد، أوَّلٌ ليس قبله شيءٌ، آخرٌ ليس بعده شيءٌ، ظاهرٌ ليس فوقه شيءٌ، باطنٌ ليس دونه شيءٌ، أسماؤه كلُّها أسماء مدحٍ وحمدٍ وثناءٍ وتمجيدٍ؛ ولذلك كانت حُسْنَى، وصفاتُه كلُّها صفات كمال، ونعوتُه كلُّها نعوت جلال، وأفعالُه كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ، كلُّ شيءٍ من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومُرْشِدٌ لمَنْ رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلُق السَّموات والأرضَ وما بينهما باطلًا، ولا ترك الإنسانَ سُدًى عاطلًا، بل خلقَ الخَلْق لقيام توحيدِه وعبادتِه، وأسبَغَ عليهم نعمَه ليتوسَّلوا بشُكرها إلى زيادةِ كرامتِه، تَعَرَّفَ إلى

عباده بأنواع التَّعرُّفات، وصَرَف لهم الآيات، ونوَّع لهم الدَّلالات، ودعاهُم إلى محبَّته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينَهُم من عهدِه أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمَه السَّابغة، وأقام عليهم حجَّتَه البالغة، أفاضَ عليهم النِّعمة، وكتبَ على نفسِه الرَّحمة، وضمَّن الكتابَ الَّذي كتبَه أنَّ رحمتَه تغلبُ غضَبَه»(١).

فمَن كانت معرفتُه لله كذلك، وتفقَّه في هذه البصيرة، كانَ من أقوى النَّاس إيمانًا، وأحسنِهم إجلالًا وتعظيمًا ومراقبةً لله عَزَّوَجَلَّ، وأكثَرِهم طاعةً وتقرُّبًا إليه، والنَّاس في ذلك متفاوتون فمقلٌّ ومستكثِرٌ.

رزقنا الله أجمعين حسن الإيمان بأسمائه وصفاته، والتَّحقيق لتوحيده وتعظيمه، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

(١) مدارج السَّالكين (١/ ١٤٤).

٢١
أصول الإيمان (١)

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ؛ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**». رواه مسلم[١].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨).

هذا حديث عظيم؛ اشتمل على أصول الدِّين ومُهِمَّاته وقواعده، ويدخل فيه الاعتقادات والأعمال الظَّاهرة والباطنة، فجميع علوم الشَّريعة ترجع إليه من أصول الإيمان والاعتقادات، ومن شرائع الإسلام العمليَّة بالقلوب والجوارح، وقد قيل: إنَّه يصلح أن يُسَمَّى: «أُمَّ السُّنَّة» لرجوعها كلِّها إليه، كما تُسَمَّى الفاتحة: «أُمَّ الكتاب»، و«أُمَّ القرآن» لمرجعه إليها.

ومن أعظم ما اشتمل عليه هذا الحديث: إصلاحُ القلوب، بذكر أعظم ما تستصلح به القلوب، وهو الإيمان بأصول الإيمان السِّتَّة، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». وهي أصول عظيمة الشَّأن، واجب على كُلِّ مسلم أن يؤمن بها بقلبه، إيمانًا جازمًا لا يخالطه أدنى شَكٍّ ولا ريب.

وقد جاء ذكر هذه الأصول السِّتَّة، في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه، تأكيدًا على أهمِّيَّتها وعظيم مكانتها؛ وسورة البقرة قد اشتملت على هذه الأركان: في أوَّلها، وفي وسطها، وفي خاتمتها.

ففي أوَّلها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أوصاف المُتَّقين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٢-٥].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ جاء عن أبي العالية، أنَّه قال: «أي: يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنَّته وناره ولقائه، ويؤمنون

بالحياة بعد الموت وبالبعث. فهذا غيب كلُّه»[(١)]، والإيمان بالغيب صفة امتاز بها المؤمنون، الَّذِين امتنَّ الله عليهم بالإيمان وهداهم له؛ فإنَّهم يؤمنون بكُلِّ ما غاب عنهم ممَّا أخبرتهم به رسل الله، فشأن الإيمان بالغيب عظيم، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَا آمَنَ أَحَدٌ أَفْضَل مِنْ إِيمَانٍ بِغَيْبٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥]»[(٢)].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ متضمِّن الإيمان بالكتب المُنزَّلة، ومتضمِّن الإيمان بالرُّسُل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، فيه الإيمان باليوم الآخر.

وفي وسط سورة البقرة، قال الله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]. فقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فيه الإيمان بالله، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إلى آخر الآية؛ متضمِّن الإيمان ببقيَّة أركان الإيمان السِّتَّة.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وتُسَمَّى هذه الآية آية البِرِّ، وقد تضمَّنت أصول الإيمان وأركانه، وبُدأ بها في الآية؛ لأنَّها أعلى أوصاف أهل البِرِّ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٦٧).

(٢) رواه سعيد بن منصور في التَّفسير (١٨٠)، وابن أبي حاتم في التَّفسير (٦٦).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتملت هذه الآية الكريمة، على جُمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة»[١]، ثمَّ نقل عن سفيان الثَّوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: هذه أنواع البِرِّ كلِّها. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّ مَن اتَّصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كلِّه، وهو الإيمان بالله، وهو أنَّه لا إله إلَّا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الَّذِين هم سفرة بين الله ورسله، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المُنَزَّلة مِنَ السَّماء على الأنبياء، حتَّى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المُهَيْمن على ما قبله مِنَ الكتب، الَّذِي انتهى إليه كلُّ خير، واشتمل على كلِّ سعادة في الدُّنيا والآخرة، ونسخ الله به كُلَّ ما سواه مِنَ الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كُلِّهم من أوَّلهم إلى خاتمهم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين».

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ [البقرة:١٧٧]، أي: هؤلاء الَّذِين اتَّصفوا بهذه الصِّفات هم الَّذِين صَدَقوا في إيمانهم؛ لأنَّهم حقَّقوا الإيمان القلبيَّ بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الَّذِين صدقوا، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]»[٢].

وفي خاتمة هذه السُّورة قال الله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٦).

وهي مشتملة على أركان الإيمان السِّتَّة المأمور بالإيمان بها، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[(١)]. أي: كفتاه من كُلِّ شرٍّ وسوء، وفي تلاوتها كُلَّ ليلة تجديد للإيمان بهذه الأصول العظيمة.

وقال الله سبحانه في سورة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء:١٣٦].

وهذه الآية فيها: التَّنصيص على كفر مَن لم يؤمن بهذه الأركان، أو لم يؤمن بشيء منها، وأنَّه في غاية الضَّلال: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ فمَن أخلَّ بها أو بشيء منها؛ فلا قَبول لطاعته، ولا انتفاع له بشيء من عبادته، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥].

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّة هذه الأصول، وعظم شأنها، ورفعة مكانتها: أنَّ الشَّرائع السَّماويَّة كلَّها ونبوات الأنبياء جميعهم مُتَّفقة على هذه الأصول، وإن اختلفت شرائعهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة:٤٨]، أمَّا الأصول فواحدة لدى جميع المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّتها: أنَّها تُسَمَّى أصول الإيمان وأركانه؛ لأنَّها أعمدته الَّتِي عليها قيامه، وهذا يعني: أنَّه بزوالها أو بزوال شيء منها ينهدم الدِّين.

وممَّا يُبَيِّن أهمِّيَّتها: أنَّها للإيمان كالأصول للأشجار، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ

(١) رواه البخاريُّ (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧).

تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]. والمراد بالشَّجرة الطَّيِّبة النَّخلة، وهذا مَثَلٌ بديع ضربه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للإيمان، يفيد المؤمن معرفةً للإيمان؛ لأصوله الرَّاسخة، وفروعه الباسقة، وثماره اليانعة، وفوائده العميمة في الدُّنيا والآخرة. وتأمَّل هذا التَّشبيه للإيمان بالنَّخلة، فإنَّ الشَّبه في ذلك ظاهر؛ إذ النَّخلة لا بُدَّ فيها من ثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع مثمر. وهكذا الشَّأن في الإيمان، لا بُدَّ فيه من ثلاثة أشياء: اعتقاد القلب، وقول اللِّسان، وعمل الجوارح بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

وبهذا يعلم أنَّ الإيمان شجرةٌ مباركة عظيمة النَّفع، كبيرة الفائدة، عظيمة الأثر، لها مكان تُغرس فيه، ولها سَقْي خاصٌّ بها، ولها: أصل، وفرع، وثَمَر.

أمَّا مكانها الَّذي توضع فيه فَسَائِلُهَا، ومنه تنشأ فروعها: فهو قلب المؤمن. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمر:٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وأمَّا سقيها: فهو وحي الله جَلَّ وَعَلَا؛ كلامه سبحانه، وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فبهما تحيا هذه الشَّجرة وتنمو نموًا مطَّردًا، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، والنُّور هنا هو وحي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذي به تحيا هذه الشَّجرة، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال:٢٤].

وأمَّا أصولها: فهي أصول الإيمان السِّتَّة، الَّتِي لا قيام للإيمان، ولا صلاح للدِّين، ولا استقامة للإسلام إلَّا بها؛ وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

وأمَّا فروعها: فإنَّها الطَّاعات الزَّاكية، والقربات المُتَنَوِّعة؛ فالصَّلاة مِنَ الإيمان، والزَّكاة مِنَ الإيمان، والحجُّ مِنَ الإيمان، وكُلُّ طاعة يتقَرَّب بها المؤمن إلى الله؛ فهي مِنَ الإيمان، وكذلك بُعد العبد عَنِ الحرام كُلُّ ذلك مِنَ الإيمان.

وأمَّا ثمارها: فهو كُلُّ خير في الدُّنيا والآخرة، وكُلُّ نعمة؛ فإنَّ ذلك كلَّه من ثمار الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السَّجدة:١٧].

فبالإيمان يحيا العبد الحياة الطَّيِّبة في الدَّارين، وينجو مِنَ المكاره والشُّرور والشَّدائد، ويدرك جميل العطايا وواسع المواهب. وبالإيمان ينال ثواب الآخرة؛ فيدخل جنَّةً عرضها كعرض السَّماء والأرض، فيها مِنَ النَّعيم المقيم والفضل العظيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالإيمان ينجو العبد من نارٍ عذابُها شديد، وقعرها بعيد، وحرُّها أليم.

وبالإيمان يفوز العبد برضا ربِّه سبحانه، فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذَّذ يوم القيامة بالنَّظر إلى وجهه الكريم، في غير ضرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة.

وبالإيمان يطمئنُّ القلب، وتسكن النَّفس، ويُسَرُّ الفؤاد، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨].

وكم للإيمان مِنَ الفوائد العظيمة، والآثار المباركة، والثِّمار اليانعة، والخير المستمرِّ في الدُّنيا والآخرة، ما لا يحصيه ولا يحيط به إلَّا الله، فهو أعظم المطالب، وأجلُّ المقاصد، وأنبل الأهداف، وهو أفضل ما اكتسبته النُّفوس وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة، بل إنَّ كُلَّ خير في الدُّنيا والآخرة مُتَوَقِّف على الإيمان الصَّحيح.

أسأل الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ أن يزيِّننا أجمعين بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

٢٢
أصول الإيمان (٢)

تقدَّم حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذكر مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النَّبِيِّ ﷺ بسؤالات أراد بها تعليم النَّاس دينهم ومن هذه السُّؤالات قوله: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

فجعل النَّبِيُّ ﷺ الإيمان مبنيًّا على هذه الأصول السِّتَّة العظيمة الَّتي محلُّها القلب، وتُعَدُّ أسسًا متينة يقوم عليها صلاحه، بل لا صلاح للقلوب إلَّا بها.

وأصل هذه الأصول وأعظمها هو الإيمان بوحدانيَّة الله: في ربوبيَّته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيَّته؛ فيؤمن العبد بربوبيَّته بأن يعتقد اعتقادًا جازمًا لا يخالطه أدنى شكٍّ ولا ريب أنَّ الله وحده هو الخالق الرَّازق المنعِم المُتَصَرِّف المُدَبِّر لشؤون خلقه كلِّها، ويؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة، قائلًا: «آمَنَّا بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَآمَنَّا بِرَسُولِ اللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»(٢)، لا يطلب إمامًا غير الكتاب

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨) واللَّفظ له.

(٢) ذكره أبو زكريَّا السلماسي في منازل الأئمَّة الأربعة (ص١٤٦) عن الشَّافعيِّ.

والسُّنَّة، ولا يتخطاهما إلى غيرهما ولا يحيد عمَّا جاء فيهما، ينطق بما نطقا به ويسكت عمَّا سكتا عنه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَصِفُ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ لَا نَتَجَاوَزُ القُرْآنَ وَالْحَدِيثَ»[(١)]، وكما قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»[(٢)].

فإذا أَخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه باسم أو صفة أو فعل أو غير ذلك آمن به وصدَّق دون تشبيه لله جَلَّوَعَلَا بخلقه ودون تعطيل أو تحريف أو تأويل، ويفردُ الله وحده بجميع أنواع العبادة فلا يصرف شيئًا منها لغيره سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فكما أنَّه لا خالق غيره؛ فلا معبود حقٌّ حقيق بالعبادة سواه، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وكُلَّما عظم حظُّ العبد من هذا الإيمان طاب قلبه وصلح.

ومن أصول الإيمان العظيمة الإيمان بالملائكة:

بأن يُقِرَّ ويعتقد بكُلِّ ما جاء عنهم في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ من أسمائهم وأعمالهم وأوصافهم وأعدادهم، ولا يعلم عددهم إلَّا الله سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر:٣١]. وممَّا يُبيِّن كثرتهم ما جاء في حديث الإسراء قال ﷺ: «**رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا**

---

(١) ذكره الذَّهبيُّ في كتاب العرش (١/ ٣١).

(٢) رواه البخاريُّ تعليقًا في بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة:٦٧].

فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»(١)، وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»(٢)، وممَّا يُبيِّن عظم خلقهم ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»(٣)، وقد رأى النَّبيُّ ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد سدَّ الأفق وله ستُّمائة جناح. ثمَّ هم مع عظمهم وكبرهم وقوَّتهم؛ فإنَّهم إذا تكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالوحي خرُّوا صاعقين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]. فهذا يُبيِّن حالهم مع الله وطاعتَهم له وانقيادهم لأمره وخضوعهم له، وأنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومن أصول الإيمان الإيمان بالأنبياء:

وهم كثيرون، منهم مَن قصَّ الله خبره في القرآن الكريم، ومنهم مَن لم يقصص خبره: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨]. وعدد الأنبياء الَّذين ذكرت أسماؤهم في القرآن خمسٌ وعشرون بين رسول ونبيٍّ.

وقد بعث الله في كلِّ أُمَّة من الأمم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾

(١) رواه البخاريُّ (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣١٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

[النَّحل:٣٦]. وجميعهم صادقون مَصْدُوقُون، بارُّون صالحون، هادون مهتدون، نصحاء أمناء، قال تعالى بعد أن ذكر طائفة كبيرة من الأنبياء والرُّسل: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

وقد جاءوا بالحقِّ والعدل قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

ودعوتهم واحدة الدَّعوةُ إلى توحيد الله قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد بلَّغُوا البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن:٢٨].

وأفضلهم هو محمَّد ﷺ سيِّد ولد آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وشريعته ناسخة لشرائعهم، وهي الخاتمة للشَّرائع السَّماويَّة، نؤمن به وننقاد لأوامره ونخضع لشرعه وننتهي عن نواهيه ونشهد أنَّه رسول الله حقًّا وصدقًا، أرسله بين يدي السَّاعة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهدى بنوره من الضَّلالة وبصَّر به من العمى وأرشد به من الغيِّ، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا ﷺ.

ثمَّ الإيمان بالكتب: بأن يؤمن بكُلِّ كتاب أنزله الله، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ [الشُّورى:١٥]. وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].
وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء:١٣٦]، فيؤمن بكلِّ كتاب أنزله الله إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصَّل، فقد سمَّى الله تعالى من كتبه: التَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزَّبور على داود. في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النِّساء: ١٦٣]، والقرآن على محمَّد ﷺ، وذكر صحف إبراهيم وموسى.

ومعنى الإيمان بها: التَّصديق الجازم بأنَّها كلَّها مُنَزَّلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ على رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى عباده بالحقِّ والهدى، وأنَّها كلام الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الَّذِي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرَّسول الملكيُّ ويأمره بتبليغه منه إلى الرَّسول البشريِّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشُّورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء:١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والتَّصديق بكُلِّ ما فيها من الشَّرائع، وأنَّه كان واجبًا على الأمم الَّذِين نزلت إليهم تلك الكتب؛ الانقيادُ لها والحكم بما فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة:٤٤].

وأنَّها يُصَدِّق بعضها بعضًا، كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال في القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثمَّ الإيمان بالقرآن العظيم إيمانًا خاصًّا: وهو كتاب الله الَّذي أنزله على نبيِّنا محمَّد ﷺ مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، وهو آخر الكتب المُنَزَّلة وأجلُّها وأشرفها وأكملها، وهو النَّاسخ لما قبله من الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: مهيمنًا مؤتمنًا وشاهدًا على ما قبله من الكتب ومُصَدِّقًا لها، فيُصَدِّق: ما فيها من الصَّحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنَّسخ أو التَّقرير، ولهذا يخضع له كلُّ متمسِّك بالكتب المُتَقَدِّمة ممَّن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

ثمَّ الإيمان باليوم الآخر: وهو الإيمان بكلِّ ما أخبر الله به ممَّا يكون بعد الموت، من حين دخول الإنسان قبره، والقبر هو أوَّل منازل الآخرة إلى افتراق النَّاس إلى فريقين فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير، فيؤمن بفتنة القبر وعذابه ونعيمه ونزول الملكين في القبر وسؤال مَن في القبر عن ربِّه ودينه ونبيِّه ﷺ، ثمَّ النَّفخ في الصُّور، والبعث والنُّشور، وحشر النَّاس، ومجيء الله للقضاء، ونصب الموازين، ونشر الدَّواوين فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله،

وتطاير الصُّحف، والصِّراط الَّذِي يُنصب على متن جهنَّم، وبجهنَّم وما فيها من صنوف العذاب، وبالجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، وأنَّ الجنَّة والنَّار باقيتان لا تفنيان، ورؤية المؤمنين ربَّهم سبحانه في الجنَّة، وهذا أكمل النَّعيم وأعلاها.

ثمَّ الإيمان بالقدر: بأن يؤمن العبد بأنَّ الله سبق في علمه وجود الكائنات وما يعمله العباد من خير وشرٍّ، وكتب كلَّ ذلك في اللَّوح المحفوظ، وأنَّ وجود أيِّ شيء من ذلك إنَّما يكون بمشيئته، وأنَّه سبحانه الخالق لكلِّ شيء. وعليه فالإيمان بالقدر لا يكون إلَّا بالإتيان بمراتب القدر، **وهي أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأزلي، وأنَّه أحاط بكُلِّ شيء علمًا، وأنَّه علم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

المرتبة الثَّانية: الإيمان بالكتابة وأنَّ كلَّ شيء كتب في اللَّوح المحفوظ. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**». رواه مسلم[(١)].

وعن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمْ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ فَجَرَى بِتِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». رواه

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

أحمد والتِّرمذيُّ(١).

المرتبة الثَّالثة: الإيمان بالمشيئة وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير:٢٩].

المرتبة الرَّابعة: الإيمان بالإيجاد والخلق وأنَّ الموجد والخالق للأشياء كلِّها هو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمر:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٩٦].

فهذه أصول الإيمان الَّتِي جاءت في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وعليها قيام دين الله، وتفاصيل هذه الأصول مُبَيَّنة في الكتاب والسُّنَّة، فإذا ترسَّخت في القلب عظم صلاحه وطاب وزكا، وهي غذاء القلوب وقوَّتها وصلاحها وقوامها، والله المسؤول والمرجو وحده أن يزيِّننا بزينة الإيمان وأن يجعلنا هداة مهتدين.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠٧٥)، والتِّرمذيُّ (٢١٥٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٢٣
الإيمان باليوم الآخر

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا؛ فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ؛ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ**». فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ، وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ:

هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النِّساء:٢٩]. قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ(١).

هذا الحديث العظيم فيه بيان أهمِّيَّة الإيمان باليوم الآخر، وأثرُه العظيم على العبد في صلاح قلبه، ونجاته من فتن الدُّنيا ونجاته من عذاب الآخرة، وأنَّ مَن أحبَّ لنفسه الزَّحزحة عن النَّار ودخول الجنَّة؛ فعليه أن يكون ملازمًا للإيمان باليوم الآخر إلى أن يتوفَّاه الله وهو على هذا الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقَّة:١٩-٢٤].

فقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ فيه أثر الإيمان باليوم الآخر على القلوب ومكانته العليَّة في تزكية النُّفوس وإصلاح العباد، وأنَّ العبد كلَّما كان على ذكرٍ واستحضارٍ لذلك اليوم، وأنَّ ثمَّة يوم يحاسب فيه ويعاقب، فيه جنَّة ونار، ولقاء بالجبَّار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسؤال عمَّا قدَّم في هذه الحياة كان لذلك عظيم الأثر على قلبه صلاحًا واستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا إذا ضعُف هذا الإيمان في قلب الإنسان أو انعدم؛ فإنَّ الخير يضعف وينعدم تبعًا لضعفه أو انعدامه؛ ولهذا كان من أولويَّات الدِّين وأعظم ما ينبغي أن يُعنى به المسلمون

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

إصلاح الاعتقاد، الَّذِي هو للدِّين بمثابة الأصول للأشجار والأعمدة للبنيان.

وكم يترتَّب من الآثار السَّيِّئة والعواقب الوخيمة حينما يغفل الإنسان عن البعث وعن الجزاء وعن الحساب!! وينسى أنَّ هذه الأعمال الَّتِي يقترفها ويقدِّمها ويباشرها في هذه الحياة ستكون محضرة كلَّها يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠]. وأنَّه يُجزى عليها بمثاقيل الذَّرِّ!! ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة:٧-٨]، وإن نسيَ ذلك فإنَّه محصًى عليه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦]، ومكتوبٌ يجد كلَّ ذلك حاضرًا يوم القيامة، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]؛ ولهذا فما أعظم أن يكون العبد في هذه الحياة يظنُّ -أي: يعتقد- أنَّه سيلقى الحساب، وكلَّما حدَّثته نفسه بخطيئة أو مخالفة أو تهاونٍ في طاعة أو تفريطٍ في عبادة أو تضييعٍ لواجب ذكَّرها بهذا المقام العظيم، ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٠]، أي: يا نفس إنَّك ستحاسَبين، وستقفين بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للجزاء والحساب فيوم عسير إلَّا على المؤمن المطيع لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّه يكون يسيرًا عليه بتوفيقٍ الله سبحانه ومنِّه.

ولهذا ينبغي على المسلم أن يعنى بهذه العقيدة عقيدة الإيمان باليوم الآخر؛ فإنَّها إذا وجدت في القلب كان وجودها وقيامها وقرارها فيه قيام الدِّين.

ثمَّ إنَّ إيمان أهل الإيمان باليوم الآخر على درجتين:

الدَّرجة الأولى: هي درجة الإيمان الجازم؛ وهو الَّذِي لا يقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العبد عمله وطاعته وعبادته إلَّا إذا كان هذا القدر موجودًا عنده؛ إيمانًا جازمًا بحيث يكون عنده يقين لا شكَّ فيه ولا ريب بأنَّ هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً وعقابًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، أي: أيْقنوا ولم يشكُّوا، فهذا القدر مطلوب من كلِّ مسلم، فإذا لم يكن عند العبد يقينٌ بالبعث والجزاء والحساب، وعنده بدل اليقين الشَّكُّ؛ فإنَّ هذا كفرٌ محبِطٌ للأعمال ومبطِلٌ للدِّين، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥].

والدَّرجة الثَّانية وهي درجة عالية وعظيمة إذا وُفِّق لها العبد: وهي درجة الإيمان الرَّاسخ؛ وهي الَّتِي يكون فيها الإيمان بهذه الحقائق العظيمة راسخًا في القلب، متمكِّنًا من النَّفس، حاضرًا مع العبد؛ فتجد هذا الرُّسوخ في الإيمان حاضرًا مع العبد في المقامات والأحوال المتنوِّعة، فتجده في كلِّ مقام على ذكرٍ للبعث والجزاء والحساب؛ فيكون لهذا الرُّسوخ في الإيمان أثرٌ عظيمٌ للغاية في صلاح العبد واستقامته في أحواله كلِّها؛ بل وفي ترقِّيه في درجات الكمال؛ ممَّا ينال به يوم القيامة رفيع المنازل في جنات النَّعيم.

فعندما يتأمَّل المسلم في الإيمان باليوم الآخر بدءًا من دخول الإنسان في قبره، والتَّفاصيل الكثيرة المذكورة في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يكون في القبر وما بعده من البعث والحشر والحساب والجزاء والنَّار وغير ذلك، سيكون له

الأثر البالغ عليه في رقَّة قلبه وخشيته لربِّه وإقباله على طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عن إبراهيم التَّيميِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثَّلت نفسي في الجنَّة آكل ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثمَّ مثَّلت نفسي في النَّار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها؛ فقلت لنفسي: أي نفسي، أيَّ شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدُّنيا فأعمل صالحًا قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»[(١)]. رواه ابن أبي الدُّنيا في كتابه محاسبة النَّفس.

فكم في تذكُّر المآل من أثر في زمِّ النَّفس وأطرها على الحقِّ، وكم في الغفلة عنه من أثر في انفلاتها وانسياقها وراء الملذَّات الفانية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشَّواهد إشارة يُعلم بها حقيقة الأمر؛ فأوَّل شواهد السَّائر إلى الله والدَّار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدُّنيا وحقارتها وقلَّة وفائها وكثرة جفائها وخسَّة شركائها وسرعة انقضائها...»[(٢)].

ثمَّ قال: «فإذا قام بالعبد هذا الشَّاهد منها ترحَّل قلبه عنها، وسافر في طلب الدَّار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها وأنَّها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار ومحطُّ الرِّحال ومنتهى السَّير»[(٣)].

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس (١٠).
(٢) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٧).
(٣) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٨).

ثمَّ قال: «ثمَّ يقوم بقلبه شاهد من النَّار وتوقُّدها واضطرامها وبُعد قعرها وشدَّة حرِّها وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُود الوجوه زُرق العيون والسَّلاسل والأغلال في أعناقهم، فلمَّا انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع وقد تقطَّعت قلوبهم حسرةً وأسفًا، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣]، فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون وأتى النِّداء من قبل ربِّ العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصَّافَّات:٢٤]، ثمَّ قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطُّور:١٤-١٦]. فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يُسحبون وفي النَّار كالحطب يُسجرون، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، فبئس اللِّحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدَّة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا شربوه تقطَّع أمعاءهم في أجوافهم وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم وطعامهم الزَّقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]، فإذا قام بقلب العبد هذا الشَّاهد انخلع من الذُّنوب والمعاصي واتِّباع الشَّهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوَّة هذا الشَّاهد يكون بُعده من المعاصي والمخالفات؛ فيذيب هذا الشَّاهد من قلبه الفضلات

والموادَّ المهلكة ويُنضجها ثمَّ يُخرجها فيجد القلب لذَّة العافية وسرورها؛ فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنَّة وما أعدَّ الله لأهلها فيها ممَّا لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عمَّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النَّعيم المفصَّل الكفيل بأعلى أنواع اللَّذة من المطاعم والمشارب والملابس والصُّور والبهجة والسُّرور، فيقوم بقلبه شاهد دارٍ قد جعل الله النَّعيم المقيم الدَّائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لبِن الذَّهب والفضَّة وقصَب اللُّؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحةً من المسك وأبرد من الكافور وألَذُّ من الزَّنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهُنَّ في هذه الدُّنيا لغلب على ضوء الشَّمس، ولباسهم الحرير من السُّندس والإستبرق، وخدَمهم ولدان كاللُّؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣-٣٤]، وغذاؤهم لحم طير ممَّا يشتهون، وشرابهم عليه خمرة، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصَّافَّات:٤٧]، وخضرتهم فاكهة ممَّا يتخيَّرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللُّؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متَّكئون، وفي تلك الرِّياض يُحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون، فإذا انضمَّ إلى هذا الشَّاهد شاهد يوم المزيد والنَّظر إلى وجه الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُم نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُم فَإِذَا الرَّبُّ تَعَالَى قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِم، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الجَنَّة سَلَامٌ عَلَيْكُم ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، **ثُمَّ يَتَوَارَى عَنْهُم وَتَبْقَى**

رَحْمَتُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِم فِي دِيَارِهِم»[(١)]. فإذا انضمَّ هذا الشَّاهد إلى الشَّواهد الَّتِي قبله؛ فهناك يسير القلب إلى ربِّه أسرع من سير الرِّياح في مهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا...»[(٢)]. إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكم لهذا من الأثر البالغ على العبد في صلاح قلبه وطاعته لله جَلَّ وَعَلَا!! وبعده عن معاصيه.

أصلح الله قلوبنا أجمعين وزكَّاها بالإيمان.

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤).

(٢) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ١٤٨ - ١٥١).

٢٤
الإيمان بالقدر

روى الإمام أحمد والتِّرمذيُّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»(١).

وعن عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنَّ أحدكم لن يخلص الإيمان إلى قلبه، حتَّى يستيقن يقينًا غير ظَنٍّ: أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويقرُّ بالقدر كُلِّه». رواه البيهقيُّ(٢).

هذا أصلٌ عظيم من أصول الإيمان، وركنٌ جليل من أركانه العظام، أن يؤمن العبد بالقضاء والقدر، ومحلُّ هذا الإيمان القلب، ومِنَ المعلوم أنَّ الإيمان الَّذِي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لأجله، وأوجدنا لتحقيقه؛ يقوم على أركانٍ ستَّة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه. وقد جمعها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث جبريل المشهور عندما سأل النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإيمان، قال: أخبرني عَنِ الإيمان، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،**

(١) رواه أحمد (٦٩٨٥)، والتِّرمذيُّ (٢١٤٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البيهقيُّ في القضاء والقدر (٢٠٦).

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وقد جاء ذكر هٰذا الأصل -أعني: الإيمان بالقدر- في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه، منها: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير:٢٨-٢٩]، والآيات في هٰذا المعنى كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في السُّنَّة أحاديث كثيرة تُبَيِّن مكانة الإيمان بالقدر العظيمة، ومنزلته العليَّة الشَّريفة.

روى مسلم في صحيحه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**»(٢). قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والكَيْس (بفتح الكاف) ضدُّ العجز، ومعناه: الحذق في الأمور، ويتناول أمور الدُّنيا والآخرة، ومعناه: أنَّ كُلَّ شيء لا يقع في الوجود، إلَّا وقد سبق به علم الله ومشيئته، وإنَّما جعلهما في الحديث غاية لذلك؛ للإشارة إلى أنَّ أفعالنا وإن كانت معلومة لنا ومرادة منَّا، فلا تقع مع ذلك منَّا إلَّا بمشيئة الله»(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨).
(٢) رواه مسلم (٢٦٥٥).
(٣) فتح الباري (١١/ ٤٧٨).

ولهذا شُرع لنا في الدُّعاء؛ أن نقول: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**»(١)؛ لأنَّ الَّذي يُعيذ مِنَ العجز والكسل هو الَّذي بيده أزِمَّة الأمور ومقاليد السَّموات والأرض، فلا يَسْلَم عبدٌ مِنَ الكسل ولا مِنَ العجز إلَّا إذا سلَّمه الله؛ لأنَّ الأمور بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وروى التِّرمذيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالمَوْتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ**»(٢).

وروى الإمام أحمد والتِّرمذيُّ وغيرُهما، عن الوليد ابن الصَّحابيِّ الجليل عبادة بن الصَّامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «**دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ، أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي، وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، **حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». يَا بُنَيَّ، إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ؛ دَخَلْتَ النَّارَ**»(٣).

وقول عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢١٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه أحمد (٢٢٧٠٥)، والتِّرمذيُّ (٢١٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، **حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ**». يُبَيِّن أنَّ الَّذِي لا يؤمن بالقدر؛ ما عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا عرف عظمة الله، ولا قَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقَّ قدره ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمر:٦٧]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «القدر قدرة الله»[(١)]. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا، وقال: هذا يدلُّ على دِقَّة علم أحمد، وتَبَحُّره في معرفة أصول الدِّين، وهو كما قال أبو الوفاء: فإنَّ إنكار القدر إنكار لقدرة الرَّبِّ على خلق أعمال العباد، وكتابتها، وتقديرها»[(٢)].

فالَّذِي لا يؤمن بالقدر هو في الحقيقة لا يعرف الله، ولا يؤمن به، ولا يستقيم توحيده؛ ولهذا جاء عن الصَّحابِيِّ الجليل عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «القَدَرُ نظام التَّوحيد؛ فمَن آمن بالله، وكذَّب بالقدر؛ نقض تكذيبُه توحيدَه»[(٣)]. أي: أنَّه بتكذيبه بالقدر ينتقض توحيده، فلا يكون مؤمنًا بالله.

وإذا كان الإيمان بالقدر نظامَ التَّوحيد؛ فإنَّ التَّوحيد نفسَه نظام الحياة، فحياة الإنسان لا تنتظم إلَّا بتوحيد الله، ومَن لم يُوَحِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تكون حياته وشؤونه فُرُطًا، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، فإذا انهدم التَّوحيد؛ انفرطت الحياة، وضاع الزِّمام، وانفلت الخطام، وتبدَّدت الأمور، وعاش الإنسان في ضياع، وأصبحت حياته كلُّها تَباب لا قيمة لها، فلا تنتظم الحياة إلَّا بتوحيدِ الله

(١) مسائل أحمد برواية ابن هانئ (١٨٦٨).

(٢) شفاء العليل (١/ ٩٧ - ٩٨).

(٣) رواه الفريابيُّ في القدر (٢٠٥)، والطَّبرانِيُّ في الأوسط (٣٥٧٣).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا ينتظم توحيده جَلَّ وَعَلَا إلَّا بالإيمان بقدره، وأنَّ الأمور كلَّها بتقديره عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الأمورَ كلَّها بمشيئته، وأنَّ ما شاء جَلَّ وَعَلَا كان وما لم يشأ لم يكن.

والإيمان بالقدر لا يكون إلَّا بالإيمان بمراتبه، وهي أربعة مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعِلم الله عَزَّوَجَلَّ الشَّامل المحيط الواسع، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أحاطَ بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، علِم ما كان، وعلِم ما سيكون، وعلِم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:١-٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:١٤].

المرتبة الثَّانية: الإيمان بالكتابة، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب كُلَّ ما هو كائن في اللَّوح المحفوظ؛ قال تعَالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحجُّ:٧٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

روى مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(١).

المرتبة الثَّالثة: الإيمان بمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا النَّافذة وقدرته الشَّاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير:٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣١].

المرتبة الرَّابعة: الإيمان بأنَّ الله خالق كلِّ شيء، وأنَّ جميع ما وُجد ويوجد فالله خالقه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٩٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمر:٦٢].

إنَّ من الجميل بالمؤمن أن يكون إيمانه بالقدر حاضرًا معه في كُلِّ تقلُّباته وجميع أحواله، مستشعرًا أنَّه طوعُ تدبير سيِّده ومولاه يقضي فيه بما يشاء ويحكم فيه بما يريد لا رادَّ لحكمه ولا مُعَقِّب لقضائه.

ولنتأمَّل في هذا دعاء الاستخارة الَّذِي علَّمه النَّبِيُّ ﷺ أُمَّته توطينًا لهم على الرِّضا بقضاء الله، والتَّسليم لما يُقَدِّره، بأن يُفَوِّض العبد الأمر إليه سبحانه أن

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

يختار له ما فيه الخير له في دينه ودنياه وعاقبة أمره، وأن يصرف عنه ذلك الأمر إن كان فيه شرٌّ له وأن يُقَدِّر له الخير حيث كان، إيمانًا من العبد أنَّ الأمور كُلَّها بقدر الله.

روى البخاريُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**»(١).

وأرشد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المكروب أن يستحضر الإيمان بالقدر وأن يدفع قدر الله بقدر الله، ملتجئًا إلى الله متوسِّلًا إليه بإيمانه بقدره أن يكشف كربته ويذهب عنه حزنه ويبدله فرحًا.

روى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي**

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٦٢).

بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»(١).

والإيمان بالقدر يفيد العبد فوائد عظيمة: فهو يُعْطِي القلب قوَّة، ويزيد العبد معرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُذَلِّل له الصِّعاب، ويرزقه الله جَلَّ وَعَلَا بإيمانه بالقدر السِّلوان في المصائب، فإذا أصيب المؤمن بمصاب؛ سلَّاه إيمانه بالقدر، كما قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التَّغابن: ١١]، قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «هو المؤمن تصيبه المصيبة، فيعلم أنَّها من عند الله، فيرضى ويُسَلِّم»(٢). يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه التِّرمذيُّ(٣). وهذه ميزة عظيمة للإيمان بالقدر، يقول

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

(٢) رواه الطَّبريُّ في جامع البيان (٢٣/ ٤٢١).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١). فالمؤمن في سرَّائه شاكر، وفي ضرَّائه صابر؛ في سرَّائه يفوز بثواب الشَّاكرين، وفي ضرَّائه يفوز بثواب الصَّابرين، فهو فائزٌ رابحٌ غانمٌ في كُلِّ أحواله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده المؤمنين بكُلِّ منزلة خيرًا منه، فهم دائمًا في نعمة من ربِّهم، أصابهم ما يُحِبُّون أو ما يكرهون، وجعل أقضيته وأقداره الَّتِي يقضيها لهم ويُقَدِّرها عليهم متاجر يربحون بها عليه، وطرقًا يصلون منها إليه، كما ثبت في الصَّحيح عن إمامهم ومتبوعهم -الَّذِي إذا دُعِي يوم القيامة كُلُّ أناس بإمامهم دُعوا به صلوات الله وسلامه عليه- أنَّه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّه عجب، ما يقضي الله له من قضاء إلَّا كان خيرًا له، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له**»(٢)، فهذا الحديث يعمُّ جميع أقضيته لعبده المؤمن، وأنَّها خير له إذا صبر على مكروهها وشكر لمحبوبها»(٣).

قال ابن ناصر الدِّين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

يجري القضاءُ وفيه الخيرُ نافلةٌ ... لمؤمنٍ واثقٍ بالله لا لاهي

إن جـــاءه فرحٌ أو نابه تـــرحٌ ... في الحالتين يقول الحمد لله(٤)

وبحمده سبحانه نختم، فله الحمد أوَّلًا وآخرًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) قاعدة في الصَّبر (ص٨٨).

(٤) برد الأكباد عند فقد الأولاد لا بن ناصر الدين الدمشقي (١/ ٣٣).

٢٥
عمارة القلب بالإيمان

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ؛ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**». رواه أحمد وأبو داود(١).

قوله ﷺ: «**وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ**» هذا نظير قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤]، وقد نزلت في جماعة من الأعراب ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبُوا وأُعْلِمُوا أنَّ ذلك لم يصلوا إليه بعد، فقيل لهم على وجه التَّأديب: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾، أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد، ولم يتمكَّن الإيمان في قلوبكم، ولفظ: ﴿وَلَمَّا﴾ يُنفى به ما يقرب حصوله ويحصل غالبًا. فهو يدلُّ

(١) رواه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

على أنَّ دخول الإيمان في قلوبهم منتظر منهم؛ فإنَّ الَّذِي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الإيمان لكنَّه يحصل فيما بعد، وكان كمَن أسلم رغبة في الدُّنيا فلم يمض وقتٌ إلَّا والإسلام أحبُّ إليه ممَّا طلعت عليه الشَّمس، وكمَن دخل في العلم والدِّين لرغبة في مال أو جاه فلمَّا ذاق حلاوة العلم والإيمان كان ذلك أحبَّ إليه ممَّا طلعت عليه الشَّمس، ولهذا كان عامَّة الَّذِين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك.

وكثير من المسلمين ينشأ على القيام بأعمال الإسلام الظَّاهرة فيصلِّي ويصوم ويحجُّ ويتصدَّق، ولكنَّ حقائق الإيمان الباطنة لا تكون متمكِّنة وراسخة في قلبه، فهذا مسلم ولكنَّه لم يصل إلى درجة الإيمان، فالإيمان درجة عالية ومرتبة رفيعة لا يصل إليها إلَّا مَن دخل الإيمان في قلبه ورسخ، فعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا وَأَنَا جَالِسٌ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُمْ رَجُلًا لَمْ يُعْطِهِ وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللهِ إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللهِ، إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللهِ، إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، يَعْنِي: فَقَالَ: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ**». متَّفق عليه[١].

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

فنبَّهه النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**أَوْ مُسْلِمًا**» إلى الحكم له برتبة الإسلام الَّتي يحكم بها لكُلِّ مَن صَلَح ظاهره، ولا يحكم له بالإيمان لأنَّه مبنيٌّ على معرفة ما في باطن العبد؛ إذ هو راجع إلى صلاح الباطن الَّذي به كمال صلاح الظَّاهر، وهذا شيء لا يطَّلع عليه النَّاس، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]. والتَّزكية من العباد لأنفسهم المنهيُّ عنها في الآية هي إخبارهم عن أنفسهم بكونها زاكية واعتقاد ذلك، بل المرجع في ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ العالمِ بحقائق الأمور وخفايا الصُّدور، ولهذا قال سبحانه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، كما قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّساء:٤٩].

ثمَّ إنَّ الإيمان إذا دخل في القلب وتمكَّن فيه حجز صاحبه عن المعاصي ومنعه من الذُّنوب، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث المُتَقَدِّم: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ؛ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ**»(١). ففيه تنبيه على أنَّ غيبة المسلمين والتَّجسُّس عليهم وتَتَبُّع عوراتهم ومساويهم أمارةٌ على نقص الإيمان القلبيِّ وضعفه؛ لأنَّه لو كان قويًّا لحجز عن هذا الفعال.

«عن أبي جعفر محمَّد بن عليٍّ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أنَّه سُئِل عن قول النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٢)، فقال أبو جعفر: هذا الإسلام ودَوَّر دارةً

---

(١) رواه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

(٢) رواه البخاريُّ (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

واسعةً، وهذا الإيمان ودَوَّر دارةً صغيرةً في وسط الكبيرة؛ فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلَّا الكفر بالله»[(١)].

فالإيمان القلبيُّ الصَّادق أعظم حاجز للعبد وأقوى رادع له يكفُّه عن الذُّنوب ويحجزه عن الوقوع في المعاصي؛ ولهذا فحاجة العبد ماسَّة وضرورته مُلِحَّة إلى تعلُّم أصول الإيمان والعناية بها واتِّخاذ الأسباب المُيَسِّرة لوصولها إلى قلبه، وأن يجاهد نفسه في تعلُّم حقائق الإيمان الباطنة ممَّا يتعلَّق بأسماء الله وصفاته وما يتعلَّق بملائكته وأنبيائه ورسله وقدَره وغير ذلك من أصول الإيمان، وبذل الجهد في اتِّخاذ الأسباب الجالبة لذلك.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالى قد جعل لكُلِّ مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمُّها وأعمُّها، وقد جعل الله له موادَّ كبيرة تجلبه وتُقَوِّيه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومَوادُّه الَّتِي تجلبه وتُقَوِّيه أمران: مُجْمَل ومُفَصَّل.

أمَّا المُجْمَل فهو التَّدبُّر لآيات الله المتلُوَّة من الكتاب والسُّنَّة، والتَّأمُّل لآياته الكونيَّة على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحقِّ الَّذِي خُلِق له العبد، والعمل بالحقِّ، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأمَّا التَّفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة.

منها -بل أعظمها-: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسُّنَّة،

---

(١) رواه محمَّد بن نصر المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٥٦٣).

والحرص على فهم معانيها، والتَّعبُّد لله فيها. فقد ثبت في الصَّحيحين عنه ﷺ، أنَّه قال: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا -مِائَةً إلَّا وَاحِدًا- مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، أي: مَن حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبَّد لله بها؛ دخل الجنَّة، والجنَّة لا يدخلها إلَّا المؤمنون، فعُلِم أنَّ ذلك أعظم ينبوع ومادَّة لحصول الإيمان وقُوَّته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومنها: تدبُّر القرآن على وجه العموم؛ فإنَّ المُتَدَبِّر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. وكذلك إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنَّه يُصَدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ تيقَّن أنَّه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٢]. وأنَّه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه من التَّناقض والاختلاف أمور كبيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]. وهذا من أعظم مُقَوِّيات الإيمان.

فالتَّدبُّر للقرآن من أعظم الطُّرُق والوسائل الجالبة للإيمان، والمُقَوِّية له، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن -الَّتِي من أهمِّها حصول الإيمان- سبيله وطريقه تدبُّر آياته وتأمُّلها.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

وكذلك معرفة أحاديث النَّبيِّ ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله، كلُّها من مُحَصِّلات الإيمان ومُقَوِّياته. فكُلَّما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسُنَّة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه.

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه:

معرفة النَّبيِّ ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة؛ فإنَّ مَن عرفه حقَّ المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسُّنَّة، والدِّين الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩]، أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممَّن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممَّن آمن به.

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصَّادقة النَّافعة، وأفعاله الرَّشيدة. فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

ومن أسباب الإيمان ودواعيه:

التَّفكُّر في الكون، في خلق السَّماوات والأرض وما فيهنَّ من المخلوقات المُتَنَوِّعة، والنَّظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصِّفات؛ فإنَّ ذلك داع قويٌّ للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدَّالِّ على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الَّذي يُحَيِّر الألباب، الدَّالِّ

على سعة علم الله، وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنِّعم الكثيرة الَّتِي لا تعدُّ ولا تحصى، الدَّالَّة على سعة رحمة الله، وجوده وبِرِّه. وذلك كلُّه يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللَّهَج بذكره، وإخلاص الدِّين له. وهذا هو روح الإيمان وسِرُّه.

وكذلك النَّظر إلى فقر المخلوقات كلِّها، واضطرارها إلى ربِّها من كُلِّ الوجوه، وأنَّها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصًا ما تشاهده في نفسك، من أدلَّة الافتقار، وقوَّة الاضطرار؛ وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه، ويوجب له قوَّة التَّوكُّل على ربِّه، وكمال الثِّقة بوعده، وشدَّة الطَّمع في برِّه وإحسانه، وبهذا يتحقَّق الإيمان، ويقوى التَّعبُّد؛ فإنَّ الدُّعاء مخُّ العبادة وخالصها.

وكذلك التَّفكُّر في كثرة نعم الله وآلائه العامَّة والخاصَّة، الَّتِي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإنَّ هذا يدعو إلى الإيمان.

ومن أسباب دواعي الإيمان:

الإكثار من ذكر الله كُلَّ وقت، ومن الدُّعاء الَّذِي هو مخُّ العبادة؛ فإنَّ الذِّكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويُغَذِّيها وينميها. وكُلَّما ازداد العبد ذكرًا لله قوي إيمانه، كما أنَّ الإيمان يدعو إلى كثرة الذِّكر؛ فمَن أحبَّ الله أكثر من ذكره، ومحبَّة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

ومن الأسباب الجالبة للإيمان:

معرفة محاسن الدِّين؛ فإنَّ الدِّين الإسلاميَّ كلَّه محاسن، عقائده أصحُّ العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النَّظر الجليل يُزَيِّن الله الإيمان في قلب العبد، ويُحَبِّبه إليه، كما امتنَّ به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات:٧]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدُها في قلبه، فيتجمَّلُ الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمَّلُ الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدُّعاء المأثور: «اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[١][٢].

اللَّهُمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الرَّاشدين، بفضلك ومنَّتك، إنَّك أنت العليم الحكيم.

---

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٣٠١).
(٢) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧١ - ٧٧).

٢٦
تجديد الإيمان في القلب (١)

روى الحاكم في مستدركه، والطَّبرانِيُّ في معجمه، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ**[(١)] **فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ: أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(٢)].

الإيمان كما لا يخفى؛ أعظم المطالب، وأشرف المواهب، وأجلُّ الغايات، وأنبل المقاصد، وهو الَّذِي به تنال سعادة الدُّنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧]. فبه دخولُ الجنَّة، والنَّجاة مِنَ النَّار، وبه يشرف العبد برؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة. كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وكما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٣)]، أي: معاشر أهل الإيمان. وكم للإيمان مِنَ الثِّمار والآثار العديدة في الدُّنيا والآخرة.

والعاقل مَن يُعنى بإيمانه، ويجعل اهتمامه به في أولى اهتماماته، ومقدَّم

---

(١) الخَلَق، أي البالي، للمذكر والمؤنث، وأصله أخلق، أي أملس.
يقال: خلق الثوب، أي: بلى. ينظر: الصحاح (٤/ ١٤٧٢).

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٥)، والطَّبرانِيُّ في الكبير (١٤٦٦٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٨٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣).

أولويَّاته، كيف لا؟! وهو الغاية العظمى والمطلب الأجلُّ. ويتأكَّد هذا الأمر حينما نستشعر أنَّ الإيمان بحاجة مستمرَّة إلى تجديد ورعاية؛ لأنَّ الصَّوارف عَنِ الإيمان، والشَّواغل عن تتميمه وتكميله في هذه الحياة كثيرة ومتنوِّعة، تأتي للمرء من هنا وهناك، فيحتاج المؤمن إلى أن يكون دائمًا متيقِّظًا، وذا رعاية وعناية بإيمانه؛ يعمل على تجديد إيمانه وتقوية صلته بربِّه، وعلى سلامته مِنَ النَّواقص والقوادح، الَّتِي تُؤَثِّر فيه نقصًا وضعفًا.

وقوله ﷺ في الحديث المُتَقَدِّم عَنِ الإيمان: إنَّه «**لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِنَا كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ**»(١). فيه تأكيد على أهمِّيَّة رعاية الإيمان، ولا سِيَّما الَّذِي في القلب، أي: هذا الثَّوب الَّذِي تلبسونه، وتُعْنَوْن بنظافته وتعاهده بين وقت وآخر، ورُبَّمَا سأل المرء مَن حوله: هل عَلِق بثوبه شيء مِنَ الوسخ؟ خاصَّة إذا مرَّ بمكان يخشى أن يكون قد عَلِق بثوبه منه شيء، ولو أصابه شيء لم يصبر على بقائه فيه، بل يبادر إلى إزالته؛ ليبقى ناصعًا نقيًّا أبيضَ صافيًا سليمًا مِنَ الأوساخ؛ فلتكن عنايتكم بتجديد الإيمان كذلك، بل أعظم من ذلك.

ووجه المناسبة بينهما: أنَّ الثَّوب لمَّا كان يخلق ويُحرص على نظافته؛ فإنَّ مقام الإيمان أعظمُ وشأنَه أكبَرُ وأمرَهُ أجلُّ؛ فهو أولى بالعناية وأجدر بالاهتمام والتَّجديد.

وقوله: «**فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ**»، أي: القلب، وهو الرَّكيزة والأساس الَّذِي يُبنى عليه العمل الظَّاهر، فالإيمان الَّذِي في الجوف، أي: القلب يخلَق؛ فقد

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٥)، والطَّبرانِيُّ في الكبير (١٤٦٦٨).

يكون في بعض الأزمنة قويًّا، ثمَّ يصيبه ما يصيبه، فيخلَق ويصبح ضعيفًا. وذلك عندما تتوالى عليه الصَّوارف والفتن والصَّوادُّ والملهيات والمشغلات، ورُبَّمَا أصبح المرء في بعض أحواله مَظْهرًا بلا مخبر وصورة بلا معنى؛ وهذه مصيبة يبوء بها، عندما لا يكون متعاهدًا لإيمانه حريصًا على تجديده، ليس هذا فقط بل رُبَّمَا يزول عن قلبه.

سُئِلَ عبد الرَّحمن بن عَمْرو الأوزاعيُّ: عَنِ الإيمان؛ أيَزيد؟ قال: «نعم حتَّى يكونَ كالجبال، قيل: فينقُص؟ قال: نعَم حتَّى لا يبقى منه شيء»[١].

وسُئل إمامُ أهل السُّنَّة أحمد بن حَنبل: عَنِ الإيمان؛ يَزيد وينقُص؟ فقال: «يزيد حتَّى يبلغَ أعلى السَّماوات السَّبع، وينقص حتَّى يصير إلى أسفل السَّافلين السَّبع»[٢].

وكان يقول: «الإيمانُ قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص؛ إذا عملتَ الخيرَ زاد، وإذا ضيَّعتَ نقَص»[٣].

ولهذا فالأمر يحتاج إلى تفقُّه، قال أبو الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مِنْ فِقهِ العبدِ أن يعلمَ أمزداد هُو أو مُنتَقص؟ وإنَّ مِن فِقْهِ العَبد أن يعلمَ نزغاتِ الشَّيطان أنَّى تأتيه؟»[٤]. أي: من أين تأتيه؟

(١) رواه اللاَّلكائيُّ في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١٧٤٠).
(٢) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ٢٥٨).
(٣) رواه أبو بكر الخلاَّل في السُّنَّة (١٠١٣).
(٤) رواه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (١١٤٠).

وأمَّا إذا مضى المرء في الحياة لا يتفقَّه في أمر إيمانه ولا يتفقَّده؛ رُبَّمَا يُفاجأ يومًا بأنَّ إيمانه أصبح رقيقًا ضعيفًا واهيًا، ورُبَّمَا ذهب إيمانه وهو لا يشعر، فما أشدَّ حاجة المؤمن إلى تجديد إيمانه.

ولا بُدَّ في هذا المقام من فزع إلى الله ولجوء صادق إليه؛ لأنَّ إيمانك بيد الله، وهو هبةٌ منه جَلَّ وَعَلَا يتفضَّل به على مَن شاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء:٨٣]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٧-٨]؛ ولهذا صحَّ في الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»(١). فلا يزين قلبُك بالإيمان إلَّا إذا زيَّنه الله به، ولا يُعمر قلبك بالإيمان إلَّا إذا عمره الله به، فأنت بحاجة إلى أن تلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صادقًا في دعائك أن يُجَدِّد الإيمان في قلبك، كما أوصاك نبيُّك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث المُتَقَدِّم: «**فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(٢).

ثُمَّ مع هذا الدُّعاء تجاهد نفسك على تحقيق ما دعوت الله به، والقاعدة عند العلماء في باب الدُّعاء: أنَّك إذا دعوت الله بمطلوبٍ من مصالح دينك

---

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه الطَّبرانِيُّ في الكبير (١٤٦٦٨)، والحاكم (٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٨٥).

أو دنياك؛ فأَتْبِع الدُّعاء ببذل السَّبب، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[١]. لا أن يدعو ويبقى مُفَرِّطًا مُقَصِّرًا، بل يدعو ويجاهد نفسه على ما يكون به حفظُ إيمانه وتكميلُ دينه؛ فيأتيه العون والتَّسديد والتَّيسير والتَّوفيق مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه التَّجديد للإيمان؛ ينبغي أن يكون مصاحبًا للمسلم في كُلِّ يوم من أيَّامه، ببذل الأسباب والوسائل الَّتِي هيَّأها الله سبحانه، وقد جاء تبيانها في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال ابن القيِّم -في الأمثال في القرآن-: «إنَّ الشَّجرة لا تبقى حيَّة إلَّا بمادَّة تسقيها وتُنَمِّيها؛ فإذا انقطع عنها السَّقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب؛ إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كُلَّ وقت، بالعمل النَّافع والعمل الصَّالح، والعَوْد بالتَّذكُّر على التَّفكُّر، والتَّفكُّر على التَّذكُّر؛ وإلَّا أوشك أن تيبس»[٢].

ومن أهمِّ ما يكون في هذا الباب: أن يكون المسلم يوميًّا مرتبطًا بالعلم الشَّرعيِّ؛ لأنَّ العلم الشَّرعيَّ لمَن وفَّقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتحصيله بِنِيَّة صالحة؛ يعدُّ صِمام أمان لحفظ الإيمان وتقويته، ولهذا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٣]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ**

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).
(٢) الأمثال في القرآن (ص٣٨).
(٣) رواه البخاريُّ (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[(١)]. والعلم نور لصاحبه وضياء له في طريقه وفي سيره، فبالعلم يُمَيِّز المرء بين الهدى والضَّلال، والحقِّ والباطل، والنُّور والظَّلام، وبدون العلم تلتبس عليه الأمور وتختلط عليه الأشياء؛ ولهذا يحتاج العبد في هذا المقام -مقام تجديد الإيمان- إلى علم يهديه إلى طريق الخير؛ وكيف يسلك طريق الخير، وهو لا علم له به ولا بصيرة؟! وكيف يُقَوِّي إيمانه، وهو لا يعرف مُقَوِّيات الإيمان؟! وكيف يتَّقي الأمور الَّتِي تُضعف الإيمان، وهو لا يعرفها؟! وقد قيل -قديمًا-: «كيف يتَّقي مَن لا يدري ما يتَّقي؟!»[(٢)]؛ فإذا كان المرء لا عناية له بالعلم ولا دراية له به، كيف يتَّقي ما ينبغي أن يُتَّقى؟! وهو لا يدري: ما الَّذِي ينبغي أن يُتَّقى؟!

وأعظم ما يكون في العلم الشَّرعيِّ العناية بالقرآن الكريم، والقرآن الكريم أمره عجب في تقوية الإيمان، وزيادة اليقين وتمتينه في القلب، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٤]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال:٢-٤].

فالقرآن له تأثير بالغ في تقوية الإيمان، وزيادته في القلوب، وتقوية الصِّلة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٣١٦) عن بكر بن خنيس.

بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن هذا التَّأثير للقرآن لا يُنال بالقراءة المُجَرَّدة، دون تأمُّل وتدبُّر وتمعُّن في المعاني والدَّلالات؛ ولهذا قال ربُّنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد:٢٤]. وحينئذ يكون القرآن حاجزًا لصاحبه عَنِ النُّكوص والانحراف، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٨]، أي: لو أنَّهم تدبَّروا القول؛ لما نكصوا على الأعقاب، ولكان تدبُّرهم للقول حاميًا وحافظًا وواقيًا لهم من هذا النُّكوص.

ولهذا لا يكن همُّ تالي القرآن، متى أختم السُّورة؟! وليكن همُّه: متى أهتدي بالقرآن؟ ومتى أنتفع بالقرآن؟ ومتى أكون من أهل القرآن، أهل الله وخاصَّته؟

وأيضًا كُلُّ ما يُعِينك على الصِّلة بالله والتَّعظيم له والإجلال، ويأتي في مُقَدِّمة ذلك: المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبأسمائه وصفاته وأفعاله، والتَّأمُّل في مخلوقاته الدَّالة على عظمته وجلاله؛ فإنَّ هذا يُقَوِّي الإيمان في القلب تقوية عظيمة، ويزيدك خشية لله وحبًّا وتعظيمًا وإجلالًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإنَّ مَن كان بالله أعرف؛ كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد.

ثمَّ أبواب العلم الشَّرعيِّ الَّتي يزداد بها الإيمان واسعة، ومن أعظم ذلك:

* دراسة السُّنَّة والسِّيرة النَّبويَّة؛ فإنَّ معرفة الرَّسول ﷺ ومعرفة سيرته وهديه من أعظم مُقَوِّيات الإيمان.

* وأيضًا معرفة سِيَر أصحابه الكرام، ومَنِ اتَّبعهم بإحسان.

وعندما يكون المسلم مرتبطًا بقراءة مستمرَّة في سيرة النَّبيِّ العطرة صلوات الله وسلامه عليه وأخباره العظيمة، وسير أصحابه وأتباعهم بإحسان؛ فإنَّ هذه القراءة الدَّائمة المستمرَّة تُوَلِّد في قلبه محبَّة قويَّة لهؤلاء القدوات، وإذا تولَّدت في القلب هذه المحبَّة؛ نشأ عن ذلك الاتِّباع والسَّير على المنهاج القويم، الَّذِي كانوا عليه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠].

ثمَّ إنَّ مقام مجاهدة النَّفس على الأعمال الصَّالحة؛ ضروريٌّ للغاية في تحقيق الإيمان وتنميته، فكما أنَّ الأعمال الصَّالحة من جهة هي مِنَ الإيمان وخصاله وشعبه؛ فإنَّها من جهة أخرى تُحَقِّق الإيمان، ولهذا يحتاج العبد إلى تعاهد نفسه دائمًا بالعمل الصَّالح المُقَرِّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ المحافظة على الطَّاعات؛ من أعظم ما يكون معونة على تقوية الإيمان وبقائه وحفظه.

ومثال ذلك: الصَّلاة، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فكم في الصَّلاة من تجديد الإيمان، وكم فيها من تقوية الصِّلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، انظر في نفسك عندما تكون محافظًا على هذه الصَّلاة مُعَظِّمًا لها معتنيًا بها، كم لها مِنَ الأثر على قلبك في تحقيق الإيمان، وانظر حال مَنِ ابتعد عن هذه الصَّلاة، كيف أنَّ بُعده عنها تَوَلَّد عنه ضعف الإيمان في قلبه؛ ولهذا قال السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «الإيمان قول وعمل؛

يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية»[١]. فالطَّاعات تزيد الإيمان وتقوِّيه، وكُلَّما ازدادت الطَّاعة والعبادة والتَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كان ذلك مِنَ الأسباب والوسائل المعينة على تقوية الإيمان وتمكينه.

ومن هُنا شمَّر المشمِّرون، وتنافس المتنافسون في العِناية بالإيمان، تحقيقًا وتكميلًا، ولمَّا تحقَّق سلفُ الأمَّة وصدرُها وخيرُها ومقدَّموها بذلك كانت عنايتُهم بإيمانِهم بارزة، واهتمامُهم به عظيمًا.

فكانوا -رضي الله عنهم ورحمهم- يتعاهدون إيمانَهم، ويتفقَّدون أعمالهم، ويتواصَوْن بينَهم، **والآثار عنهم في ذلك كثيرةٌ:**

١ - فكان عُمَر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: «هلمُّوا نزداد إيمانًا»، وفي لفظ: «تعالوا نَزداد إيمانًا»[٢].

٢ - وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اجلسُوا بنا نَزداد إيمانًا»[٣]، وكان يقول في دعائه: «اللَّهم زدني إيمانًا ويقينًا وفقهًا»[٤].

٣ - وكان معاذُ بن جَبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اجلسُوا بنا نُؤمن ساعةً»[٥].

٤ - وكان عبدُ الله بن روَاحَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأخذ بيد النَّفَرِ من أصحابه فيقول:

---

(١) انظر: الإبانة الكبرى لابن بطَّة (١١١٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (١٧٣٧).
(٢) رواه أبو بكر الخلاَّل في السُّنَّة (١٥٨٤).
(٣) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٤٥).
(٤) رواه الآجرِّيُّ في الشَّريعة (٢١٨).
(٥) رواه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث رقم (٧)، ووصله القاسم بن سلام في الإيمان (٢٠)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٠٣٦٣).

«تعالوا نؤمن ساعةً، تعالوا فلنذكر اللهَ ونزدادَ إيمانًا بطاعتِه لعلَّه يذْكُرنا بمَغْفَرتِه»(١).

٥ – وكان أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «من فِقْهِ العبد أن يعلمَ أمزداد هُو أو مُنتَقص، وإنَّ من فقه العَبد أن يعلمَ نزغاتِ الشَّيطان أنَّى تأتيه»(٢).

٦ – وكان عُمَيْر بن حَبيب الخطميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الإيمانُ يزيدُ وينقص، فقيل: ما زيادتُه ونقصانُه؟ قال: إذا ذَكرنا الله عَزَّ وَجَلَّ وحمدناه وسبَّحناه فذلك زيادتُه، وإذا غفلنا وضيَّعنا ونسِينَا فذلك نقصانُه»(٣).

٧ – وكان عَلْقَمة بن قَيس النَّخعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو أحد كبار التَّابعين وأجلَّائهم- يقول لأصحابه: «امشُوا بنا نَزْدَد إيمانًا»(٤).

٨ – وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان يبدو في القلب ضعيفًا ضئيلًا كالبقلة؛ فإنْ صاحبُه تعاهده فسقاه بالعلوم النَّافعة والأعمال الصَّالحة وأماط عنه الدَّغَل وما يضعفه ويوهنه؛ أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له أصل وفروع وثمرة وظلّ إلى ما لا يتناهى حتَّى يصيرَ أمثالَ الجبال. وإنْ صاحبُه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبيٌّ فذهب بها أو كثر عليها الدَّغَل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان»(٥).

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٠٤٢٦)، والإيمان (١١٦).
(٢) رواه أبو بكر الخلاَّل في السُّنَّة (١٥٨٥).
(٣) رواه الطَّبريُّ في صريح السُّنَّة (٢٨).
(٤) رواه ابن أبي خيثمة في التَّاريخ الكبير (٤٠٢٤).
(٥) نقله شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتاب الإيمان الكبير (ص١٧٨).

وقال خيثمةُ بن عبد الرَّحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ يَسمن في الخصب ويهزُل في الجدب؛ فخصبه العمل الصَّالح وجدبه الذُّنوب والمعاصي»[١].

نسأل الله أن يزيِّننا أجمعين بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتاب الإيمان (ص١٧٨).

٢٧
تجديد الإيمان في القلب (٢)

تقدَّم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ، كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ: أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**». رواه الحاكم والطَّبرانِيُّ[(١)].

ومن دلائل هذا الحديث وفوائده: أنَّ تجديد الإيمان يتطلَّب مِنَ العبد أن يُعْنَى بالأسباب الَّتِي تزيدُ الإيمان وتقوِّيه وتنمِّيه، وأَنْ يتجنَّب الأسباب الَّتِي تنقصه وتُضعِفه وتُوهيه؛ فيجتهد في تحقيق ما يُقَوِّي الإيمانَ ويُكَمِّله، ويَحْذَر من كلِّ ما يُضْعِفُ الإيمانَ ويُنْقِصُه.

وفي معرفَة هذه الأسباب فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ جمَّة غفيرة، بل إنَّ الضَّرورة ماسَّة إلى معرفتِها والعنايةِ بها معرفةً واتِّصافًا؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ هو كمالُ العبد، وسبيلُ فلاحِه وسعادتِه، وبه ترتفع درجاتُه في الدُّنيا والآخرة، وهو السَّببُ والطَّريق لكلِّ خيرٍ، عاجلٍ وآجلٍ، ولا يحصلُ ولا يَقْوَى ولا يتمُّ إلَّا بمعرفة طُرُقِه وأسبابِه.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٥)، والطَّبرانِيُّ في الكبير (١٤٦٦٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٨٥).

فجديرٌ بالعبد المسلِم -النَّاصح لنفسِه الحريصِ على سعادتِها-: أن يجتهدَ في معرفة هذه الأسباب، ويتأمَّلها ثمَّ يطبِّقها في حياته؛ ليزيد إيمانُه ويقوى يقينُه، وأن يُبْعِدَ نفسَه عن أسباب نقصِ الإيمان، ويحصِّنها مِنَ الوقوع فيها؛ لِيَسْلَمَ من عواقبِها الوخيمَة، ومَغَبَّتِها الأليمة، ومَنْ وُفِّق لذلك فقد وُفِّقَ للخير كلِّه.

يقولُ العلَّامة عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «فالعبدُ المؤمنُ الموفَّق لا يزالُ يسعى **في أمرين:**

أحدهما: تحقيقُ أصولِ الإيمان وفروعه، والتَّحقُّق بها علمًا وعملًا وحالًا.

والثَّاني: السَّعي في دَفع ما ينافيها وينقضُها أو ينقصُها، من الفِتَنِ الظَّاهرة والباطنة، ويداوي ما قَصَّرَ فيه مِنَ الأوَّل، وما تجرَّأ عليه مِنَ الثَّاني؛ بالتَّوبة النَّصوح، وتدارك الأمر قبل فواته»(١).

فهما أمران: الكلام عمَّا يكون به تقوية الإيمان؛ وقد سبق بيانه، والكلام عن حفظه وصيانته؛ وهو محورُ الحديث هنا بيانُ حفظ الإيمان مِنَ الأمور الَّتِي تُنقصه، وتتسبَّب في ضعفه ووهائه، ورُبَّما تؤدِّي إلى ذهابه.

وينبغي للمسلم أن يعلم: أنَّه مطلوب منه:

* أن يعرف أسباب زيادة الإيمان وقوَّته؛ ليعمل بها ويحافظ عليها.

* وأن يعرف أسباب ضعفه ونقصه؛ ليجتنبها وليكون على حذر منها.

---

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٨٣).

ومن أهمِّ ما يكون في هذا الباب: أن يحذر من نفسه الأمَّارة بالسُّوء، وهي نفسٌ مذمومةٌ توجد في الإنسان؛ تأمره بكُلِّ سوء، وتدعوه إلى المهالك، وتهديه إلى كلِّ قبيح؛ هذا طبعها وتلك سجيَّتها، إلَّا إذا وفَّقها الله وثبَّتها وأعانها، فما تخلَّص أحدٌ من شرِّ نفسِه إلَّا بتوفيقِ الله، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣]، وكان النَّبيُّ ﷺ يعلِّمُهم خُطبة الحاجة: «**الْحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»(١). فالشَّرُّ كامنٌ في النَّفس، وهو يوجِب سيِّئات الأعمال؛ فإن خلَّى اللهُ بينَ العبدِ وبينَ نفسِه هلكَ بشرِّها وما تقتضيه من سيِّئاتِ الأعمال، وإن وفَّقه وأعانه نجَّاه من ذلك كلِّه.

فلا أضرَّ على إيمان الشَّخص ودينِه من نفسِه الأمَّارة بالسُّوء الَّتي هذا شأنها، وهذا وصفُها، فهي سببٌ رئيسيٌّ في إضعاف الإيمان وزعزعتِه وتوهينِه.

ومن هُنا لزم مَن أراد الحفاظَ على إيمانه مِنَ النَّقص والضَّعف؛ أن يُعنى بمُحاسبة هذه النَّفس ومعاتبتِها، وأن يُكثِر من لومِها؛ حتَّى يسلمَ من مغبَّتها وعواقبها الوخيمة.

كذلك يلزم في هذا الباب: الحذر مِنَ الشَّيطان؛ فإنَّه يُعَدُّ سببًا قويًّا مِنَ الأسباب الخارجيَّة الَّتي تؤثِّر في الإيمان بالنَّقص، فالشَّيطان عدوٌّ لدود للمؤمنين، يتربَّص بهم الدَّوائر، لا همَّ له ولا غاية إلَّا زعزعةُ الإيمان في

---

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

قلوبِهم وإضعافُه وإفسادُه، فمَن استسلم لوساوس الشَّيطان، وانقاد لخطراتِه، ولم يلجأ إلى الله منه؛ ضَعُفَ إيمانُه ونقص، بل رُبَّمَا ذهبَ بالكُلِّيَّة، بحسب استجابته لتلك الوساوس والخطراتِ.

ولهذا فإنَّ الله تعالى حذَّرنا منه أشدَّ التَّحذير، وبيَّن أخطاره، وعواقب اتِّباعه الوخيمة، وأنَّه عدوٌّ للمؤمنين، وأَمَرَهُم أنْ يتَّخذوه عدوًّا فيَسْلَموا منه ومن وساوسه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النُّور:٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥].

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:٩].

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدوِّ، الَّذي قد أبان عداوتَه من زمن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد بذلَ عُمره ونفسَه في فساد أحوال ابن آدم، وقد أمر الله بالحذر منه...»[(١)]، ثمَّ ذكر جملةً من هذه النُّصوص.

---

(١) تلبيس إبليس (ص٢٣).

وقال ابن قدامة المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الله سبحانه جعل الشَّيطان عدوًّا للإنسان، يقعد له الصِّراط المستقيم، ويأتيه من كلِّ جهة وسبيل، كما أخبر الله تعالى عنه أنَّه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦]، وحذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من متابعته، وأمرنا بمعاداته ومخالفتِه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر:٦]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وأخبر بما صَنَع بأَبَوَيْنَا تحذيرًا لنا من طاعته، وقطعًا للعُذر في متابعته، وأمرنا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتِّباع الصِّراط المستقيم...»[(١)].

فالشَّيطان عدوٌّ للإنسان همُّه إفساد العقائد وتخريب الإيمان، فمَن لم يُحَصِّن نفسَه منه: بذكر الله، واللَّجأ إليه، والاستعاذة به؛ صار مرتعًا للشَّيطان يسوِّل له فعل المعاصي، ويرغِّبه في ارتكاب المناهي، ويؤزُّه لارتكاب الفواحش أزًّا، فيَا ضَيْعَةَ دينه ويا فسادَ إيمانه؛ إن استسلم له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإيَّاك أن تمكِّن الشَّيطان من بيت أفكارك وإرادتِك؛ فإنَّه يفسدها عليك فسادًا يصعبُ تداركه، ويُلقي إليك أنواعَ الوساوس والأفكار المُضِرَّة، ويحُول بينَك وبينَ الفكر فيما ينفعُك، وأنت الَّذي أعنته على نفسِك بتمكينِه من قلبِك وخواطرك؛ فمَلَكها عليك»[(٢)].

فمَن عشا عن ذكر الله وأعرضَ؛ لازمَه الشَّيطان تلك الملازمة، يُسَوِّل له

---

(١) ذمُّ الوسواس للمقدسيِّ (ص٨ - ٩).
(٢) الفوائد (ص٢٥٦).

ويُملي حتَّى يذهبَ بإيمانه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزُّخرف:٣٦-٣٨].

ومن المهمّ في هذا الباب: الحذر من قرناء السُّوء وخلطاء الفساد؛ فإنَّهم من أضرِّ ما يكون على إيمان الشَّخص وسلوكِه وأخلاقِه، وقد ثبت عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». رواه أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ[(١)]، وهو حديث حسن.

قال ابن عبد البرِّ: «وهذا معناه -والله أعلم-: أنَّ المرْءَ يعتاد ما يراه من أفعال من صحبه، والدِّين العادة؛ فلهذا أُمِر ألَّا يَصْحب إلَّا مَن يُرَى منه ما يحلُّ ويجمل؛ فإنَّ الخير عادة.

وفي معنى هذا الحديث قول عديٍّ بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكُلُّ قرين بالمقارن مقتدي

وقول أبي العتاهية:

مـن ذا الَّـــذِي يخفـى عليـــك ... إذا نظـــرت إلى خـــدينـــه

وهذا كثير جدًّا، والمعنى في ذلك: ألَّا يخالط الإنسان مَن يحمله على غير ما يحمد مِنَ الأفعال والمذاهب، وأمَّا مَن يُؤْمَن منه ذلك فلا حرج في صحبته»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٥٩ - ١٦٠).

وقال أبو سليمان الخطَّابيُّ: «قوله: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**»[١]، معناه: لا تخالل إلَّا مَن رضيتَ دينَه وأمانتَه؛ فإنَّك إذا خَالَلْتَهُ قادَك إلى دينِه ومذهبِه، ولا تُغَرِّر بدينِك ولا تُخاطر بنفسك، فتُخَالل مَن ليس مرضيًّا في دينه ومذهبه»[٢].

وفي الصَّحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[٣].

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه تمثيله ﷺ الجليس الصَّالح بحامل المسك، والجليس السُّوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصَّالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنَّهي عن مجالسة أهل الشَّرِّ وأهل البدع، ومَن يغتاب النَّاس، أو يَكثر فُجْرُهُ وَبَطَالَته. ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»[٤].

فلهذا لَزِم المرء: أن يختار مِنَ القُرناء والخُلطاء مَن يكون له في خلطتِهم خير ونفع، وأن يحذَر أشدَّ الحذر من قُرناء السُّوء.

وممَّا استجدَّ في زماننا -وهو داخل في حكم الصَّاحب، بل أمره أشدُّ- الجلوس إلى القنوات الفضائيَّة، والمواقع المنحرفة في الشَّبكة العنكبوتيَّة،

---

(١) رواه أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) العُزْلة للخطَّابيِّ (ص٤٦).
(٣) رواه البخاريُّ (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).
(٤) شرح النَّوويِّ لمسلم (١٦/ ١٧٨).

حيث يخشى -وخاصَّة على النَّاشئة- ممَّا فيها من فتن وسموم ورذائل وحقارات، تُشَكِّل خطرًا على الإيمان وضررًا على القلوب.

وكذلك ممَّا يتأكَّد في هذا المقام: الحذر مِن الافتتان بالدُّنيا الزَّائلة، والانهماك في ملذَّاتها وفتنِها ومُغرياتِها، فمتى تعلَّق قلب العبد بها؛ ضعُفت الطَّاعة عنده ونقصَ الإيمانُ بحسب ذلك. فلا بدَّ لمَن أراد لإيمانه النُّموَّ والقوَّة، وأحبَّ له السَّلامة من الضَّعف والنَّقص؛ أن يجاهد نفسَه على البعد عن فتن الدُّنيا ومغرياتها وملهياتها، وما أكثرَها.

قال الله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولا يتمُّ له ذلك ولا يتحقَّق إلَّا بعد النَّظر في أمرين:

الأوَّل: النَّظر في الدُّنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخسَّتِها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنَّغص والأنكاد.

وآخِر ذلك الزَّوال والانقطاع مع ما يعقبُ منَ الحسرة والأسَف، فطالبُها لا ينفكُّ من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظَّفر بها، وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها.

والثَّاني: النَّظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامها وبقائها،

وشرفِ ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتَّفاوت الَّذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمةٌ، وهذه خيالاتٌ ناقصةٌ منقطعة مضمحلَّة.

والَّذي يُذَمُّ مِنَ الدُّنيا: هو فعل الجُهَّال، والعصيان، والاشتغال بها عن الآخرة، واستعمال نعيمِها في غير مَرضاة الله تعالى.

أمَّا نعيم الدُّنيا -من حيث هو- فلا يُذَمُّ مطلقًا، فإنَّ الله قد تمدَّح به في القُرآن الكريم في غير موضع؛ فلا يُذَمُّ مَن تعامل معه باعتدال وقوام.

وحقيق بالمسلم -في هذه الحياة الدُّنيا-: أن يعمل على تجديد إيمانه، وصفاء دينه، وقوَّة صلته بربِّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأن يكون هذا التَّعاهد مستمرًّا إلى أن يتوفَّاه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ غير مغيِّر ولا مبدِّل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يُحَقِّقوا تقواه، وأن يستمِرُّوا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، غير مغيِّرين ولا مبدِّلين، ومَن عاش على شيء مات عليه، فمَن كان في حال صحَّته ونشاطه وإمكانه مداومًا على تقوى الله وطاعته، منيبًا إليه على الدَّوام، ثبَّته الله عند موته ورزقه حسن الختام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «أي: حافظوا على الإسلام في حال صحَّتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإنَّ الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنَّه مَن عاش على

شيء مات عليه، ومَن مات على شيء بُعث عليه»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجرات:٩٩]، أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التَّقرُّب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربِّه، فلم يزل دائبًا في العبادة، حتَّى أتاه اليقين من ربِّه، وهكذا ينبغي أن تكون حال المؤمن حفظًا للعبادة ومحافظة عليها ورعاية لها إلى أن يتوفاه ربُّه وهو على خير حال.

والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، وهو الحافظ وحده، ومَن يعتصِم بالله؛ فقد هُدي إلى صراط مستَقيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

٢٨
صلاح القلب بالإيمان

تقدَّم ذكر حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ، أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «... **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

فالقلب مضغة صغيرة في صدر العبد، عظيمة الخطر، كبيرة الأثر، صلاحه صلاح البدن كلِّه والجوارح جميعها، وفساده فساد البدن كلِّه والجوارح جميعها.

وسُمِّيت في الحديث مضغة إشارة إلى تصغير هذا العضو؛ لأنَّ أصل المضغة قَدْر ما يمضغه الإنسان في فيه؛ فما أعظم خطر هذه المضغة، وما أكبر أثرها!!

فكُلُّ حركة وسكون تقع مِنَ الإنسان، وكُلُّ فعل أو ترك فرعٌ عن مراد هذه المضغة، بل لا يمكن للجوارح أن تتخلَّف عن ذلك.

«فإذا كان القلب صالحًا بما فيه مِنَ الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا؛ لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظَّاهر والعمل بالإيمان المطلق»[(٢)].

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

فما أحوج العبد إلى العناية بهذه المضغة؛ إصلاحًا، وتنقية، وتزكية، وتطهيرًا. ومِنَ الدَّعوات المأثورة في هذا الباب ما ورد في حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «... **اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(١).

وإنَّ أهمَّ ما ينبغي مراعاته -في هذا المقام-: معرفة الغاية الَّتِي خُلقت القلوب لأجلها، وأوجدت لتحقيقها؛ ألَا وهي توحيد الله وإخلاص الدِّين له، ومدى حظِّ القلوب منها.

والقلوب في هذا الأمر على قسمين:

الأوَّل: قلب مشغول بالله، عاقل للحقِّ، مفكِّر في العلم، مجتهد في تحقيق هذه الغاية. وهو بهذا يكون قد وضع في موضعه الصَّحيح؛ **وحينئذ يكون له وجهان:**

* وجهٌ مقبلٌ على الحقِّ: علمًا وعملًا، سعيًا وإذعانًا، رغبةً وطلبًا، تحقيقًا وتطبيقًا.

* ووجهٌ معرض عَنِ الباطل، منصرف عنه: حذرًا مِنَ الوقوع فيه.

ويقال له: القلب الزَّكِيُّ، والقلب الطَّاهر، والقلب السَّليم؛ لأنَّ هذه الأسماء تدلُّ على سلامة القلب مِنَ الشَّرِّ وبُعْدِه عَنِ الخبث وخلاصه مِنَ الآفات.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الثَّاني: قلبٌ منصرف إلى الباطل، منحرف عَنِ الغاية الَّتِي أُوجِدَ لأجلها وخُلِق لتحقيقها؛ **وله وجهان:**

* وجهٌ مقبلٌ على الباطل، مشغول به.

* ووجهٌ معرض عَنِ الحَقِّ، غير قابل له.

وهما في الحقيقة آفتان: آفة الصُّدود عَنِ الحَقِّ، وآفة الإقبال على الباطل. ولكُلٍّ منهما أضراره الجسيمة ونتائجه الوخيمة.

والباطل الَّذِي ينشغل به القلب عن هذه الغاية نوعان:

أوَّلًا: نوع يشغل القلب عَنِ الحَقِّ، ويزاحم الخير الَّذِي فيه دون أن يعانده ويصادمه: كالأفكار، والهموم، والغموم، والأحزان النَّاشئة عن علائق الدُّنيا وشهوات النَّفس.

ثانيًا: نوع يعاند الحَقَّ الَّذِي في القلب، ويصادمه ويصدُّ عنه، مثل: الآراء والأهواء المردية مِنَ: الكفر، والنِّفاق، والبدع، ونحو ذلك.

فالأوَّل يزاحم القلب.

والثَّاني يصادم ما فيه.

وعلاج الأوَّل: بالعودة بالقلب إلى: التَّوحيد الخالص، والإيمان الصَّحيح الَّذِي خُلِقَ القلب لأجله، وعدم شغله بأمر آخر.

ومِنَ الأحاديث الواردة في ذلك: ما ورد عَنِ ابْنِ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَنَّ

رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». متَّفق عليه[١].

وعن أسماء بنت عُميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ؟ اللهُ، اللهُ رَبِّي، لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». رواه أبو داود، وابن ماجه[٢].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». رواه أبو داود[٣].

وعن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ». رواه التِّرمذيُّ[٤].

وجميع هذه الكلمات الواردة في هذه الأحاديث؛ كلمات إيمان وتوحيد وإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، وبُعد عَنِ الشِّرك كُلِّه كبيره وصغيره، وفي هذا أبين دلالة على أنَّ أعظمَ علاج للكرب وإصلاح للقلب؛ هو تجديدُ الإيمان وترديد

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وقال الألبانِيُّ: «حسن الإسناد».

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وقال الألبانِيُّ: «حسن الإسناد».

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

كلمة التَّوحيد: (لا إله إلَّا الله)؛ فإنَّه ما زالت عَنِ العبد شدَّةٌ، ولا ارتفع عنه همٌّ وكربٌ بمثل: توحيد الله، وإخلاص الدِّين له، وتحقيق العبادة الَّتِي خُلق العبد لأجلها وأُوجِدَ لتحقيقها؛ فإنَّ القلب عندما يُعمَر بالتَّوحيد والإخلاص، ويُشغل بهذا الأمر العظيم الَّذِي هو أعظم الأمور وأجلُّها على الإطلاق؛ تذهب عنه الكربات، وتزول عنه الشَّدائد والغموم، ويسْعَدُ غاية السَّعادة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوحيد مَفْزَعُ أعدائه وأوليائه، فأمَّا أعداؤه فيُنَجِّيهم من كرب الدُّنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وأمَّا أولياؤه فيُنَجِّيهم من كربات الدُّنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس، فنجَّاه الله من تلك الظُّلمات، وفزع إليه أتباع الرُّسل فنجوا به ممَّا عُذِّب به المشركون في الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم في الآخرة. ولمَّا فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه؛ لأنَّ الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سُنَّة الله في عباده.

فما دُفعت شدائد الدُّنيا بمثل التَّوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتَّوحيد، ودعوة ذي النُّون -الَّتِي ما دعا بها مكروب إلَّا فرَّج الله كربه- بالتَّوحيد؛ فلا يُلْقِي في الكُرَب العظام إلَّا الشِّرك، ولا يُنَجِّي منها إلَّا التَّوحيد، فهو مفزَع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. وبالله التَّوفيق»(١). ا.هـ.

وعلاج الثَّاني بالهداية لهذا الدِّين الحنيف، والتَّوفيق للدُّخول فيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمر: ٢٢].

---

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص٧٢ - ٧٣).

وكُلُّ منحرف عن هذا الدِّين منصرف عَنِ الهدى؛ فقلبه مريض ولا شفاء له إلَّا بالدُّخول في هذا الدِّين، وهو في غاية الظَّمأ والعطش، لا يرويه إلَّا معِين هذا الدِّين الصَّافي، ومنهله العذْب.

قال أحد المهتدين لهذا الدِّين: «إنَّ غير المسلمين على اختلاف نحَلهم ومللهم ظمأى، بل يكادون يهلكون من شِدَّة الظَّمأ؛ وذلك لأنَّهم لم يجدوا ما يروي ظمأهم في عقيدتهم البالية -محرَّفة كانت أو مؤلَّفة من إرث عقولهم- ويا لله للعجب؛ كُلَّما شربوا منها ازدادوا ظَمَأً، وما كنتُ إلَّا واحدًا من هؤلاء، ووالله ما ارتويت إلَّا من بعد أن نهلت من نهر هذا الدِّين العذب الصَّافي: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:٣٦]».

ومِنَ المعلوم: أنَّ الإنسان قد يُلِمُّ به بعض المُلِمَّات، وقد تصيبه بعض المصائب، وقد يُبتلى ببعض الآلام الَّتي تكدِّره، وتُؤلم قلبَه وتعصر فؤاده، وربَّما جَلَبَتْ له الكثيرَ مِنَ الحُزْن أو الهمِّ أو الغمِّ.

وهذه إذا وصلت إلى قلب؛ أتْعبته، وأرَّقته، وكدَّرت صفوه. ولا يكون وضعُه مع وجودها سويًّا طبيعيًّا.

وعند النَّظر في طريقة علاجها، والسَّعي في إبعادها، وإزالتها عَنِ القلب؛ نجد أنَّ النَّاس يتفاوتون في هذا الباب تفاوتًا عظيمًا، وينحون في العلاج مناح شتَّى، ولكن لا علاج، ولا دواء، ولا شفاء، ولا سلامة من ذلك كلِّه؛ إلَّا بالعودة الصَّادقة إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

فبالعودة: إلى الله؛ وذِكْره، وتعظيمه، وعمارة القلب بتوحيده، والإيمان

به، واللُّجوء الصَّادق إليه، والافتقار إليه، والذُّلِّ بين يديه، والانكسار له سبحانه؛ تذهب ولا يبقى منها شيءٌ.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر تعالى ووعد مَن جَمَع بين الإيمان والعمل الصَّالح؛ بالحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار، وبالجزاء الحسن في هذه الدَّار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح؛ فإنَّ المؤمنين بالله الإيمان الصَّحيح، المثمر للعمل الصَّالح: المصلح للقلوب، والأخلاق، والدُّنيا، والآخرة. معهم أصول وأسس يتلقَّون فيها جميع ما يَرِدُ عليهم من أسباب السُّرور والابتهاج، وأسباب القلق والهَمِّ والأحزان.

يتلقَّون المحابَّ والمسارَّ؛ بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع. فإذا استعملوها على هذا الوجه؛ أحدث لهم مِنَ الابتهاج بها، والطَّمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشَّاكرين؛ أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرَّات الَّتِي هذه ثمراتها.

ويتلقَّون المكاره والمضارَّ والهَمَّ والغَمَّ؛ بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصَّبر الجميل لما ليس لهم منه بُدٌّ. وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره مِنَ المقاومات النَّافعة، والتَّجارِب والقُوَّة، ومِنَ

الصَّبر واحتساب الأجر والثَّواب؛ أمور عظيمة تضمحلُّ معها المكاره، وتحلُّ محلَّها المسارُّ والآمال الطَّيِّبة، والطَّمع في فضل الله وثوابه، كما عبَّر النَّبيُّ ﷺ عن هذا في الحديث الصَّحيح أنَّه قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**». رواه مسلم[1].

فالمؤمن يتضاعف: غُنْمه، وخيره، وثمرات أعماله. في كُلِّ ما يطرقه مِنَ السُّرور والمكاره، بحسب حظِّه مِنَ: الإيمان، والعمل الصَّالح. فيتلقَّى بهما الخير والشَّرَّ: شكرًا على النَّعماء، وصبرًا على الضُّرِّ والبلاء؛ فيحدث له السُّرور والابتهاج، وزوال الهَمِّ والغَمِّ، والقلق، وضيق الصَّدر، وشقاءِ الحياة، وتَتِمُّ له الحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فيجتمع للمؤمن عند النِّعم والسَّراء نعمتان:**

* نعمة حصول ذلك المحبوب.
* ونعمة التَّوفيق للشُّكر الَّذِي هو أعلى من ذلك.

وبذلك تتمُّ عليه النِّعمة.

* ويجتمع له عند الضَّراء ثلاث نعم:
* نعمة تكفير السَّيِّئات.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص١٣ - ١٤).

* ونعمة حصول مرتبة الصَّبر الَّتِي هي أعلى من ذلك.

* ونعمة سهولة الضَّرَّاء عليه.

لأنَّه متى عرف حصول الأجر والثَّواب، والتَّمرُّن على الصَّبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخفَّ عليه حملها»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان ملجأ المؤمنين في كلِّ ما يُلِمُّ بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور الَّتِي لا بُدَّ لكُلِّ أحد منها.

فعند المحابِّ والسُّرور، يلجأون إلى الإيمان فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النِّعم فيما يُحِبُّ المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة يتسَلَّوْن بإيمانهم وحلاوته، ويتَسَلَّوْن بما يترتَّب على ذلك من الثَّواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرُّجوع إلى الحياة الطَّيِّبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنُّون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوَّة وشجاعة ويضمحل الخوف الَّذِي أصابهم، كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤]. لقد اضمحلَّ الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوَّة الإيمان وحلاوته، وقوَّة التَّوكُّل على الله، والثِّقة بوعده.

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٧).

ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يُحْدِث لهم الكبرياء بل يتواضعون، ويعلمون أنَّه من الله، ومن فضله وتيسيره؛ فيشكرون الَّذِي أنعم بالسَّبب والمسبِّب الأمن وأسبابه، ويعلمون أنَّه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعزٌّ، أنَّه بحول الله وقوَّته وفضله، لا بحولهم وقوَّتهم.

ويلجأون إلى الإيمان عند الطَّاعة والتَّوفيق للأعمال الصَّالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأنَّ نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرِّزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كلِّ سبب لقبولها، وعدم ردِّها أو نقصها. ويسألون الَّذِي تفضَّل عليهم بالتَّوفيق لها أن يُتِمَّ عليهم نعمته بقبولها، والَّذِي تفضَّل عليهم بحصول أصلها أن يُتَمِّم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التَّوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

فالمؤمنون في جميع تقلُّباتهم وتصرُّفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضادُّه. وذلك من فضل الله عليهم، ومنِّه»[(١)].

وبالله وحده التَّوفيق والسَّداد.

---

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٨ - ١٠٠).

٢٩
مقام الإحسان

تقدَّم حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذكر مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النَّبِيِّ ﷺ على صورة أعرابيٍّ يسأل، وهو يريد تعليم النَّاس دينهم، ومن هذه الأسئلة قوله: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

والإحسان هو أعلى مراتب الدِّين وأرفعها، وأهلها هم المُستكملون لمراتب الدِّين السَّابقون بالخيرات المُقَرَّبون في عُلُوِّ الدَّرجات، وهو لُبُّ الإيمان وروحه وكماله. والمراد به: الإجادة والإتقان، أي: إيقاع العمل والعبادة على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال في الظَّاهر والباطن والسِّرِّ والعلن؛ فالمحسنون من عباد الله هم الَّذِين اتْقَنوا العبادة بحيث أتوا بها ووقعت منهم كاملة من جميع الوجوه ظاهرًا وباطنًا سِرًّا وعلنًا؛ وذلك لصلاح قلوبهم التَّامِّ ولعظم مراقبتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عبادتهم وتقرُّبهم لله جَلَّ وَعَلَا، فحالهم في عبادة الله أنَّهم يعبدون الله كأنَّهم يرون الله، وهذا فيه أنَّهم بلغوا الرُّتبة العليَّة في المراقبة -مراقبة الله في أعمالهم- بحيث تكون قلوبهم حاضرة وشاهدة بعيدة عن الغفلة.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨) واللَّفظ له.

وقد جاء ذكر الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة، تارة مقترنًا بالإيمان، وتارة بالتَّقوى، وتارة بهما معًا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإنفاق في سبيل الله، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصَّالح مطلقًا. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النَّحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٦٥].

قال الشَّيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد فسَّره النَّبيُّ ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ لِمَا أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم، فقال ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

أخبر ﷺ **أنَّ مرتبة الإحسان على درجتين، وأنَّ للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين:**

المقام الأوَّل: -وهو أعلاهما- أن تعبد الله كأنَّك تراه، وهذا مقام المشاهدة، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته الله عَزَّوَجَلَّ بقلبه، وهو

أن يتنوَّر القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتَّى يصير الغيب كالعيان، فمَن عبد الله عَزَّوَجَلَّ على استحضار قربه منه وإقباله عليه، وأنَّه بين يديه كأنَّه يراه أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتَّعظيم.

المقام الثَّاني: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إيَّاه واطِّلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى؛ لأنَّ استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل. وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأوَّل. ولهذا أتى به النَّبيّ ﷺ تعليلًا للأوَّل، فقال: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وفي بعض ألفاظ الحديث: «**فَإِنَّكَ إِلَّا تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، فإذا تحقَّق في عبادته بأنَّ الله تعالى يراه ويطَّلع على سرِّه وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثَّاني وهو دوام التَّحقيق بالبصيرة إلى قرب الله تعالى من عبده ومعيَّته حتَّى كأنَّه يراه، وقد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا المعنى في غير ما موضع من القرآن، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦١-٦٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ

بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشُّعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وغير ذلك من الآيات.

فأولياء الله المُتَّقون المحسنون هم الَّذِين آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ وبإلهيَّته وربوبيَّته وأسمائه وصفاته، وأفردوه بالعبادة محبَّةً وتذلُّلًا وانقيادًا وخوفًا ورجاءً ورغبةً ورهبةً وخشيةً وخشوعًا ومهابةً وتعظيمًا وتوكُّلًا عليه وافتقارًا إليه واستغناء به عمَّا سواه، واتَّقوه بامتثال أوامره ومحبَّة مرضاته وترك مناهيه وموجبات سخطه سرًّا وعلنًا وظاهرًا وباطنًا قولًا وعملًا واعتقادًا، واستشعرت قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله عَزَّوَجَلَّ بهم علمًا وقدرةً ولطفًا وخبرةً، بأقوالهم ونيَّاتهم وأسرارهم وعلانياتهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم، كيف عملوا؟ وأين عملوا؟ ومتى عملوا؟ فكان عملهم خالصًا لله موافقًا لشرعه مناطًا بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه، مستحضرين ذلك بقلوبهم نافذة فيه بصائرهم، فأخلصوا لله العمل وراقبوه مراقبة مَن ينظر إلى ربِّه، لكمال علمهم بأنَّ الله ينظر إليهم ويرى حالهم ويسمع مقالهم، فطرحوا النُّفوس بين يديه وأقبلوا بكُلِّيَّتهم عليه والتجئوا منه إليه وعاذوا به منه وأحبُّوه من كُلِّ قلوبهم؛ فامتلأت بنور معرفته فلم تتَّسع لغيره، فبه يبصرون وبه يسمعون وبه يبطشون وبه يمشون»[1].

كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ

(١) معارج القبول (٣/ ٩٩٩).

تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ عَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». رواه البخاريُّ(١).

وأعظم معين على تحقيق مقام الإحسان الاهتداء بهدايات القرآن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالى نبيَّه -صلوات الله عليه وسلامه- أنَّه يعلم جميع أحواله وأحوال أُمَّته، وجميع الخلائق في كُلِّ ساعة وآن ولحظة، وأنَّه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرَّة في حقارتها وصغرها في السَّموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنَّه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدَّوابُّ السَّارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).

فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المُكَلَّفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشُّعراء: ٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس:٦١]. أي: إذ تأخذون في ذلك الشَّيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون»[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشُّعراء:٢١٩-٢٢٠]. أي: الَّذي ينظر إليك ويطَّلع عليك ولا تخفى عليه منك خافية، حين تقوم لله خاشعًا خاضعًا مناجيًا سائلًا راغبًا طامعًا، يراك في هذه «العبادة العظيمة، الَّتي هي الصَّلاة، وقت قيامك، وتقلبُّك راكعًا وساجدًا خصَّها بالذِّكر، لفضلها وشرفها؛ ولأنَّ مَن استحضر فيها قرب ربِّه، خشع وذلَّ، وأكملها، وبتكميلها، يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتُّتِهَا وتنوُّعِها، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الَّذي أحاط بالظَّواهر والبواطن، والغيب والشَّهادة؛ فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكُلِّ ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٧).

من الهمِّ، والعزم، والنِّيَّات، ممَّا يعينه على منزلة الإحسان»(١).

وكم في القرآن الكريم من آياتٍ عظيمة جاءت مشتملةً على بيان سعة عِلم الله عَزَّوَجَلَّ وإحاطته واطِّلاعه، مذكِّرةً بسعة اطِّلاعه جَلَّوَعَلَا وشمول علمه، وأنَّه سبحانه أحاط بكُلِّ شيء علمًا وأحصى كُلَّ شيء عددًا، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور؛ يعلم جلَّ في علاه الخوافي والمعلنات والغيب والشَّهادة لا تخفى عليه خافية.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النُّور:٦٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٥]، وقال:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩]، وقال:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس:٣٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، وقال:﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، وقال:﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة:٨]، وقال:﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [القرة:٢١٦]، وقال: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النَّحل:١٩]،

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٥٩٩).

وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ [الأحزاب:٥١]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمَّد:١٩]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمَّد:٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء:١١٠].

فتأمَّلْ هذه الآيات ونظائرِها، والوقوفُ عند مضامينها ودلالاتها وهداياتها؛ يعينُ العبدَ بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على صلاح قلبه والتَّرقِّي لبلوغ مرتبة الإحسان في عبادة الله والإتقان في طاعته والتَّقرُّب إليه سبحانه، في الأوقات كلِّها والأحوال جميعها، في الغيب والشَّهادة والسِّرِّ والعلانية. جعلنا الله من عباده المحسنين وأوليائه المُتَّقين.

٣٠
خلق السَّموات والأرض

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ»(١). متَّفق عليه.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ -إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ-: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ؛ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ»**(٢). متَّفق عليه.

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ

(١) رواه البخاريُّ (٤٥٦٩)، ومسلم (٧٦٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[1]. رواه البخاريُّ.

السَّماوات والأرض آيتان عظيمتان دالَّتان على عظمة الخالق جلَّ في علاه، وتفرُّده بالجلال والكمال، وأنَّه سبحانه المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه.

ومَن يقرأْ كتاب الله جَلَّ وَعَلَا يتكرَّرْ عليه -ورودًا في الآيات-؛ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرَّعد: ١٦]، ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزُّمر: ٦٣]، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]؛ في مواطن كثيرة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ما يقرب من الأربعمائة آية؛ فجديرٌ بكُلِّ مسلم أن يقف متأمِّلًا في هاتين الآيتين الباهرتين العظيمتين الدَّالَّتين على كمال الرَّبِّ وعظمته، وأن يتأمَّل أيضًا فيما يتبع هذا الإيمان بأنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ ما في السَّماوات وما في الأرض من لوازم عظيمة، هي من هدايات القرآن للقلوب لتزكو وتصلح وتطيب، وقد أثنى الله في كتابه على المُتَفَكِّرين في خلق السَّموات والأرض، وذَمَّ المعرضين عن ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٥٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقف عند كُلِّ كلمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:٣-٥]، ثمَّ تأمَّل وجه كونها آية، وعلى ماذا جعلت آية؟ أَعَلَى مطلوبٍ واحد أم مطالب مُتَعدِّدة؟ وكذلك سائر ما في القرآن الكريم من هذا النَّمط، كآخر سورة آل عمران، وقوله في سورة الرُّوم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الرُّوم:٢٠] إلى آخرها، وقوله في سورة النَّمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ﴾ [النَّمل:٥٩] آخر الآيات، وأضعاف ذلك في القرآن الكريم، وكقوله في سورة الذَّاريات: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذَّاريات:٢٠-٢١]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، فهذا كلُّه من الحقِّ الَّذي خلقه به السَّموات والأرض وما بينهما وهو حقٌّ لوجود هذه المخلوقات مسطور في صفحاتها يقرؤه كُلُّ مُوَفَّق كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأمَّل سطور الكائنات فإنَّها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلت خطَّها ... ألا كُلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل

لم يخلق الله العالم عبثًا.

وأمَّا الحقُّ الَّذي هو غاية خلقها؛ فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم.

فالَّتي تراد منهم: أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عَزَّوَجَلَّ وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، فيكون هو وحده إلهَهم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم،

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق:١٢]، فأخبر أنَّه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة من العباد وهي أن يعرفوا ربَّهم ويعبدوه وحده.

وأمَّا الغاية المرادة بهم: فهي الجزاء بالعدل والفضل والثَّواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النَّجم:٣١]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥]، وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النَّحل:٣٩]، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٣-٤]، فتأمَّل -الآن- كيف اشتمل خلق السَّموات والأرض وما بينهما على الحقِّ أوَّلًا وآخرًا ووسطًا، وأنَّها خُلِقَت بالحقِّ وللحقِّ وشاهدة بالحقِّ»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ -عن سِرِّ كثرة ورود ذكر السَّماوات في القرآن الكريم-: «**ولهذا قلَّ أن تجيء سورة في القرآن إلَّا وفيها ذكرها:**

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيِّم (٤/ ١٦٣ - ١٦٤).

* إمَّا إخبارًا عن عظمها وسعتها.

* وإمَّا إقسامًا بها.

* وإمَّا دُعَاءً إلى النَّظر فيها.

* وإمَّا إرشادًا للعباد أن يستدلُّوا بها على عظمة بانيها ورافعها.

* وإمَّا استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة.

* وإمَّا استدلالًا منه بربوبيَّته لها؛ على وحدانيَّته وأنَّه الله الَّذِي لا إله إلَّا هو.

* وإمَّا استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها؛ على تمام حكمته وقدرته.

* وكذلك ما فيها من الكواكب والشَّمس والقمر والعجائب الَّتِي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قَسَم في القرآن بها، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطَّارق:١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشَّمس:٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطَّارق:١١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشَّمس:١]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النَّجم:١]، ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطَّارق:٣]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التَّكوير:١٥]، وهي الكواكب الَّتِي تكون خُنَّسًا عند طلوعها جوارٍ في مجراها ومسيرها كُنَّسًا عند غروبها، فأقسم بها في أحوالها الثَّلاثة، ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السَّماء والنُّجوم والشَّمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمُّنه الآيات والعجائب الدَّالَّة عليه، وكُلَّما كان أعظم آية وأبلغ في الدَّلالة كان إقسامه به أكثر من غيره»[1].

(١) انظر: مفتاح دار السَّعادة لابن القيِّم (١/ ١٩٦ - ١٩٧).

وفي أعظم آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ آية الكرسيِّ الَّتِي سيق فيها من براهين التَّوحيد ودلائله ما لم يأتِ في آية أخرى من القرآن، ذكر فيها من جملة البراهين: مُلكه عَزَّوَجَلَّ للسَّماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فهذا المُلْك والتَّفرُّد من أعظم براهين وجوب توحيده وإخلاص الدِّين له جلَّ في علاه.

إنَّ مَن له ما في السَّماوات وما في الأرض قد أحاط بالخلق علمًا وأحصاهم جَلَّ وَعَلَا عددًا، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النِّساء: ١٢٦].

إنَّ مَن له ما في السَّماوات وما في الأرض أحاط علمًا ببواطن الأمور وخفايا القلوب وما تُكِنُّه الصُّدور؛ فلا تخفى عليه خافية وهو على كلِّ شيء قدير، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

إنَّ مَن له ما في السَّماوات وما في الأرض سيقف بين يديه العباد ويكون مصيرهم ومردُّهم إليه؛ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النَّجم: ٣١]. فهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إنَّما خلق السَّموات والأرض،

وخلق الموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم؛ ليعلم مَن يريده ويريد ما عنده ممَّن يريد الدُّنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:٧-٨].

إنَّ مَن له ما في السَّماوات وما في الأرض تفرَّد جلَّ في علاه بالحكم الجزائيِّ؛ يغفر لمَن يشاء ويُعذِّب مَن يشاء، فالأمر أمره والملك ملكه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح:١٤].

إنَّ مَن له ما في السَّماوات وما في الأرض واجب على العباد أن يطيعوه، وأن يعملوا بوصاياه، وأن يتَّقوه في السِّرِّ والعلن، وأن يعلموا أنَّه غنيٌّ عنهم، وأنَّهم فقراء إليه وأنَّه لا حول لهم ولا قُوَّة إلَّا بالله؛ قال الله جلَّ وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣١-١٣٣].

إنَّ عقيدة المؤمن بأنَّ لله عزَّوجلَّ ما في السَّماوات وما في الأرض، وتفكُّره في هاتين الآيتين الباهرتين يثمر في حياته آثارًا عظيمة صلاحًا في قلبه وإخباتًا

لِرَبِّه خضوعًا لِمَن له ما في السَّماوات وما في الأرض؛ وهذا العبد فردٌ من هذه المخلوقات وهو طوع تدبير خالقه ومولاه ولا غنى له عن رَبِّه طرفة عين، وكُلَّمَا عمَّق العبد التَّدبُّر في هذا المعنى؛ عرف نفسه وعرف رَبَّه وقوَّى صلته بِرَبِّه ومولاه.

فإنَّه سبحانه لم يخلقهما لعبًا ولا أوجدهما باطلًا بل أوجدهما بالحقِّ وللحقِّ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم:١٩]، وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨]، وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدُّخان:٣٧-٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق:١٢].

رزقنا الله التَّفكُّر في آياته، وحسن الانتفاع بمواعظ القرآن وهداياته.

٣١
تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ -تَصْدِيقًا لَهُ- ثُمَّ قَرَأَ: «﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر:٦٧]». رواه مسلم[(١)].

إنَّ تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا من أعظم العبادات القلبيَّة، ومن أجلِّ وأشرف أعمال القلوب، فإنَّ القلب المعظِّم لله الَّذي يَقْدُر ربَّه حقَّ قدره ويُعَظِّمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقَّ تعظيمه؛ هو ذلك القلبُ الَّذي تحقَّق فلاحه ونجاحه وسعادته في دنياه وأخراه، وإذا كان القلب معظِّمًا لله عظَّم العبد شرع الله، وعظَّم دين الله، وعرف مكانة رسل الله، وعرف أحقيَّة الله عَزَّوَجَلَّ وحده بالذُّلِّ والخضوع والخشوع والانكسار.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٦).

ومن أسماء الله الحسنى «العظيم»، وهو جَلَّ وَعَلَا عظيم في أسمائه، وعظيم في صفاته، وعظيم في أفعاله، وعظيم في كلامه، وعظيم في وحيه وشرعه وتنزيله، وهو جَلَّ وَعَلَا عظيم مستحقٌّ من عباده أن يُعَظِّموه جَلَّ وَعَلَا حقَّ تعظيمه، وأن يقدروه جَلَّ وَعَلَا حقَّ قدره، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر:٦٧].

فمعاني العظمة الدَّالِ عليها اسمُه العظيم نوعان:

أحدهما: يرجع إلى صفاته سبحانه، وأنَّ له جميعَ معاني العظمة والجلال؛ كالقوَّةِ، والعِزَّةِ، وكمال القدرة، وسعةِ العلمِ، وكمال المجد، وغيرها من أوصاف العظمة والكبرياء، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكبرياءُ والعظمةُ الوصفان اللَّذان لا يُقادَرُ قَدْرُهُمَا، ولا يبلغُ العبادُ كنهَهما، قال الله تعالى في الحديث القُدُسيِّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»[1]. رواه أحمد وأبو داود، وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ، والمَلَكُوتِ، والكِبْرِيَاءِ، والعَظَمَةِ**»[2]. رواه أحمد وأبو داود والنَّسائيُّ.

النَّوع الثَّاني: أنَّه لا يستحقُّ أحدٌ التَّعظيم والتَّكبيرَ والإجلالَ والتَّمجيدَ غيرُه، فيستحقُّ على العباد أن يعظِّمُوه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبَّته والذُّلِّ له والخوفِ منه، ومن تعظيمه سبحانه أن

(١) رواه أحمد (٨٨٩٤)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنَّسائيُّ (١٠٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفَر، ومن تعظيمه وإجلاله أن يُخْضَعَ لأوامره وشرعه وحكمه، وأن لا يُعتَرَضَ على شيءٍ من خلقه أو على شيءٍ من شَرْعِه، ومن تعظيمه تعظيمُ ما عظَّمَهُ من زمانٍ ومكانٍ وأشخاصٍ وأعمالٍ، والعبادة روحُها تعظيمُ الباري وتكبيرُه.

وإنَّ من أعظم ما يعين العبد على تحقيق عبوديَّة التَّعظيم للرَّبِّ: أن يتفكَّر في مخلوقات الله العظيمة وآياته -جلَّ شأنه- الجسيمة الدَّالَّة على عظمة مبدعها وكمال خالقها وموجدها، يقول جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]. أي: لا تُعَظِّمونه حقَّ تعظيمه!! ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٣-١٨].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلقًا من بعد خلق، في بطن الأمِّ، ثمَّ في الرَّضاع، ثمَّ في سنِّ الطُّفوليَّة، ثمَّ التَّمييز، ثمَّ الشَّباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق، فالَّذي انفرد بالخلق والتَّدبير البديع متعيِّنٌ أن يُفْرَد بالعبادة والتَّوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على الإقرار بالمعاد، وأنَّ الَّذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدلَّ أيضًا عليهم بخلق السَّماوات الَّتي هي أكبر من خلق النَّاس، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: كلُّ سماء فوق الأخرى.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشَّمس والقمر الدَّالَّة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرَّحيم، يستحقُّ أن يُعَظَّم ويُحَبَّ ويُعْبَد ويُخَاف ويُرْجَى.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ للبعث والنُّشور، فهو الَّذي يملك الحياة والموت والنُّشور.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]، أي: مبسوطة مُهَيَّأة للانتفاع بها.

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠]، فلولا أنَّه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسُّكون على ظهرها»[1]، فهي آيات عظام وشواهد جسام على عظمة المبدع وكمال الخالق سبحانه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، أي: براهين واضحات وشواهد بيِّنات ودلائل ساطعات على عظمة المبدع وكماله جلَّ شأنه، السَّموات في لطافتها وارتفاعها واتِّساعها وكواكبها السَّيَّارة والثَّوابت، والأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وأنهارها وقفارها وَوِهَادها وأشجارها وما فيها من المنافع المُتَنَوِّعة.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (ص٨٨٩).

إنَّ تفكُّر المؤمن وتأمُّله في آيات الله العظيمة ومخلوقاته الباهرة تهدي قلبه وتسوقه إلى تعظيم خالقه، إذا تفكَّر في هذه الأرض الَّتي يمشي عليها والجبال المحيطة به يجد فيها عظمة تبهر القلوب، فإذا ما وسَّع النَّظر ونظر فيما هو أعظم من ذلك وتأمَّل في السَّماء المحيطة بالأرض تتضاءل عنده عظمة الأرض بالنِّسبة إلى عظمة السَّماء، ثمَّ إذا تأمَّل فيما هو أعظم وهو السَّماوات السَّبع المحيطة بهذه الأرض يزداد الأمر عظمة، ثمَّ إذا تفكَّر في ذلك المخلوق العظيم الَّذي قال الله عنه في أعظم آية في كتاب الله، قال جلَّ شأنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: أحاط بها فلم يضق عنها لعظم سعته؛ فتتضاءل عظمة السَّماوات وعظمة الأرض عند عظمة هذا المخلوق، ثمَّ تتضاءل هذه العظمة إذا تفكَّر العبد في النِّسبة بين عظمة الكرسيِّ وعظمة العرش المجيد أوسع المخلوقات وأعظمها، وقد ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ، وَالْمَاءِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ** عَزَّوَجَلَّ **عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**»(١).

وثبت في المسند من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**»(٢). هذه عظمة مخلوقات

---

(١) رواه الدَّارميُّ في الرَّد على الجهميَّة (٨١)، والطَّبرانيُّ في الكبير (٨٩٨٧).

(٢) رواه أبو بكر ابن أبي شيبة في العرش (٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٠٩).

تأخذ بالقلوب وتبهر العقول، فإذا ما تفكَّر العبد هذا التَّفكُّر العظيم عملًا بقول نبيِّنا عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ»(١). هداه هذا التَّفكُّر إلى عظمة الخالق جلَّ وعلا، فإذا كانت هذه المخلوقات بهذا العظم فكيف الشَّأن بمبدعها!! وكيف الأمر بخالقها جلَّ شأنه وعظم سلطانه وكمل في أسمائه وصفاته، تبارك اسمه وتعالى جدُّه وبهرت حكمته وتمَّت نعمته وقامت على عباده حُجَّته والله أكبر كبيرًا.

وإذا عظَّمت القلوبُ اللهَ عَظُم في النَّفس شرعُ الله، وعظُمت حرماتُ الله، وصلحت أحوال العباد، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجُّ:٣٢]، أي: أمارة بيِّنة ودلالة واضحة على تقوى قلب مَن كان كذلك لربِّه، ويقول جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحجُّ:٣٠].

إنَّ تعظيم الله جلَّ شأنه فرع عن المعرفة بالله جلَّ وعلا؛ فكُلَّما كان العبد أعظم معرفة بالله كان أشدَّ لله تعظيمًا وأشدَّ له إجلالًا وأعظمَ له مخافة وتحقيقًا لتقواه جلَّ شأنه، وإذا عظَّم القلبُ ربَّه خضع له سبحانه وانقاد لحكمه وامتثل أمره وخضع له جلَّ شأنه، بالمحبَّةِ والإجلال والتَّعظيم والخوف والرَّجاء وتوابعِ ذلك، ومنشأ صنوف الانحرافات وأنواع الأباطيل في النَّاس إنَّما هو من ضعف التَّعظيم لله أو انعدامه في القلوب.

وذكر الله بالتَّعظيم لجنابه سبحانه يملأ القلب تعظيمًا لله، وقد ثبت في

(١) رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٦٣١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»[(١)]، وكان يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ»[(٢)]، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، ويقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[(٣)]، ويقول ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[(٤)]. فذكر الله جَلَّ وَعَلَا تعظيمًا له سبحانه وتكبيرًا وتوحيدًا وتقديسًا وتنزيهًا هو العمارة الحقيقيَّة للقلوب، وهو الشِّفاء لأمراضها، وهو الَّذي تتحقَّق به تقوى العبدِ لربِّه جَلَّ وَعَلَا والتَّعظيمُ لمولاه.

وليحذر العبد من الذُّنوب والمعاصي؛ فإنَّ أضرارها على العبد أن تُضْعِف في قلبه التَّعظيم لله، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تضعف في القلب تعظيم الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بُدَّ، شاء أم أبى، ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمته في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه، ورُبَّمَا اغترَّ المُغْتَرُّ، وقال: إنَّما يحملني على المعاصي حسن الرَّجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النَّفس؛ فإنَّ عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذُّنوب، والمتجرِّئون على معاصيه ما قدروا الله حقَّ قدره، وكيف يقدره حقَّ

(١) رواه أبو داود (٨٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه مسلم (٤٧٩).
(٣) رواه مسلم (٧٧٢).
(٤) رواه البخاريُّ (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

قدره، أو يُعَظِّمه ويُكَبِّره، ويرجو وقاره ويجلُّه؛ مَن يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحلَّ من قلبه تعظيم الله جَلَّجَلَالُهُ، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقُّه»(١).

هذا والحياة دار ابتلاء وامتحان وإلى الرَّبِّ العظيم المنتهى وإليه الرُّجعى، ولا نجاة في ذلك اليوم إلَّا بالتَّعظيم لله والعمل بموجَبات هذا التَّعظيم، وأهل الإيمان في الدَّار الآخرة درجات عند الله بحسب حظِّ قلوبهم من التَّعظيم لله، وأمَّا مَن لا يؤمن بالله العظيم فليس له في تلك الدَّار إلَّا النَّار قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقَّة: ٢٥-٣٢]، والسَّبب في ذلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقَّة: ٣٣].

اللَّهُمَّ، بك آمنَّا، وعليك توكَّلنا، وإليك أنبنا، وبك خاصمنا، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك، اللَّهُمَّ، املأ قلوبنا محبَّة لك وتعظيمًا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كلَّه، لا إله إلَّا أنت.

---

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص٦٩).

٣٢
محبَّة الله

روى الإمام البخاريُّ في صحيحه من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**» فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»[(١)].

وروى البخاريُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى؛ فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى. فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلَانُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ**

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ**»(١).

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**». متّفق عليه(٢).

إنَّ أجلَّ مقامات العابدين وأعظم منازل السَّائرين: محبَّةُ ربِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، الَّذِي لا إله إلَّا هو، الملكُ القدُّوس السَّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبَّار المُتكبِّر، الخالق البارئ المُصوِّر، ذو الجلال والإكرام، الرَّبُّ العظيم سبحانه الَّذِي له الأسماء الحسنى والصِّفات العليا، وهي روح الدِّين وغذاء الأرواح، وأساس السَّعادة وقوام الدِّين والأعمال.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وهي المنزلة الَّتِي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمَّر السَّابقون، وعليها تفانى المُحِبُّون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون؛ فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقُرَّة العيون، وهي الحياة الَّتِي مَن حرمها فهو من جملة الأموات، والنُّور الَّذِي مَن فقده فهو في بحار الظُّلمات، والشِّفاء الَّذِي مَن عدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذَّة الَّتِي مَن لم يظفر بها فعيشه كلُّه هموم وآلام، وهي روح

(١) رواه البخاريُّ (٧٤١).
(٢) رواه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال الَّتِي متى خلت منها فهي كالجسد الَّذِي لا روح فيه، تحمل أثقال السَّائرين إلى بلاد لم يكونوا إلَّا بشقِّ الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتُبَوِّؤهم من مقاعد الصِّدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم الَّتِي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الَّذِي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب»(١).

وهي أساس السَّعادة، وسبيل الفلاح في الدُّنيا والآخرة، الجالبةُ للأعمال، المحقِّقةُ للكمال، البالغةُ بالعبد إلى خير المقامات وعليِّ المنازل. فشأنها عظيم وأمرها جليل ومكانتها في دين الله رفيعة، وكان من دعاء نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في سنن التِّرمذيِّ وغيره: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»(٢)، وجاء في صحيح البخاريِّ وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»(٣)، وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦].

وثمار المحبَّة وآثارها وفوائدها وعوائدها على المحبِّين في الدُّنيا والآخرة

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٣/ ٣٦٥).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٢٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه البخاريُّ (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

لا حصر لها ولا عدَّ، ويكفي المحبَّ أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ معه مؤيِّدًا وحافظًا، ومسدِّدًا وموفِّقًا.

وفي خضم توالي الفتن وكثرة الصَّوارف وتنوُّع الملهيات والصَّوادِّ الَّتِي يُبْتَلى بها النَّاس؛ تضعف محبَّة الله في القلوب، ويضعف تبعًا لذلك آثارُها وثمارُها وموجباتها، وهذا مقامٌ يتطلَّب من العبد عودةً صادقةً بنفسه إلى الله؛ باحثًا عن سبيل نيل محبَّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مُتَطَلِّبًا الأمور الجالبة إلى قلبه محبَّةَ الله، ليعود إلى قلبه صفاؤُه ونقاؤُه، وبهاؤُه وضياؤُه، وذلك بعمارته بمحبَّة الله جَلَّ وَعَلَا.

وهذه وقفة أُذَكِّر فيها بجملة من الأمور العظيمة الَّتِي تجلب إلى القلوب محبَّة ذي الجلال والإكرام:

فأوَّل ذلك: عنايةٌ صادقة بكتاب الله تدبُّرًا وتأمُّلًا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء:٨٢]. وعندما يقرأ المرء القرآن لا يكن همُّه ختم السُّورة، وليكن همُّه عقلَ الخطاب وفهمَ المراد، فهذا من أعظم الأمور الجالبة لمحبَّة الله جَلَّ وَعَلَا؛ التَّأمُّل في كلامه العظيم وذكره الحكيم الَّذِي، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فُصِّلت:٤٢].

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: العناية بالنَّوافل بعد الفرائض؛ فهذا أمرٌ عظيم يجلب للقلوب المحبَّة ويُغَذِّي القلوب بها، وشاهد ذلك فيما رواه البخاريُّ وغيره عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه أنَّه قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ**

بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(١)، والمعنى: أنَّ الله سبحانه يُؤَيِّده ويُسَدِّده في سمعه وبصره وفي قدمه ويده وفي جميع أحواله.

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: إيثار محابِّ الله على محابِّ النَّفس، وتقديمها على ما يحبُّ مهما كانت رغبة النَّفس ومهما كان طلبها، وقد تقدَّم قول النَّبِيِّ ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا؛ فإنَّ العبد كُلَّما كان أعظم معرفة بالله كان لله أحبَّ ولعبادته أطلب وعن معصيته أبعد، وشاهِدُ ذلك في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: إنَّمَا يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ لأنَّه كُلَّما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كُلَّمَا كانت المعرفة به أتمَّ والعلم به أكمل

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).
(٢) رواه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

كانت الخشية له أعظم وأكثر»(١).

فمعرفة الله تُقَوِّي جانب الخوف والمراقبة وتعظم الرَّجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد، وتثمر أنواع العبادة، وبها يكون سير القلب إلى ربِّه وسعيه في نيل رضاه أسرع من سير الرِّياح في مهابِّها، لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، والتَّوفيق بيد الله.

وهذه المعرفة هي الَّتي عليها مدار السَّعادة وبلوغ الكمال والتَّرقِّي في درج الرِّفعة، وبها نيل نعيم الدُّنيا والآخرة، والظَّفر بأجلِّ المطالب وأنجح الرَّغائب وأشرف المواهب، ومتى كان العبد عارفًا بربِّه مُحِبًّا له قائمًا بعبوديَّته ممتثلًا أمره مبتعدًا عن نواهيه؛ تحقَّق له بهذه المعرفة والعبوديَّة اللَّتين هما غاية الخلق والأمر كمال الإنسان المرجو وسموُّه المنشود، بل «ليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها ومحبَّته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكُلَّمَا كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكُلَّمَا كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه»(٢).

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: تذكُّر نعم الله وآلائه وإحسانه وبِرِّه، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النَّحل:٥٣]، فإذا تذكَّر العبد نعم الله عليه المتوالية وعطاياه

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٤٤).

(٢) توضيح المقاصد شرح نونيَّة ابن القيِّم (١/ ٢٤).

المتابعة؛ تحرَّكت في قلبه المحبَّة وزاد شأنها وارتفع مقامها، وقد كان نبيُّنا عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه كُلَّ ليلة تذكَّر نعم الله جلَّ وعلا، وقال -مثنيًا وحامدًا-: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ لَهُ وَلا مُؤْوِيَ**». رواه مسلم[(١)].

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: مجالسة أهل الصَّلاح والتُّقى والإيمان والاستقامة، والاستفادة من أطايب أقوالهم ومحاسن أعمالهم وجميل أخلاقهم وآدابهم، كما في الحديث: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**». رواه أبو داود وغيره[(٢)].

ومن الأمور الجالبة للمحبَّة: أن يبتعد المرء عن الأمور الَّتي تحُول بين القلب وبين ربِّه ومولاه، وما أكثر الشَّواغل الَّتي تشغل القلوب وتمرض النُّفوس وتضعف الإيمان وتحول بين القلوب وبين محبَّة الرَّحمن، فمَن كان يريد لقلبه محبَّةً صافية ومحبَّةً صادقة؛ فليقطع كلَّ طريق يحول بينه وبين تحقيق المحبَّة.

وقد عقد ابن القيِّم رحمه الله في كتابه مدارج السَّالكين فصلًا نافعًا في الأسباب الجالبة للمحبَّة والموجبة لها، قال: «**وهي عشرة:**

أحدها: قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفهُّم لمعانيه وما أريد به.

الثَّاني: التَّقرُّب إلى الله بالنَّوافل بعد الفرائض.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الثَّالث: دوام ذكره على كُلِّ حال باللِّسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبَّة على قدر نصيبه من هذا الذِّكر.

الرَّابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها؛ فمَن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة.

السَّادس: مشاهدة بِرِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظَّاهرة؛ فإنَّها داعية إلى محبَّته.

السَّابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكُلِّيَّته بين يدي الله تعالى.

الثَّامن: الخلوة به وقت النُّزول الإلهيِّ لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتَّأدُّب بأدب العبوديَّة بين يديه، ثمَّ ختم ذلك بالاستغفار والتَّوبة.

التَّاسع: مجالسة المُحِبِّين الصَّادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثَّمر.

العاشر: مباعدة كُلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المُحِبُّون إلى منازل المحبَّة ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كُلِّه أمران استعداد الرُّوح لهذا الشَّأن وانفتاح عين البصيرة وبالله التَّوفيق»[(١)].

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٣/ ٣٨١ – ٣٨٢).

فهذه أعظم الأمور الجالبة لمحبَّة الرَّحمن الموجبة لدخول الجنان والنَّجاة من النِّيران، رزقنا الله جميعًا ذلك إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى سميع مجيب، اللَّهُمَّ، إنَّا نسألك حبَّك وحبَّ كُلِّ مَن يُحِبُّك وكُلِّ عَمَلٍ يُقَرِّبنا إلى حبِّك، اللَّهُمَّ، اجعل حبَّك في قلوبنا أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وملذَّاتنا، وأحبَّ إلينا من الماء البارد في شدَّة الظَّمأ والعطش؛ إنَّك سميع الدُّعاء وأنت أهل الرَّجاء وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

٣٣
الفرار إلى الله

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ: بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ». متَّفق عليه[1].

الحديث هنا عن عبوديَّةٍ عظيمٌ شأنها، جليلٌ أمرها، كبيرٌ خطبها، جديرٌ بكُلِّ مسلم أن تعظم عنايته بها، ففيها بَرُّ الأمان، وسبيلُ النَّجاة، ونيلُ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة؛ إنَّها عبوديَّة الفرار إلى الله جلَّ في علاه للنَّجاة من سخطه ومن النَّار، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الذَّاريات: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [٥٠]، فما أعظم شأن هذه العبوديَّة، وما أعظم عوائدها وفوائدها على الفارِّين إلى الله.

---

(١) رواه البخاريُّ (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

والنَّاس في هذا الباب على قسمين: سعداء وأشقياء؛ فأمَّا السُّعداء فهم الفارُّون إلى الله، طالبون بفرارهم إليه سعادتهم وفوزهم وفلاحهم في الدُّنيا والآخرة. وأمَّا الأشقياء فهم الفارُّون من الله لا إلى الله، وهذا سبيل شقاء وهلاك في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء وهو نوعان: فرار السُّعداء وفرار الأشقياء، ففرار السُّعداء: الفرار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه، وأمَّا الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ «فرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته»[(١)]، وقال سهل بن عبدالله: «فرُّوا ممَّا سوى الله إلى الله»[(٢)]، وقال آخرون[(٣)]: «اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطَّاعة»»[(٤)].

وقال ابن جرير الطَّبريُّ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَاهْرُبُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ عِقَابِ اللهِ إِلَى رَحْمَتِهِ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات:٥١]، يَقُولُ: إِنِّي لَكُمْ مِنَ اللهِ نَذِيرٌ أُنْذِرُكُمْ عِقَابَهُ، وَأُخَوِّفُكُمْ عَذَابَهُ الَّذِي أَحَلَّهُ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْكُمْ قَصَصَهُمْ، وَالَّذِي هُوَ مُذِيقُهُمْ فِي الْآخِرَةِ»[(٥)].

---

(١) تفسير الثَّعلبيِّ (٢٤/ ٥٦٢)، وتفسير البغويِّ (٧/ ٣٧٩).

(٢) تفسير الثَّعلبيِّ (٢٤/ ٥٦٣)، وتفسير البغويِّ (٧/ ٣٧٩).

(٣) تفسير البغويِّ (٧/ ٣٧٩).

(٤) مدارج السَّالكين (٢/ ١١٤).

(٥) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٢/ ٤٤٠).

الفرار إلى الله جَلَّ وَعَلَا يحتاج إلى مهروب منه وإلى مهروب إليه، وفي الآية ذكر للمهروب إليه جلَّ في علاه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يُذكر فيها المهروب منه وذلك ليتناول كلَّ قاطعٍ وعائق وحائلٍ بين العبد وبين الوصول إلى الله ونيل رضاه سبحانه، وهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها؛ فإنَّها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهي في الجملة ثلاثة عوائق: الشِّرك بالله وهو أشدُّها، ثمَّ البدعة في دين الله، ثمَّ المعاصي بأنواعها، ويسلم من عائق الشِّرك بتجريد التَّوحيد لله، ومن عائق البدعة بتحقيق السُّنَّة وعائق المعاصي بتصحيح التَّوبة.

فالفرار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يتطلَّب من الفارِّ إلى الله أمورًا ثلاثة: يحقِّقها علمًا وعملًا:

الأمر الأوَّل: معرفة مَن يفرُّ إليه؛ وهو الله العظيم جلَّ في علاه معرفةً بأسمائه وصفاته، وعظمته، وجلاله، وكماله، وعظيم اقتداره جلَّ في علاه، وشدَّة بطشه وانتقامه سبحانه، وكلَّما عظُمت معرفة العبد بالله ازداد فراره إليه جلَّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فمَن كان بالله أعرف كان منه أخوف ولعبادته أطلب وعن معصيته أبعد.

والأمر الثَّاني: معرفة الطَّريق الَّتي يسلكها الفارُّ إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ وهي لزوم طاعته سبحانه، ولهذا جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: «**فرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته**»[1]، فالطَّريق الَّتي يسلكها الفارُّ

(١) تفسير الثَّعلبيِّ (٢٤/ ٥٦٢)، وتفسير البغويِّ (٧/ ٣٧٩).

إلى الله أن يلزم صراط الله المستقيم، وأن لا يحيد عنه ولا ينحرف، بل يمضي مستقيمًا على الصِّراط الموصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا بفعل الأوامر واجتناب المناهي طلبًا لرضا الله عَزَّ وَجَلَّ وحرصًا على الظَّفر بعظيم موعوده جلَّ في علاه.

والأمر الثَّالث: معرفة مآل هذه الطَّريق وما توصل إليه؛ وهو الفوز بجنَّة الله ورضوانه جلَّ في علاه، فالفرارُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فيه نجاةٌ من السَّخط وفوزٌ بالرِّضوان. والفارُّون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ هم الَّذِين يُزحزحون يوم القيامة عن النَّار ويُدخلون الجنَّة دار الأبرار، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقد جُمعت هذه الأمور الثَّلاثة في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

قال الشُّوكانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فقد اعتبر سبحانه في كون السَّعي مشكورًا أمورًا ثلاثة:**

الأوَّل: إرادة الآخرة.

الثَّاني: أن يسعى لها السَّعي الَّذِي يحقُّ لها.

والثَّالث: أن يكون مؤمنًا»[1].

وجاء الأمر في هذه الآية بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ ولزوم عبادته بهذه الصِّيغة ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ تنبيهًا للعباد إلى أنَّ الأمر إذا لم يكن فيه فرار إلى الله؛ فإنَّ المرء على

(١) فتح القدير للشَّوكانِيِّ (٣/ ٢٥٨).

خطر عظيم وهلاك متحتِّم، وهو مقامٌ يتطلَّب من العبد عدم التَّواني والتَّقاعس والتَّكاسل والتَّباطؤ، بل هو يتطلَّب مسارعةً، ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ أي: مسرعين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد:٢١]. فالمقام لا يحتمل التَّواني والتَّباطؤ والتَّسويف، وإنَّما يتطلَّب مبادرة ومسارعةً.

ومن أعظم ما يعين على هذا الفرار إلى الله عَزَّوَجَلَّ: تأمُّل الآيات الَّتي تسبق هذه الآية في سورة الذَّاريات؛ حيث ذكر جَلَّوَعَلَا قبلها ما أحلَّه بالفارِّين من الله من أنواع المثلات وصنوف العقوبات.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الذَّاريات:٣١-٤٦].

ثمَّ أتبع ذلك سبحانه بذكر آياته العظيمة ومخلوقاته الجسيمة الدَّالَّة على عظمته وكمال اقتداره، فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات:٤٧-٥٠].

«منبِّهًا على خلق العالم العُلويِّ والسُّفليِّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفًا محفوظًا رفيعًا ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوَّة. قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والثَّوريُّ، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: قد وسَّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتَّى استقلَّت كما هي.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهدًا لأهلها.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وجن وإنس وذكور وإناث وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنَّة ونار، حتَّى الحيوانات والنَّباتات»(١).

هذا ومَن لم يحسن الفرار إلى الله في هذه الدَّار احتاج إذا كان يوم القيامة أن يقول أين المفرُّ، ولا مفرَّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:٧-١١]. وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشُّورى:٤٧]، «أي: ليس لكم حصن تتحصَّنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكَّرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلَّا إليه»(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٤٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٢١٥).

إنَّ الفرار إلى الله عَزَّوَجَلَّ أمْر يتجدَّد مع المؤمن بتجدُّد اللَّيالي والأيَّام؛ فإنَّ الفتن تلاحقه، والصَّوارف والصَّوادَّ تطارده، والشَّيطان من جهته قاعد له بالمرصاد، وهناك نفس أمَّارة بالسُّوء، وهناك أبوابٌ على كلِّ باب منها شيطان يدعو إليه؛ فالمقام يحتاج من العبد المؤمن -صادقِ الإيمان- أن يحسن الفرار إلى الله الرَّحمن، طالبًا بفراره إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يخرج من هذه الحياة الدُّنيا وقد نجا من سخط الله عَزَّوَجَلَّ وفاز برضوانه جلَّ في علاه.

وهذا التَّجدُّد في الفرار إلى الله عَزَّوَجَلَّ هو تجدُّدٌ في الإيمان وحسن الصِّلة بالله جلَّ في علاه، يصحب المسلم دومًا مع كَرِّ اللَّيل ومرِّ الأيَّام، كما في الصَّحيحين؛ عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ»(١).

فقوله ﷺ في هذا الدُّعاء العظيم: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»؛ فيه تجديد للإيمان والتَّوحيد كلَّ ليلة عندما يؤوي المرء إلى فراشه بأنَّه لا مفرَّ من الله إلَّا إليه، وكلُّ شيء يخافه المرء يفرُّ منه إلَّا الله عزَّ شأنه وجلَّ أمره سبحانه؛ فإنَّ مَن عظُم خوفه من الله فرَّ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا ملجأ من الله إلَّا إليه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠).

«والتَّوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه، وتحت (مِنْ) و(إلى) في هذا سرٌّ عظيم من أسرار التَّوحيد.

فإنَّ الفرار إليه سبحانه يتضمَّن إفراده بالطَّلب والعبوديَّة ولوازمها، فهو متضمِّن لتوحيد الإلهيَّة الَّتِي اتَّفقت عليها دعوة الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأمَّا الفرار منه إليه فهو متضمِّن لتوحيد الرُّبوبيَّة وإثبات القدر، وأنَّ كلَّ ما في الكون من المكروه والمحذور الَّذِي يفرُّ منه العبد فإنَّمَا أوجبته مشيئة الله وحده؛ فإنَّه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فرَّ العبد إلى الله فإنَّمَا يفرُّ من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

ومَن تصوَّر هذا حقَّ تصوُّره فهم معنى قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»، وقوله: «**لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»، فإنَّه ليس في الوجود شيء يفرُّ منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلَّا هو من الله خلقًا وابداعًا.

فالفارُّ والمستعيذ: فارٌّ ممَّا أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبرُّه ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه ومستعيذ بالله منه»[1].

وكلُّ شيء يخافه العبد يفرُّ منه، إلَّا الله مَن خافه حقًّا فرَّ إليه، قال تعالى -في ذكر توبته على الثَّلاثة الَّذِين خُلِّفوا في غزوة تبوك-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوبة:١١٨].

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم (ص١٧-١٨).

فهو سبحانه المعدُّ وهو الممدُّ، ومنه السَّببُ والمسبَّب، وهو الَّذِي يعيذ من نفسه بنفسه، ولا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه.

رزقنا الله أجمعين توبةً نصوحًا وحسنَ فرار إليه، فهو وحده المستعان وعليه التُّكلان ولا حول ولا قوَّة إلَّا به.

٣٤
حسن الظَّنِّ بالله

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[(١)].

وروى الإمام أحمد عن واثلة ابن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(٢)].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**قَالَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»[(٣)].

وروى الإمام مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»[(٤)].

ورواه أحمد وزاد في روايته: «**فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرْدَاهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فقال الله**: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٣١٦).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٩٠٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٣١٥).
(٤) رواه مسلم (٢٨٧٧).

[فُصِّلت:٢٣]»[1].

إنَّ من عبوديَّات القلب العظيمة وواجبات الإيمان الجليلة؛ «حُسْنَ الظَّنِّ بالله»؛ فإنَّ حسنَ الظَّنِّ به جلَّ في علاه مقامٌ عليٌّ من مقامات الدِّين الرَّفيعة، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخيِّب عبدًا أحسن الظَّنَّ به؛ فإنَّه جَلَّ وَعَلَا لا يُخَيِّب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥].

ولقد تكاثرت الدَّلائل على عِظَم شأن حسن الظَّنِّ بالله، وما يترتَّب عليه من المقامات الحميدة والآثار العظيمة والثِّمار المباركة في الدُّنيا والآخرة، وعظم شأنه، وأنَّه عبوديَّة عظيمة وطاعة جليلة، وكُلَّمَا قوي أثمر لصاحبه الثِّمار العظيمة والآثار المباركة والعوائد الحميدة في الدُّنيا والآخرة.

وحُسن الظَّنِّ بالله هو فرعٌ عن المعرفة بالله؛ فإنَّ العبد كُلَّمَا كان أعظم معرفةً بالله وبأسمائه وصفاته، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا وسع كُلَّ شي رحمةً وعلمًا، وأنَّه سبحانه غفورٌ رحيم، توابٌ كريم، جوادٌ محسِن، يقبل التَّوبة من عباده ويعفو عن السَّيِّئات، وأنَّه لا يتعاظمه ذنب، وأنَّه واسع المغفرة، إلى غير ذلكم من صفاته العظيمة ونعوته الجليلة؛ فكُلَّمَا ازداد العبد معرفةً بالله زاد حظُّه ونصيبه من حسن ظنِّه به؛ لأنَّ منشأ حسن الظَّنِّ ومبناه على حُسن المعرفة بالله جَلَّ وَعَلَا وأسمائه وصفاته. فكُلُّ اسم من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وكُلُّ صفة من صفاته جَلَّ وَعَلَا له عبوديَّة تخُصُّه وحسن ظنٍّ يَخُصُّه، وهذا أمر ينبغي أن يعلم وأن يُفقه في هذا الباب.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥١٩٧)، وضعفها الألباني في الضعيفه (٥/ ٩٨١)، (٠٧١٢).

فإذا علم المسلم أنَّ من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى «الغفَّار»؛ أحسن الظَّنَّ به في استغفاره، وإكثاره من الاستغفار وعنايته به وملازمته له أن يغفر ذنبه، وأن وأن يتجاوز عن زلَّته وأن يغفر خطيئته.

وإذا علم أنَّ من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى «التَّوَّاب» وأنَّه يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السَّيِّئات؛ أحسن الظَّنَّ به أن يتوب عليه مهما كان ذنبه، ومهما كانت خطيئته وجرمه، وإذا كان خطؤه عظيمًا فالله عَزَّ وَجَلَّ واسع المغفرة يتوب على مَن تاب مهما كانت ذنوبه ومهما كانت خطاياه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣].

وإذا أصابته بعض المصائب أو الأسقام أو الأوجاع أحسن الظَّنَّ بالله وأنَّه الشَّافي لا شفاء إلَّا شفاؤه جلَّ في علاه، كما قال خليل الرَّحمن عليه صلوات الله وسلامه فيما ذكره الله عنه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعراء:٨٠]، فهذا من حسن الظَّنِّ بالله، فمهما كانت شدَّة المرء فليحسن الظَّنَّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يشفيه ويكشف كربه، وإذا دعا بالدُّعاء المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ، رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»(١)، أحسن الظَّنَّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يجيبه وأن يُذهب عنه ما أصابه من وجعٍ أو ألم وشدَّة، وهو القائل جلَّ في علاه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]،

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٣).

والقائل جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وإذا قلَّت ذات يده وأصابه من العوز والفقر والحاجة ما أصابه أحسن الظَّنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه واسع الفضل جزيل المنِّ وأنَّ ما به من نعمة فمن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وبهذا يعلم أنَّ حسن الظَّنِّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يصاحب المؤمن في جميع شؤونه وأحواله وجميع عباداته وأعماله.

ومبناه على عقيدة راسخة وإيمان قوي في قلب المؤمن وثقة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا يحسن عبدٌ الظَّنَّ بربِّه ويكون صادقًا في حسن ظنِّه به سبحانه إلَّا أعطاه الله ظنَّه، وذلك أنَّ الخير كُلَّه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكُلُّ ما يرجوه المرء ويُؤَمِّله ويريده لنفسه أو لغيره بيده عَزَّوَجَلَّ.

وليعظم الرَّغبة؛ فإنَّ الله لا يتعاظمه شيء يسأله، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن:٢٩]، «فأَكُفُّ جميع العالم ممتدَّة إليه بالطَّلب والسُّؤال ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنَّوال، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحَّاء اللَّيل والنَّهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفُجَّار، له كُلُّ كمال ومنه كُلُّ خير، له الحمد كلُّه وله الثَّناء كلُّه وبيده الخير كلُّه وإليه يرجع الأمر كلُّه، تبارك اسمه وتباركت أوصافه وتباركت أفعاله وتباركت ذاته، فالبركة كلُّها له ومنه لا يتعاظمه خير سُئِله، ولا تنقص خزائنه على كثرة عطائه وبذله»(١). ولو أنَّ

---

(١) شفاء العليل لابن القيِّم (٢/ ٩٦).

أوَّل خلقه وآخرهم وإنسهم وجنَّهم وحيَّهم وميَّتهم ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد، فسألوه فأعطى كلًّا منهم ما سأل؛ ما نقص ذلك ممَّا عنده مثقال ذرَّة.

ومقام المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا مقامٌ عظيم، له ثماره العظيمة وآثاره المباركة وعوائده الحميدة على العبد المؤمن في دنياه وأخراه؛ ولهذا فإنَّ من أعظم ما يُنَمِّي في العبد حسن الظَّنِّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يعنى بهذا الباب -باب المعرفة بالله-.

وحسن الظَّنِّ بالله معدودٌ في أعظم المنن وأجل العطايا؛ روى ابن أبي الدُّنيا في كتابه «حُسن الظَّنِّ بالله» عن الصَّحابيِّ الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ظَنّه؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ»(١).

وقد تقدَّم في الحديث القدسيِّ قول الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»(٢)، أي: أنَّ للعبد ما ظَنَّ بربِّه جلَّ في علاه، بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية، وتأميل العفو إذا طلب العفو؛ فإن ظنَّ بالله أنَّه يُقيل عثرته ويغفر زلَّته ويقبل توبته ويرفع درجته ويُعظم مثوبته، فله هذا الظَّنُّ بربِّه جلَّ في علاه؛ ومَن

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في حسن الظَّنِّ (٨٣).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٩٠٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٣١٥).

ظنَّ خلاف ذلك، فله ما ظنَّ بربِّه جلَّ في علاه، فإنَّ للعبد في هذا المقام ما ظنَّه بربِّه؛ فإن ظنَّ الخير فله الخير، وإن ظنَّ خلاف ذلك فله ما ظنَّ.

ولهذا ينبغي للعبد أن يكون حَسَن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، وأن لا يتعاظم ذنبًا أن يتوب منه، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يتعاظمه حاجة سُئِلَها جلَّ في علاه أن يعطيها، فإنَّ عطاءه كلام ومنعه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وحُسن الظَّنِّ بالله لا يكون مع التَّفريط والإضاعة والإهمال وتتبُّع الملاذِّ والشَّهوات، وإنَّما يكون مع حُسن العمل وتمام الإقبال على الله جَلَّ وَعَلَا، وأمَّا المسيء المُضَيِّع المُفَرِّط المرتكب للمُحَرَّمات المقترف للآثام، فإنَّ آثامه وخطاياه تحول بينه وبين حسن الظَّنِّ بالله، قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المؤمن أحسن الظَّنَّ بربِّه فأحسن العمل، وإنَّ الفاجر أساء الظَّنَّ بربِّه فأساء العمل»(١).

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ صدق رجاء المؤمن لفضل الله عَزَّوَجَلَّ وجوده، يوجب حسن الظَّنِّ به، وليس حسن الظَّنِّ به ما يعتقده الجُهَّال من الرَّجاء مع الإصرار على المعاصي، وإنَّما مثلهم في ذلك كمثل: مَن رجا حصادًا وما زرع، أو ولدًا وما نكح؛ وإنَّما العارف بالله عَزَّوَجَلَّ يتوب ويرجو القبول، ويطيع ويرجو الثَّواب»(٢)، ثمَّ نقل عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «إنَّ

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٧٩٢٥).
(٢) كشف المشكل من حديث الصَّحيحين (٣/ ٣٢٣).

قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتَّى خرجوا من الدُّنيا وليست لهم حسنة، يقول إنِّي لحسن الظَّنِّ بربِّي وكذب، لو أحسن الظَّنَّ بربِّه لأحسن العمل»(١).

فينبغي للعبد النَّاصح لنفسه أن يكون مجاهدًا لها على حسن العمل المثمر لحسن الظَّنِّ بالله، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وكيف يكون المُضَيِّع المُفَرِّط محسنًا الظَّنَّ بربِّه! وهو عن ربِّه ومولاه شارد، وعن طاعته مبتعد، وعن أبواب رحمته ومغفرته معرض؛ فلا يكون حُسن الظَّنِّ بالله إلَّا مع حسن الإقبال على الله جَلَّ وَعَلَا، والواجب على عبد الله المؤمن أن يتَّقي الله عَزَّ وَجَلَّ ربَّه، وأن لا تسيطر عليه ذنوبه وخطاياه، وأن لا يتعاظم خطاياه في جنب مغفرة الله، فإنَّ الله لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره، وليحذر من اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، وليُحسِن في الإقبال على الله عَزَّ وَجَلَّ تائبًا منيبًا، وهو يحسن الظَّنَّ بربِّه أن يغفر له زلته، وأن يقبل توبته، وأن يعفو عن إساءته، وأن يرفع درجته، وليتدارك نفسه بذلك قبل أن يفجأه الموت، وهو على حالةٍ لا يسرُّه أن يلقى الله جَلَّ وَعَلَا بها.

وإنَّ من أشدِّ الذُّنوب وأعظمها ضررًا على الإنسان سوء الظَّنِّ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر سوء الظَّنِّ به وصفًا للمشركين والمنافقين، ولم يتوعَّد بالعقاب أحدًا أعظم ممَّن ظنَّ به ظنَّ السُّوء، قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في الوجل والتَّوثُّق بالعمل (٢).

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح:٦].

وسوء الظَّنِّ بالله جلَّ وعلا من أعظم أسباب الرَّدى والخسران، قال الله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلت:٢٣-٢٤].

وسوء الظَّنِّ بالله من وراء الذُّنوب والآثام؛ فإذا ساء ظنُّ العبد بربِّه ساء عمله، وإذا حسُن ظنُّه بربِّه حسُن عمله. ومداواة النَّفس في هذا المقام: أن يقبِل العبد على الله عزَّ وجلَّ إيمانًا وتوكلًا، ومعرفة بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأن يجاهد نفسه على تحقيق ما تقتضيه هذه المعرفة من عبوديَّة لله عزَّ وجلَّ، فإنَّ كُلَّ اسمٍ لله وكُلَّ صفةٍ له لها من العبوديَّة وحسن الظَّنِّ بالله ما تقتضيه تلك الأسماء والصِّفات.

وبوابة الدُّخول إلى هذا المقام العظيم هي التَّوبة الصَّادقة إلى الله جلَّ وعلا من كُلِّ ذنب وخطيئة، ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النُّور:٣١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: توبةً نصوحًا نابعةً من قلوبكم ترجون بها رحمة ربِّكم جلَّ في علاه، ففلاحكم وسعادتكم في توبتكم إلى ربِّكم عزَّ وجلَّ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقنا أجمعين لحسن التَّوبة وحسن العمل وحسن الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن يغفر لنا أجمعين ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

٣٥
مراقبة الله

روى ابن حِبَّان في صحيحه، والضِّياء المقدسيُّ في المختارة، عَنْ أُسَامَةَ ابْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا كَرِهَ اللهُ مِنْكَ شَيْئًا، فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ»**(١).

هذا تنبيه للعبد أن يصلح سريرته، بلزوم تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ عليه في كُلِّ أمر نهاه الله عنه، ومنعه من فعله ألَّا يفعله في الخلوات، كما قيل:

إذا ما خلوت الدَّهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبَنَّ الله يغفل ساعة ... ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيب

هذا وإنَّ أعظم زاجر للعبد، وأكبر رادع؛ علمه واستحضاره بأنَّ الله يراه وأنَّه عليم به، ومُطَّلع عليه. فإذا حدَّثته نَفْسُه يومًا بريبة، وهو في خلوة لا يراه أحدٌ مِنَ النَّاس، ذكَّر نَفْسَه بأنَّ ربَّ النَّاس مُطَّلع عليه لا تخفى عليه سبحانه خافية.

قال الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أنَّه

(١) رواه ابن حِبَّان (٤٠٣)، والضِّياء في المختارة (١٣٩٣)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره». انظر: السِّلسلة الصَّحيحة (١٠٥٥).

أكبر واعظ، وأعظم زاجر نزل مِنَ السَّماء إلى الأرض، وضربوا لذلك مثلًا -ولله المثل الأعلى- قالوا: لو فرض أنَّ هذا البراح مِنَ الأرض فيه ملك قتَّال للرِّجال إن انتهكت حرماته، ذو قُوَّة وعِزَّة ومنعة، وحوله جيوشه، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر ببال أحد من أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك أن يقوم بريبة، ولو قيل لأهل بلد: إنَّ أمير ذلك البلد يبيت عالمًا بكُلِّ ما يفعلونه في اللَّيل مِنَ الخسائس؛ لباتوا مُتَأَدِّبين.

وهذا خالق السَّموات والأرض، الملك الجبَّار، يخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم، إلَّا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزَّاجر الأعظم، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ [النَّحل: ١٩]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

فينبغي علينا جميعًا أن نعتبر بهذا الزَّاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وأن لا ننساه لئلَّا نهلك أنفسنا»[١].

وليحذر المرء من أن تكون حاله كالَّذِين قال الله عنهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النِّساء:١٠٨].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان

(١) العذب النَّمير من مجالس الشَّنقيطيِّ (١/ ٣٩٢).

اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطُّرق المباحة، والمُحَرَّمة على عدم الفضيحة عند النَّاس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطِّلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول»[١].

فيجب على المسلم أن يتَّقي الله سبحانه في الخلوات، ولذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فلا تَفْعَلْهُ إذا خَلَوْتَ**»، وذلك لأنَّ نفس العبد ضعيفة إذا كان في مكان خالٍ، فرُبَّما تجرَّأ وأقدم على المعصية؛ لكونه لا يراه أحد مِنَ النَّاس، فعليه أن يتَّقي الله سبحانه في خلواته، ويُذَكِّر نفسه بأنَّ ربَّ العالمين يراه.

فهذا دواء نافع للقلوب وعلاج لأسقامها، لكنَّه يحتاج مِنَ العبد أن يستذكر هذا دائمًا؛ لأنَّ القلوب تغفل والنُّفوس يصيبها ما يصيبها، فكُلَّما حدَّثته نفسه بأمر يكرهه الله؛ استذكر أنَّ الله سبحانه مُطَّلع عليه، ولا يجعل الله سبحانه في نفسه أهون النَّاظرين إليه.

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُطَّلع على العباد، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء، ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرَّعد: ١٠]. الأمر سواء عنده، فما يستخفي المرء به، ويحاول أن يوقعه في اللَّيل، وفي أماكن خفيَّة أو يجهر به، كُلُّ ذلك عنده سبحانه سواء.

قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، فمَن تأمَّل هذا وتدبَّره؛ كان له فيه أعظم زاجر، وأكبر رادع.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٠٠).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الآية: «يخبر تعالى عن علمه التَّامِّ المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر النَّاس علمه فيهم، فيستحيوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحياء، ويتَّقوه حقَّ تقواه، ويراقبوه مراقبة مَن يعلم أنَّه يراه؛ فإنَّه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصُّدور مِنَ الضَّمائر والسَّرائر»(١).

وكثيرًا ما تختم آي القرآن في سياق الأعمال وجزائها، بذكر علم الله واطِّلاعه؛ ليوقظ القلوب، ويُنَبِّه العباد على أهمِّيَّة إكمالها وإصلاحها، وليُرَغِّبهم ويُرَهِّبهم.

روى ابن أبي الدُّنيا في الزُّهد قال: «كانت دعوة بكر بن عبد الله المزنِيِّ لِمَن لقي من إخوانه أن يقول له: زهَّدنا الله وإيَّاك زهد مَن أمكنه الحرام والذُّنوب في الخلوات، فعلم أنَّ الله يراه؛ فتركه»(٢).

وهذا مقام عظيم في الزُّهد ترك الذُّنوب في الخلوات؛ خوفًا مِنَ الله لا رياءً ولا سُمْعةً، وإنَّما من أجل الله، فهذه قربة عظيمة من أعظم القرب الَّتِي يَتَقَرَّب بها العبد الى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال أبو حاتم البستيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قطب الطَّاعات للمرء في الدُّنيا هو إصلاح السَّرائر وترك إفساد الضَّمائر، والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة قلبه، عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه؛ لأنَّ

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٧).
(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في الزُّهد (١٣٧).

تَكَدُّر الأوقات وتَنَغُّص اللَّذَّات، لا يكون إلَّا عند فساده»[١].

ثمَّ روى عن مالك بن دينار أنَّه قال: «إنَّ قلوب الأبرار تغلِي بأعمال البِرِّ، وإنَّ قلوب الفُجَّار تغلِي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم؛ فانظروا ما همومكم رحمكم الله»[٢].

أي: تَذَكَّرُوا أنَّ ربَّ العالمين مُطَّلع على هذه الهموم، ممَّا يستوجب على العبد أن يعمل على إصلاح همِّه، وأن يجعل همَّه همًّا واحدًا، وهو الآخرة والفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عن عَبْد اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ، يَقُولُ: **«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ؛ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا؛ لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ»**[٣].

عَنِ الحسن البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إنَّكم وقوف ها هنا تنتظرون آجالكم، وعند الموت تلقون الخبر؛ فخذوا ممَّا عندكم لما بعدكم»[٤].

أي: عند الموت تلقون خبر ما قدَّمتم في هذه الحياة الدُّنيا، فخذوا ممَّا عندكم لما بعدكم، أي: تَزَوَّدوا للآخرة مِنَ التَّقوى، والعمل الصَّالح، وإصلاح السَّريرة.

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧).
(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في الهم والحزن (١١٢)، وانظر: روضة العقلاء (ص٢٨).
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) رواه ابن حِبَّان في روضة العقلاء (ص٢٨).

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]. وهذه الآية تُعَدُّ أصلًا عظيمًا في باب محاسبة النَّفس، وأنَّ الواجب على العبد أن يحاسِب نَفْسَه، وأن ينظر فيما أعدَّ ليوم غدٍ، قبل أن يحاسبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة، فإنَّ مِنَ الخير للعبد أن ينظر في أعماله، وفيما أعدَّه للقاء ربِّه جَلَّ وَعَلَا؛ هل هي أعمالٌ صالحات وطاعاتٌ زاكيات، وبُعدٌ عن المحرَّمات والمنكرات؛ فيسرُّه أن يلقى ربَّه جَلَّ وَعَلَا بها؟ أم هي أمورٌ تُسخط الله وتُغضبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتُحِلُّ على فاعلها العقوبة؛ فينظر ما الَّذي أعدَّه ليوم غدٍ؟ ويكون ذاكرًا ذلك اليوم، وذاكرًا الوقوف بين يدي الله، وذاكرًا الحساب وعرض الأعمال، وأنَّ كلَّ ما عمله يأتي حاضرًا مكتوبًا مسطورًا في كتابٍ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

وفي ذلك اليوم يقول الرَّبُّ جَلَّ وَعَلَا: «**يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[١]؛ أليس الجدير بالعبد -والأمر كذلك- أن تكون المحاسبة لنفسه الآن؟! في وقت العمل؟! فإذا وجد خيرًا؛ حمد الله على ما يسَّر وأعان، وإذا وجد غير ذلك أصلح نفسه، بدل أن يلوم نفسه يوم القيامة؛ لأنَّه في ذلك اليوم ليس هناك مجال للتَّوبة والإنابة.

وفي هذا المعنى يقول الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَاسِبُوا

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقَّة:١٨]»(١).

ومحاسبة النَّفس كما بيَّن العلماء على قسمين: محاسبة بعد العمل، ومحاسبة قبل العمل.

أمَّا المحاسبة الَّتي بعد العمل: فهي أن ينظر العبد إلى الَّذِي مضى من أعماله، والَّذِي تقدَّم من أفعاله، والَّذِي سيحاسبه عنه ربُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ينظر في أعماله الماضية في حياته؛ هل هي على الطَّاعة والسَّداد، أم هي على العصيان والانحراف، أم أنَّه مخلِّط بين ذلك؟ فينظر في الفائت مِنَ الأعمال: إن كانت زاكية، صالحة، مستقيمًا فيها على طاعة الله حمد الله، وإن كان فيها عصيان ومخالفات، وتفريط في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تاب وأناب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾، أي: لا تيأسوا فالله عَزَّ وَجَلَّ يقبل التَّوبة، مهما بلغ الإثم وعظُم الجرم، فهو يتوب على التَّائبين. فتوبةٌ صادقة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وتوبةٌ نصوحٌ من كلِّ ذنب؛ خير من أن يلقى العبدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بذنوبه الجِسام، وَمعاصيه الكُثار. فقد جاءت شريعة الإسلام ببابٍ عظيمٍ مبارك ألا وهو باب التَّوبة، وأخبرنا نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ: «**التَّائِبِ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»(٢)، وأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ «**النَّدَم تَوْبَةٌ**»(٣)، وأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٤٤٥٩).
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١)، ولا يزال باب التَّوبة مفتوحًا ما لم يغرغر العبد، كما قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(٢)، وقال: «وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ؛ فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ»(٣).

والنَّوع الثَّاني مِنَ المحاسبة: محاسبة قبل العمل، وهو النَّظر في الأعمال الَّتي سيقوم بها؛ لا يخطو خطوة ولا يسير طريقًا إلَّا مُتَفقِّهًا في طريقه، كما قال بعض السَّلف: «من فِقْه الرَّجُل مأكله ومشربه وممشاه»(٤). أن يتفقَّه فيما يخطو إليه، وفيما يُقدم عليه من عمل، هل هو مشروع مأذونٌ به أم هو حرام؟ كلُّ ذلك يزنه بميزان الشَّرع، فيحاسب نفسه على العمل قبل أن يفعله؛ لتكون أعماله موزونة بميزان شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليكون فيها موافقًا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه سالكًا هديه.

وأسأل الله الكريم، ربَّ العرش العظيم، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا؛ أن يُصلح لنا شأننا كلَّه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللَّهمَّ آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) رواه أحمد (١٦٧١)، والبزَّار في مسنده (١٠٥٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ في الإرواء تحت حديث (١٢٠٨).
(٤) رواه أبي شيبه في المصنف (٢٥٥٩١)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (٩٨٨).

٣٦
الصدق مع الله

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**». رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ، قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ!**» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «**يَا مُعَاذُ!**» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ -ثَلَاثًا- قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «**إِذًا يَتَّكِلُوا**». وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا. رواه البخاريُّ(٢).

إنَّ من مقامات الدِّين العظيمة ومنازل السَّالكين العالية الرَّفيعة، الصِّدقَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧).
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٨).

مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الأقوال والأعمال والأحوال؛ امتثالًا لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التَّوبة: ١١٩]، وهو من أجلِّ ما تستصلحُ به القلوب، وقد جاء في القرآن الكريم آيٌ كثيرة في الحثِّ على الصِّدق مع الله جَلَّ وَعَلَا والتَّرغيب فيه وبيان ما أعدَّه الله جَلَّ وَعَلَا للصَّادقين من النُّزُل الكريم والثَّواب العظيم والأجر الجزيل في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وهو منجاةٌ للعبد من فتن الدُّنيا وما يلقاه فيها من شدائد ومصائب؛ فصاحب الصِّدق مع الله لا تضرُّه الفتن، ومنجاة له يوم يقف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، فدخول الجنَّات ونيل رضاه جَلَّ وَعَلَا إنَّما هو بالصِّدق معه عَزَّ وَجَلَّ، وفي هذا المعنى يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمَّد: ٢١]، فارتبطت الخيريَّة والسَّعادة والفوز بالصِّدق مع الله عَزَّ وَجَلَّ، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلُّها تؤكِّد أهمِّيَّة الصِّدق وضرورة العناية به وأنَّه لا نجاة للعبد ولا فوز له في الدُّنيا والآخرة إلَّا به.

والصِّدق حلية للمؤمن وزينةٌ له وجمال، فهو يتقلَّب في الصِّدق في كلِّ أقواله وجميع أعماله وجميع أحواله؛ وهو بصدقه يتقلَّب من خير إلى خير ومن رفعةٍ إلى رفعة إلى أن يلقى الله جَلَّ وَعَلَا على خير حال وفي أكمل مآل، ولهذا حريٌّ بالمؤمن أن يكون متحريًّا للصِّدق مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وذلك بتحقيق الإيمان وتتميم الإسلام، وأن يكون متحريًّا للصِّدق مع عباد الله؛ فلا يكون كاذبًا خائنًا غاشًّا مخادعًا ونحو ذلك من الصِّفات الذَّميمة.

والصِّدق مع الله لا بُدَّ فيه من مجاهدة للنَّفس على القيام به، تحريًّا وترويضًا للنَّفس وتليينًا لها لتتطبَّع بالصِّدق وتتحلَّى به، كما تقدَّم في الحديث: «**وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**».

والصِّدق خلَّةٌ كريمة وصفةٌ عظيمة وفريضةٌ واجبة، يجب أن تصاحب المسلم في كلِّ أوقاته وجميع أحايينه، وفي كلِّ طاعاته، وفي جميع معاملاته؛ فهو فرض دائم يصحب المسلم في كلِّ قول وفعل وحال. قال بعض السَّلف: «مَن لم يؤدِّ الفرض الدَّائم لم يقبل الله منه الفرض المؤقَّت، قيل: وما الفرض الدَّائم؟ قال: الصِّدق مع الله»[(١)].

وهو ليس مجرَّد دعوى يدَّعيها المرء لنفسه، وإنَّما هو حقيقةٌ تقوم بقلب المؤمن تظهر على أعماله وأقواله. كما قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس الإيمان بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكنَّ الإيمان: ما وقر في القلب، وصدَّقته الأعمال»[(٢)]. فحقيقته استواء الظَّاهر والباطن على الاستقامة على الصِّراط المستقيم.

---

(١) انظر: فتح القريب المجيب للمنذريِّ (١/ ٢٢٣).

(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٥٤٥)، وأحمد في الزُّهد (٢٦٣).

فهو أمرٌ قائم في قلب عبد الله المؤمن؛ صلاحًا بالإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا وبكلِّ ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بالإيمان به؛ وصلاحًا في الظَّاهر بالأعمال الصَّالحة والطَّاعات الزَّاكية وأنواع القربات الَّتي يتقرَّب بها الصَّادقون إلى الله. ولنتأمَّل هذا المعنى في آية البرِّ من سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]؛ فقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾: أي: الَّذين اتَّصفوا بهذه الصِّفات وتحلَّوا بهذه النُّعوت، وهي في جملتها ترجع إلى أمرين: صلاحٍ في الباطن بالإيمان، وصلاحٍ في الظَّاهر بالأعمال الصَّالحات والطَّاعات الزَّاكيات المُقَرِّبة إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

وكما أنَّ القلب يوصف بالصِّدق؛ فإنَّ اللِّسان والجوارح كذلك، فليس الصِّدق مع الله جَلَّ وَعَلَا أمرًا يكون في القلب وحده بل الصِّدق مع الله يكون في القلب عقيدةً وإيمانًا وباللِّسان نطقًا وتلفُّظًا وبالجوارح عملًا وانقيادًا، والأعمال تصدِّق القلب وتصديقها لما في القلب يتبعُ ما وقر في القلب، فإن كان الَّذي وقر في القلب إيمانٌ وصلاح صدَّقته الجوارح بالإيمان والصَّلاح، وإن كان الَّذي وقر في القلب ضياعٌ وفساد صدَّقته الجوارح في الضَّياع والفساد، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنْ الزِّنَا؛ فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ،**

وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلَانِ يَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ، وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[(١)]؛ فسمَّى عمل الجوارح تصديقًا، فالجوارح تصدِّق ما استقرَّ في القلب من صلاحٍ أو فساد؛ وهذا المعنى واضح في قول نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الصَّحيح: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(٢)]. فالجوارح لا يمكن أن تتخلَّف عن مرادات القلوب، فحال الجوارح مع القلوب حال التبعيَّة والطَّواعية والانقياد التَّامِّ.

وهكذا اللِّسان فإنَّه يوصف بالصِّدق، واللِّسان الصَّادق هو الَّذي استوى ما يتلفَّظ به مع القلب صلاحًا واستقامة؛ ففي الحديث عن شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ؛ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[(٣)]. وهذا الدُّعاء من الدَّعوات العظيمة الجامعة للخير كلِّه، الجامعة لصلاح العبد في سرِّه وعلانيته وفي أحواله كلِّها، وقد أرشده النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى اكتناز هذا الدُّعاء عندما يُشغَل النَّاس باكتناز الدَّراهم والدَّنانير؛ لأنَّ هذا الدُّعاء إذا قاله

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) وأحمد (٦٢٥٨) وللفظ له.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٠٧)، والنَّسائيُّ (١٣٠٤).

العبد بصدقٍ مع الله جَلَّ وَعَلَا في الطَّلب والتَّوجُّه إلى الله، صلحت حاله بإذن الله واستقام على أمر الله، وزكت نفسه، وسلِم قلبه، وكان لسانه لسان صدق، وكان من أهل الصِّدق في مخرجه ومدخله، وسلِم أيضًا من الأمور الَّتي كانت منه من تقصيرٍ أو ذنوبٍ أو إخلال؛ لأنَّ فيه استغفارًا جامعًا لما يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وينساه العبد، وما أكثر الذُّنوب الَّتي فعلها العبد ونسيها، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مُدخَل الصِّدق ومخرجه، و ذكر جَلَّ وَعَلَا لسان الصِّدق، و ذكر جَلَّ وَعَلَا مقعد الصِّدق، ومَقام الصِّدق، وقدَم الصِّدق؛ فذكر سبحانه دعاء نبيِّنا الكريم ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠]، وذكر دعاء خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشُّعراء:٨٤]، وذكر جَلَّ وَعَلَا بشارته لعباده للمؤمنين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]، وذكر جَلَّ وَعَلَا مقعد الصِّدق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٤-٥٥]. ففي هذه المواضع الخمسة جاء ذكر للصِّدق بهذه الأوصاف: مدخلُ الصِّدق، ومُخرَجُه، ولسان الصِّدق، ومقعد الصِّدق، وقدَم الصِّدق؛ وفيها بيانٌ لحقيقة الصِّدق في قلب المؤمن وما يؤول إليه حال الصَّادقين، من عظيم الثَّواب وجميل المآب.

أمَّا مدخل الصِّدق ومخرجه: فأن يكون العبد في دخوله وخروجه وذهابه

ورواحه صادقًا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يخرج ويدخل مستعينًا بالله طالبًا رضا الله متَّبعًا شرع الله جَلَّ وَعَلَا.

وأمَّا قدم الصِّدق: فهو ما قدَّمه الصَّادقون في حياتهم الدُّنيا من صدقٍ مع الله جَلَّ وَعَلَا وعمل بطاعته ورضاه.

وأمَّا لسان الصِّدق: فهو أثر مبارك ونتيجة عظيمة، ينالها الصَّادقون في الدُّنيا بأن ينشر الله جَلَّ وَعَلَا لهم ذكرًا حسنًا في العالمين.

وأمَّا مقعد الصِّدق: فأكرِم به من مقعد، فهو دخول جنَّات النَّعيم، والظَّفر فيها برفيع المنازل وعليِّ الدَّرجات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

وهذه الخمسة المضافة في القرآن إلى الصِّدق آخذ بعضها ببعض، فهي كعِقدٍ ثمين كلُّ خرزة منه توصِل إلى الأخرى وتفضي إليها بدءًا من مُدخل الصِّدق ومُخرجه؛ وذلك بأن يكون العبد في تحرُّكاته وتنقُّلاته ودخوله وخروجه وذهابه وإيابه، بالله ولله ووَفْق أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان حال العبد كذلك؛ فإنَّه يكون بذلك قد قدَّم لنفسه أمرًا تكون به نجاته ورفعة درجاته يوم يلقى الله وهو قدَم الصِّدق، ومن أحسن ما قيل في معنى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٢]. أي: أعمالًا صالحة وفَّقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتقديمها في هذه الحياة: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، ثمَّ هذا يثمر في الدُّنيا لسان صدق في النَّاس ذكرًا حسنًا وثناءً عاطرًا وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم، فكم من أناس توفَّاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قرون طوال لا ينقطع النَّاس مع كرِّ الأيَّام ومرِّ اللَّيالي

عن ذكرهم والثَّناء عليهم والإفادة منهم وذِكرهم بالجميل، وهذا من عاجل البشرى في هذه الحياة الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فلهؤلاء مقعدُ الصِّدق عند مليكٍ مقتدر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ ﴾ [القمر:٥٥]، في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه؛ فارتبطت هذه الخمس الَّتي أضيفت إلى الصِّدق ببعضها، وكلٌّ منها يفضي إلى الآخر ويؤدِّي إليه.

والصِّدق طمأنينة والكذب ريبة؛ فالصَّادق في حياته الدُّنيا لا يزال مرتاح النَّفس طيِّب البال منشرح الخاطر، متنقِّلًا من خيرٍ إلى خير، والكاذب لا تزال نفسه منقبضة وأموره متعسِّرة وحياته نكِدة، متنقِّل من شرٍّ إلى شرٍّ.

والصِّدق يُعقِب العواقب الحميدة في الدُّنيا والآخرة، والكذب يجلب لصاحبه الرَّدى في الدُّنيا والآخرة.

والصَّادق له عند الله المنزل العليُّ وعند النَّاس الذِّكر الحسن، والكاذب ليس له في الآخرة إلَّا الخسران وليس له بين النَّاس إلَّا الذِّكر السِّيِّئ.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «أصل أعمال القلوب كلِّها الصِّدق، وأضدادها من: الرِّياء، والعجب، والكِبْر، والفخر، والخيلاء، والبطر، والأشر، والعجز، والكسل، والجبن، والمهانة، وغيرها؛ أصلها الكذب. فكلُّ عمل ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب. والله تعالى يعاقب الكذَّاب بأن يُقْعِده ويُثَبِّطه عن مصالحه ومنافعه، ويُثِيب الصَّادق بأن يوفِّقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته؛ فما استجلبت مصالح الدُّنيا والآخرة بمثل الصِّدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

[التَّوبة:١١٩]، وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [التَّوبة:١١٩]، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١]»(١).

ونسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ أن يجعلنا أجمعين مع الصَّادقين.

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص١٩٨).

٣٧
الحياء من الله

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ. قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»[(١)]. رواه التِّرمذيُّ.

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ. قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا. فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؛ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**». متَّفق عليه[(٢)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَوْصِنِي،

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ».

رواه الإمامُ أحمد في الزُّهدِ والبيهقيُّ في شُعَبِ الإيمانِ(١).

وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ»، قُلْتُ: وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا، قَالَ: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ وابن ماجه(٢).

لقد تكاثرت الدَّلائل والنُّصوص وتضافرت في الحثِّ على الحياء والتَّرغيب فيه، وبيانِ مكانته العليَّة ومنزلته الرَّفيعة، وبيان ما يترتَّب عليه من الآثار العظيمة والثِّمار الكريمة، على العبد في الدُّنيا والآخرة، وأعظم الحياء شأنًا وأعلاه مكانةً وأولاه بالعناية والاهتمام الحياء من الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، خالق الخليقة ومُوجِدِ البريَّة، المُطَّلِع على السِّرِّ والعلانية والغيب والشَّهادة الَّذي لا تخفى عليه من العباد خافية، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

و(الحَيِيُّ) اسمٌ مِنْ أَسْمَاء الله الحسنى، **وقد ورد هذا الاسم في حديثين:**

الأوَّل: حديث يعلى بن أميَّة أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ،

---

(١) رواه أحمد في الزُّهد (٢٤٨)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (٧٧٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٧٤١).

(٢) رواه أبو داود (٤٠١٩)، والتِّرمذيُّ (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَيِيٌّ سَتِيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ». رواه أبو داود والنَّسائيُّ(١).

الثَّاني: حديث سلمان الفارسيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا». رواه أبو داود وابن ماجه(٢).

والحياءُ صِفَةٌ مِن صِفاتِهِ جَلَّوَعَلَا، تليق بجلاله وكماله، وهو سبحانه في صفاته كلِّها لا يماثل أحدًا من خلقه، ولا يماثله أحدٌ من خلقه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، فحياؤه سبحانه وصف يليق به، ليس كحياء المخلوقين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد وصف نفسه بالحياء، ووصفه رسوله ﷺ، فهو الحييُّ الكريم، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»(٣)، وقالت أمُّ سليم: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ»(٤)، وأقرَّها على ذلك، وقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ»(٥)»(٦).

---

(١) رواه أبو داود (٤٠١٢)، والنَّسائيُّ (٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه البخاريُّ (١٣٠)، ومسلم (٣١٣).

(٥) رواه ابن ماجه (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٦) انظر: الصَّواعق المرسلة، لابن القيِّم (٢/ ١٠٧٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا حياء الرَّبِّ تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام، ولا تُكَيِّفه العقول؛ فإنَّه حياءُ كرمٍ وبِرٍّ وَجُودٍ وجَلَالٍ، فإنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى حييٌّ كريمٌ، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يَرُدَّهما صفرًا»[(١)].

ومَنِ استحْيَا مِنَ اللَّهِ استحْيَا اللَّهُ منه، واللَّهُ جَلَّ وَعَلَا حَيِيٌّ يُحِبُّ الحياءَ، والواجبُ على عبدِ اللَّهِ المُؤمنِ أَنْ يستحيِيَ مِن ربِّهِ جَلَّ وَعَلَا على قَدْرِ قُرْبِهِ منه وعِلْمِهِ به واطِّلَاعِهِ عليهِ سُبحانهُ، مُعَظِّمًا لِجَنابِ الرَّبِّ سُبحانهُ، مُقَدِّمًا مَحابَّهُ على كُلِّ المحَابِّ.

وأعظمُ الحياءِ وأوجبُهُ وأجلُّهُ قدرًا وأفضلُهُ الحياءُ مِن رَبِّ العَالمِينَ وخالِقِ الخلقِ أجمعِينَ، الحياءُ مِمَّن أوجدكَ ومَنَّ عليك بصُنُوفِ النِّعَمِ وألوانِ المِنَنِ.

وَالَّذِي يُحَرِّكُ فِي الْقَلْبِ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ أمور ثلاثة:

الأوَّل: رؤية نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليك ومنَّته وفضله، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يتولَّد الحياء من الله من مطالعة النِّعم، فيستحيي العبد من الله أن يستعين بنعمته على معاصيه، فهذا كلُّه من أعلى خصال الإيمان»[(٢)].

والثَّانية: رؤية تقصيرك في حقِّه، وقيامك بما يجب له عليك سبحانه، من

(١) مدارج السَّالكين، لابن القيِّم (٢/ ٢٥٠).
(٢) فتح الباري، لابن رجب الحنبليِّ (١/ ١٠٤).

امتثال المأمور وترك المحظور، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والثَّالث: رؤية اطِّلاعه عليك في كُلِّ حال، وفي أيِّ وقت من الأوقات وأينما تكون، فهو لا تخفى عليه منك خافية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

قال بعض السَّلف: «خَفِ اللهَ على قَدْر قُدْرَته عليك، واستحيي منه على قَدْر قُرْبه منك»(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كلَّه، من المُحَرَّمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات الَّتي لا يحتاج إليها، فإنَّ هذا كلَّه لا يعني المسلم إذا كمُل إسلامُه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّ الله يراه، فمَن عبَدَ الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه، أو على استحضار قرب الله منه واطِّلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كلَّ ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنَّه يتولَّد من هذين المقامين الاستحياء من الله، وترك كلِّ ما يُستحيى منه»(٢).

فهذِهِ الثَّلاثة مُحَرِّكَاتٌ لِلقُلُوبِ، متى ما كان القلْبُ مُعظِّمًا لِربِّهِ عَزَّوَجَلَّ، مُحِبًّا له سُبحانه، عالمًا باطِّلَاعِهِ ورُؤيَتِهِ، وأنَّهُ لا تخفى عليه خافِيَةٌ؛ تحرَّك القَلْبُ حياءً مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

(١) فتح الباري، لابن رجب الحنبليِّ (١/ ١٠٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبليِّ (١/ ٢٨٩).

ثمَّ عن هذا الحياء ينشأ كُلُّ خير وكلُّ فضيلة، فإذا وُجِدَ في القلب الحياء من الله جَلَّ وَعَلَا انكفَّت النَّفس عن الأخلاق الرَّذيلة والمعاملات السَّيِّئة والأفعال المُحَرَّمة، وأقبلت على فعل الواجبات والعناية بمكارم الأخلاق وعظيم الآداب وجميلها.

وتقدَّم قول النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ؛ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(١).

فهذه أُمورٌ أربعةٌ فيها جِمَاعُ الخيرِ:

الأوَّلُ والثَّاني: حِفظٌ للرَّأسِ، وحِفظٌ للبطنِ؛ وهما أثرُ الحياءِ حقًّا ونتيجتُهُ وثمرتُهُ. فمَن كان قلْبُه عامرًا بالحياءِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بعثَه حياؤُهُ وساقَهُ إلى حِفظِ رأسِهِ، وحِفظُ الرَّأسِ يشملُ حِفظَ البصرِ مِنَ النَّظرِ إلى الحرامِ، وحِفظَ السَّمع مِن سماعِ الحرامِ، وحِفظَ اللِّسانِ مِنَ الكلامِ الحرامِ، وحِفظَ الوجهِ عُمُومًا مِن مُقارفةِ خطيئةٍ أوِ ارتكابِ معصيةٍ. وحِفظُ البَطنِ يتناولُ عدمَ إدخالِ مُحرَّمٍ في الجوفِ، ويتناولُ كذلك حِفظَ القَلْبِ بالأَخلاقِ الفَاضِلةِ وتَجْنِيبِه رديئَهَا وسيِّئَهَا، ويتناولُ كذلك حِفظَ الفرجِ مِن غِشْيانِ الحرامِ.

والأمرانِ الآخرانِ في الحديثِ وهما قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَأَنْ تَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**»، فيهما ذِكرٌ لأَمرينِ عظيمينِ إذا استقرَّا في القَلْبِ، تحرَّكَتِ الفضائلُ فيه؛ فمَن تذكَّرَ أنَّهُ سيمُوتُ ويبْلى،

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وأنَّهُ سيقِفُ بين يدَيِ اللَّـهِ جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ سيُحاسبه يومَ القِيامةِ على ما قدَّم في هذه الحياةِ؛ استحيَا مِنَ اللَّـهِ جَلَّ وَعَلَا مِن أَنْ يلْقاهُ يومَ القِيامةِ بأعمالٍ سيِّئةٍ وخِصالٍ مُشينةٍ، وأقبلَ على اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ إقْبالًا صادقًا بإنابةٍ وحُسنِ عِبادةٍ وتمامِ إقْبالٍ.

فمِن تحقيق الحياء من الله عَزَّ وَجَلَّ: ألَّا ينشغل العبد بفتن الدُّنيا ومغرياتها وملهياتها، بل يتذكَّر أنَّه سيلقى الله وأنَّه سيغادر هذه الحياة، وأنَّه سيُدرَجُ يومًا من الأيَّام في قبره وحيدًا ليس معه إلَّا عمله الصَّالح، «**وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى**»؛ فإذا تذكَّر أنَّه سيموت وأنَّه سيبلَى وأنَّه سيقف أمام الله، وأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا سيسأله عمَّا قدَّم في هذه الحياة؛ فكُلُّ هذه الأمور روافد عظيمة ودوافع كريمة لتحقيق الحياء من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ويعينه كذلك على تحقيق الحياء من الله أن يكون دائمًا نصبَ عينيه الدَّارُ الآخرة، وما أعدَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها من نعيم أو عذاب، قال ﷺ: «**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا**»؛ فيكون مريدًا بأعماله وجه الله جَلَّ وَعَلَا والدَّار الآخرة، فيقبل على الأعمال الصَّالحة والطَّاعات الزَّاكية والأخلاق الفاضلة، مستمرًّا عليها في هذه الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وعندما يُنْزَع الحياء من العبد فلا تسأل عن هلكته واجتماع أنواع الشُّرور فيه، فقد جاء عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الإخبارُ بأنَّ من الأمور الَّتِي كانت متوارثةً عن الأنبياء: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت، ففي الصَّحيح عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

أنَّه قال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[1]. وهذا الحديث يدلُّ دلالةً واضحة على أنَّ مَن نُزِع منه الحياء، فإنَّه لا يُبَالي أيَّ الشُّرور فعل، وفي أيِّ الآثام والمعاصي وقع؛ وذلك لانتزاع الحياء من قلبه وذهابه من نفسه، فهو لا يستحيي من الله جَلَّ وَعَلَا فلا يبالي بالذُّنوب ولا يبالي في غِشْيَان المعاصي والآثام، فتتنقَّل به نفْسُه الرَّديَّة وقلبه الممرَض الَّذِي لا يستحيي من الله في أودية الهلكة، واديًا تلو الآخر حتَّى يلقى الله جَلَّ وَعَلَا، ويقف بين يديه وقد أهلكته الذُّنوب وأوبقته الخطايا.

إنَّ الواجب علينا أن نتدارك أنفسنا ما دُمنا في دار العمل بالحياء ممَّن خلقنا وأوجدنا وتفضَّل علينا بصنوف النِّعم وأنواع المِنَن، فالتَّقصير في حقِّه كثير مع علمنا بأنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى يرانا ويَطَّلع علينا ولا تخفى عليه مِنَّا خافية، والحياء منه ليس مُجَرَّد كلمة يقولها المرء بلسانه، بل هو حقيقةٌ تقوم في قلب العبد تبعث فيه فعل الخيرات واجتناب المنكرات، ومراقبة ربِّ الأرض والسَّماوات في كُلِّ الأحايين وجميع الأوقات.

أصلح الله قلوبنا وزكَّا سرائرنا وعَمَرها بالحياء منه.

(١) رواه البخاريُّ (٦١٢٠).

٣٨
محبَّة النَّبيِّ ﷺ

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ: وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». متَّفق عليه[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ: وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ**». رواه البخاريُّ[٢].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**». رواه البخاريُّ[٣].

إنَّ محبَّة النَّبيِّ ﷺ من أعظم الطَّاعات، وأجلِّ القربات، من أعمال القلوب الَّتي فرضها، فهو سيِّد ولد آدم وإمام الورى وقدوة عباد الله والدَّاعي

(١) رواه البخاريُّ (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) رواه البخاريُّ (١٤).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٦٣٢).

إلى صراطه المستقيم، المبعوث رحمة للعالمين، ومحجَّة للسَّالكين، وحجَّة على الخلائق أجمعين، افترض على العباد محبَّته وأوجبها عليهم، فمحبَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من محبَّة الله، وطاعته ﷺ من طاعة الله، ولقد تكاثرت الدَّلائل في الكتاب والسُّنَّة على فرضيَّة محبَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ووجوبها وبيان ما يترتَّب عليها من الآثار المباركة والعوائد الحميدة في الدُّنيا والآخرة، وثمَّة سمات وعلامات تدلُّ على صدقها، كلَّما عظم نصيب العبد وحظُّه منها، عظم نصيبه وحظُّه من المحبَّة، **ولعلَّ جماع هذه السِّمات ما يلي:**

الأولى: اتِّباع سُنَّته ﷺ والتَّمسُّك بهديه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «هذه الآية الكريمة حاكمة على مَن ادَّعى محبَّة الله، وليس هو على الطَّريقة المحمَّديَّة؛ فإنَّه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ والدِّين النَّبويَّ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١). ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبَّتكم إيَّاه، وهو محبَّته إيَّاكم، وهو أعظم من الأوَّل»(٢).

وشواهد ضرورة الاتِّباع وأهمِّيَّة الاتِّساء على صدق المحبَّة كثيرة...

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٢).

فعن عبد الرَّحمن بن الحارث عن أبي قراد السُّلميِّ، قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فدعا بطهور غمس يده فيه ثمَّ توضَّأ، فتتبَّعناه فحسوناه، فقال ﷺ: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ؟**» قُلْنَا: حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ. قال: «**فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ يُحِبَّكُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُمْ، وَاصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَحْسِنُوا جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكُمْ**». رواه الطَّبرانيُّ(١).

الثَّانية: الإكثار من ذكره ومحبَّة رؤيته. قال ابن القيِّم رحمه الله: «العبد كلَّما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبِّه، تضاعف حبُّه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه. وإذا أعرض عن ذكره وإخطاره وإخطار محاسنه بقلبه نقص حبُّه من قلبه، ولا شيء أقرَّ لعين المحِبِّ من رؤية محبوبه، ولا أقرَّ لقلبه من ذكره وإخطار محاسنه، إذا قوي هذا في قلبه جرى لسانُه بمدحه والثَّناء عليه وذكر محاسنه، وتكون زيادةُ ذلك ونقصانُه بحسب زيادة الحبِّ ونقصانه في قلبه»(٢). ومن شواهد ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»(٣). وذكرُه عليه الصلاة والسلام يكون بذكر مناقبه وشمائله الكريمة، وبيان سننه وآثاره العظيمة، وبالإكثار من الصَّلاة والسَّلام عليه. ومحبَّةُ رؤيته ﷺ ثمرتُها عزم صادق وجدٌّ

(١) رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٦٥١٧)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره»، كما في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٩٢٨).
(٢) جلاء الأفهام لابن القيِّم (ص٥٢٥).
(٣) رواه مسلم (٢٨٣٢).

واجتهاد وتأسٍّ واقتداء بهديه القويم، يكسب العبد رؤيته ومرافقته في الجنان.

الثَّالثة: تعلُّم القرآن الكريم والعملُ به والتَّأدُّبُ بآدابه. روى البيهقيُّ في كتابه الآداب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «لا يَسأل أحد عن نفسه إلَّا القرآن، فإن كان يحبُّ القرآن فهو يحبُّ الله ورسوله»(١). وحبُّ القرآن وتلاوته وتدبُّره هو أعظم أبواب الهداية، فإنَّ الله تبارك وتعالى قد أنزل كتابه المبين على عباده هدى ورحمة وضياءً ونورًا وبشرى وذكرى للذَّاكرين، وجعله مباركًا وهدى للعالمين، يهدي للَّتِي هي أقوم، وصرَّف فيه من الآيات والوعيد لعلَّهم يتَّقون أو يحدث لهم ذكرى، وجعل فيه شفاءً من الأسقام ولا سيَّما أسقام القلوب وأمراضها من شبهات وشهوات. وحريٌّ بكلِّ مسلم أراد لنفسه بلوغ أعلى درجات المحبِّين الصَّادقين أن يَعْظُم حظُّه من القرآن الكريم بأن يتلوه حقَّ تلاوته بتدبُّر آياته والتَّفكُّر والتَّعقُّل لمعانيه، وبالعمل بما يقتضيه، وكما يقول العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله: «فلا شيءَ أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السَّائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الَّذِي يورث المحبَّة والشَّوق والخوف والرَّجاء والإنابة والتَّوكُّل والرِّضا والتَّفويض والشُّكر والصَّبر، وسائر الأحوال الَّتِي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة الَّتِي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتَّى مرَّ بآية وهو محتاجٌ إليها

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (١٠٩٧)، والفريابي في فضائل القرآن (٦) واللفظ له، والبيهقي في الآداب (٨٥٦).

في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائة مرَّة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»(١).

الرَّابعة: محبَّةُ مَنْ أحبَّ وبُغض مَنْ أبغض. وهذا أوثق عرى الإيمان كما صحَّ عنه الحديث بذلك عليه الصلاة والسلام، وذلك بمحبَّة ما أحبَّ من الأعمال والخصال والآداب ومحبَّة مَنْ أحبَّ من الأشخاص، وبغض ما أبغض من الأعمال والخصال والآداب، وبغض مَنْ أبغض من الأشخاص، ولا يكون صادقًا في حبِّه مَنْ يحبُّ ما يبغض ويبغض ما يحبُّ، وشواهد هذا ودلائله كثيرة: قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَنِي**»(٢). رواه الحاكم عن سلمان. وقال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي**»(٣). يعني: الحسن والحسين رضي الله عنهما. رواه أحمد عن أبي هريرة. وقال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ**»(٤). رواه مسلم عن فاطمة بنت قيس. وقال ﷺ: «**آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ**»(٥). رواه البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك. فحبُّ الصَّحابة وآل بيت النَّبِيِّ ﷺ ومَن اتَّبعهم بإحسان من أهل العلم والفضل وأهل العبادة والزُّهد وأهل البذل والجود وأهل المعروف والإحسان، كلُّ ذلك من حبِّ مَن أحبَّ، وكذلك

(١) مفتاح دار السَّعادة لابن القيِّم (١/ ٥٢٥).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤٦٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٥٩٦٣).
(٣) رواه أحمد (٧٨٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٨٩٥).
(٤) رواه مسلم (٢٩٤٢).
(٥) رواه البخاريُّ (١٧)، ومسلم (٧٤).

حبُّ الأعمال الفاضلة والآداب الكاملة والمعاملة الحسنة، كلُّ ذلك من حبِّ ما أحبَّ، ومن عظيم الدَّعوات المأثورة عنه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ**»(١).

الخامسة: الحذر من الغُلُوِّ فيه ورفعه فوق منزلته الَّتي أنزله الله إيَّاها. ومَن خفي عليه هذا الأصل زلَّت قدمُه بالغُلُوِّ في شخصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بدعوى إظهار محبَّته، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من ذلك أشدَّ التَّحذير في أحاديث كثيرة. فعن يحيى بن سعيد قال: كنَّا عند عليِّ بن الحسين فجاء قوم من الكوفيِّين، فقال عليٌّ: يا أهل العراق أحبُّونا حبَّ الإسلام، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَرْفَعُونِي فَوْقَ قَدْرِي، فَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي نَبِيًّا**»(٢). وليتأمَّل قوله: «**أَحِبُّونَا حُبَّ الإِسْلَامِ**»؛ إذ هو الحبُّ النَّافع المقبول، وأمَّا حبُّ الغلاة فليس هو حبُّ الإسلام الَّذي أمرنا به في القرآن والسُّنَّة. وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيِّدنا وابن سيِّدنا، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ». رواه النَّسائيُّ بسند جيِّد(٣). وعن عمر أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٩٠)، وضعفه الألباني.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤٨٢٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٥٥٠).

(٣) رواه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠٠٠٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في التَّعليقات الحسان (٦٢٠٧).

قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». رواه البخاريُّ[(١)].

السَّادسة: الحذر من البدع والبعد عن الأهواء. والأحاديث عنه ﷺ في التَّحذير من البدع كثيرة معروفة، ولرُبَّما ظنَّ بعضُ النَّاس أنَّ الطَّريقة المثلى لإظهار محبَّته ركوب البدع واتِّباع الأهواء وإحالة الدِّين إلى طقوس ورسوم وأعمال لا أثارة عليها من علم ولا شاهد عليه من الكتاب والسُّنَّة، يمارسونها زعمًا منهم أنَّ هذا علمُ المحبَّة وشاهدُ المودَّة ودليل الوفاء، وفي خضم غربة الدِّين وقلَّة المعرفة والدِّراية بهدي سيِّد الأنبياء والمرسلين، نشأ في أوساط بعض المسلمين أمور غريبة ومحدثات عجيبة، أراد بعضهم التَّعبير من خلالها عن محبَّته للنَّبيِّ ﷺ، وهؤلاء وإن كان قصدهم بذلك إظهار محبَّة النَّبيِّ ﷺ وهو قصد حسن، إلَّا أنَّ إظهار محبَّته عليه الصلاة والسلام لا تصحُّ إلَّا باتِّباعه ولزوم نهجه وترسُّم خطاه، ولهذا لم ينقل عن أحد من الصَّحابة ولا التَّابعين ولا الأئمَّة المعتبرين شيء من هذه الأمور المحدثة، بل الَّذي نقل عنهم ذمَّ الإحداث وبيان خطورته. قال أبو بكر رضي الله عنه: «إنَّما أنا متَّبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوِّموني». رواه ابن سعد في الطَّبقات[(٢)]. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم». رواه الدَّارميُّ[(٣)]. وقال رضي الله عنه: «الاقتصاد في السُّنَّة خير من الاجتهاد

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٤٥).
(٢) رواه ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (٣/ ١٦٧).
(٣) رواه الدَّارميُّ في مسنده (٢١١).

في البدعة». رواه المروزيُّ في السُّنَّة[١]. وعن عثمان الأزديِّ قال: «دخلت على ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقلت له: أوصني، فقال: عليك بتقوى الله والاستقامة، اتَّبع ولا تبتدع». رواه الدَّارميُّ[٢]. وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَن كان مستنًّا فليستنَّ بمَن قد مات، أولئك أصحاب محمَّد ﷺ، كانوا خير هذه الأُمَّة، أبرَّها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلَّها تكلُّفًا، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ ونقل دينه؛ فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمَّد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم، واللهِ وربِّ الكعبة». رواه أبو نعيم في الحلية[٣].

والنُّقول عنهم في هذا المعنى كثيرة. ومَن عرف حقَّ النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وواجب الأمَّة نحوه لم يلتفت إلى شيء من هذه المحدثات، بل يلزم نهجه ويقتفي أثره، وقد أدرك تمام الإدراك الرَّعيلُ الأوَّل من هذه الأمَّة، الصَّحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وأرضاهم حقَّ هذا النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والواجب نحوه، فمَن أراد أن يقف على حقيقة هذه المحبَّة في أبهى صورها وأجمل حُللها، فلينظر إلى تاريخ الصَّحابة المجيد وسيرتهم الفذَّة؛ فقد حقَّقوا أروع الصُّور وضربوا أحسن الأمثال في تحقيق هذه المحبَّة وتكميلها، ففدوه ﷺ بالآباء والأمَّهات، وعظَّموه في السُّلوك والتَّصرُّفات، وتأدَّبوا معه في الكلام والمحادثات، ولم يتقدَّموا بين يديه في شيء من الأقوال والمعاملات، وعزَّروه ووقَّروه ونصروه في جميع الأوقات، وكان إذا تحدَّث إليهم كأنَّما

---

(١) رواه المروزيُّ في السُّنَّة (ص٣٠).
(٢) رواه الدَّارميُّ في مسنده (١٤١).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

على رؤوسهم الطَّير لما هم عليه من سكينة وإخبات، فكانوا أحقَّ النَّاس به، وأولاهم بمرافقته، وأهداهم سبيلًا في اتِّباعه ولزوم نهجه. والموفَّق مَن اتَّبع خطاهم ولزم نهجهم وسلك سبيلهم، فهم أهدى أمَّة محمَّد ﷺ سبيلًا، وأقومهم قيلًا، وأحسنهم طريقًا، ألحقنا الله أجمعين بهم، ورزقنا حسن متابعتهم وسلوك سبيلهم، وجعلنا من عباده المتَّقين.

ونسأله سبحانه أن يجعلنا من المتَّبعين له المؤمنين به، الصَّادقين في محبَّته، وأن يحيينا على سُنَّته ويتوفَّانا عليها، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه، وأن يمنَّ علينا بشفاعته، وأن يغفر لنا خطأنا وتقصيرنا، إنَّه سبحانه سميع الدُّعاء، وأهل الرَّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٣٩

محبَّة أولياء الله

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ**». رواه أحمد[١].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**». رواه أبو داود[٢].

إنَّ من أعمال القلوب الجليلة محبَّة أولياء الله والصَّالحين من عباده وتجنُّب بغضهم ومعاداتهم، فهي من عظيم القُرَب الَّتي يتقرَّب بها المسلم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي أوثق عرى الإيمان، وهي ممَّا يُستكمل به الإيمان، ومن الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»[٣].

فينبغي أن تتَّخذ محبَّتهم دينًا وقربة يُتقرَّب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِما لهم

---

(١) رواه أحمد (١٨٥٢٤)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره» في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٠٣٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٩٠)، وضعفه الألبانيُّ.

من عظيم المكانة ورفيع المنزلة، ولما حباهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به من حسن التَّقرُّب إليه جَلَّ وَعَلَا.

وإذا كانت محبَّتهم دينًا وقربة؛ فإنَّ معاداتهم إثمٌ وبابُ شرٍّ على المرء في دنياه وأخراه، روى البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

لما ذكر الله في سورة الحشر الصَّحب الكرام وأثنى عليهم الثَّناء العظيم، أتْبَعَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فوصفهم بسلامة القلب وسلامة اللِّسان؛ بأن لا يكون في القلب تجاههم غلٌّ أو حقدٌ أو حسدٌ أو ضغينةٌ، وأن لا يكون في اللِّسان تجاههم سبٌّ أو شتمٌ أو لعنٌ أو وقيعةٌ، بل الألسنة مصونة والقلوب نقيَّة لا غلَّ فيها ولا حقد ولا حسد، وهذا هو الواجب على عبد الله المؤمن تجاه عباد الله المؤمنين.

وواجب محبَّة أولياء الله يتطلَّب من المسلم أن يكون على معرفةٍ بصفات

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).

أولياء الله في ضوء كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لئلَّا يلتبس عليه الأمر فيَعُدَّ في أولياء الله مَن ليس منهم، أو يجعل مَن هم من أولياء الله ليسوا من أوليائه، وهذا يقع من المرء إذا قلَّت بصيرته بكتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

وقد قال الله جلَّ في علاه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، كأنَّه قيل: مَن هم يا الله؟ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، أي: هم أهل الإيمان والتَّقوى، فـ «مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»؛ إيمان بالله وبكُلِّ ما أمر جَلَّ وَعَلَا عباده بالإيمان به، وعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وبُعد عمَّا نهى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الحديث القُدُسيِّ المُتَقَدِّم ذكره قال الله تعالى: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»، كأنَّه قيل: مَن هم أولياؤك الَّذين مَن عاداهم آذنتَه بالحرب؟ فقال: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١).

وقد حصر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث الَّذي يُعرف عند أهل العلم بحديث الأولياء صفات الأولياء في صفتين:

١ - التَّقرُّب لله بالفرائض؛ فإنَّه ما تقرَّب مُتَقرِّب إلى الله بمثل ما افترض الله على عباده.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٢).

٢ - والثَّانية: العناية بالنَّوافل والرَّغائب والمُسْتَحَبَّات استكثارًا منها وعنايةً بها وتنافسًا في الإتيان بها؛ فإنَّ العبد كلَّما زاد حظُّه من ذلك زاد حظًّا ونصيبًا من مقام الولاية الرَّفيع ومنزلتها العليَّة.

فمَن حافظ على فرائض الإسلام وواجبات الدِّين وتجنَّب المنهيَّات المُحَرَّمات وعظائم الذُّنوب وابتعد عنها؛ فهو من أولياء الله. وقد جاء في صحيح مسلم أنَّ النُّعمان بن قَوْقَل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل النَّبيَّ ﷺ قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ»، قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا»(١).

وهذه الرُّتبة في الولاية يُسَمِّيها أهل العلم «رتبة المقتصدين»، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢].

وأعلى من هذه الرُّتبة وأرفع أن يعنى -بعد عنايته بالفرائض وبُعده عن المُحَرَّمات- بالرَّغائب والنَّوافل والمُسْتَحَبَّات؛ لتعلو درجاته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**»(٢)، فالجنَّة درجات ورُتَب ومنازل، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف:١٩]، فكلَّما

(١) رواه مسلم (١٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

ازداد العبد تقرُّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالنَّوافل والرَّغائب والمُسْتَحَبَّات علت منزلته عند الله.

وبهذا يعلم أنَّ الولاية ليست رسومًا مُفتعلة أو طقوسًا مدَّعاة أو زِيًّا ولباسًا معيَّنًا أو نحو ذلك، من المسالك الَّتِي تُفعل زعمًا ممَّن يفعلها أنَّ هذا طريق الولاية وبابها، طلبًا للمكانة عند النَّاس والتَّعظيم للنَّفس، بل هي أمر بين العبد وبين ربِّه، ولهذا أولياء الله الصَّادقون لا يقول الواحد منهم: أنا من أولياء الله، قال عبد الله بن أبي مُليكة -وهو من علماء التَّابعين-: «أدركتُ أكثر من ثلاثين صحابيًّا، كلُّهم يخاف النِّفاق على نفسه»(١)، ولهذا يقول الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافق جمع إِسَاءة وأَمْنًا»(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، روى الإمام أحمد أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سألتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن هذه الآية، قلت: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَخَافُ أَنْ يُعَذَّبَ؟**» قال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ؛ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(٣).

ولهذا مضت سُنَّة المسلمين من زمن الصَّحابة إلى يومنا هذا، عقب فريضة الصِّيام وعقب فريضة الحجِّ في عيد الفطر وعيد الأضحى، إذا لقي

---

(١) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٨)، ووصله في التَّاريخ الكبير (٦/ ١٧١).
(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٩٨٥)، والطَّبريُّ في جامع البيان (١٩/ ٤٥).
(٣) رواه أحمد (٢٥٢٦٣)، والتِّرمذيُّ (٣١٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

بعضهم بعضًا يقولون: «تقبَّل الله منَّا ومنكم»(١)، فما منهم مَن يدَّعي أنَّ أعماله مُتَقَبَّلة، ولا يُزَكِّي الإنسان نفسه مهما اجتهد في العمل، والله سبحانه يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٣٢].

ولهذا ينبغي للمسلم أن يُمَيِّز في هذا الباب بين أولياء الرَّحمن وغيرهم بمعرفة صفات أولياء الله، وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في مواطن عديدةٍ من كتابه العظيم أوصاف أوليائه المُتَّقِين؛ ذكرها في مقام التَّعلية لشأنهم، وبيان رفيع مكانتهم وعُلُوِّ منزلتهم، وعِظَم ما لهم عند الله من جميل الثَّواب وطيِّب المآب، من ذلكم في أوائل «سورة البقرة»، وفي وسطها آية البِرِّ، وفي أوائل «سورة الأنفال»، وأوائل «سورة المؤمنون»، وفي وسط «سورة المعارج»، وغيرها من آي الذِّكر الحكيم.

وفي وقوف المؤمن على صفات أولياء الله وما أعدَّ الله لهم من الثَّواب العظيم فوائد عظيمة. أهمُّها فائدتان:

الأولى: أن يجاهد المؤمن نفسه على أن يتحلَّى بتلك الصِّفات وأن يتَّصف بتلك النُّعوت؛ ليفوز بعالي المقامات ورفيع الدَّرجات وعظيم الثَّواب.

والثَّانية: أن يكون محبًّا مواليًا لمَن يُرى أنَّه متَّصفٌ بصفات الأولياء، فلا يكون معاديًا لهم ولا مبغضًا، فإنَّ مَن عادى أولياء الله فقد آذنه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالحرب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن اشتبه عليك -أي: معرفة الوليِّ- فاكشفه في

(١) صحَّ ذلك عن عدد من الصَّحابة، انظر: تمام المنَّة (٣٥٦)، وإرواء الغليل (٣/ ١٢٥).

ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبَّته للسُّنَّة وأهلها وتقرُّبه منهم، ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التَّوحيد والمتابعة وتحكيم السُّنَّة؛ فزنه بذلك، لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء»[1].

الميزان الأوَّل: الصَّلاة، هل هو من أهل المسجد المحافظين على الصَّلاة المُعَظِّمين لها المعتنين بها المواظبين عليها المُؤَدِّين لها جماعةً، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النُّور:٣٦-٣٧]، فهذا مقياس وميزان يوميٌّ، فإذا كان الشَّخص محافظًا على هذه الصَّلاة، خمس مرَّات في اليوم واللَّيلة، يُؤَدِّيها في بيوت الله مُعَظِّمًا لها؛ فهذا من أمارات الخير وعلاماته ودلائله وشواهده وبراهينه.

الثَّاني: محبَّته السُّنَّة وأهلها، فإذا كان يُحِبُّ السُّنَّة النَّبويَّة ويُعَظِّمها ويُحِبُّ أهلها المحافظين عليها؛ فهذا من علامات الخير ودلائله.

الثَّالث دعوته إلى الله ورسله وتجريد التَّوحيد والمتابعة، فالولِيُّ حقًّا لا يدعو لنفسه ليُعَظَّم، وإنَّما يدعو لدين الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، إنَّ الولاية سُلَّمٌ مبارك ومرتقى عظيم، سبيله مُيَسَّرة وطريقه مُهَيَّأة للسَّالكين، **تحتاج من العبد إلى أمرين إن وُفِّق لتحقيقهما، نال الولاية وفاز بها:**

الأوَّل: الدُّعاء والاستعانة بالله جَلَّ وَعَلَا؛ فإنَّ الأمر بيده، وهو جَلَّ وَعَلَا الهادي

---

(١) انظر: الرُّوح لابن القيِّم (٢/ ٧٣٩).

إلى صراطه المستقيم، يهدي مَن يشاء، ويُزَكِّي مَن يشاء، ويهب مَن يشاء، والفضل كلُّه بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والثَّانية: أن يجاهد نفسه على التَّحلِّي بصفاتهم والتَّشبُّه بهم والاتِّصاف بنعوتهم بمجاهدةٍ للنَّفس ومداومةٍ على العمل، عاملًا بقول الله جلَّ في علاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ثمَّ إنَّ تبصُّرَ المؤمن بهذه الحقائق الإيمانيَّة، ومعرفتَه بها يجعلُ من نفسه نفسًا مُتَحَرِّكةً توَّاقة ترجو عاليَ الرُّتب ورفيعَ الدَّرجات، والمرجوُّ من ربِّنا جلَّ شأنه الَّذي بيده أَزِمَّةُ الأمور والتَّوفيق بيده لا شريك له، أن يأخذ بنواصينا جميعًا إلى الخير، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه، وأن يجعلنا من أوليائه المُتَّقِين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن لا يَكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

٤٠
تزكية النَّفس

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». رواه مسلم(١).

في هذا الدُّعاء إشارةٌ وتنبيهٌ إلى أنَّ تزكية النُّفوس بيد الله علَّام الغيوب، وأنَّ مفتاحها الأعظم هو الدُّعاءُ والافتقارُ إلى الله تعالى، وأمرُ هذه النَّفس عظيمٌ، وشأنها كبيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشَّمس:١-١٠].

فهي «آية كبيرة من آياته الَّتي هي حقيقة بالإقسام بها؛ فإنَّها في غاية اللُّطف والخِفَّة، سريعة التَّنقُّل والحركة والتَّغيُّر والتَّأثُّر والانفعالات النَّفسيَّة، من الهمِّ، والإرادة، والقصد، والحبِّ، والبغض؛ وهي الَّتي لولاها لكان البدن مجرَّد

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة»(١).

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أصل الزَّكاة: الزِّيادة في الخير، والمُراد أنَّ مَن سعى في تزكية نفسِهِ، وإصلاحها، وسُمُوِّها بالاستكثار من الطَّاعات والخيرات، والابتعاد عن الشُّرور والسَّيِّئات تحقَّق فلاحُه.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: أصل التَّدْسِية: الإخفاء، فالعاصي قد أخفى نفسَهُ الكريمة بفِعل الآثام، وطَمَرها بالرَّذائل والخسائس، وقَمَعها وأهلكها بفعل العُيُوب، حتَّى صارت نَفْسًا دنيئةً وَضِيعة مُنحطَّة، واستحقَّت بذلك الخيبة والخُسران.

ولمَّا كانت تزكية النَّفس بهذه الأهمِّيَّة وجبَ على كلِّ مسلم ناصِحٍ لنفسِهِ أن يُعنى بها عناية فائقة، وأن يُجاهِدَ نفسَهُ في حياتِهِ على تحقيقِ هذه الغاية الحميدة؛ ليُفلِحَ في دُنياهُ وأُخراه، وينعَمَ بالسَّعادة الحقيقيَّة.

والتَّوحيدُ أصل ما تزكو به النُّفوس، وهو الغاية الَّتي مِن أجلها خلق الله الخلق وأوجدهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، وهو مِحور دعوة الأنبياء والرُّسُل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]، وهو أوَّل واجب على المُكَلَّف.

وقد توعَّد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذين لا يُزَكُّون أنفسهم بالتَّوحيد والإيمان؛

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٩٦٢).

بالعذاب الشَّديد يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [فصّلت:٦].

فمتى أخلص العبد الذُّلَّ لله والمحبَّة له خلصت أعماله وصحَّت، وزكت نفسه وطابت، ومتى أدخلَ عليها ما يشُوبُها مِن شوائِبِ الشِّرك دَخَلَ على نفسِهِ مِنَ الدَّنس والتَّدسِية بحسب ذلك.

فلا زكاةَ للنَّفسِ إلَّا بتحقيق التَّوحيدِ، وإفراد الله بالعبادة، وإخلاص العمل له، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمر:٣].

ولا زكاة للنَّفس إلَّا بتخليصِها مِن الشِّرك بجميع أنواعه، وتخليصها من كُلِّ ما يُناقِض التَّوحيدَ ويُضعِفُهُ.

ثمَّ إنَّ من أعظم ما ينال به العبد زكاء نفسه الدُّعاء، فإنَّه مِفتاح زكاة النُّفوس، وفيه يُظْهِر العبد العَجز والافتِقار، والتَّذلل، والانكِسار، والاعتراف بقوَّة الله وقدرته، وله أثرٌ عظيمٌ في فتح أبواب الخير؛ فالدُّعَاء مِفتاحُ كلِّ خير، فكلُّ خيرٍ يرجوه العبد لنفسه من خيرات الدُّنيا والآخرة فبابه الدُّعاء.

لأنَّ زكاة نفس العبد بيد الله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذِي يزكِّي مَن يشاء، والأمرُ كلُّه له، وتحتَ مشيئَتِهِ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١].

ومَن علم أنَّ صلاحَ نفسِهِ وزكاتها واستِقامتها بيد الله؛ لجأ إليه، وأقبل على

بابه مُلِحًّا عليه بالدُّعاء، راجيًا طامِعًا؛ لينال مِنهُ زكاة نفسِهِ، ونجاتها وفلاحها في الدُّنيا والآخرة.

والقرآنُ الكريم مَنبعُ التَّزكيةِ ومَعِينُها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فأعظمُ ما تزكو به النَّفس القرآنُ الكريمُ، الَّذِي هو كتابُ التَّزكيةِ ومَنبعُها ومَعينُها ومَصدرها، فمَن أراد لنفسه التَّزكيَّة فليطلبها في كتاب الله.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ضَمِنَ الله لمَن اتَّبعَ القرآنَ أن لا يَضِلَّ في الدُّنيا، وَلَا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»(١).

واتِّخاذ الأسوة والقُدوة الصَّالحة نافع غاية النَّفع في التَّزكية للنَّفس، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التَّأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»(٢).

فاتِّباع الرَّسول ﷺ والتَّأسِّي به والسَّير على منهاجه القويم هو عين التَّزكية، ولا يمكن الوصول إليها بغير ما جاء به الرَّسول.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٤٧٨١).
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١).

ولهذا وجب على مَن أرادَ تزكية نفسه أن يُجاهد نفسه على الاتِّباع، والاقتداء، والتَّأسِّي بالرَّسول ﷺ، والحذر من المحدثات والمخترعات والطَّرائق المبتدعات الَّتي يدَّعي أربابها أنَّها تُزكِّي النُّفوس.

وحقيقة التَّزكية: تخلية النَّفس **أوَّلًا**؛ بتطهيرها عن الرَّذائل والمعاصي والذُّنوب، ثمَّ تحليتها بعد ذلك بفعل الطَّاعات والقربات، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوبة:١٠٣]، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى مقامِ التَّخلية عن السَّيِّئات بتطهيرهم من الذُّنوب، وقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ فيه إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائل والحسنات، وتقديمُ التَّطهير على التَّزكية من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية.

فلا بُدَّ لمَن أراد تزكية نفسِهِ أن يُقلعَ أوَّلًا عن الذُّنوب والآثام الَّتي تُفسِدُ القلبَ، وتَحجِبُ عنه نورَ الهداية والإيمان، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]»(١).

ثمَّ يُجاهِدُ نفسَهُ على الاستِكثار من الصَّالحات الَّتي تزكو بها نفسُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتزكيةُ وإن كان أصلها النَّماء والبركةُ

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وزيادةُ الخير، فإنَّما تَحْصُلُ بإزالة الشَّرِّ؛ فلهذا صار التَّزكِّي يجمعُ هذا وهذا»[(١)].

وقال ابن سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]: «أي: بالإيمان والعمل الصَّالح؛ **بالتَّخلِّي** عن الأخلاق الرَّذيلة، **والتَّحلِّي** بالصِّفات الجميلة»[(٢)].

وممَّا يعين العبد على تزكية نفسه تذكُّر الموت، ولقاء الله والوقوف بين يديه ومجازاته العباد بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨]، وقال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»[(٣)]، يعني: الموت.

وهو مُدرِكٌ كلَّ النَّاس لا محالة، وملاقيهم بلا ريب، كما قال الله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾ [الجمعة:٨]، وقال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النِّساء:٧٨].

ففي ذكر العبد للموت منفعة عظيمة؛ فبذلك تستيقظُ القلوب الغافلة، وتحيا القلوب الميِّتة، ويحسن إقبال العبد على الله، وتزول عن غفلته وإعراضه عن طاعة الله.

ولا يزالُ العبدُ بخير ما كان ناظرًا لموقِفِه بين يدي الله يوم القيامة ومماته، ومصيره بعد الممات.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٨٢).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٠٧)، والنَّسائيُّ (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول إبراهيم التَّيميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَّلتُ نفسي في الجنَّة؛ آكلُ ثمارَها، وأشربُ مِن أنهارِها، وأعانِقُ أبكارَها، ثمَّ مَثَّلتُ نفسي في النَّار؛ آكلُ مِن زَقُّومِها، وأشرَبُ مِن صَدِيدها، وأعالِجُ سلاسِلَها وأغلالَها؛ فقلت لنفسي: (أيْ نفسي! أيُّ شيءٍ تريدين؟)، قالت: (أريدُ أن أُرَدَّ إلى الدُّنيا؛ فأعملَ صالحًا) قال: قلت: (فأنت في الأُمْنِية فاعملي)»[١].

والعبد في هذا المقام بحاجة إلى تَخَيُّر الجلساء وانتقاء الرُّفقاء الَّذِين يُعِينُونه على الخير ويشدُّون من أَزْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[٢].

وأسأل الله تعالى أن يُزكِّي نُفُوسَنا، وأن يُصلحَ أعمالنا، وأن يُسدِّد أقوالنا، وأن يُبصِّرنا بالحقِّ ويَرزقنا اتِّباعه، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال، وأن يَصرِفَ عنَّا سيِّئَها، وأن يجنِّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس (١٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

٤١
التَّفكُّر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللهِ، وَلا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ**». رواه الطَّبرانيُّ في معجمه، والبيهقيُّ في الشُّعب[(١)].

التَّفكُّر عبادة قلبيَّة عظيمة النَّفع كبيرة الأثر، لها من العوائد والفوائد ما لا حدَّ له، وفي القرآن آياتٌ عديدة مشتملة على الحثِّ على التَّفكُّر، وبيان عظيم شأنه وجليل قَدْره، وكبير عوائده وفوائده، وثناءٌ على أهله وبيانٌ لعلوِّ مقامهم ورفعة شأنهم؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرَّعد:٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:١١]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الرُّوم:٨]، ويقول الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ في الثَّناء على أوليائه المُقَرَّبين أولي الألباب مبيِّنًا عظيم

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقيُّ في الشُّعب (١٢٠). وحسَّنه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٧٨٨).

مقامهم، وعلوَّ شأنهم وجمال تفكُّرهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وهذا التَّفكُّر العظيم الَّذي دعا الله عَزَّوَجَلَّ عباده إليه وحثَّهم عليه ورغَّبهم فيه؛ مفتاحُ كُلِّ خير، وأساس كُلِّ فلاحٍ وصلاح، ومنبع كُلِّ فضيلة، وهو من عبوديَّات القلب العظيمة الجليلة، وهو ينقل الإنسان من الغفلة إلى اليقظة، ومن المعصية إلى الطَّاعة، ومن المهانة إلى العزَّة، وينقله من الحقارات والدَّناءات وخسيس الأمور وحقيرها إلى معالي الأمور ورفيعها وعليِّها؛ ولهذا كان شأن السَّلف -رحمهم الله تعالى- مع هذه العبوديَّة شأنٌ عظيم، وكلماتهم في بيان مقام التَّفكُّر وعظيم شأنه وجليل قدْره كثيرة ومتعدِّدة، ومن ذلك:

قول عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا رَأْسُ هَذَا الدِّينِ وَصَلَاحُهُ إِلَّا التَّفَكُّرُ»(١).

وقال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفِكْرُ أَبُو كُلِّ بِرٍّ وَأُمُّهُ، وَمِفْتَاحُ خِلَالِ الخَيْرِ كُلِّهِ»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «التَّفَكُّرُ مِرْآةٌ تُرِيكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ»(٣).

(١) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (١٤).
(٢) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (٣٧).
(٣) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (١٣).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّمَا لُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ»(١).

وقال سهل: سمعت الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «تَفَكَّرُوا وَاعْلَمُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمُوا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِالدُّنْيَا؛ فَإِنَّ صَحِيحَهَا سَقِيمٌ، وَجَدِيدَهَا يَبْلَى، وَنَعِيمَهَا يَفْنَى، وَشَبَابَهَا يَهْرَمُ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَابَعُوا بَيْنَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ، وَلَيْسَ لِامْرِئٍ مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ مِمَّا نَوَى وَقَدَّمَ»(٢).

وقال سفيان ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّفَكُّرُ مِفْتَاحُ الرَّحْمَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَتَفَكَّرُ فَيَتُوبُ»(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الفِكْرَةُ فِي نِعَمِ اللهِ مِنْ أَفْضَلِ العِبَادَاتِ»(٤).

والنُّقول عنهم في هذا المعنى كثيرة؛ لأنَّهم أدركوا مقام التَّفكُّر وعلوَّ شأنه ورفعة منزلته، وعظم نفعه للقلوب يقظة وصلاحًا.

فمَن تفكَّر في عظمة الله، وأنَّه عَزَّ وَجَلَّ مطَّلعٌ على العباد لا تخفى عليه منهم خافية، سميعٌ بصير، عليمٌ قدير؛ فإنَّ هذا التَّفكُّر يمنعه من الوقوع في معصية الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

ومَن تفكَّر في الآخرة وأنَّها ارتحلت مقبِلة وأنَّها هي الحيَوان، وتفكَّر في

---

(١) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في كتاب العظمة (١٨).

(٢) رواه ابن الأعرابيِّ في معجمه (١٦٩٣).

(٣) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في كتاب العظمة (٣٩).

(٤) ذكره ابن القيِّم في مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٠).

نعيمها وما أعدَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأوليائه من عظيم المآب وجميل الثَّواب؛ فإنَّ ذلك يُحفِّزه ويدفعه لحُسْن التَّهيُّؤ وتمام الاستعداد ليوم المعاد.

ومَن تفكَّر في هوان الدُّنيا وحقارتها وسرعة زوالها وتصرُّمها؛ فإنَّه لن يجعلها أكبر هـمِّه ولا مبلغ علمه.

ومَن تفكَّر في الذُّنوب وعظَم خطورتها وسوء عواقبها على أهلها في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّه يحاذر من الوقوع فيها ويتجنَّبها.

ومَن يتفكَّر في العبادات وأنَّه إنَّما خُلق في هذه الحياة للقيام بها وتحقيقها؛ فإنَّه يجاهد نفسه على القيام بها على أتمِّ وجهٍ وأحسن حال.

ومَن يتفكَّر في هذه المخلوقات وما فيها من جمالٍ وآيات باهرات وحججٍ ساطعات وبراهين واضحات؛ أدخلت إلى قلبه العبرة والعظة.

والتَّفكُّرُ في آلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونِعَمه عبوديَّةٌ عظيمة، تجعل القلب يقبِل على الله خضوعًا وذُلًّا وإيمانًا بكمال الخالق وعظمة المبدع سبحانه، فهاهم أولوا الألباب وقد مرَّ معنا ثناء الله عليهم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويُثمر هذا التَّفكُّر تلك الدَّعوات العظيمات: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ومَن لم يَشغَل قلبه بالأفكار النَّافعات والتَّفكير الَّذي يعود عليه بالخيرات في دنياه وأخراه، انشغل قلبه بأفكارٍ رديئة وتفكُّرٍ مذموم في أمور منحطَّة وأعمالٍ خسيسةٍ حقيرة؛ ولهذا يُشَبِّه بعض أهل العلم(١) النَّفس البشريَّة بأنَّ

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (٢٥٤).

مثلها كمثل الرَّحى، الَّتِي هي دائمة الدَّوران تطحن كُلَّ ما أُلقي فيها؛ فمَن وضع في هذه الرَّحى قمحًا وشعيرًا وجد طحينًا ينتفع به، ومَن وضع في تلك الرَّحى قذرًا أو حجرًا أو حصًى أو رملًا أو زجاجًا فلن يُحَصِّل منه طحينًا ينتفع به، وهكذا نفس الإنسان تدور بأفكار وأفكار ثمَّ ينبع عن تلك الأفكار إرادات وعزوم؛ فمَن كانت أفكاره وتفكُّره فيما ينفعه في معاشه ومعاده؛ فإنَّه سيمضي في هذه الحياة على خير حال، ومَن كانت أفكاره في أمورٍ حقيرة وأعمال دنيئة ويُخطِّط في أفكاره: كيف يعصي؟ وكيف يرتكب الآثام؟ وكيف يقع في الذُّنوب؟ وهكذا دواليك في أفكارٍ عديدةٍ خسيسةٍ حقيرة؛ كيف ستكون حال مَن كان هذا تفكُّره؟!

رأى عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أحد رفقائه مُفَكِّرًا، فقال له: أين بلغت(١)؟ قال: «بلغت الصِّراط»(٢).

فشتَّان بين مَن يرتحل بأفكاره إلى التَّفكُّر فيما ينفعه في معاده ومعاشه، يتفكَّر في وقوفه بين يدي الله، ينظر في غده وحساب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر:١٨]، شتَّان بين مَن أفكاره تصل به إلى الصِّراط خوفًا وإشفاقًا، وبين مَن أفكاره تسبح في أوحال الذُّنوب وحقارات المعاصي سفولًا وإغراقًا.

نعم ما أحوجنا إلى أن نعالج أفكارنا، وأن نصحِّح مسارنا، وأن نجاهد

---

(١) مثل ما نقول كثيرًا: أين وصلت يا فلان؟! أين سرحت؟! أين ذهبت؟!

(٢) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠).

أنفسنا على الواردات النَّافعة والأفكار القويمة، الَّتِي تعود علينا بالنَّفع العظيم والخير العميم في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كلَّ وقت بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، والعود بالتَّذكُّر على التَّفكُّر والتَّفكُّر على التَّذكُّر؛ وإلَّا أوشك أن تيبس»(١).

وما أعظم الخسران وأشدَّ الحرمان لمَن أسلَم بيت أفكاره إلى الشَّيطان يصبُّ فيه وساوسه ويُملي له الشرَّ إملاءً ويؤزُّه إلى المعاصي أزًّا ويدفعه إليها دفعًا؛ فهو مستسلمٌ للشَّيطان ومنقادٌ لوساوسه، وأفكاره توصف بأنَّها أفكار شيطانيَّة؛ ألا ما أسوأ هذه الحال وما أقبحها وما أشنعها.

إنَّ التَّفكُّر كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ودعا إليه عبوديَّةٌ عظيمة الشَّأن جليلة القدر، **وحتَّى يحقِّق العبد هذا المقام يحتاج إلى أمرين:**

أوَّلًا: إلى استعانة بالله جَلَّوَعَلَا.

وثانيًا: إلى مجاهدة للنَّفس؛

- بإبعادها عن كُلِّ بابٍ ومنفذٍ يجلب إلى قلبه أفكارًا رديئة وتصوُّراتٍ سيئة.

- ويحرص على كُلِّ المنافذ والأبواب، الَّتِي تجلب لقلبه ما ينفعه ويعود عليه بالخير والفائدة في دينه ودنياه.

---

(١) أعلام الموقِّعين لابن القيِّم (١/ ١٣٤).

أرأيتم لو أنَّ شخصًا أسلم بصره ونظره وسمعه؛ إلى مشاهداتٍ مُحَرَّمة، وصورٍ نُهيَ عن النَّظر إليها، ومشاهدتها وسماعات مُحَرَّمة؛ كيف ينشد مع ذلك لقلبه صفاءً ونقاءً وزكاء؟! وقد أوسع لنفسه المنافذ الَّتِي تجلب على قلبه واردات السُّوء وتجلب له أمور الشَّرِّ، أما مَن جاهد نفسه واستعان بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه يُوَفَّق لكُلِّ خير.

كم هو جميل بالمسلم في هذا المقام أن يستحضر ما ينفعه من تفكُّرٍ سليم وتأمُّل قويم واتِّعاظ واعتبار وادِّكار، وهذا مقامٌ يطول شرحه لكن أشير إلى مثالٍ واحد، والأمثلة على ذلك كثيرة وقد مرَّ شيء منها.

أرأيتم لو أنَّ إنسانًا جائعًا اشتدَّ به الجوع ثمَّ وُضع بين يديه طعام شهيٌّ وأكل لذيذ يُحبُّه ونفسه تميل إليه، ثمَّ لمَّا مدَّ يده إلى ذلك الطَّعام، قيل له: إنَّ هذا الطَّعام مسموم؛ إن أكلْتَ منه متَّ من ساعتك، أرأيتم وقد أيقن بأنَّ ذلك الطَّعام مسموم وأنَّ فيه هلكته أيضعُ يده في ذلك الطَّعام أو يكفُّها؟ سبحان الله!! كيف يتجنَّب الإنسان طعامًا خوف مضرَّته!! ولا يتجنَّب الذُّنوب خوف معرَّتها يوم لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

«وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها: ما كان لله والدَّار الآخرة، **وهو أنواع:**

أحدها: الفكرة في آياته المُنَزَّلة وتعقُّلها، وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرَّد تلاوتها، بل التِّلاوة وسيلة.

الثَّاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه

وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرِّه وجوده، وقد حضَّ الله سبحانه عباده على التَّفكُّر في آياته وتدبُّرها وتعقُّلها، وذمَّ الغافل عن ذلك.

الثَّالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النِّعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه...

الرَّابع: الفكرة في عيوب النَّفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النَّفع، وهذا باب لكُلِّ خير، وتأثيرها في كسر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ومتى كُسِرَت عاشت النَّفس المطمئنَّة وانبعثت وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبثَّ أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهمِّ كلِّه عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلُّها، فجميع المصالح إنَّما تنشأ من الوقت، وإن ضيَّعه لم يستدركه أبدًا»[1].

فمثل هذا التَّفكُّر والتَّأمُّل ينفع الإنسان نفعًا عظيمًا في صلاح قلبه، وفي إقدامه وإحجامه، وحبِّه وبغضه، وعطائه ومنعه، وجميع أموره.

اللَّهمَّ أصلح قلوبنا أجمعين، اللَّهمَّ آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكَّاها أنت وليُّها ومولاها.

---

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٦).

٤٢
اليقين

عَنْ أَوْسَطَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبَجَلِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، حِينَ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَقَامِي هَذَا عَامَ الْأَوَّلِ، ثُمَّ بَكَى أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ، وَسَلُوا اللهَ الْمُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْمُعَافَاةِ، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**». رواه أحمد وابن ماجه[(١)].

وفي رواية: «**سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَافَاةِ**»[(٢)].

فجمع بين عافيتي الدِّين والدُّنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدَّارين إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدُّنيا في قلبه وبدنه.

وعن ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ

---

(١) رواه أحمد (١٧)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود الطَّيالسيُّ (٥).

حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ، اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**». رواه التِّرمذيُّ[١].

إنَّ من أعظم المطالب وأجلِّها أن يُعْمَر القلب باليقين؛ فإنَّه روح الأعمال ولبُّها، وهو خير ما عُمِرت به النُّفوس وأُصْلِحت به القلوب، ومنزلته من الدِّين عَلِيَّة ومكانته فيه رفيعة؛ فإنَّه متى عُمرت به القلوب وزَكَت به النُّفوس صلُح حال الإنسان واستقام أمره على طاعة الرَّحمن؛ رُوِي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «خَيْرُ مَا أُلْقِيَ فِي الْقَلْبِ الْيَقِينُ»[٢]، ومنزلته من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ»[٣]، ومن دعائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَفِقْهًا**»[٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون... وإذا تزوَّج الصَّبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدِّين، قال الله تعالى -وبقوله

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) انظر: البيان والتَّبيين (٢/ ٣٧)، والعقد الفريد (٤/ ٢١٦).

(٣) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٠)، وصحَّح إسناده ابن حجر والألبانِيُّ.

(٤) رواه أحمد في الإيمان، وصحَّح إسناده ابن حجر في فتح الباري (١/ ٤٨).

يهتدي المهتدون-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة:٢٤].

وخصَّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال -وهو أصدق القائلين-: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ٢٠]، وخصَّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النَّار: بأنَّهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]»[١].

واليقين هو استقرار القلب وطمأنينته بالعلم وانتفاء الشَّكِّ والرَّيب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥]. أي: أيقنوا ولم يشكُّوا.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ -وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ- فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٣٧٤).

«**أَبُو هُرَيْرَةَ**». فَقُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**». قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**». وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ قَالَ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**». رواه مسلم(١).

وروى مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢).

فاشترط لقبول لا إله إلَّا الله اليقين بما دلَّت عليه، بأن يكون مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا لا يدخله الشَّكُّ.

ولا بُدَّ من استصحاب اليقين في الأذكار والأدعية ليظفر بأجرها ويفوز بآثارها.

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ بِلَالٌ يُنَادِي، فَلَمَّا سَكَتَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا يَقِينًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه النَّسائِيُّ(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ**

(١) رواه مسلم (٣١).
(٢) رواه مسلم (٢٧).
(٣) رواه النَّسائِيُّ (٦٧٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ». رواه التِّرمذيُّ(١).

وعن شَدَّاد بْن أَوْسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». رواه البخاريُّ(٢).

وفي القرآن الكريم آيٌ كثيرة فيها ذكر لليقين ووصف أهل الإيمان به، وأنَّ قلوبهم عامرةٌ باليقين ليس فيها شكٌّ ولا ريب، وفي القرآن أيضًا وصفٌ للكُفَّار أهل النَّار بأنَّ قلوبهم خاليةٌ منه ليس فيها شيء من اليقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر الله اليقين في مواضع كثيرة من القرآن في المحلِّ العالي من الثَّناء، أخبر أنَّ اليقين هو غاية الرُّسل بقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وأنَّه بالصَّبر واليقين تنال الإمامة في الدِّين، وأنَّ الآيات إنَّما ينتفع بها الانتفاع الكامل (الْمُوقِنِينَ)، فحقيقة اليقين هو العلم الثَّابت الرَّاسخ التَّامُّ المثمر للعمل القلبيِّ والعمل البدنيِّ.

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٥٩٤٧).

أمَّا آثار اليقين العلميَّة فثلاث مراتب:

- **علم اليقين.** وهي العلوم النَّاتجة عن الأدلَّة والبراهين الصَّادقة الخبريَّة، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصَّادقين.

- **وعين اليقين.** وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة، كما طلب الخليل إبراهيم من ربِّه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله ذلك بعينه، وغرضه عَلَيْهِ السَّلَامُ الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين.

- **وحقُّ اليقين:** وهي المعلومات الَّتِي تُحَقَّق بالذَّوق، كذوق القلب لطعم الإيمان، والذَّوق باللِّسان للأشياء المُحَسَّة.

وأمَّا آثاره القلبيَّة فسكون القلب وطمأنينته، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقال ﷺ: «**البِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ**»(١)، وفي لفظ: «**الصِّدْقُ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ**»(٢)، فإنَّ العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأنَّ قلبه لعقائد الإيمان كلِّها، واطمأنَّ قلبه لحقائق الإيمان وأحواله، الَّتِي تدور على محبَّة الله وذكره، وهما متلازمان، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨].

فتسكن القلوب عند الأخبار فلا يبقى في القلب شكٌّ ولا ريب في كلِّ خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئنًا عالمًا أنَّ

(١) رواه أحمد (١٨٠٠١)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٧٣٤).
(٢) انظر ما قبله.

هذا أعظم فائدة حصَّلتها القلوب، ويطمئنُّ عند الأوامر والنَّواهي مكمِّلًا للمأمورات، تاركًا للمنهيَّات، راجيًا لثواب الله، واثقًا بوعده.

ويطمئنُّ أيضًا عند المصائب والمكاره فيتلقَّاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنَّها من عند الله فيرضى ويسلِّم، فيَخِفُّ عليه حملها، ويهون عليه ثقلها، وقد علم بذلك آثارها البدنيَّة، فإنَّ الأعمال البدنيَّة مبنيَّة على أعمال القلوب، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال، فإنَّ اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها، والله هو المُوَفِّق الواهب له ولأسبابه»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «واليقين أخصُّ من العلم بأمرين:

أحدهما: أنَّه العلم الرَّاسخ القويُّ الَّذي ليس عرضة للرَّيب والشَّكِّ والموانع، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر، ولهذا يقال: ليس الخبر كالمعاينة، وحقُّ يقين إذا ذاقه العبد وتحقَّق به.

الأمر الثَّاني: أنَّ اليقين هو العلم الَّذي يحمل صاحبه على الطُّمأنينة بخبر الله، والطُّمأنينة بذكر الله، والصَّبر على المكاره، والقُوَّة في أمر الله، والشَّجاعة القوليَّة والفعليَّة، والاستحلاء للطَّاعات، وأن يُهَوِّن على العبد في ذات الله المشقَّات وتحمُّل الكريهات، فهذه الآثار الجميلة -الَّتي هي أعلى وأحلى من كلِّ شيء- من آثار اليقين»[2].

(١) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٢٥ - ٣٢٦).
(٢) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (٢/ ٣٥٩).

وقال: «عدم العلم اليقينيِّ التَّامِّ هو الَّذِي فتَّر العزائم، وزاد نوم النَّائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم»[1]. وهو نجاة العبد في قبره ويوم لقاء ربِّه.

وعَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ تُصَلِّي، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ يُصَلُّونَ؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: آيَةٌ، قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَطَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقِيَامَ جِدًّا، حَتَّى تَجَلَّانِي الْغَشْيُ، فَأَخَذْتُ قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ إِلَى جَنْبِي، فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَى رَأْسِي أَوْ عَلَى وَجْهِي مِنَ الْمَاءِ -قَالَتْ-: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ: مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَإِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ: أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ -لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ- فَيُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُوقِنُ -لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ- فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ هُوَ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَأَطَعْنَا. ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنَّكَ لَتُؤْمِنُ بِهِ فَنَمْ صَالِحًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ -لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ- فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ»**. متَّفق عليه[2].

واليقين إنَّما تُحصّله القلوب وتناله بأمور ثلاثة. لا بُدَّ من عناية عظيمة بها:

الأوَّل: تدبُّر القرآن؛ فالقرآن هو كتاب اليقين والسَّعادة والفلاح والرِّفعة في

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٧٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥).

الدُّنيا والآخرة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

والأمر الثَّاني: التَّأمُّل في آيات الله الَّتِي جعلها في الأنفس والآفاق، تدبُّرًا يهدي القلوب إلى عظمة مَن خلقها وكمال مَن أوجدها وجلال مَن أبدعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلت:٥٣].

والثَّالث: العمل بالعلم؛ فإنَّ العمل بالعلم يثبِّت اليقين ويُمَكِّنه في القلب، ومخالفة العلم يثمر ضعف اليقين ولرُبَّمَا زواله.

واليقين مراتب بعضها أعلى من بعض، ومراتبه ثلاثة ذكرها الله في القرآن وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحقُّ اليقين. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكاثر:١-٧].

وعلم اليقين: هو العلم الَّذِي يحصِّله العبد من طريق الخبر.

وعين اليقين: هو العلم الَّذِي يحصِّله ويدركه بحاسَّة البصر.

وحقُّ اليقين: هو العلم الَّذِي يحصِّله بالمباشرة والذَّوق ونحو ذلك.

«**وقد مثِّلت المراتب الثَّلاثة بمَن أخبرك:** أنَّ عنده عسلًا وأنت لا تشكُّ في

صدقه، ثمَّ أراك إيَّاه فازددت يقينًا، ثمَّ ذقت منه؛ **فالأوَّل:** علم اليقين، **والثَّاني:** عين اليقين، **والثَّالث:** حقُّ اليقين.

فعلمنا الآن بالجنَّة والنَّار: علم يقين فإذا أزلفت الجنَّة في الموقف للمتَّقين وشاهدها الخلائق وبُرِّزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك: عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّار: فذلك حينئذ حقُّ اليقين»(١).

وعودًا على بدء قوله: «**سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَاةَ**» جُمع فيه بين عافيتي الدِّين والدُّنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدَّارين إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدُّنيا في قلبه وبدنه.

نسأل الله لنا أجمعين اليقين والمعافاة والتَّوفيق لرضاه.

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٣/ ١٨٠).

٤٣
التَّوَكُّل

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». رواه مسلم[١].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا». رواه التِّرمذيُّ[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[٣].

إنَّ التَّوكُّل على الله وحده وتفويض الأمور كلِّها إليه والاعتماد عليه في جلب النَّعماء ودفع الضُّرِّ والبلاء؛ مقامٌ عظيمٌ من مقامات الدِّين الجليلة وعمل

(١) رواه مسلم (٢١٨).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

جليل من أعمال القلوب، وفريضةٌ عظيمة يجب إخلاصها لله وحده، وهو من أجمع أنواع العبادة وأهمِّها لما ينشأ عنه من الأعمال الصَّالحة والطَّاعات الكثيرة، فإنَّه إذا اعتمد القلب على الله في جميع الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة دون مَن سواه، صحَّ إخلاصه وقويَت معاملته مع الله وزاد يقينه وثقته بربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والله جَلَّ وَعَلَا ذكر التَّوكُّل في مواضع كثيرة من القرآن، وذَكَره جَلَّ وَعَلَا شريعةً لجميع الأنبياء ونهجًا لجميع المرسلين؛ قال الله تعالى عن نبيِّه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقال عن نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا عن نبيِّه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقال عن نبيِّه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، وقال عن نبيِّه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٥٦]، وقال عن نبيِّه وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال عن نبيِّه محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سيِّد المتوكِّلين ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩]، وقال

جلَّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرَّعد: ٣٠].

والآيات في بيان توكُّله على الله واعتماده عليه سبحانه كثيرة، بل إنَّ الله عزَّ وجلَّ سمَّاه في التَّوراة المتوكِّل، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رضي الله عنهما قال: «**وَاللهِ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ**»(١). رواه البخاريُّ.

وقد ذكر الله التَّوكُّل نعتًا لعباده المؤمنين وصفةً لأوليائه المُقرَّبين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إنَّ حقيقة التَّوكُّل هو عمل القلب وعبوديَّته اعتمادًا على الله وثقةً به والتجاءً إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض إليه أموره، مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها. هذه هي حقيقة التَّوكُّل: اعتمادٌ على الله وحده لا شريك له مع فعل الأسباب المأمور بها والقيام بها، دون تعدٍّ إلى فعل سببٍ غير مأمور أو سلوك طريق غير مشروع.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢١٢٥).

والتَّوكُّل عبادةٌ قلبيَّة مكانها القلب، وهي تقوم على أصلين عظيمين لا بُدَّ من قيامهما بالقلب: ليكون العبد متوكِّلًا على الله حقًّا وصدقًا:

الأمر الأوَّل: علمُ العبد بالله وأنَّه سبحانه الوكيلُ ولا وكيلَ سواه، وأنَّه الرَّبُّ العظيم المدبِّر المسخِّر الَّذي بيده أزمَّة الأمور فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، عليمٌ بالعباد سميعٌ لأصواتهم بصيرٌ بأعمالهم مطلِّعٌ عليهم لا تخفى عليه منهم خافية، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشُّعراء:٢١٧-٢٢٠]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النِّساء:٨١]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨].

فهو مبنيٌّ على حُسن المعرفة بالله جلَّ في علاه؛ فمَن لم يعرف ربَّه بكماله وعظمته، ونفوذ مشيئته، وشمول قدرته، وإحاطة علمه، وكمال إرادته، ونفوذ قضائه؛ فإنَّه لا يُحسن التَّوكُّل عليه. فالتَّوكُّل مبنيٌّ على حُسن المعرفة بالله، ولهذا كُلَّما قوي إيمان العبد بالله تبارك وتعالى وصحَّت معرفته به جلَّ في علاه قوي توكُّله عليه، وعظم التجاؤه إليه، وفوَّض أموره كلَّها إليه، ولجأ إليه في كلِّ شأنٍ من شؤونه ومصلحةٍ من مصالحه وحاجةٍ من حاجاته وأموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

والأصل الثَّاني: عمل القلب؛ وهو اعتماده على الله وحُسن التجائه إليه وحُسن تفويضه الأمور إلى الله جلَّ وعلا اعتمادًا والتجاءً وتفويضًا، فلا يكون في القلب التفاتٌ إلى الأسباب ولا اعتماد عليها، وإنَّما يكون القلب معتمدًا على

الله جَلَّ وَعَلَا مفوِّضًا الأمور كلَّها إليه في جميع مصالح العبد الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

والتَّوكُّل عبادةٌ تصاحب المسلم في كُلِّ شؤونه وجميع أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فهو يتوكَّل على الله في جلب مصالحه الدُّنيويَّة من طلبٍ للرِّزق وتحصيلٍ للمعاش وغير ذلك من المصالح الدُّنيويَّة، ويتوكَّل على الله في تحصيل مصالحه الدِّينيَّة؛ فهو في كُلِّ ذلك محتاج إلى الله لا غنى له عن ربِّه طرفة عين، فهو يلتجأ إليه ليقوم بالعبادات والطَّاعات، ويلتجأ إليه سبحانه ليحصِّل المنافع والمصالح وجميع الحاجات.

والتَّوكُّل على الله جَلَّ وَعَلَا لا يتنافى مع فعل الأسباب بل فعلها من تمام التَّوكُّل، ولهذا كان سيِّد المُتوكِّلين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يباشر الأسباب ويأمر بفعلها ومباشرتها، قال ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»(١)، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للرَّجل الَّذِي سأله عن ناقته قال: أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَال: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(٢)؛ فأرشده إلى فعل الأسباب. وقد تقدَّم في حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٣)؛ فذكر فعلها للأسباب وهو غدوُّها في الصَّباح الباكر لطلب العيش والبحث عن الرِّزق، ولهذا جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع بنفر خرجوا من ديارهم بلا قوت ولا زاد، وقالوا نحن المتوكِّلون قال: «**بَلْ أَنْتُم الْمُتَوَاكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

عَلَى اللهِ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ -أَيْ: يَضَعُ البَذْرَ- وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ»(١)، وجاء في صحيح البخاريِّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، قال: **«كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾»**(٢). وبهذا يُعلم أنَّ التَّوكُّل على الله لا بُدَّ معه من فعل الأسباب الَّتي يحصِّل بها العبد مصالحه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ولا يكون قلبه ملتفتًا للأسباب ولا معتمدًا عليها ولا واثقًا بها، بل تكون ثقته بالله وحده وتوكُّله عليه وحده وتفويضه لأمره إلى الله وحده.

والتَّوكُّل عبادةٌ عظيمة وفريضةٌ جليلة لا يجوز صرفها إلَّا إلى الله جَلَّ وَعَلَا الحيِّ الَّذي لا يموت، وتأمَّلوا قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾؛ فالتَّوكُّل لا يكون إلَّا على مَن هذا شأنه الحيُّ الَّذي لا يموت وهو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمَّا مَنْ سوى الله؛ فهو إمَّا حيٌّ سيموت، أو حيٌّ قد مات، أو جمادٌ لا حياة له. وكلُّ هؤلاء لا يُتوكَّل عليهم، وإنَّما يُتوكَّل على الحيِّ الَّذي لا يموت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا كان نبيُّنا كما في الصَّحيحين يقول في دعائه: **«اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»**(٣).

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (٣٠٢٧).
(٢) رواه البخاريُّ (١٥٢٣).
(٣) رواه البخاريُّ (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

والنَّاس منقسمون في هذا الأمر الجليل إلى طرفين ووسط؛ فأحد الطَّرفين عطَّل الأسباب محافظةً على التَّوكُّل، والطَّرف الثَّاني عطَّل التَّوكُّل محافظةً على السَّبب، والوسط علِم أنَّ حقيقة التَّوكُّل لا تَتِمُّ إلَّا بالقيام بالأسباب فتوكَّل على الله في نفس السَّبب.

وبهذا يُعلم أنَّ التَّوكُّل لا بُدَّ فيه من الجمع بين الأمرين: فعل السَّبب والاعتماد على المُسَبِّب وهو الله، أمَّا مَن عطَّل السَّبب وزعم أنَّه مُتَوَكِّل فهو في الحقيقة متواكل مغرور مخدوع، وفعله هذا ما هو إلَّا عجزٌ وتفريطٌ وتضييع.

ومَن قام بالسَّبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلًا عن المُسَبِّب معرضًا عنه فهذا توكُّله عجز وخذلان، ونهايته ضياع وحرمان، ولذا قال بعض العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التَّوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكُلِّيَّة قدح في الشَّرع، وإنَّما التَّوكُّل والرَّجاء معنًى يتألَّف من موجب التَّوحيد والعقل والشَّرع»[1].

والتَّوكُّل مصاحبٌ للمؤمن الصَّادق في أموره كلِّها الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فهو مصاحب له في صلاته وصيامه وحجِّه وبرِّه وغير ذلك من أمور دينه، ومصاحب له في جلبه للرِّزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه، **فالتَّوكُّل على الله نوعان:**

١- توكُّلٌ عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدُّنيويَّة أو دفع مكروهاته ومصائبه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (٨/ ١٦٩).

٢- وتوكُّلٌ عليه في حصول ما يُحِبُّه هو ويرضاه، من الإيمان واليقين والصَّلاة والصِّيام والحجِّ والجهاد والدَّعوة وغير ذلك.

ولهذا ورد في الحديث كما تقدَّم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ**»(١)؛ وهذا الذِّكر المبارك يُشرع للمسلم أن يقوله في كُلِّ مرَّة يخرج من بيته، في جميع مصالحه الدِّينيَّة أو الدُّنيويَّة؛ فإنَّه لا غنى له عن ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طرفة عين. وجاء في الحديث في سنن النَّسائِيِّ وغيره أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّم ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تقول كلَّ صباح ومساء: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»(٢)، وهذا فيه إظهار العبد عجزه وفقره وفاقته وحاجته إلى ربِّه وسيِّده ومولاه، وأنَّه لا غنى له عن ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طرفة عين.

ومَن يطالع الأذكار المأثورة والأدعية النَّبويَّة -سواءً ما كان منها موظَّفًا في أوقاتٍ معيَّنة من اليوم اللَّيلة، أو كان مطلقًا غير مُقيَّد- يجد في كثير من منها تعزيزًا للتَّوكُّل وتجديدًا له وتثبيتًا لحقيقته في قلب المؤمن.

جعلنا الله من أهل التَّوكُّل عليه بمنِّه وكرمه سبحانه.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه النَّسائِيُّ في السُّنن الكبرى (١٠٣٣٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٩١٣).

٤٤
الإخبات

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا -وفي رواية إِلَيْكَ مُخْبِتًا-، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي». رواه التِّرمذيُّ وأبو داود[١].

الإخبات صفةٌ عظيمة من صفات القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحجُّ:٥٤]. لها عوائد جليلة وبركات متنوِّعة على المؤمن، أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على المُتَّصفين بها ثناءً عظيمًا، وذكر لهم موعودًا كريمًا وبشارة عظمى بكُلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، فجديرٌ بكُلِّ عبد مؤمن أن يعرفها وأن يجاهد نفسه على أن يكون من أهلها تحلِّيًا واتِّصافًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الخبت في أصل اللُّغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسَّر ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وقتادةُ لفظَ المخبتين، وقالا: هم

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

المتواضعون، وقال مجاهد: المخبت المطمئنُّ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال: والخبت: المكان المطمئنُّ من الأرض، وقال الأخفش: الخاشعون، وقال إبراهيم النَّخعيُّ: المُصَلُّون المخلصون، وقال الكَلْبيُّ: هم الرَّقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الَّذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التَّواضع والسُّكون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك عُدِّي بـ(إلى) تضمينًا لمعنى الطُّمأنينة والإنابة والسُّكون إلى الله تعالى»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمخبت المطمئنُّ؛ فإنَّ الخبت من الأرض ما اطمأنَّ فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأنَّ كالبقعة المطمئنَّة من الأرض الَّتي يجري إليها الماء فيستقرُّ فيها»(٢).

ومَن أراد أن يعرف قدر هذه الصِّفة وعليَّ مكانتها، فليتأمَّل قول الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]، والقاعدة عند العلماء: «أنَّ المتعلَّق إذا حذف عمَّ وشمل كلَّ خير وفضيلة في الدُّنيا والآخرة»، فالبشارة هنا لم تقيَّد، وإنَّما ذُكرت هكذا مطلقة لتتناول كلَّ فضيلة وخير وبركة في الدُّنيا والآخرة.

وليتأمَّل في عظيم ثوابهم عند الله قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود:٢٣]، أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلُّوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبَّته، وخوفه، ورجائه، والتَّضرُّع إليه. وذِكْر الإخبات عقِب الإيمان والعمل مع أنَّه

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٢٠٩).
(٢) الرُّوح لابن القيِّم (ص٢٣٢).

داخلٌ فيه مرتبًا عليه من الثَّواب ما ذُكر فيه؛ بيانٌ لعظم شأن الإخبات وعظم مكانة المخبتين عند الله، وعظم ثوابهم.

والإخبات ثمرةٌ من ثمار حُسن الإيمان بالقرآن وحي الله عَزَّوَجَلَّ وذِكره الحكيم الَّذِي به تحيا القلوب وتخبِت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤]؛ ولنتأمَّل في هذين المعطوفين: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: الوحي، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أثرًا من آثار حُسن إيمانهم بوحي الله عَزَّوَجَلَّ.

وبهذا يعلم أنَّ الإخبات صفةٌ للقلب؛ فالقلب يخبِت إلى الله ويخبِت لله جلَّ في علاه، كما في الآيتين: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٢٣]، فهو إخباتٌ لله وإخباتٌ إلى الله. وهو كما تقدَّم سكونٌ وطمأنينة وخشوعٌ وخضوع وذلٌّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا أخبت القلب إلى الله عَزَّوَجَلَّ تحلَّى بجميل الصِّفات وحسِن النُّعوت وطيب الأخلاق والآداب.

وقد وردت هذه الآية في سورة الحجِّ في سياقِ ذكرٍ لأقسام القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «جعل الله القلوب ثلاثة أقسام: قاسية، وذات مرض، ومؤمنة مخبتة؛ وذلك لأنَّها إمَّا أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحقِّ اعترافًا وإذعانًا أو لا تكون يابسة جامدة.

فـ «الأوَّل» هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر، لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرتسم فيه العلم؛ لأنَّ ذلك يستدعي محلًّا ليِّنًا قابلًا.

و«الثَّاني» لا يخلو إمَّا أن يكون الحقُّ ثابتًا فيه لا يزول عنه؛ لقوَّته مع لينه أو يكون لينه مع ضعف وانحلال.

فالثَّاني هو الَّذِي فيه مرض، والأوَّل هو القويُّ اللَّيِّن. وذلك أنَّ القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلًا، فإمَّا أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش أو تبطش بعنف فذلك مثل القلب القاسي، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الَّذِي فيه مرض، أو تكون باطشة بقُوَّة ولين فهو مثل القلب العليم الرَّحيم؛ فبالرَّحمة خرج عن القسوة وبالعلم خرج عن المرض؛ فإنَّ المرض من الشُّكوك والشُّبهات. ولهذا وصف مَن عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «سورة الحجِّ فيها مكيٌّ ومدنِيٌّ وليليٌّ ونهاريٌّ وسفريٌّ وحضريٌّ وشتائيٌّ وصيفيٌّ؛ وتضمَّنت منازل المسير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها. ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى والمريض

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٣/ ٢٧٠).

والقاسي والمخبت الحيُّ المطمئنُّ إلى الله»[(١)].

وفيها أيضا ذكرٌ لصفات المخبتين الجامعة الَّتِي إن وُجدت في العبد مجتمعةً، دلَّت على صدق إخباته إلى الله جلَّ في علاه في قوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

وهي صفاتٌ أربع ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ صفات للمخبتين:

أوَّلها: وجل القلب عند ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والوجل كما قال العلماء: خوفٌ مع محبَّة وهيبة، فهذه صفة القلب المخبِت إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه إذا ذُكر الله عنده وجل قلبه، وهذا الوجل لقلبه ناشئ عن حُسن معرفته بربِّه، كما قال الله جلَّ في علاه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، أي: بالله.

والصِّفة الثَّانية: الصَّبر على أقدار الله المؤلمة، وما من عبدٍ إلَّا وهو مبتلى بأنواع من البلايا في هذه الحياة الدُّنيا، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

والصِّفة الثَّالثة: إقامة الصَّلاة، أي: حفاظًا عليها وإتيانًا بها قائمة بأركانها وشروطها وواجباتها خضوعًا وخشوعًا وحسن تقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصِّفة الرَّابعة: بذل المال وإنفاقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ في وجوه الخير وأبوابه المُتَنوِّعة من واجبٍ ومستحبٍّ، طيبةً بذلك النَّفسُ راجيةً موعود الله جلَّ في علاه وعظيم ثوابه.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٥/ ٢٦٦).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فذكر للمخبتين أربع علامات:

- وجلُ قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبَّة.

- وصبرُهم على أقداره.

- وإتيانُهم بالصَّلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا.

- وإحسانُهم إلى عباده بالإنفاق ممَّا آتاهم.

وهذا إنَّما يتأتَّى للقلب المخبت، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «المخبتين المتواضعين»، وقال مجاهد: «المطمئنين إلى الله»، وقال الأخفش: «الخاشعين»، وقال ابن جرير: «الخاضعين»، قال الزَّجَّاج: «اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكلُّ مخبت متواضع، فالإخبات سكون الجوارح على وجه التَّواضع والخشوع لله»، فإن قيل: كان معناه التَّواضع والخشوع فكيف عُدِّي بـ(إلي) في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٢٣]؟ قيل: ضُمِّن معنى أنابوا واطمأنُّوا وتابوا، وهذه عبارات السَّلف في هذا الموضع، والمقصود: أنَّ القلب المخبت ضدُّ القاسي والمريض، وهو سبحانه الَّذِي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيًا، وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا، فمِن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذُكِّر به وهو ترك ما أمر به علمًا وعملًا، ومن آثار الإخبات وجلُ القلوب لذكره سبحانه والصَّبر على أقداره والإخلاص في عبوديَّته والإحسان إلى خلقه»[1].

---

(١) شفاء العليل لابن القيِّم (١/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

والإخبات مرتقى يتطلَّب من العبد أن يجاهد نفسه إلى أن تسكن وتطمئنَّ بنزولها منازل المخبتين، ولهذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا حديثه عن منزلة الإخبات: «فالنَّفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السَّير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ سائر لا طريق له إلَّا على ذلك الجبل فلا بُدَّ أن ينتهي إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم مَن هو سهل عليه وإنَّه ليسير على مَن يسَّره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشُعُوب، وعَقَبات ووُهُود، وشَوْكٌ وعَوسَجٌ، وعُلَّيْق وشِبْرِق، ولُصُوصٌ يقتطعون الطَّريق على السَّائرين ولا سيَّما أهل اللَّيل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عُدَد الإيمان، ومَصابيح اليقين تتَّقِدُ بزَيت الإخبات، وإلَّا تَعَلَّقَتْ بهم تلك المَوانِع، وتَشَبَّثَتْ بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السَّير؛ فإنَّ أكثر السَّائرين فيه رجعوا على أعقابهم لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشَّيطانُ على قُلَّة ذلك الجبَلِ -أي: أعلاه- يُحَذِّرُ النَّاسَ مِن صُعُودِهِ وارتفاعِهِ، ويخوِّفُهُم منه؛ فيتَّفِقُ: مَشَقَّةُ الصُّعود، وقُعُود ذلك المُخَوِّف على قُلَّته، وضَعْفُ عزيمة السَّائر ونيَّته؛ فيتولَّدُ مِن ذلك؛ الانقطاعُ والرُّجُوعُ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله.

وكُلَّما رقى السَّائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صِياحُ القاطِعِ، وتحذيرُهُ وتخويفُهُ، فإذا قَطَعَهُ وبَلَغَ قُلَّتَهُ؛ انقَلَبَتْ تلك المَخاوف كُلُّهُنَّ أمانًا، وحينئذ يسهل السَّير وتزول عنه عوارضُ الطَّريق ومشقَّةُ عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يُفْضِي به إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أُعِدَّت لركب الرَّحمن.

فبين العبد وبين السَّعادة والفلاح: قُوَّة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم»(١).

وعودًا على بدء، جديرٌ بالمؤمن أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا أن يجعله من عباده المخبتين، كما تقدَّم في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ نبيَّنا ﷺ كان يقول في دعائه: «**رَبِّ، أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا** -وفي رواية **إِلَيْكَ مُخْبِتًا**-، **إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**»(٢).

وبهذا الدُّعاء الجامع بدأنا وبه نختم.

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٢١٥).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٤٥
الخشوع

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ قال: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَدَعَا بِطَهُورٍ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**». رواه مسلم[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَاهُنَا؟ فَوَاللهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ، وَلَا رُكُوعُكُمْ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي**». متَّفق عليه[2].

الخشوع عمل جليل من أعمال القلوب إذا عُمِر القلب به ظهرت آثاره على الجوارح سكونًا وطُمَأنينة وتواضعًا وتذلُّلًا، روى الطَّبريُّ عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ»[3]، ورُوي نحوه عن قتادة وإبراهيم النَّخعيِّ.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨).
(٢) رواه البخاريُّ (٤١٨)، ومسلم (٤٢٤).
(٣) تفسير الطَّبريِّ (١٧/ ٩).

فالخشوع خضوع القلب وسكونه وانكساره تعظيمًا لله ومحبَّة وخوفًا وخشية، وتظهر آثاره على الجوارح سكونًا وطُمَأنينة وتواضعًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوع في أصل اللُّغة: الانخفاض والذُّلُّ والسُّكون، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت وذلَّت وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالريِّ والنَّبات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلت:٣٩]، والخشوع قيام القلب بين يدي الرَّبِّ بالخضوع والذُّلِّ والجمعيَّة عليه، وقيل: الخشوع الانقياد للحقِّ، وهذا من موجبات الخشوع، فمِن علاماته: أنَّ العبد إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحقِّ استقبل ذلك بالقبول والانقياد، وقيل: «الخشوع خمود نيران الشَّهوة وسكون دخان الصُّدور وإشراق نور التَّعظيم في القلب»[(١)]، وقال الجنيد: «الخشوع تذلُّل القلوب لعلَّام الغيوب»[(٢)]، وأجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره... قال النَّبِيُّ ﷺ: «**التَّقْوَى هَهُنَا وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»[(٣)]. وقال بعض العارفين: «حسن أدب الظَّاهر عنوان أدب الباطن»، ورأى بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: «يا فلان، الخشوع ههنا وأشار إلى صدره لا ههنا وأشار إلى منكبيه»، وكان بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إيَّاكم وخشوع النِّفاق»،

---

(١) انظر: الرِّسالة للقشيريِّ (ص٣٧٩).
(٢) انظر: الرِّسالة للقشيريِّ (ص٣٧٩).
(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

فقيل له: وما خشوع النِّفاق؟ قال: «أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع»[(١)]، ورأى عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا طأطأ رقبته في الصَّلاة، فقال: «يا صاحب الرَّقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرِّقاب إنَّما الخشوع في القلوب»[(٢)]، ورأت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: مَن هؤلاء؟ فقالوا: «نُسَّاك»، فقالت: «كان عمر بن الخطَّاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو النَّاسك حقًّا»[(٣)]، وقال الفضيل بن عياض: «كان يُكْرَه أن يُري الرَّجل من الخشوع أكثر ممَّا في قلبه»[(٤)]، وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أوَّل ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصَّلاة، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا»[(٥)]، وقال سهل: «مَن خشع قلبه لم يقرب منه الشَّيطان»[(٦)(٧)].

ويُرْوى عن سعيد بن المسيَّب أنَّه رأى رجلًا عبث في صلاته، فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه؛ وذلك لأنَّ الظَّاهر عنوان الباطن»[(٨)].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والخشوع يتضمَّن معنيين:**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٦٨٦١)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (٦٥٦٧).
(٢) انظر: الكبائر للذَّهبيِّ (ص١٤٤).
(٣) رواه ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (٣/ ٢٧٠).
(٤) انظر: الرِّسالة للقشيريِّ (ص٣٨٠).
(٥) رواه الآجرِّيُّ في الشَّريعة (١/ ٣٢٢).
(٦) انظر: الرِّسالة للقشيريِّ (ص٣٧٩).
(٧) انظر: مدارج السَّالكين (٢/ ١٩٣ - ١٩٦).
(٨) رواه ابن المبارك في الزُّهد (١١٨٨).

أحدهما: التَّواضع والذُّلُّ.

والثَّاني: السُّكون والطُّمأنينة. وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمَّن عبوديَّته لله وطُمأنينته أيضًا، ولهذا كان الخشوع في الصَّلاة يتضمَّن هذا وهذا: التَّواضع والسُّكون. وعن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. قال: مخبتون أذلَّاء. وعن الحسن وقتادة: خائفون. وعن مقاتل: متواضعون. وعن عليٍّ: «الخشوع في القلب وأن تلين للمرء المسلم كنفك ولا تلتفت يمينًا ولا شمالًا»، وقال مجاهد: «غض البصر وخفض الجناح، وكان الرَّجل من العلماء إذا قام إلى الصَّلاة يهاب الرَّحمن أن يشذَّ بصره أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدُّنيا»(١). وعن عمرو بن دينار: «ليس الخشوع الرُّكوع والسُّجود، ولكنَّه السُّكون وحبُّ حسن الهيئة في الصَّلاة»(٢)»(٣).

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

وهذا تنويهٌ من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأيِّ شيءٍ وصلُوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحثُّ على الاتِّصاف بصفاتهم، وفي مقدِّمة هذه الصِّفات: الخشوع في الصَّلاة، وهو: حضور القَلب بين يدي الله تعالى، مستحضِرًا لقُربه، فيسكُن لذلك قلبه، وتطمئِنُّ نفسه، وتسكُن حركاتُه،

---

(١) رواه الطَّبريُّ في التَّفسير (٥٥٢٨).

(٢) انظر: تفسير الثَّعلبيِّ (١٨/ ٤٣٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨).

ويقِلُّ التفاتُه، متأدِّبًا بين يدي ربِّه، مستحضِرًا جميع ما يقولُه ويفعلُه في صلاته، من أوَّل صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوَساوِس والأفكار الرَّدِيَّة، وهذا رُوح الصَّلاة ولبُّها والمقصودُ منها، وهو الَّذي يُكتَب للعبد، فالصَّلاة الَّتي لا خُشوعَ فيها، ولا حضورَ قلبٍ كالجسد الَّذي لا رُوح فيه.

والَّذِي يعين العبد على تحقُّق هذا الخشوع في الصَّلاة هو تفقُّه قلبِه في معاني القرآن وفي أسماء الله وصفاته؛ بحيث يرى لكلِّ اسمٍ وصفةٍ موضعًا من صلاته ومحلًّا منها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ شاهد بقلبه قيُّومِيَّته، وإذا قال: «الله أكبر»؛ شاهَد كبرياءَه، وإذا قال: «سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِك، تبارك اسمُك وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك»؛ شاهدَ بقلبه ربًّا منزَّهًا عن كلِّ عيبٍ سالمًا من كلِّ نقصٍ محمودًا بكلِّ حمدٍ، فحمدُه يتضمَّن وصفَه بكلِّ كمالٍ؛ وذلك يستلزم براءَته من كلِّ نقصٍ.

تبارك اسمُه، فلا يُذكَر على قليلٍ إلَّا كثَّره، ولا على خيرٍ إلَّا أنماهُ وبارك فيه، ولا على آفةٍ إلَّا أذهبَها، ولا على شيطانٍ إلَّا ردَّه خاسِئًا داحِرًا.

وتعالى جَدُّه، أي: ارتفعت عظمتُه، وجلَّت فوق كلِّ عظمةٍ، وعلا شأنُه على كلِّ شأنٍ، وقَهَر سلطانُه كلَّ سلطانٍ، فتعالى جَدُّه أن يكون معه شريكٌ في مُلكِه، وربوبيَّتِه، أو في إلهيَّته، أو في أفعاله، أو في صفاته.

وإذا قال: «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم»؛ فقد آوى إلى رُكنه الشَّديد، واعتصم بحولِه وقوَّته من عدوِّه الَّذي يريد أن يقطعه عن ربِّه، ويُباعِدَه عن قُربه.

وإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]؛ وقف هُنَيهةً يسيرةً ينتظر جوابَ ربِّه له بقوله: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]؛ انتظر الجواب بقوله: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]؛ انتظر جوابَه: «يمَجِّدُنِي عَبْدِي»، فيا لذَّةَ قلبِه، وقرَّةَ عينه، وسُرورَ نفسه بقول ربِّه: «عَبْدِي» ثلَاثَ مرَّاتٍ، فوالله لولا ما على القلوب من دُخان الشَّهوات، وغَيم النُّفوس لاستُطِيرَت فرحًا وسرورًا بقَول ربِّها وفاطِرها ومعبودها: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، و«أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، و«مَجَّدَنِي عَبْدِي».

ثمَّ يكون لقلبه مجالٌ في شهود هذه الأسماء الثَّلاثة الَّتي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي: «الله»، و«الرَّب»، و«الرَّحمن».

فشاهَد قلبُه من ذكر اسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلهًا معبودًا موحَّدًا مَخُوفًا، لا يستحقُّ العبادةَ غيره، ولا تنبغي إلَّا له، قد عنَت له الوجوهُ، وخضَعت له الموجوداتُ، وخشَعت له الأصواتُ، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٦].

وشاهَدَ مَن ذكر اسمه «ربِّ العالمين»: قيُّومًا قام بنفسه، وقام به كلُّ شيءٍ؛ فهو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بخيرها وشرِّها، قد استوى على عرشه، وتفرَّد بتدبير مُلكِه؛ فالتَّدبير كلُّه بيديه، ومصير الأمور كلِّها إليه، فمَراسيم التَّدبير نازلةٌ من عنده على أيدي ملائكته بالعَطاء والمنع، والخفض والرَّفع، والإحياء والإماتة، والتَّولية والعَزل، والقَبض والبَسط، وكَشف الكُروب، وإغاثة

الملهُوفِين، وإجابة المضطَرِّين؛ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩]، لا مانعَ لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مبدِّل لكلماته، تعرُج الملائكة والرُّوح إليه، وتُعرَض الأعمال أوَّل النَّهار وآخِره عليه؛ فيقدِّر المقادير، ويوقِّت لها المواقيت، ثمَّ يسوق المقادير إلى مواقيتِها، قائمًا بتدبير ذلك كلِّه، وحفظه.

ثمَّ يشهد عند ذكر اسم «الرَّحمن» جلَّ جلاله ربًّا مُحسِنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان، مُتحَبِّبًا إليهم بصُنوف النِّعم، وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأوسعَ كلَّ مخلوقٍ نعمةً وفضلًا؛ فوسِعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وسَعت نعمتُه إلى كلِّ حيٍّ؛ فبلغت رحمتُه حيثُ بلغ علمُه، فاستوَى على عرشه برحمته، وخلق خلقَه برحمته، وأنزل كتبُه برحمته، وأرسل رسُلَه برحمته، وشرع شرائعَه برحمته، وخلق الجنَّة برحمته، والنَّار أيضًا برحمته؛ فإنَّها سَوطُه الَّذي يسوق به عبادَه المؤمنين إلى جنَّته، ويطهِّر بها أدران الموحِّدين من أهل معصيته، وسِجنُه الَّذِي يسجُن فيه أعداءه من خليقته.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ ففيهما سِرُّ الخلق والأمر، والدُّنيا والآخرة، وهي متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات، وأفضل الوسائل؛ فأجَلُّ الغاياتِ عبودِيَّتُه، وأفضَل الوسائل إعانتُه؛ فلا معبودَ يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو، ولا مُعينَ على عبادتِه غيره، فعبادته أعلى الغاياتِ، وإعانتُه أجَلُّ الوسائل.

ثمَّ يشهد الدَّاعي بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، شدَّةَ فاقته وضرورته إلى هذه المسألة، الَّتي ليس هو إلى شيءٍ أشدَّ فاقة وحاجة منه

إليها البتَّة؛ فإنَّه محتاجٌ إليها في كلِّ نفَسٍ وطَرفة عَينٍ، وهذا المطلوب من هذا الدُّعاء لا يتِمُّ إلَّا بالهداية إلى الطَّريق الموصِل إليه سبحانه والهداية فيه -وهي هداية التَّفصيل- وخَلق القُدرة على الفعل وإرادته وتكوينه، وتوفيقِه لإيقاعه له على الوجه المرضيِّ المحبوب للرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحفظه عليه من مفسداتِه حال فعلِه، وبعد فعلِه. ثمَّ يأخُذ في مناجاة ربِّه بكلامه، واستِماعه منَ الإمام بالإنصات، وحضُور القلب وشهوده»[1]. انتهى من (كتاب الصَّلاة) لابن القيِّم بتصرُّف واختصار.

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». وَإِذَا رَكَعَ قَالَ: «اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي». وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: «اللَّهُمَّ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ

(١) انظر: الصَّلاة لابن القيِّم (ص٣٤٤ - ٣٥٣).

شَيْءٍ بَعْدُ». وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**». ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[1]. رواه مسلم.

اللَّهُمَّ اجعلنا لك خاشعين خاضعين، وأصلح لنا شأننا أجمعين.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

٤٦
الرِّضا

عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ؛ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**». رواه مسلم[١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ له: «**يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»، قال: فقلت: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَفَعَلَ[٢]. رواه مسلم.

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**». رواه مسلم[٣].

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه خَادِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ**

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٤).

(٣) رواه مسلم (٣٨٦).

قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه أبو داود[١].

الرِّضا عمل من أعمال القلوب الجليلة وهو من جملة منازل السَّالكين، ومن أعظم ما يُتقرَّبُ به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مدح الله أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه ورغَّبهم فيه، ورتَّب عليه الأجور العظيمة والثَّواب الجزيل.

وهذه الأحاديث عليها مدار مقامات الدِّين وإليها ينتهي، وقد تضمَّنت الرِّضا بربوبيَّته سبحانه وألوهيَّته، والرِّضا برسوله والانقياد له، والرِّضا بدينه والتَّسليم له؛ ومَن اجتمعت له هذه الأمور فحقٌّ على الله أن يرضه يوم القيامة، قد فاز بالغفران والرِّضوان ودخول الجنان.

وقد دلَّت النُّصوص أنَّ الرِّضا نوعان:

النَّوع الأوَّل: الرِّضا بالله؛ ويدلُّ عليه الأحاديث المُتَقَدِّمة، وقد تضمَّنت هذه الأحاديث أمورًا أربعةً: الرِّضا بربوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، والرِّضا بألوهيَّتِه، والرِّضا برسوله ﷺ والانقياد له، والرِّضا بدينه والتَّسليم له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَنِ اجْتَمعتْ له هذه الأربعة: فهو الصِّدِّيق حقًّا، وهي سهلةٌ بالدَّعوى واللِّسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيَّما إذا جاء ما يخالف هوى النَّفس ومرادها من ذلك، تبيَّن أنَّ الرِّضا كان لسانُه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

* **فالرِّضا بإلهيَّته:** يتضمَّن الرِّضا بمحبَّتِه وحده وخوفَه ورجاءَه والإنابةَ

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٢) وضعفه الألباني.

إليه والتَّبتُّل إليه وانجذابِ قوى الإرادة والحبِّ كلِّها إليه، فعل الرَّاضي بمحبوبه كلَّ الرِّضا؛ وذلك يتضمَّن عبادتَه والإخلاصَ له.

* **والرِّضا بربوبيَّته:** يتضمَّنُ الرِّضا بتدبيره لعبده، ويتضمَّنُ إفرادَهُ بالتَّوكُّل عليه والاستعانةِ به والثِّقةِ به والاعتمادِ عليه، وأن يكون راضيًا بكُلِّ ما يفعل به.

فالأوَّل: يتضمَّن رضاه بما يؤمر به.

والثَّاني: يتضمَّن رضاه بما يقدر عليه.

* **وأمَّا الرِّضا بنبيِّه رسولًا:** فيتضمَّن كمالَ الانقياد له والتَّسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقَّى الهُدَى إلَّا من مواقع كلماته، ولا يُحَاكِمُ إلَّا إليه، ولا يُحَكِّمُ عليه غيرَه، ولا يرضى بحكم غيره البتَّة؛ لا في شيءٍ من أسماء الرَّبِّ وصفاته وأفعاله، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيءٍ من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلَّا بحكمه؛ فإن عجز عنه؛ كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاء المُضْطَرِّ إذا لم يجد ما يُقِيتُه إلَّا من المَيْتَة والدَّم، وأحسنُ أحواله: أن يكون من باب التُّراب الَّذي إنَّما يتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطَّهور.

وأمَّا الرِّضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نَهَى؛ رضي كُلَّ الرِّضا ولم يَبْقَ في قلبه حرجٌ من حُكمِه وسلَّم له تسليمًا، ولو كان مخالِفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلِّدِه وشيخِه وطائفته»(١).

والرِّضا بالله فرضٌ افترضَه الله عَزَّوَجَلَّ على كلِّ مسلمٍ؛ فلا إسلَامَ ولا إيمانَ

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

إلَّا به، وهو أن يرضَى به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ربًّا خالقًا مُدَبِّرًا، ويرضَى به معبودًا بحقٍّ لا معبودَ بحقٍّ سواه؛ فإيَّاه يَقصِدُ، وإليه يَلْجَأُ، وله يَصرِفُ أنواعَ العبادةِ، ولا يجعلُ معه شريكًا ولا ندًّا، ولا يَتِمُّ هذا الرِّضا بالله إلَّا بالرِّضَا بدينه والرِّضا بنبيِّه ﷺ؛ ولهذا جُمعت في الأحاديث المُتقَدِّمة، وهذا النَّوع من الرِّضا مُتعَلَّقُه أسماءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصفاتُه.

والنَّوع الثَّاني: هو الرِّضا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ بما يفعله بالعبد ويعطيه إيَّاها، وهذا مُتَعَلَّقُهُ ثوابُ الله، وأجرُه، وعطاؤُه، ومَنُّهُ، وعَوْنُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالأوَّل -وهو الرِّضا بالله- أصلٌ، والثَّاني -وهو الرِّضا عن الله- فرعٌ عنه، الأوَّل فرضٌ باتِّفاق أهل العلم، والثَّاني وإن كان من أجلِّ الأمور وأشرف أنواع العبوديَّة فلم يُطالب به العموم؛ لعجزهم عنه ومشقَّته عليهم، وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرِّضا به، والتَّحقيق أنَّ الواجب في مثل هذا المقام؛ هو الصَّبر، والرِّضا مُستحَبٌّ، ومَنْ أكرمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المقام بتحقيق الرِّضا؛ فازَ فوزًا عظيمًا.

ثمَّ إنَّ تحقيق هذا المقام والظَّفَرَ به يتطَلَّبُ من العبد أمورًا عديدةً، جاءت مبيَّنَةً في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنَّةِ نبيِّه ﷺ إلَّا أنَّها في الجملةِ ترجع إلى أَمْرَيْنِ عظِيمَيْنِ، **وأصلَيْنِ متِينَيْنِ ينبغي على كُلِّ ناصِحٍ لنفسه أن يُعنَى بهما أشدَّ العناية:**

الأمر الأوَّل: ابتغاء الرِّضوان؛ وفي هذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]،

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

والأمر الثَّاني: اتِّباع الرِّضوان؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

فتحصَّل لنا ممَّا سبق في نيل هذا المقام وتحصيله: **أن يَجْمَعَ العبدُ لنفسه بين هذين الأمرين العظيمين والأصلين المتينَيْن:**

الأوَّل: ابتغاءُ الرِّضوان، ومعنى ابتغاء الرِّضوان الإخلاصُ في الأعمال وحُسن التَّوجُّه للرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذي الجلال والكمال؛ بحيث يكون العامل مُخْلِصًا في عمله يرجو به ثوابَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والدَّار الآخِرَة؛ لا يبتغي شيئًا في أيِّ عملٍ يُقدِّمُه إلَّا نيل الرِّضوان؛ ولن يكونَ في صالح عمل العبد إلَّا ما قَصَدَ به العبدُ وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمَّا الأعمال الَّتي قامت على الرِّياء -مثلًا- والسُّمعة، وحبِّ الشُّهرة، وحبِّ الظُّهور، وحبِّ علُوِّ الصِّيت، وحبِّ الذِّكر، إلى غير ذلك من الأغراض؛ فكلُّها لا تقرِّب العبدَ من رضوان الله.

وإنَّما الَّذي يقرِّبُ العبدَ من الرِّضوان ما ابْتَغَى به من عمله رضوانه

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما سوى ذلكَ، فإنَّ الله لا يقبَلُهُ منه، وإنْ عَظُمَ العملُ وكَبُرَ؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه معِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

الثَّاني: اتِّباع الرِّضوان؛ بأَن يحرِصَ العاملُ على الأعمال الَّتي جاء بها النَّبيُّ الكريم ﷺ؛ فإنَّ رضوانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُنال إلَّا بلزوم دينه الَّذي رَضِيَهُ لعبادِه، وبعثَ به رسولَه ﷺ، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فهذا الدِّينُ الَّذي رَضِيَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده هو الَّذي يُتَّبع؛ ليُنال باتِّباعه رضوانُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعليه فهذه الآيات يُراد بها هذا المعنى؛ أن يَلْزَمَ المسلمُ الأعمالَ الَّتي رَضِيَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبعثَ بها رسولَه ﷺ؛ ولهذا نقل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كُتُبِه عن بعض أهل العلم، أنَّه قال: «مَنْ أرادَ أن يبلغَ مَحَلَّ الرِّضَا؛ فلْيَلْزَمْ ما جعلَ اللهُ رضاه فيه»[2].

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الكلام في غاية الحُسْنِ؛ فإنَّه مَنْ لَزِمَ ما يُرْضِي اللهَ من امتثالِ أَوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيهِ لا سيَّما إذا قام بواجبها ومستحَبِّها؛ فإنَّ الله يرضى عنه»[3].

فمَن أراد لنفسه محلَّ الرِّضوان يوم يلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلن يَجِدَ ذلك إلَّا باتِّباع النَّبيِّ الكريم ﷺ، ولزوم نهجه القَويم.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) انظر: الاستقامة لابن تيميَّة (٢/ ٧٢).

(٣) انظر: الاستقامة لابن تيميَّة (٢/ ٧٢).

فبهذين الأصلين: ابتغاءِ الرِّضوان، واتِّباعِ الرِّضوان؛ يفوزُ العبدُ برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعظيمِ موعوده، وجميعُ الآيات الَّتي وردت في هذا المعنى كلُّها تَرْجِعُ إلى هذَيْنِ الأصلَيْن المَتِينَيْن، وفيهما يقول الفُضَيلُ بنُ عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُه»، قيل: يا أبا عليٍّ! وما أخلصُه وأصوبُه؟ قال: «إنَّ العَمَلَ إذا كان خالصًا ولم يكن صَوَابًا؛ لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا؛ لم يُقْبَلْ؛ حتَّى يكونَ خالِصًا صوابًا، والخالصُ: ما كان لله، والصَّوابُ: ما كان على السُّنَّة»(١).

وقد جُمع بين هذَيْن الأصلَيْن في آياتٍ؛ منها الآيةُ الَّتي خُتِمَتْ بها سورةُ الكهف، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذا اتِّباعُ الرِّضوان ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وهذا ابتغاءُ الرِّضوان بإخلاص العمل لله جَلَّ وَعَلَا.

وعلى المؤمن في هذا المقام العَظيم، أن يكونَ مُسارِعًا للخيرات لا أن يكون مُتَقَاعِسًا مُتوانِيًا مفرِّطًا مُضيِّعًا مُسَوِّفًا، وليكُن رائدُه في هذَا الباب وقدوُته فيه أنبياءَ الله ورسله عليهم صلواتُ الله وسلامُه، ومن الأمثلة العظيمة في ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نبيِّه موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ويستفاد من هذه الآية أنَّ الأصلَ أن يُسارع العَبدُ في نَيل مرضاةِ الله لا أن يُسَوِّف، أو أن يؤخِّر، فكم من أُناسٍ أخَّروا أعمالًا يُنال بها رضوانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فداهمهم

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في الإخلاص والنِّيَّة (٢٢)، وعنه الثعلبيُّ في تفسيره (٢٧/ ٩١).

الموتُ، وباغتَهم الأجَلُ قبل أن يُحقِّقُوا تلك الأعمال، وقبل أن يَفُوزُوا بتلك الخصَال.

فالواجبُ على العَبد أن يكونَ ساعيًا في الرِّضوان، مُسارعًا إلى نيله، جادًّا ومُجتهدًا في تحصيله، ويكون دأْبُه دائمًا وأبدًا، التماسَ الرِّضوان ليكون في أهل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التَّوبة: ٧١-٧٢].

جعلنا الله بمَنِّه وكرمه منهم، ووفَّقنا لكُلِّ خير.

٤٧
ذكر النِّعم والآلاء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ- أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ**». رواه التِّرمذيُّ[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**». قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي -قَالَ:- فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ**

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ». رواه مسلم(١).

إنَّ ذكر العباد لآلاء الله المتتالية ونعمه المتوالية وأفضاله الكثيرة في الدِّين، والمعافاة والصَّلاح والهداية في الأبدان والأموال والمساكن والمركوبات، وغير ذلك من الآلاء والنِّعم الَّتي أسداها المُنْعِم وتفضَّل بها سبحانه على العباد؛ يُعَدُّ مطلبًا عظيمًا في باب إصلاح القلوب وتزكيتها، يترتَّب عليه من المنافع العظيمة والمصالح الجليلة في الدُّنيا والآخرة ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى.

ولهذا كان مِنْ أهمِّ ما يكون في وعظ النَّاس وتذكيرهم وإيقاظ قلوبهم مِنْ غفلتها، أن يُذَكَّروا بنعمة الله -سبحانه- عليهم؛ ولهذا تجد في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً فيها تذكيرٌ بهذا المقام العظيم، وتنبيهٌ على هذا المطلب الجسيم؛ ليكون العبد ذاكرًا غير غافل شاكرًا غير كافر؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ في سياق موعظة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه أنَّه قال لهم: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وفي قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وموعظته لقومه قال لهم: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم:٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٤٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠].

وفي خطاب القرآن لأُمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آيٍ كثيرةٍ منه، جاء هذا التَّذكيرُ بنعم الله جَلَّ وَعَلَا على العباد؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة:٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة:١١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، والآيات في هذا المعنى في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا كثيرة.

والنِّعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيَّدة.

فأمَّا النِّعمة المطلقة فهي: المُتَّصلة بسعادة الأبد وهي نعمة الإسلام والسُّنَّة، وهي النِّعمة الَّتي أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط أهلها ومَن خصَّهم بها وجعلهم أهل الرَّفيق الأعلى؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النِّساء:٦٩].

وأمَّا النِّعمة المقيَّدة: كنعمة الصِّحَّة وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة

الولد وأمثال هذا، والنِّعمة المطلقة هي الَّتِي يُفرَح بها في الحقيقة، والفرح بها ممَّا يُحِبُّه الله ويرضاه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

إنَّ ذِكر نعم الله عَزَّوَجَلَّ وآلائه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح.

أمَّا القلب فذكره للنِّعمة باعترافه بفضل المُنْعِم، وإيمانه أنَّها محض فضله -سبحانه- وأنَّه هو الَّذِي أَوْلَى النِّعمة وأسداها وتفضَّل بها وأعطاها، لا شريك له عَزَّوَجَلَّ في شيء مِنْ ذلك، فالنِّعم كلُّها مِنَ الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل:٥٣]، وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النَّجم:٥٥]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ في مواطنَ كثيرةٍ من «سورة الرَّحمن»: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحمن:١٣]، قال الجِنُّ على إثر قراءة النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذه الآيات: «وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، وَلَكَ الْحَمْدُ»(١).

وأمَّا ذِكْر النِّعمة باللِّسان؛ فبحمد المُنْعِم والثَّناء عليه -جلَّ في علاه- وشكره عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا ذِكْر النِّعمة بالجوارح: بأن تكون الجوارح مستعمِلةً للنِّعمة في طاعة المُنْعِم، غير مستعملةٍ لها في شيء من معاصيه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) رواه المستغفريُّ في فضائل القرآن (٩٣٣)، والبيهقيُّ في دلائل النُّبوَّة (٢/ ٢٣٢).

وذِكرُ العبد لنعم الله عليه فيه فوائد عظيمة ومنافع متعدِّدة:

من أعظمها: أنَّ العبد إذا كان ذاكرًا نعمة الله عليه وفضله ومنَّه -سبحانه- أخلص دينه لله؛ فلم يلجأ إلَّا إلى الله، ولم يستعِن إلَّا بالله، ولم يَتوكَّل إلَّا على الله، ولم يصرف شيئًا مِنْ ذُلِّه وخضوعه إلَّا لله؛ لأنَّه وحده المُتَفَضِّل المُنْعِم لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

وفي ذكر العبد لنعمة الله معونةٌ له على إسلام وجهه لله وانقياده لله، خاضعًا مطيعًا مُتذلِّلًا مخبتًا منيبًا، ولهذا في سورة النَّحل الَّتي تُعرف بـ «سورة النِّعَم»؛ لكثرة ما عدَّد فيها -سبحانه- مِنْ نعمه على العباد، قال الله عَزَّوَجَلَّ في تمام عدِّه لنعمه: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النَّحل:٨١]، أي: تنقادون لله خاضعين ذليلين، فإذا قرأ المسلم «سورة النَّحل» -سورة النِّعم- عليه أن يستشعِرْ هذا المعنى وهو يتلو عَدَّ الله نعمه وأفضاله ومِنَنه، ويتذكَّر أنَّ هذه النِّعم المتوالية والعطايا المتتالية إنَّما أنعم الله بها على العباد؛ ليُسْلِموا لله وليخضعوا له ولينقادوا لشرعه لا أن يكونوا كمَن قال الله عنهم عقب ذلك: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل:٨٣].

وفي ذكر نعم الله على العباد معونةٌ للعبد على شكر المُنْعِم والمُتَفَضِّل -سبحانه- فإنَّ العبدَ إذا استشعر أنَّ هذه النِّعم من الله جَلَّوَعَلَا واستذكر ذلك؛ أعانه ذلك على شُكْر المُنْعِم والمُتَفَضِّل -سبحانه- قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

ومن فوائد ذكر النِّعم: طردُ الغرور والعُجب؛ فإنَّ العبد إذا ذكر أنَّ ما عنده من صحَّةٍ أو مالٍ أو جاهٍ أو غير ذلك محضُ فضل الله عليه ومنِّه؛ تباعد عنه الغرور والعُجب، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩]، قال أهل العلم: وفي قول هذه الكلمة عند تجدُّد النِّعمة طردٌ للعُجب والغرور.

إنَّ الواجب على العبد أن يكون دائمًا وأبدًا ذاكرًا نِعْمَةَ اللهِ عليه، مستعمِلًا لها فيما يرضيه -جلَّ في علاه- وأن يحذر أشدَّ الحذر من أن يبدِّل نعمة الله كفرًا؛ فإنَّ عذاب الله شديد وعقوبته أليمة، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١]؛ فليحذر مَنْ وَالَى الله عليه النِّعم مِنْ سخط المنعِم وغضبه، وليكن مجاهدًا نفسه على شكر المُنْعِم سبحانه، مستعمِلًا لنعمه في طاعته سبحانه.

وواجب على العباد أن يُقَيِّدوا نِعَم الله عليهم بالشُّكر للمُنْعِم؛ فإنَّ الشُّكْر مؤذِنٌ بالمزيد: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وهو مُتَعَيِّن على كلِّ مسلم، وهو السَّبيل لبقائها ودوامها ونُمُوِّها، كما أنَّ عدمَ شُكْر النِّعمة سببٌ لزوالها واضمحلالها.

وقد قيل: كلُّ شُكْرٍ وإنْ قلَّ ثمنٌ لكلِّ نَوَالٍ وإن جلَّ، فإذا لم يشكر المرء فقد عرَّض النِّعمة للزَّوال.

وقيل أيضًا: الشُّكْر قيدٌ للنِّعَم الموجودة، وصَيدٌ للنِّعَم المفقودة.

وقيل أيضًا: كُفْرَان النِّعم بوار، وهو وسيلة إلى الفِرَار، وكانوا يُسَمُّون

الشُّكْر: (الحافظ)؛ لأنَّه يحفظ النِّعم الموجودة، (والجالب)؛ لأنَّه يجلب النِّعَم المفقودة.

وقيل أيضًا: النِّعْمةُ إذا شُكِرت قرَّت وإذا كُفِرَت فرَّت.

ولقد حذَّر الله جَلَّ وَعَلَا في مواطن من كتابه من تبديل النِّعمة كفرًا، وعَدَمِ استعمالها في طاعة المُنْعِم وملاقاتِها بالأشَرِ والبَطَر وجُحُودِ الإنعام والإكرام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١]، وقال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]، وقال الله سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرَّعد:١١]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: من نعمةٍ وفضلٍ وإحسان ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالفسوق وكُفْرَان النِّعَم والعصيان.

وذكر سبحانه أخبار أقوامٍ أهلكهم وعذَّبهم بسبب كُفْرَان النِّعَم، وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة لحال هؤلاء؛ ليعتبر مَن أراد الاعتبار وليدَّكر من أراد الادِّكار، فإنَّ السَّعيد مَن وُعظ بغيره، والشَّقيّ مَن اتَّعظ به غيرُه. يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨]، وقال الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل:١١٢]،

أي: بسبب صنيعهم السَّيِّئ وأعمالِهم القَبِيحَة وفَعَائِلِهم الشَّنيعة، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥-١٧]. والأمثلة في القرآن على هذا كثيرة.

اللَّهُمَّ اجعلنا لك شاكرين، لك ذاكرين، إليك أوَّاهين منيبين.

٤٨
جهاد النَّفس

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**». رواه أحمد(١).

إنَّ من المطالب العظيمة في حياة المسلم العملَ على مجاهدة نفسه، ومداواتها وأطرها على الحقِّ وإلزامها سبيل الاستقامة، وسؤالَ الله دومًا المعونة على ذلك.

والأصل في هذا الباب قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:١٨-٢٠].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رحمه الله: «وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها؛ فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع

(١) رواه أحمد (٢٣٩٥٨)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

عنه، والتَّوبة النَّصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مُقَصِّرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربِّه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره؛ فإنَّ ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كُلّ الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقِّه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدَّارين، وغبنوا غبنًا لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره؛ لأنَّهم هم الفاسقون، الَّذِين خرجوا عن طاعة ربِّهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدَّم لغده، فاستحقَّ جنَّات النَّعيم، والعيش السَّليم -مع الَّذِين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين- ومَن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدُّنيا، واستحقَّ العذاب في الآخرة، فالأوَّلون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون»[1].

والنَّاس مع النَّفس على قسمين:

١- قسمٌ يجاهد نفسه ويعاتبها لتنهض إلى معالي الأمور وفضائل الآداب وكوامل الأخلاق.

٢- وقسمٌ أهملها فانغمست في الرَّذائل وتلوَّثت بارتكاب المعاصي والآثام.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٥٣).

وقد ذكر الله هذين القسمين في قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمس:٩-١٠]؛ زكَّاها بأن طهَّرها ونقَّاها من الكفر والمعاصي والآثام، وجاهدها على البعد عن ذلك كلِّه وأصلحها بالطَّاعات والأعمال الصَّالحات، و﴿دَسَّىٰهَا﴾: بأن حقَّرها وأخفاها بترك عمل البِرِّ وركوب المعاصي، وأطاعها فيما تدعوه إليه من أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتوجب عقابه.

ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ركَّب في الإنسان نفسين: نفسًا أمارةً بالسُّوء، ونفسًا مطمئنَّة؛ وهما متعاديتان، النَّفس الأمارة بالسُّوء معادية للنَّفس المطمئنَّة، والنَّفس المطمئنَّة معادية للنَّفس الأمَّارة بالسُّوء، وكلُّ ما خفَّ على هذه ثقل على الأخرى؛ فالأمور الَّتِي تريدها النَّفسُ الأمَّارة تأباها النَّفس المطمئنَّة، والأمور الَّتِي تريدها النَّفس المطمئنَّة تأباها النَّفس الأمَّارة، وكُلَّما التذَّت إحداهما بشيء تألَّمت الأخرى به؛ فمثلًا: إذا التذَّت النَّفس الأمَّارة بفعل معصية تألَّمت النَّفس المطمئنَّة لفعلها، ولهذا فإنَّ النَّفس الأمَّارة بالسُّوء أشقُّ شيءٍ عليها فعل الطَّاعات والقيام بالأمور الَّتِي تُرضي الله سبحانه وتعالى، والنَّفس المطمئنَّة أشقُّ شيءٍ عليها فعل المعاصي والآثام، وفي الإنسان نفس أمَّارةٌ بالسُّوء، كما يدلُّ لذلك قول الله عزَّ وجلَّ فيما حكاه عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]، أي: تأمر صاحبها بكُلِّ سوءٍ وتدعوه إلى المهالك وتهديه إلى كُلِّ قبيح، هذه طبيعتها وسجيَّتها، إلَّا مَن وفقه الله وثبَّته وأعانه فسلِم منها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّيٓۚ ﴾ أي: فنجا من غوائل نفسه وشرورها، ولهذا يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النُّور:٢١]، وقال لنبيِّه ﷺ وأكرم خلقه: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤]، وكان النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في خطبة الحاجة ويعلِّم أصحابه أن يقولوا: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»(١)، وذكرُ سيِّئات العمل بعد شرِّ النَّفس؛ لأنَّ سيِّئات العمل فرعٌ عن شرِّ النَّفس، فإذا خبُثت النَّفس وشانت دعت صاحبها إلى الأعمال السَّيِّئة والأقوال القبيحة ودفعته إلى المهالك، ولا يسلَم منها إلَّا إذا سلَّمه الله تبارك وتعالى ونجَّاه من غوائلها.

وإذا علم المسلم أنَّ النَّفس الأمَّارة بالسُّوء هذا شأنها وهذه صفتها، وأنَّها تدعو إلى المعاصي وتُبعد عن الطَّاعات وتُوهِّي الإيمان وتُضعفه لزمه أن يجتهد في مداواتها ومعالجتها ومحاسبتها ومعاتبتها ولومها، حتَّى يسلَم من مغبَّتها المردية وعواقبها الوخيمة، وذلك بأن يكون خطام نفسه بيده لا أن يجعل الخطام للنَّفس تقوده لاتِّباع شهواتها ومراداتها، دون مبالاة واكتراث بما يرضي الله أو يسخطه، ثمَّ لا يزال مطيعًا لها متَّبعا لها منقادًا لطلباتها حتَّى توقعه في الرَّدى والمهالك، فتصبح هي القائد ويصبح هو المقود، والأصل أن يكون مجاهدًا لنفسه كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ**

(١) رواه أبو داود (٢١١٨)، والتِّرمذيُّ (١١٠٥)، والنَّسائيُّ (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

اللهِ»(١)، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]، جاهدوا فينا: أي أنفسهم.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحمَ اللهُ عبدًا قالَ لنفسه: ألسْتِ صاحبَة كَذَا؟ ألسْتِ صاحبَة كَذَا؟ ثمَّ زمَّها، ثمَّ خطَمَها، ثمَّ ألْزَمَها كتابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فكانَ لهَا قائدًا»(٢).

وعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ، يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَفْجَأُهُ الشَّيْءَ يُعْجِبُهُ، فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي لأَشْتَهِيكَ، وَإِنَّكَ لَمِنْ حَاجَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إِلَيْكَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَفْرُطُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا، مَا لِي وَلِهَذَا، وَاللهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعَى فِي فِكَاكِ رَقَبَتِهِ، لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللهَ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ، فِي بَصَرِهِ، فِي لِسَانِهِ، فِي جَوَارِحِهِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ»(٣).

فالنَّفس تحتاج إلى مجاهدة ومحاسبة، أمَّا إذا تركها تفعل كُلَّ ما تشتهيه وتطلبه؛ فإنَّ هذا أضرُّ شيءٍ يكون على الإنسان في دينه ودنياه، والعاقل

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (١٦٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه الخرائطيُّ في إعلال القلوب (٣٨).

(٣) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٣٠٧).

النَّاصح لنفسه هو مَن يجاهد نفسه على توقِّي الآثام والبعد عن المعاصي، ويجاهدها على فعل الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والأعمال الَّتِي تُرضي الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وأعظم معِينٍ للعبد على ذلك أن ينظر ما قدَّم لغد، وهو اليوم الَّذِي يلقى الله فيه ويقف فيه بين يديه ويحاسبه على ما قدَّم في هذه الحياة، وهذا المعنى مستفاد من الآية المُتَقَدِّمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، فإذا أخذ نفسه هذا المأخذ وحاسبها هذه المحاسبة وذكَّرها دائمًا بغدِه؛ فإنَّه يسلم بإذن الله من شرِّ نفسه، فإذا دعته يومًا إلى أمرٍ يسخط الله ويغضبه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذكَّرها بقيامها بين يدي الله ووقوفها أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ذكَّرها بالحساب والجزاء والعقاب والجنَّة والنَّار حتَّى تكُفَّ عن دعوته إلى العصيان، وترتدع وتنزجر وتكُفَّ عمَّا تطلبه من الآثام، وهذا ما يُسَمَّى عند أهل العلم بمداواة النُّفوس أو محاسبة النُّفوس.

وقد أفرد بعض أهل العلم المُتَقَدِّمين كابن أبي الدُّنيا والآجُرِّيِّ وغيرهما من أهل العلم كتبًا خاصَّة في محاسبة النَّفس، وجمعوا فيها في هذا الباب الشَّريف العظيم نقولًا عظيمة عن السَّلف الصَّالح.

ولعلَّنا نقف هنا مع كلماتٍ عظيمة ومواعظ مُؤَثِّرة في جهاد النَّفس ومحاسبتها، للخلفاء الرَّاشدين الأربعة أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهم وعن الصَّحابة أجمعين، خيرِ أُمَّة محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، جاءت هذه المواعظ في خطبٍ لهم بليغة ووعظٍ مُؤَثِّر.

خطب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَأَنْ تُثْنُوا

عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَتَخْلِطُوا الرَّغْبَةَ بِالرَّهْبَةِ، وَتَجْمَعُوا الْإِلْحَاحَ بِالْمَسْأَلَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ثُمَّ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ اللهَ قَدِ ارْتَهَنَ بِحَقِّهِ أَنْفُسَكُمْ، وَأَخَذَ عَلَى ذَلِكَ مَوَاثِيقَكُمْ، فَاشْتَرَى مِنْكُمُ الْقَلِيلَ الْفَانِيَ بِالْكَثِيرِ الْبَاقِي. وَهَذَا كِتَابُ اللهِ فِيكُمْ؛ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا يُطْفَأُ نُورُهُ؛ فَصَدِّقُوا قَوْلَهُ وَانْتَصِحُوا كِتَابَهُ، وَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ الظُّلْمَةِ، وَإِنَّمَا خَلَقَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَوَكَّلَ بِكُمُ الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ، ثُمَّ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْقَضِيَ الْآجَالُ وَأَنْتُمْ فِي عَمَلِ اللهِ فَافْعَلُوا، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ، فَسَابِقُوا فِي مُهَلِ آجَالِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ آجَالُكُمْ فَيَرُدَّكُمْ إِلَى أَسْوَأِ أَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّ أَقْوَامًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْهَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَالْوَحَا الْوَحَا، ثُمَّ النَّجَا النَّجَا، فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا مَرُّهُ سَرِيعًا»[١].

وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خطبته: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ»[٢].

وقال عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في خطبته: «ابْنَ آدَمَ، اعْلَمْ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكَ لَمْ يَزَلْ يُخَلِّفُكَ وَيَتَخَطَّى إِلَى غَيْرِكَ مُذْ أَنْتَ فِي الدُّنْيَا، وَكَأَنَّهُ

(١) رواه هنَّاد في الزُّهد (٤٩٥).
(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٧١٧٨).

قَدْ تَخَطَّى غَيْرَكَ إِلَيْكَ وَقَصَدَكَ؛ فَخُذْ حِذْرَكَ وَاسْتَعِدَّ لَهُ وَلَا تَغْفَلْ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفَلُ عَنْكَ، وَاعْلَمِ ابْنَ آدَمَ إِنْ غَفِلْتَ عَنْ نَفْسِكَ وَلَمْ تَسْتَعِدَّ لَهَا؛ لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهَا غَيْرُكَ، وَلَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلَا تَكِلْهَا إِلَى غَيْرِكَ»(١).

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في آخر خطبةٍ خطبها في جماعة: «إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ لَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا، إِنَّمَا الدُّنْيَا تَفْنَى، وَالْآخِرَةُ تَبْقَى، لَا تُبْطِرْكُمُ الْفَانِيَةُ، وَلَا تُشْغِلْكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، آثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، اتَّقُوا اللهَ فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ، وَوَسِيلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ، وَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ الْغِيَرَ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ، لَا تَصِيرُوا أَحْزَابًا، ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٤]»(٢).

وخطب عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّاس بالكوفة، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيُضِلُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»(٣).

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (٢٠٧).
(٢) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (١٠٦١٢).
(٣) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (١٠٦١٤).

ألا ما أعظمها من وصايا، فحريٌّ بكُلِّ مؤمن حريصٍ على سعادة نفسه ونجاتها أن يجاهد نفسه ويحاسبها قبل أن يحاسبه الله، وأن يزن أعماله قبل أن يقف بين يديه جلَّ في علاه، والكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

اللَّهُمَّ، آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

٤٩
الخوف من الشِّرك

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ»، أَوْ قَالَ: «وَشَهَادَةُ الزُّورِ». متَّفق عليه(١).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ -ثَلَاثًا- الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، أَوْ «قَوْلُ الزُّورِ»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا، حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. متَّفق عليه(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْيَمِينُ الْغَمُوسُ» قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: «الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ». رواه البخاريُّ(٣).

الإشراك بالله هو أعظم أدواء القلب وأخطر أمراضه؛ فإنَّ «القلب خلق

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٧١)، ومسلم (٨٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٦٥٤)، ومسلم (١٤٣).
(٣) رواه البخاريُّ (٦٩٢٠).

لمعرفة فاطره ومحبَّته وتوحيده، والسُّرور به والابتهاج بحُبِّه، والرِّضى عنه والتَّوكُّل عليه، والحُبِّ فيه والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون أحبَّ إليه من كُلِّ ما سواه، وأرجى عنده من كُلِّ ما سواه، وأجلَّ في قلبه من كُلِّ ما سواه، ولا نعيم له ولا سرور ولا لذَّة بل ولا حياة إلَّا بذلك، وهذا له بمنزلة الغذاء والصِّحَّة والحياة»[1]. فإذا فقد ذلك ووقع في الإشراك بالله فقد أصيب بأعظم أدوائه.

والشِّرك أعظم الذُّنوب وأظلم الظُّلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات، وهو أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له وأشدُّها مقتًا لديه، ورتَّب عليه من عقوبات الدُّنيا والآخرة ما لم يُرتِّبه على ذنب سواه وأخبر أنَّه لا يغفره، وهو هضم لحقِّ الرُّبوبيَّة وتنقيص لعظمة الإلهيَّة وسوء ظَنٍّ بربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشِّرك؛ فإنَّهم ظَنُّوا به ظَنَّ السَّوء حتَّى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظَّنَّ لوحَّدُوه حقَّ توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين: أنَّهم ما قدروه حقَّ قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حقَّ قدره مَن جعل له عدلًا وندًّا يُحِبُّه ويخافه ويرجوه ويذِلُّ له، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة:١٦٥] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

---

(١) زاد المعاد لابن القيِّم (٤/ ٢٨٩).

وقد دلَّت نصوص الكتاب والسُّنَّة على أنَّ الشِّرك نوعان: أكبر، وأصغر.

وهما يختلفان في الحدِّ والحكم:

أمَّا حدُّ الشِّرك الأكبر: فهو أن يُسوَّى غيرُ الله بالله سواء في الرُّبوبيَّة أو الأسماء والصِّفات أو الألوهيَّة، فمَن سوَّى غير الله بالله في شيء من خصائصه أو حقوقه؛ فإنَّه يكون بذلك أشرك بالله شركًا أكبر ينقل صاحبَه من مِلَّة الإسلام.

أمَّا حدُّ الشِّرك الأصغر: فهو ما جاء في النُّصوص وصفه بأنَّه شرك، ولا يبلغ حدَّ الشِّرك الأكبر؛ كالحلف بغير الله، وقول: «ما شاء الله وشئت»، وقول: «لولا كذا لكان كذا وكذا»، ونحو ذلك من الألفاظ الَّتي فيها شرك.

وأمَّا من حيث الحكم في الآخرة؛ فإنَّهما يختلفان: فالشِّرك الأكبر صاحبه مُخَلَّدٌ في النَّار أبد الآباد، لا يُقضى عليه فيموت، ولا يخفَّف عنه من عذابها، وأمَّا الشِّرك الأصغر، فشأنه دون ذلك، وهو أكبر من الكبائر؛ كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»(١)؛ لِأَنَّ في الحَلِف بغير الله صادقًا شركًا بالله عز وجل، وفي الحَلِف به كاذبًا وقوع في كبيرة الكذب، ولا تُقارَن الكبيرة بالشِّرك؛ وهذا من فقه الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقول النَّبيِّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**»، فيه تنبيه لخطورة الكبائر وعظم مضرَّتها على النَّاس، ليتَّقيها المسلمُ فلا يقع فيها؛ فإنَّ المسلم كما أنَّه

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (١٢٦٦٨)، والطَّبرانيُّ (٨٩٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ موقوفًا في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٩٥٣).

مأمور أن يعرفَ الخير ليعمَل به، فكذلك مأمور أن يعرف الشَّرَّ ليجتنبه، وقد قيل قديمًا: «كيف يتَّقي مَن لا يَدري ما يَتَّقي؟!» أي: كيف يتَّقي المُحرَّماتِ ويجتَنِبُ المُنكَراتِ، وهو لا يعرفُها، ولا يعرفُ خُطورَتَها، ولا يعرفُ العقوبات الَّتي ورَدَتْ في نصوص الشَّرع مُحَذِّرَةً منها؟! فتأكَّد على المسلم: أن يعرِفَ الكبائرَ من أجْل اجتنابِها واتِّقائها، ولا سيَّما الشِّرك الَّذي هو أعظمها وأكبرها.

والواجب على المسلم أن يعيش حياته حذرًا من الوقوع في الذُّنوب الَّتي توجب غضب الله وسخطه، وأعظم ما يجب أن يخاف منه العبد ويحذر؛ الشِّرك بالله، فإنَّ الخوف من الشِّرك مطلب عظيم يجب أن يكون في قلب كُلِّ مسلم، بل ينبغي أن يكون خوفه منه على نفسه أعظمَ من خوفه عليها من أيِّ أمر آخر، وفي كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ نصوصٌ عديدة إذا تأمَّلها العبد جلبت لقلبه خوفًا من الشِّرك وحذرًا منه وتوقِّيًا للوقوع فيه.

قال الله جَلَّ وَعَلَا في موضعين من سورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨]؛ ففيهما بيان بيِّنٌ أنَّ مَن لقي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مشركًا به؛ فإنَّه لا مطمع له في مغفرة الله، بل إنَّ مآله ومصيره إلى نار جهنَّم خالدًا مخلدًا فيها، لا يقضى عليه، فيموت ولا يُخَفَّف عنه من عذابها، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

وإنَّ ممَّا يجلب الخوف من الشِّرك إلى القلوب المؤمنة أنَّ نتأمَّل في حال الصَّالحين وحال الأنبياء المُقرَّبين وخوفهم من هذا الذَّنب العظيم، ويكفي في هذا المقام أنَّ نتأمَّل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي اتَّخذه الله خليلًا وحطَّم الأصنام بيده ودعا إلى توحيد الله وقام في هذا الأمر مقامًا عظيمًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، فسأل إمامُ الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ الله سبحانه أن يُجنِّبه وبنيه عبادة الأصنام!! أي أن يجعله في جانب بعيد عنها فلا يقربها ولا يقع فيها ولا في شيء من وسائلها أو ذرائعها، وذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه من ذلك بكثرة مَن افْتُتِن وابتلي بعبادتها، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴾.

قال إبراهيم التَّيميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَن يأمن البلاء بعد إبراهيم!!»(١)، أي: إذا كان إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف من الشِّرك ودعا الله تعالى بهذه الدَّعوة العظيمة، فكيف يأمن البلاءَ غيره!! فهذا يوجب الخوف الشَّديد من الشِّرك؛ لأنَّه أمر لا يُؤمن من الوقوع فيه، وقد وقع فيه كثير من الأذكياء من النَّاس.

وقد كان نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول -كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِذَا أَصْبَحَ وَثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِذَا أَمْسَى-: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». رواه أبو داود(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٢٨٧)، وتفسير الوسيط للواحديِّ (٣/ ٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن الإسناد».

وكان يقول -في دعائه كما في «الصَّحيحين» وغيرهما-: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي؛ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(١). وعن النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**». وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**» قَالَ: «**وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». رواه ابن ماجه(٢).

ومن الأدلَّة في هذا الباب ما جاء في «المسند» وغيره، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ** -أي: إنَّ أشدَّ شيء أخافه عليكم الشِّرك بالله- قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**»(٣).

فإذا كان النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاف على الصَّحابة وهم مَنْ هم في الطَّاعة والتَّوحيد من الشِّرك الأصغر؛ فكيف الشَّأن بمَن هو دونهم في التَّوحيد والعبادة؟! بل جاء في «الأدب المفرد» للبخاريِّ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»، فقال أبو بكر: وَهَلْ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ**

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) رواه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٣).

دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟» قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَم»(١).

وهي دعوة عظيمة يتأكَّد علينا أن نحفظها ونحافظ عليها.

وممَّا يجلب الخوف من الشِّرك: ما ثبت في أحاديث كثيرة عن النَّبِيِّ ﷺ من إخباره أنَّ من الأُمَّة مَن سيرجعون إلى عبادة الأوثان، وقد جاء في هذا أحاديث عديدة؛ منها ما ثبت في «سنن أبي داود» وغيره عنه ﷺ، أنَّه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»(٢)، وفي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ»(٣). وَكَانَتْ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وروى البخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»(٤).

قال ذلك عليه الصلاة والسلام نصحًا للأُمَّة وتحذيرًا لها من هذا الذَّنب العظيم ليأخذوا الحيطة والحذر.

وممَّا يجلب الخوف من الشِّرك أنَّ المشرك ليس بينه وبين النَّار إلَّا أن

(١) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه مسلم (٢٩٠٦).
(٤) رواه البخاريُّ (٧٣٢٠).

يموت؛ كما في «صحيح البخاريِّ» أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ**»(١).

فكُلُّ هذه الدَّلائل تدعو المؤمن إلى أن يخاف من الشِّرك خوفًا عظيمًا، ثمَّ إنَّ هذا الخوف يحرِّك في قلبه الحرص على معرفة هذا الذَّنب الوخيم؛ ليكون منه على حذرٍ وليتَّقيه في حياته كلِّها؛ ولهذا جاء في «الصحيحينِ» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»(٢).

وما مِن ريبٍ أنَّ في معرفَةِ المسلمِ للشِّرك وخطورته فائدةً عظيمةً في الدِّين، إذا عَرَفَه معرفةً يقصدُ مِن ورائها السَّلامةَ مِنه، والنَّجاةَ مِن الوقوع فيه، فإنَّ مَن عَرَفَ الشِّركَ والكفرَ والباطلَ وطُرُقَهُ وأبغضَها وحَذِرَها وحذَّر منها ودَفَعَها عن نفسه ولم يَدَعْها تَخْدِشُ إيمانه، لا يزدادُ مع مَرِّ الأيَّام إلَّا بصيرةً بالحقِّ ومحبَّةً له، وكراهةً للشِّرك والباطل ونُفرةً عنه، والله وحده الحافظ والهادي إلى سواء السَّبيل.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٩٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

٥٠
الخوف من النِّفاق

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». متَّفق عليه[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ». متَّفق عليه[2].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». رواه مسلم[3].

النِّفاق من سيِّء خصال القلوب وقبيح صفاتها، وهو إظهار ما لا يبطن الإنسان؛ فإن كان هذا الإظهار لخلاف ما يبطن يتعلَّق بالاعتقاد، كما قال الله

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤)، ومسلم (٥٨).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٣) رواه مسلم (٦٢٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١]؛ فهذا نفاق اعتقاديٌّ وهو كفر أكبر ناقل من الملَّة، وأمَّا إذا كان إظهار الإنسان ما لا يبطن يتعلَّق بالأعمال كأن يُظهر أنَّه صادق وهو في قلبه يبطن الكذب، أو يظهر الوفاء بالوعد وهو في قلبه يبطن عدم الوفاء؛ فهذا نفاق عمليٌّ.

وفي القرآن الكريم آي كثيرة في ذمِّ النِّفاق والمنافقين وذكر صفاتهم وأعمالهم، وفيه سورة عظيمة تسمَّى (الفاضحة)؛ وهي من أواخر سور القرآن نزولًا؛ ألَا وهي سورة التَّوبة، وقد فضح الله جَلَّ وَعَلَا فيها المنافقين، وهتَك أستارهم، وبيَّن فضائحهم ومخازيهم، وأخرج جَلَّ وَعَلَا ما يُبطنون في قلوبهم وصدورهم من حقدٍ وكيدٍ وحسد للإسلام وأهله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «هذه السُّورة تسمَّى الفاضحة؛ فاضحة المنافقين»[1].

وقد كان من شأن المنافقين وحالهم إذا خلا بعضهم إلى بعض اجتمعوا على الاستهزاء بالدِّين، والسُّخرية بعباد الله المؤمنين، والتَّهكُّم بأعمال الدِّين العظيمة وطاعاته الجليلة وعباداته الفاضلة، والاستهزاء بمَن كان متمسِّكًا بدين الله محافظًا على طاعة الله، ثمَّ إذا ختموا مجلسهم تخوَّفوا وحاذَروا أن تُنزَّل سورة تفضحهم وتهتك سترهم وتبيِّن مخازيهم، قال الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التَّفسير (١٠٠٤٥).

ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التَّوبة:٦٤].

فنزلت سورة التَّوبة فاضحة للمنافقين؛ ولهذا ورد فيها في مواضع عديدة ذكرُ أوصاف المنافقين بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾، ثمَّ يذكر صفاتهم.

ولقد كان فضْح المنافقين في هذه السُّورة فضحًا لهم بذكر أوصافهم ونعوتهم وخصالهم وخلالهم دون ذكرٍ للأسماء؛ وذلك ليبقى الأمر حُكمًا عامًّا إلى قيام السَّاعة في كلِّ مَن كان متَّصفًا بصفات المنافقين.

ولذا وجب على كلِّ مسلم أن يكون في غاية الحذر من النِّفاق وأعمال المنافقين وصفاتهم؛ فإنَّ الله إنَّما ذكرها في كتابه لتُتَّقى ويحذر من الوقوع في شيء منها، وعلى المسلم أن يكثر من دعاء الله أن يعيذه من النِّفاق ومن أوصاف المنافقين.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ: مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَالْقَسْوَةِ، وَالْغَفْلَةِ، وَالْعِيلَةِ وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْفُسُوقِ، وَالشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ وَالسُّمْعَةِ، وَالرِّيَاءِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ، وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَالْبَرَصِ، وَسَيِّئِ الْأَسْقَامِ**». روا الحاكم[١].

ولقد وصف الله جَلَّ وَعَلَا المؤمنين الكمَّل من عباده بصفاتٍ عديدة دالةٍ

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٩٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٢٨٥).

على كمال دينهم وقوَّة إيمانهم وحُسن معرفتهم بربِّهم وتمام محافظتهم على الإيمان في سورة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ اسمها «المؤمنون»، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

ومن هذه الصِّفات: خشيتُهم من الله وذلك لحُسن معرفتهم به جلَّ في علاه، ومنها وجَلُهم وخوفهم على إيمانهم؛ لأنَّه أثمن شيء يملكونه وأغلاه وأعلاه، فكان خوفهم على الإيمان أشدَّ من الخوف على أيِّ شيء آخر؛ لعظم مكانة الإيمان في قلوبهم. وقد جمع الله لهم حُسن الإيمان والعمل مع الخوف والوجل من أن لا يُقبل الإيمان أو أن يُردَّ العمل؛ وهذه حال المؤمن كامل الإيمان، كما قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا»(١).

ومَن يتأمَّل في سيَر السَّلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم مع ما كانوا عليه من هديٍ عظيم وإيمان قويم وحُسن صلة بالله جلَّ في علاه، يجد في الوقت نفسه خوفًا شديدًا قام في قلوبهم على إيمانهم ودينهم، من أن تتبدَّل القلوب أو يتغيَّر الإيمان أو يتحوَّل الحال إلى النِّفاق.

نعم! مع كمال إيمانهم وقوَّة دينهم كانوا يخافون على قلوبهم من النِّفاق

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٩٨٥).

خوفًا شديدًا، وقد جاءت نقولٌ متكاثرة في كتب الحديث والسِّيَر شاهدة لذلك دالَّة عليه:

قال عبد الله بن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت ثلاثين صحابيًّا كلَّهم كان يخاف النِّفاق على نفسه»(١).

وجاء عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وهو مَن هو في الإيمان والدِّين- أنَّه أتى حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: «أنشدك بالله هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ؟ -يعني في المنافقين-» قال: «لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا»(٢).

وجاء عن جبير بن نُفير وهو من علماء التَّابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قال: أتيت أبا الدَّرداء وكان يصلِّي، فلمَّا كان في آخر صلاته بعد التَّشهُّد وقبل أن يسلِّم، سمعته يتعوَّذ بالله من النِّفاق ويُكثر من ذلك فقلت له: «وما لك يا أبا الدَّرداء أنت والنِّفاق!!» أي: مكانتك عظيمة وأنت صحابيٌّ جليل، فقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «دعنا عنك، فوالله، إنَّ الرَّجل ليتقلَّب عن دينه في السَّاعة الواحدة فيُخلع منه إيمانه»(٣).

وجاء عن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قيل له: إنَّ ناسًا يقولون: «لا نفاق»، فقال: «لأن أعلم أنِّي بريء من النِّفاق أحبُّ إليَّ من طلائع الأرض ذهبًا»(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٨)، ووصله في ابن أبي خيثمة في تاريخه (٦٥١)، انظر: تغليق التَّعليق (٢/ ٥٢).
(٢) رواه أبو جعفر ابن البختري (٦١٧).
(٣) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٦٨).
(٤) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٦٧).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما أصبحَ ولا أمسى مؤمن إلَّا وهو يخاف النِّفاق على نفسه»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما خافه -أي: النِّفاق- إلَّا مؤمن ولا أمِنَه إلَّا منافق»(٢).

وقيل له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أتخاف النِّفاق؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما يؤمِّنني وقد خافه عمر ابن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»(٣).

وقال معاوية بن قُرَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن أكون ليس فِيَّ شيء من النِّفاق أحبَّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها، كان عمر يخشاه ولا أخشاه أنا!!»(٤).

وقال أيُّوب السّختيانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ آية في القرآن فيها ذِكر النِّفاق فإنِّي أخافها على نفسي»(٥).

فهذه نُبَذٌ يسيرةٌ من سِيَرِ القوم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ورضي عنهم، فهم مع كمال إيمانهم وتمام عبادتهم وحُسن صلتهم بالله جلَّ في علاه يخافون من النِّفاق خوفًا شديدًا، بخلاف مَن كان مضيِّعًا مُفَرِّطًا متهاونًا متكاسلًا غير مبالٍ بأمور الإيمان وأعماله وخصاله، ثمَّ هو في الوقت نفسه يرى أنَّه في سلامة تامَّةٍ من النِّفاق وأنَّ إيمانه لم يحصل له ما يثلُمه أو يُنقصه.

(١) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٨٢).
(٢) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٨)، ووصله ابن حجر في تغليق التَّعليق (٢/ ٥٣).
(٣) رواه الذَّهبيُّ في تذكرة الحفَّاظ (٢/ ٣٠).
(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/ ٢٧٢).
(٥) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٨٦).

وعندما نتأمَّل في النُّصوص الواردة في علامات النِّفاق وصفات المنافقين؛ كقول الله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النِّساء:١٤٢-١٤٣]. وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ؛ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**»(١). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ؛ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**»(٢)؛ فذكر من صفته تأخير الصَّلاة عن وقتها، والإتيان بها نقرًا، وقلَّة ذكر الله له فيها. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ستُّ صفات في الصَّلاة من علامات النِّفاق: الكسل عند القيام إليها، ومراءاة النَّاس في فعلها، وتأخيرها، ونقرها، وقلَّة ذكر الله فيها، والتَّخلُّف عن جماعتها»(٣). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»(٤). وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَكِرُّ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ مَرَّةً**»(٥).

مَن يطالع هذه النُّصوص المشتملة على صفات المنافقين وغيرها ممَّا ورد في هذا الباب؛ يجد أنَّ في النَّاس مَن يكون متَّصفًا بهذه الصِّفات أو ببعضها أو

(١) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٢) رواه مسلم (٦٢٢).
(٣) انظر: الصَّلاة لابن القيِّم (ص٢٨٤).
(٤) رواه البخاريُّ (١٧)، ومسلم (٧٤).
(٥) رواه مسلم (٢٧٨٤).

بكثيرٍ منها أو بها وبزيادةٍ عليها وهو في الوقت نفسه يرى أنَّه في سلامةٍ تامَّةٍ من النِّفاق ومن أوصاف المنافقين، وأنَّ إيمانه لا نقص فيه ولا ثلْم، فشتَّان بين حال المؤمنين الكمَّل وبين من ضيَّعوا إيمانهم وفرَّطوا فيه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في شرحه لباب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، من صحيح البخاريِّ-: «وأصل هذا يرجع إلى ما سبق ذكره: أنَّ النِّفاق أصغر وأكبر؛ فالنِّفاق الأصغر: هو نفاق العمل وهو الَّذِي خافه هؤلاء على أنفسهم؛ وهو باب النِّفاق الأكبر، فيخشى على مَن غلب عليه خصال النِّفاق الأصغر: في حياته أن يخرجه ذلك إلى النِّفاق الأكبر حتَّى ينسلخ من الإيمان بالكُلِّيَّة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصَّف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠]»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للأربعين: «فالمؤمن يخاف على نفسه النِّفاقَ الأصغرَ، ويخاف أنْ يغلب ذلك عليه عندَ الخاتمة، فيخرجه إلى النِّفاق الأكبر، كما تقدَّم أنَّ دسائس السُّوء الخفيَّة تُوجِبُ سُوءَ الخاتمة، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُكثرُ أنْ يقول في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فقيل له: يا نبيَّ الله آمنا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ فقال: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(٢). خرَّجه الإمام

(١) فتح الباري لابن رجب الحنبليِّ (١/ ١٩٥).

(٢) رواه أحمد (١٢١٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

أحمد والتِّرمذيُّ من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»[(١)].

نسأل الله أن يعيذنا من النِّفاق، وأن يزكِّي قلوبنا، ويصلح سرائرنا.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٤).

٥١
الفرح

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟**» قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ». متَّفق عليه[1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ؛ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**»[2].

الفرح لذَّةٌ تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى، فيتولَّد عن ذلك

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

الإدراك حالةٌ تُسَمَّى الفرح، لكن شتَّان بين فرحٍ وفرح، شتَّان بين من فرحه بِدُنيا فانية ولذةٍ زائلة أو بأهواءٍ باطلة وبدعٍ مردية، وبين من فرحه بخير وعبادة وطاعة لله، فإنَّ هذا الفرح يُعَدُّ من مقامات الدِّين العليَّة ومنازله الرَّفيعة؛ لأنَّه فرع عن محبَّة قامت في القلوب بالدِّين نفسه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالسُّنَّة وبالعلم وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين، قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التَّوبة١٢٤]، وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرَّعد:٣٦]، فالفرح بالعلم والإيمان والسُّنَّة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبَّته له وإيثاره له على غيره، فإنَّ فرح العبد بالشَّيء عند حصوله له على قدر محبَّته له ورغبته فيه، فمَن ليس له رغبة في الشَّيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبَّة والرَّغبة»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربِّه أعظم من فرح كُلِّ أحد بما يفرح به؛ من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك. يفرح المؤمن بربِّه أعظم من هذا كلِّه، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتَّى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونَضْرَتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنَّة حيث لقَّاهم الله نَضْرَةً وسرورًا. فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، فهذا هو العلم

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ٧).

الَّذِي شمَّر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحاب الخصائص والمكارم»(١).

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشُّبه والشُّكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: محصِّلٌ لها الهداية والرَّحمة من الله تعالى. وإنَّما ذلك للمؤمنين به والمُصدِّقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] أي: بهذا الَّذِي جاءهم من الله من الهدى ودين الحقِّ فليفرحوا، فإنَّه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدُّنيا وما فيها من الزَّهرة الفانية الذَّاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه

(١) طريق الهجرتين لابن القيِّم (٢/ ٦١١).

الآية: «وذُكِر عن بَقيَّة -يعني ابن الوليد- عن صفوان بن عمرو، سمعت أيفع ابن عبدٍ الكلاعيَّ يقول: لما قُدِّم خراجُ العراق إلى عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يَعُدُّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الَّذي يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، وهذا ممَّا يجمعون»(١).

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي الَّذِينَ قَدِمُوا مَعِي فِي السَّفِينَةِ نُزُولًا فِي بَقِيعِ بُطْحَانَ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَتَنَاوَبُ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ نَفَرٌ مِنْهُمْ، فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَا وَأَصْحَابِي وَلَهُ بَعْضُ الشُّغْلِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ فَأَعْتَمَ بِالصَّلَاةِ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِهِمْ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ: «**عَلَى رِسْلِكُمْ أَبْشِرُوا إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ**»، أَوْ قَالَ: «**مَا صَلَّى هَذِهِ السَّاعَةَ أَحَدٌ غَيْرُكُمْ**» لَا يَدْرِي أَيَّ الْكَلِمَتَيْنِ قَالَ. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَرَجَعْنَا فَفَرِحْنَا بِمَا سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ». رواه البخاريُّ(٢).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَا هُمْ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي بِهِمْ، فَفَجَأَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٧٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٧).

يَفْتَتِنُوا فِي صَلَاتِهِمْ فَرَحًا بِالنَّبِيِّ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا، ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ، وَتُوُفِّيَ ذَلِكَ الْيَوْمَ». رواه البخاريُّ[(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أُبَيُّ، أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ ذُكِرْتُ هُنَاكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، فَفَرِحْتَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: وَمَا يَمْنَعُنِي وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. قَالَ مُؤَمَّلٌ: قُلْتُ لِسُفْيَانَ: هَذِهِ الْقِرَاءَةُ فِي الْحَدِيثِ؟ قَالَ: نَعَمْ. رواه أحمد[(٢)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُتِيَ فِي امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَجُلٌ فَلَمْ يُسَمِّ لَهَا صَدَاقًا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، قَالَ: فَاخْتَلَفُوا إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي ذَلِكَ شَهْرًا أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقُولَ فِيهَا؟ قَالَ: فَإِنِّي أَقْضِي لَهَا مِثْلَ صَدُقَةِ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، فَإِنْ يَكُ صَوَابًا، فَمِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً، فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ، فَقَامَ رَهْطٌ مِنْ أَشْجَعَ، فِيهِمُ الْجَرَّاحُ، وَأَبُو سِنَانٍ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَةٍ مِنَّا يُقَالُ لَهَا: بَرْوَعُ بِنْتُ وَاشِقٍ، بِمِثْلِ الَّذِي قَضَيْتَ، فَفَرِحَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، حِينَ وَافَقَ قَوْلُهُ قَضَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. رواه أحمد[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٢٠٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١١٣٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤٢٧٧).

وروى أبو نعيم في الحلية أنَّ الفضيل وقف على رأس سفيان وحوله جماعة، فقال له: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]. فقال له سفيان: «يا أبا عليٍّ، والله لا نفرح أبدًا حتَّى نأخذ دواء القرآن فنضعه على داء القلب»[١].

فليحاسب المرء نفسه في ضوء هداية هاتين الآيتين، ولينظر في نوع فرحه وحقيقته؛ أهو من هؤلاء الَّذين فرحهم حقًّا وصدقًا برحمة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله؟ أم أنَّه فرحٌ قاصر على لذَّة فانية وحطامٍ زائل أو أهواءٍ وضلالاتٍ ومهالك؟

والله جَلَّ وَعَلَا عندما أمر في هذا السِّياق المبارك بالفرح برحمته وفضله جلَّ في علاه قدَّم ببيان أوصاف القرآن، الَّتي تدعو حقًّا مَن تأمَّلها إلى الفرح بالقرآن، والفرح بهدايات كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، **فوصف سبحانه في هذا السِّياق المبارك القرآن بصفات أربع، ما أعظمها وما أجلَّها:**

الأولى: أنَّه كتاب موعظة؛ ففيه التَّرغيب والتَّرهيب، وفيه الوعد والوعيد، وفيه الحثُّ على الخيرات والنَّهي عن المُحَرَّمات، وفيه أخذٌ بالقلوب والنُّفوس إلى التَّعلُّق بالمقاصد العالية والغايات النَّبيلة والبعد عن سفساف الأمور ورديئها وحقيرها.

ووصفه جَلَّ وَعَلَا بأنَّه شفاءٌ لما في الصُّدور من الأمراض والأسقام؛ أمراض الشُّبهات وأمراض الشَّهوات، الشُّبهات الَّتي تحجب عن القلوب العلم بالحقِّ والمعرفة به، والشَّهوات الَّتي تُبعد القلوب عن لزوم الحقِّ والاستمساك به،

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٧٠).

فالقرآن شفاء لما في الصُّدور لما فيه من حججٍ بيِّنات وبراهين واضحات، ولما فيه من وعظٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ووعدٍ ووعيد.

ووصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى القرآن بأنَّه هدى، أي: فيه هداية للقلوب، فهو يهدي للَّتِي هي أقوم، ويدُلُّ للَّتِي هي أرشد، فالقرآن كتاب هداية وفلاح، وكتاب زكاء وصلاح، فلا هداية لأحد إلَّا بهذا القرآن الكريم، فهو كتاب الله المشتمل على هداية القلوب وصلاح النُّفوس وزكائها ورفعتها في الدُّنيا والآخرة.

ووصفه جَلَّ وَعَلَا بأنَّه رحمة لما يترتَّب على العمل بالقرآن من الخيرات العظام والبركات الجسام الَّتِي يفوز بها منَ كان من أهل القرآن حقًّا وصدقًا علمًا وعملًا.

وعلى إثر ذكر هذه الأوصاف العظيمة للقرآن أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالفرح بفضله وبرحمته، فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: بالقرآن والإيمان، والعلم والعمل، والطَّاعة والانقياد، والعبادة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، وقوله ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ أمْرٌ بهذا النَّوع من الفرح المثمر لكُلِّ خير وفلاح وسعادة في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّه عبوديَّة عظيمة للقلوب خسِرَتها قلوبٌ كثيرة وضيَّعتها نفوسٌ عديدة بسبب الانشغال بأنواعٍ من الفرح الَّذِي لا طائل وراءه ولا فائدة منه إلَّا الضَّياع والحرمان.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا شيء أحقَّ أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته الَّتِي تتضمَّن الموعظة وشفاء الصُّدور من أدوائها بالهدى والرَّحمة، فأخبر سبحانه أنَّ ما آتى عباده من الموعظة الَّتِي هي الأمر والنَّهي المقرون

بالتَّرغيب والتَّرهيب وشفاء الصُّدور المُتَضَمِّن لعافيتها من داء الجهل والظُّلمة والغيِّ والسَّفه وهو أشدُّ ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنَّها لمَّا ألفت هذه الأدواء لم تحسَّ بألمها، وإنَّمَا يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدُّنيا فهناك يحضرها كُلُّ مؤلم محزن، وما أتاها من ربِّها الهدى الَّذِي يتضمَّن ثلج الصُّدور باليقين وطمأنينة القلب به وسكون النَّفس إليه وحياة الرُّوح به، والرَّحمة الَّتِي تجلب لها كُلَّ خير ولذَّة وتدفع عنها كُلَّ شرٍّ ومؤلم؛ فذلك خير من كُلِّ ما يجمع النَّاس من أعراض الدُّنيا وزينتها، أي هذا هو الَّذِي ينبغي أن يُفْرَح به، ومَن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدُّنيا منها فإنَّه ليس بموضع للفرح؛ لأنَّه عرضة للآفات ووشيك الزَّوال ووخيم العاقبة»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففضله الإسلام والإيمان، ورحمته العلم والقرآن، وهو يُحِبُّ من عبده أن يفرح بذلك ويُسَرَّ به، بل يُحِبُّ من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يُسَرَّ بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفَّقه الله لها وأعانه عليها ويَسَّرَها له، ففي الحقيقة إنَّمَا يفرح العبد بفضل الله وبرحمته»[(٢)].

فمَن أكرمه الله بأداء الصَّلاة والمحافظة عليها، والقيام بفرائض الإسلام وواجبات الدِّين، وأداء الحقوق -حقوق الله وحقوق العباد-، والبعد عن المُحَرَّمات فليفرح بذلك، وفرحه بذلك عبوديَّة عظيمة من عبوديَّات القلب، وإذا وُجد هذا النَّوع من الفرح في قلب المؤمن انبسطت نفسه وزاد إقباله على طاعة الله وزاد عملًا بأوامر الله وبُعدًا عن نواهيه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٤/ ٥).
(٢) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٣/ ٥١٣).

وعندما نتأمَّل السِّياق المُتَقَدِّم؛ ندرك أنَّ القرآن الكريم ليس الغرض من إنزاله مُجَرَّد قراءته وترتيله وإقامة حروفه، وإنَّمَا المراد من تنزيله الاتِّعاظ بمواعظه، والاستشفاء به، والاهتداء بهداياته، والفوز والظَّفر بما يترتَّب على العناية بالقرآن من رحمة وخير وبركات في الدُّنيا والآخرة.

وعندما يشتطُّ بالإنسان الفهم أو يسوء منه العمل تنصرف نفسه إلى أنواعٍ من الفرح تكون مضرَّتها عليه عظيمة للغاية وآثارها عليه فادحة، كمَن يفرح بارتكابه لشهوةٍ مُحَرَّمة أو ببدع وأهواءٍ ما أنزل الله بها من سلطان.

هذا ولا يضرُّ المرء فرحه بما أوتي من زينة الدُّنيا إذا لم تكن صارفة له عن طاعة ربِّه ومرضاته.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الْأَرْقَمِ، وَهُوَ يَقُولُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ عِنْدَنَا حِلْيَةٌ مِنْ حِلْيَةِ جَلَوْلَاءَ، وَآنِيَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَانْظُرْ أَنْ تَأْمُرَ فِيهَا بِأَمْرِكَ، فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَنِي فَارِغًا فَآذِنِّي، فَرَآهُ يَوْمًا، فَقَالَ: إِنِّي أَرَاكَ الْيَوْمَ فَارِغًا، فَقَالَ: ابْسُطْ لِي نِطْعًا فِي الْحَشِّ، قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: يُرِيدُ النَّخْلَ - فَأَمَرَ بِنِطْعٍ فَبُسِطَ لَهُ، فَأَتَى بِذَلِكَ الْمَالِ فَصَبَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا الْمَالَ وَقُلْتَ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران:١٤]. وَقُلْتَ: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣]. اللَّهُمَّ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ نُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، قَالَ: فَأُتِيَ بِابْنٍ لَهُ يُحْمَلُ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ

بُهَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتَاهُ، هَبْ لِي خَاتَمًا، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى أُمِّكَ تَسْقِيكَ سَوِيقًا، فَمَا أَعْطَاهُ مِنْهُ شَيْئًا»[١].

فلنجاهد أنفسنا على تحقيق هذا الفرح بفضل الله وبرحمته؛ لنفوز بثواب الله العظيم وأجره الجزيل، الَّذِي أعدَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعباده المُتَّقين وأوليائه المُقَرَّبين.

---

(١) رواه أبو داود في الزُّهد (٧١).

٥٢
مدار السَّعادة

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**». فَقَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل:٥-١٠]». متَّفق عليه[١].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ**

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ؛ بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». متَّفق عليه[(١)].

إنَّ سعادة العبد في دنياه وأخراه وراحة قلبه وسروره هبة ربانيَّة ومِنَّة إلاهيَّة، وهي بيد الله سبحانه، فكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له؛ مَن كان من أهل السَّعادة فسيصير إلى عمل أهل السَّعادة، ومَن كان من أهل الشَّقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشَّقاوة، والله سبحانه مُيَسِّر الأمور، وشارح الصُّدور، والمعين والهادي والموفِّق الَّذي بيده أَزِمَّةُ الأمور، يُعْطِي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويقبض ويبسط، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والله قدَّر السَّعادة والشَّقاوة بأسبابها، كما تقدَّم في الحديث: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ**»، فأُمر العبادُ أن يعملوا ويبذلوا جهدهم بفعل الأسباب الَّتي ينالون بها السَّعادة ويسلمون من الشَّقاء، مستعينين بالله طالبين منه المدد والعون.

والسَّعادة لا تُنَال إلَّا بطاعة الله واتِّباع هداه، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢]، أي: بل أنزلناه عليك لتسعد، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٩٧]؛ فالحياة الطَّيِّبة الَّتي ليس فيها نكد ولا مُكَدِّرات هي حياة الإيمان والطَّاعة.

هذا ومدار أمر السَّعادة على تحقيق أمورٍ ثلاث لا بُدَّ منها، فمَن وُفِّق لتحقيقها ويُسِّر له القيام بها كان من أهل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة؛ ألا وهي: شكر الله على نعمائه، والصَّبر على قدره وقضائه، والاستغفار والتَّوبة إليه جلَّ في علاه.

وذلك أنَّ العبد في هذه الحياة يدور مع أمورٍ ثلاثة:

نِعَمٌ متوالية وعطايا متتالية يمنُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها عليه، والنِّعمة تستوجب شكر المنعِم سبحانه.

أو مصائب وأمورٌ يقدِّرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويقضي بها على عبده، واجب على العبد أن يتلقَّاها بالصَّبر على قضاء الله وقدره محتسبًا راجيًا فضل الله وعطاءه.

والثَّالث: ذنوب يقترفها وخطايا يرتكبها وتقصيرات في جنب الله يقع فيها، فهذه تتطلَّب توبةً واستغفارًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ هذه الأمور الثَّلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفكُّ عبد عنها أبدًا؛ فإنَّ العبد دائم التَّقلُّب بين هذه الأطباق الثَّلاث»(١).

---

(١) انظر: الوابل الصَّيِّب لابن القيِّم (ص٥).

فطوبى لمَن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

وحمدُ الله وشكره على منه وعطاياه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة مؤذِنٌ بالمزيد كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]. والله سبحانه يرضى عن عبده إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها وإذا شرب الشَّربة أن يحمده عليها. والمؤمن مأمور بالاعتراف بنعم الله عليه ومننه وأفضاله، وأن يحرِّك لسانه شكرًا لله وحمدًا وثناءً، وأن يُعمِل جوارحه في طاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

والصَّبر على البلاء مقام عظيم من مقامات الدِّين الرَّفيعة ومنازله العليَّة، ولا يوفَّق له إلَّا مَن منَّ الله عليه وشرح صدره فتلقَّى قضاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وقدَره بالعلم والإيمان بأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغابن:١١]، قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «هو الرَّجل تصيبه المصيبة فيعْلمُ أنَّها من عند الله فيرضى ويسلِّم»(١).

وأمَّا الاستغفار فشأنه عظيم وثوابه عند الله جزيل، وفي الحديث عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»(٢). وآثار الاستغفار على العباد وثماره عليهم في الدُّنيا والآخرة لا تُعَدُّ ولا تحصى، ومن ثماره

(١) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٩٥٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الدُّنيويَّة ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

وقد جُمِعت هذه الأمور الثَّلاثة الَّتي عليها مدار السَّعادة في أثرٍ عظيم يروى عن الصَّحابيِّ الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ: مَنْ كَانَ عِصْمَةُ أَمْرِهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَيْئًا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ**»[1]. رواه ابن المبارك في الزُّهد، وابن أبي الدُّنيا في كتابه الشُّكر، والبيهقيُّ في شعب الإيمان وغيرهم؛ فذكَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذه الأمور الثَّلاثة الَّتي عليها مدار السَّعادة وأضاف إليها أمرًا عظيمًا وأصلًا متينًا عليه قيامُ الدِّين كلمةَ التَّوحيد لا إله إلَّا الله، وهي عصمة أمر المسلمين لا نجاة لهم ولا سعادة في الدُّنيا والآخرة إلَّا بتحقيقها، بل عليها مدار السَّعادة؛ فأهلها هم أهل السَّعادة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وقد أجمع السَّائرون إلى الله أنَّ القلوب لا تعطى مناها حتَّى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتَّى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتَّى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها. ولا يصحُّ لها ذلك إلَّا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (ص٥٠ -ملحق)، وابن أبي الدُّنيا في الشُّكر (٢٠٥)، والبيهقيُّ في الإيمان (٩٦٩٢).

وكما أنَّ مَن نهى نفسه عن الهوى كانت الجنَّة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدَّار في جنَّة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتَّة، بل التَّفاوت الَّذِي بين النَّعيمين كالتَّفاوت الَّذِي بين نعيم الدُّنيا والآخرة. وهذا أمر لا يُصَدِّق به إلَّا مَن باشر قلبه هذا وهذا.

ولا تحسب أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثَّلاثة هم كذلك، أعني: دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النَّعيم إلَّا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلَّا عذاب القلب؟

وأيُّ عذاب أشدُّ من الخوف، والهمِّ، والحزن، وضيق الصَّدر، وإعراضه عن الله والدَّار الآخرة، وتعلُّقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكُلِّ وادٍ منه شعبة؟»(١).

فتوحيدُ الله والإيمانُ وتوابع الإيمان ومُتمِّماته ومُكَمِّلاته هو السَّعادة الحقيقيَّة؛ فمَن كان من أهل الإيمان تحقيقًا له وتتميمًا وقيامًا بمقتضياته وما يستوجبه الإيمان نال من السَّعادة بحسب ما عنده من الإيمان، وإذا ضعُف الإيمان ضعف حظُّه من السَّعادة، وإذا ذهب الإيمان ذهبت السَّعادة وفارقت العبد، فبالإيمان يسعد، وبه يطمئنُّ، وبه تقرُّ العين، وبه ينشرح الصَّدر، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرَّعد: ٢٨-٢٩].

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيم (ص٧٦).

وهذا يتطلَّب من العبد أيضًا أن يقوم بحقوق الإيمان من معاملات وآداب وأخلاق مع الآخرين، حتَّى يظفر بالسَّعادة وحتَّى تتحقَّق له بأبهى صورها وأجمل حُللها، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والسَّعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله؛ فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسِن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكُفُّ عن ظلمهم خوفًا من الله لا منهم»[1]؛ وهذا كلام عظيم جدير بأن ينتبه العبد في تعامله مع النَّاس بما يُحَقِّق له هو السَّعادة ويُحَقِّق أيضًا السَّعادة للآخرين والرَّاحة والطُّمأنينة، والإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، يدفع الله به عن العبد الهموم والغموم، والإسلام سلام وعافية، والإيمان أمن وطمأنينة، ولهذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ**»[2]؛ فالإيمان مجلبةٌ للسَّعادة والرَّاحة والطُّمأنينة، ومَن يُضَيِّع الإيمان وهداياته يجلب لنفسه ولمَن حوله الشَّقاء.

ثمَّ إنَّ الدُّعاء مفتاح كُلِّ خير، والسَّعادة بيد الله، فليكن طلب العبد لسعادته وراحته وطمأنينة قلبه وراحة باله وزوال همومه وغمومه من الله وحده جَلَّ وَعَلَا، وفي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ**

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١/ ٥١).

(٢) رواه أحمد (٨٩٣١)، والتِّرمذيُّ (٢٦٢٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا»، وفي رواية: «**وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**»(١).

وهذا الدُّعاءَ تضمَّن أربعة أصول عظيمة، لا سبيل للعبد إلى نيل السَّعادة وزوال الهمِّ والغمِّ والحزن إلَّا بالإتيان بها وتحقيقها:

الأوَّل: تحقيقُ العبادة لله وتَمام الانكسار بين يديه، والخضوع له واعترافه بأنَّه مخلوق لله مَملوكٌ له هو وآباؤه وأمهاتُه، ابتداء من أبويه القريبين وانتهاء إلى آدم وحواء، ولهذا قال: «**اللَّهمَّ، إنِّي عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتِك**».

الأمر الثَّاني: إيمان العبد بقضاء الله وقَدَره، وأنَّ ما شاء الله كان وما لَم يشأ لَم يكن، وأنَّه سبحانه لا مُعَقِّبَ لحُكمه ولا رادَّ لقضائه، ولهذا قال في هذا الدُّعاء: «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**».

الأمر الثَّالث: الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، ومعرفة معانيها ودلالاتها، فإنَّ أعظمَ ما يَطرُدُ الهمَّ والحزنَ والغمَّ أن يعرفَ العبدُ ربَّه، وأن يَعمُرَ قلبَه بمعرفته سبحانه، وأن يتوسَّلَ إليه بأسمائه وصفاته؛ ولهذا قال: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**».

الأمر الرَّابع: العناية بالقرآن، ربيع القلوب ونور الصُّدور وضياء النُّفوس، فإنَّ العبد كلَّما كان عظيمَ العناية بالقرآن تلاوةً وحفظًا ومذاكرةً وتدبُّرًا، وعملًا وتطبيقًا؛ نال من السَّعادة والطُّمأنينة وراحةِ الصَّدر وزوال الهمِّ والغَمِّ والحزن

---

(١) رواه أحمد (٤٣١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

بحسب ذلك، ولهذا قال في هذا الدُّعاء: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ؛ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبُّر القرآن وإطالة التَّأمُّل وجمع الفكر على معاني آياته، فإنَّها تُطْلِع العبد على معالم الخير والشَّرِّ بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السَّعادة»(١).

فهذه أمور أربعة هي جماع أبواب السَّعادة، الطَّاردةُ للغموم، المذهِبة للهموم، المبعِدة للأحزان، الجالبة لراحة القلوب وطمأنينة النُّفوس وسعادة الدَّارين.

كتبنا الله في عبادة السُّعداء، وسلك بنا سبيل السَّعادة.

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٨٤).

٥٣
الصَّبر

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**». رواه مسلم[1].

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ** -أَوْ تَمْلأُ- **مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**». رواه مسلم[2].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**». متفق

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

عليه[١].

إنَّ من مقامات الدِّين العظيمة ومنازله العليَّة ورُتبِه الرَّفيعة الصَّبْرَ بأنواعه، وهو ساق الدِّين الَّذِي عليه يقوم، كما قال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه: «الصَّبر من الإيمان بمنزلة الجسد من الرَّأس، ولا إيمان لمَن لا صبر له»[٢].

ولهذا تكاثرت النُّصوص والدَّلائل وتضافرت الحجج والبراهين في كتاب الله جَلَّوَعَلَا وسُنَّة رسوله ﷺ مُبَيِّنَةً مكانة الصَّبر العظيمة ومنزلتَه الرفيعةَ، وما يترتَّب عليه من الآثار الكريمة والمنافعِ العميمةِ في الدُّنيا والآخرة، حتَّى قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «لقد ذُكِرَ الصَّبر في القرآن أكثر من تسعين مرَّة»[٣].

ولقد تنوَّعت هدايات القرآن في التَّرغيب بالصَّبر وبيان مكانته العظيمة، ومنزلته الرَّفيعة في دين الله جَلَّوَعَلَا، فجاء في بعضها الأمرُ به والتَّحذير من ضدِّه، وفي بعضها بيان آثاره الحميدة وثماره المباركة على الصَّابرين في الدُّنيا والآخرة، بل أخبر جَلَّوَعَلَا أنَّه يُحِبُّ الصَّابرين قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وأنَّه معهم كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦]، وأخبر بأنَّ لهم البِشارة العظمى والنَّوال الكريم في الدُّنيا والآخرة: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، وأخبر جَلَّوَعَلَا أنَّ الفلاح في الدُّنيا والآخرة يناله الصَّابرون، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ

(١) رواه البخاريُّ (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٢) رواه وكيع في الزُّهد (١٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٢٤٦٠).
(٣) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ١٦٦).

﴿وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وأخبر جَلَّوَعَلَا أنَّ الصَّبر خيرٌ لأهله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النَّحل:١٢٦]، إلى غير ذلك من النُّصوص العظيمة والدَّلائل الكريمة المُبَيِّنة لمكانة الصَّبر العليَّة ومنزلته الرَّفيعة.

والصَّبر خير العطاء وأوسع النَّوال، كما تقدَّم في الحديث: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**»، وهو ضياء لصاحبه ونور له في حياته، يستبين به السَّبيلَ ويتحمَّل به المشاقَّ، وتهون عليه الصِّعاب وتنبسط له الحياة ويُسَّرُّ فيها غاية السُّرور، كما تقدَّم في الحديث: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»؛ ولا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًّا على الحقِّ ثابتًا على الصِّراط.

والدُّنيا دارُ امتحان ومَيْدانُ ابتلاء، وما من عبد في هذه الحياة إلَّا وهو مبتلى، ثمَّ المرجع إلى الله، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النَّجم:٣١]، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

والابتلاء في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ تارة يكون بالنِّعمة والرَّخاء، وتارة يكون بالشِّدَّة والبلاء، تارة يكون بالصِّحَّة وتارة يكون بالمرض، تارة يكون بالغنى وتارة يكون بالفقر؛ والمؤمن عرضة للبلاء في هذين البابين: باب الشِّدَّة وباب الرَّخاء، إلَّا أنَّه من خيرٍ إلى خير في كُلِّ ابتلاءاته، كما في الحديث: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ!! لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**»، فأمَّا مَن لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرَّخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له.

وتأمَّل هذا التَّعميم: «**شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**»؛ فقوله: «**شَيْئًا**» يتناول كُلَّ ابتلاء سواء كان شدَّة أو كان رخاء، فالمؤمن في كُلِّ ابتلاءاته من خير إلى خير؛ وذلك أنَّ المؤمن المُوَفَّق إذا ابتلاه الله جَلَّ وَعَلَا بالشِّدَّة والعسر، والمرض والفقر ونحو ذلك تلقاه بالصَّبر؛ فيفوز بثواب الصَّابرين، وإذا ابتلاه الله جَلَّ وَعَلَا بالرَّخاء واليسر، والصِّحَّة والعافية، والغنى والسَّعة؛ تلقَّاه بالشُّكر فيفوز بثواب الشَّاكرين، فهو يتقلَّب في هذه الابتلاءات بين صبر وشكر، وقد قال الله تعالى في أربعة مواضع من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]؛ فذكر سبحانه هذين المقامين العظيمين: مقام الصَّبر على البلاء، ومقام الشُّكر على النَّعماء، في سياق حسن الانتفاع بآياته، فأخبر أنَّه إِنَّمَا ينتفع بها أهل الصَّبر والشُّكر.

إنَّ حاجة المسلم إلى الصَّبر وضرورتَه إليه مُلِحَّة في كُلِّ شأن من شؤونه، وكُلِّ عمل من أعماله؛ فلا استطاعة للعبد على القيام بأيِّ عمل من الأعمال أو طاعةٍ من الطَّاعات إلَّا بخصلة الصَّبر العظيمة، ولا استطاعة للعبد على الانكفاف عن المُحَرَّمات والإحجام عن المنهيَّات والبعد عن الأمور الَّتِي تُسْخِط الله إلَّا بهذه الخصلة العظيمة، ولا قدرة للعبد على تحمُّل الآلام والصِّعاب والمصائب إلَّا بهذه الخصلة العظيمة، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الصَّبر ثلاثة أنواع؛ صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة.

فمَن لا صبر له كيف يحافظ على الصَّلاة! وكيف يواظب على الصِّيام!

وكيف يؤدِّي الطَّاعات على التَّمام والكمال!! ومَن لا صبر له كيف يبتعد عن المُحَرَّمات ويجتنب الآثام!! ومَن لا صبر له كيف يتحمَّل مصائب الدُّنيا!! ولهذا كانت الحاجة للصَّبر شديدة والضَّرورة إليه مُلِحَّة.

إنَّ الصَّبر خُلُق عظيم وخلَّة جليلة وقوَّة نفسيَّة يترتَّب على وجودها في العبد فعل ما يجمُل والبعد عمَّا لا يجمل ولا يحسُن، يستطيع العبد بها بإذن الله أن يحبس نفسه عندما يصاب بالآلام والمصائب عمَّا يسخط الله من قول الحرام أو فعل الحرام، كما قال بعض العلماء «الصَّبر: حبس النَّفس عن الجزع، واللِّسان عن التَّسخُّط، واليد عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب»، وبه يستطيع أن يلزم نفسه بطاعة الله والمحافظة على الفرائض والواجبات والعناية بالرَّغائب والمُسْتَحَبَّات، وبه يستطيع أن يكفَّ نفسه عن معاصي الله والبعد عن الحرام واجتناب الآثام، وتوقِّي ما يُسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. فالصَّبر «هو حبس النَّفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التَّسخُّط والشِّكاية لأقداره»(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصَّبر نصف الإيمان؛ فإنَّه ماهية مُرَكَّبة من صبر وشكر، كما قال بعض السَّلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم: ٥].

والصَّبر من الإيمان بمنزلة الرَّأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله، فلا يُضَيِّعها، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها، وصبر على

---

(١) انظر: رسالة ابن القيِّم لأحد إخوانه (ص١٨).

أقضيته وأقداره، فلا يتسخَّطها، ومَن استكمل هذه المراتب الثَّلاث، استكمل الصَّبر. ولذَّة الدُّنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظَّفر فيهما، لا يصل إليه أحد إلَّا على جسر الصَّبر، كما لا يصل أحد إلى الجنَّة إلَّا على الصِّراط، قال عمر ابن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خير عيش أدركناه بالصَّبر»(١).

وإذا تأمَّلت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كُلَّها منوطة بالصَّبر، وإذا تأمَّلت النُّقصان الَّذِى يُذَمُّ صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كلَّه من عدم الصَّبر، فالشَّجاعة والعِفَّة، والجود والإيثار، كلُّه صبر ساعة...

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنَّمَا تنشأ من عدم الصَّبر، فما حفظت صحَّة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصَّبر، فهو الفاروق الأكبر، والتّرياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلَّا معيَّة الله مع أهله، فإنَّ الله مع الصَّابرين ومحبَّته لهم، فإنَّ الله يُحِبُّ الصَّابرين، ونصره لأهله، فإنَّ النَّصر مع الصَّبر، وإنَّه خير لأهله، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٦]، وإنَّه سبب الفلاح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»(٢).

وقد روى أبو يعلى في مسنده وابنُ أبي شيبة في مصنَّفه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِل: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «**الصَّبر والسَّماحة**»(٣).

وإنَّمَا كان الصَّبر والسَّماحة بهذه المنزلة العليَّة من الإيمان، وبهذه المكانة

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٦٣٠)، ووكيع في الزُّهد (١٩٨).

(٢) انظر: زاد المعاد لابن القيِّم (٤/ ٣٠٥ - ٣٠٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٢٤١١)، وأحمد (٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٥٥٤).

الرَّفيعة من الدِّين لأنَّهما خُلُقَان في النَّفس يَحتاج إليهما العبد في مقامَات الدِّين كلِّها، وفي جميع مصالحه وأعماله، فلَا غنى له في شيءٍ من ذلك عن الصَّبر والسَّماحة، للحاجة الشَّديدة إلى هذين الخُلُقين الفَاضلين في جميع مقامَات الدِّين.

ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُبيِّنًا مكانة هذا الحديث العظيمة، ومبيِّنًا مدلوله ومعناه -: «وهذا من أجمع الكَلام وأعظمه بُرهانًا وأوعبه لمقامات الإيمان من أوَّلها إلى آخرها؛ فإنَّ النَّفس يُراد منها شيئان:

بذْلُ ما أُمِرت به وإعطاؤه، فالحامل عليه السَّماحة.

وترك ما نُهيت عنه والبُعد منه فالحامل عليه الصَّبر»[(١)].

وقد سُئل الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أحد رواة هذا الحديث، قيل له: ما الصَّبر وما السَّماحة؟ فقال: «الصَّبر عن معصية الله، والسَّماحة بأداء فرائض الله عَزَّوَجَلَّ». رواه أبو نعيم في الحلية[(٢)].

ومَن يتأمَّل في هذا الحديث العظيم وفي دلالته العَظيمة يجد أنَّه حديثٌ جامع للدِّين كلِّه؛ لأنَّ المؤمن مأمور بأفعال وطَاعات وعبادات متنوِّعات، وهذه كلُّها تحتاج إلى سماحة نفس.

والسَّماحة في أصل معناها تدُلُّ على السُّهولة واليُسر والسَّلاسة، فمَن

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٤٥٩).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٦).

كانت نفسه سلسلةً سهلةً سمحةً انقاد للأوامر وامتثل الطَّاعات ولم يتلكَّأ ويمتنع، والصَّبر حبس النَّفس ومنعها، والعبد مأمور بالانكفاف عن المعاصي والبُعْد عن المناهي وتجنُّب المحرَّمات، وهذا يَحتاج إلى صبر، وإذا كان لا صبر عنده فإنَّ نفسه تتفلَّت فلا يتمكَّن من منعها عمَّا نهاه اللهُ عنه.

وبهذا يُعلم أنَّ مَن لا صبر عنده لا يستطيع أن يقاوم، ومَن لا سماحة لديه لا يستطيع أن يقوم؛ مَن لا صبر عنده لا يستطيع أن يقاوم النَّفس عن رعونتها عند حلول البلاء، ولا يستطيع أن يقاوم النَّفس من انفلاتها عند دواعي الشَّهوات والأهواء، ومَن لا سماحة لديه لا يستطيع أن يقوم بالعبادات والطَّاعات؛ لأنَّ نفسه غير السَّمحة لا تنهض للقيام بالأوامر والاستجابة لداعي الطَّاعات، فإذا دُعيت نفسه إلى طاعة شحَّت، وإذا أُمرت بفضيلة تأبَّت، وبهذا يكون من المحرُومين.

فإذا أكرم الله –سبحانه – عبده فكان صبورًا سمحًا؛ هدي إلى كُلِّ خير، وأعين على كُلِّ بِرٍّ وفضيلة، ووقي من كُلِّ بلاء وشرٍّ، فما أحوج النُّفوس إلى الصَّبر والسَّماحة لتنهض قيامًا بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا، ولتمتنع عمَّا نُهيت عنه من المُحَرَّمات والآثام، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، فنسأله سبحانه أن يمنَّ علينا بالصَّبر والسَّماحة وبكُلِّ خلق جميل.

٥٤
النَّصيحة

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: «لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ»؟ «**قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**». رواه مسلم(١).

في هذا الحديث بيان عظم شأن النَّصيحة في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ عليها قيام دين الله جَلَّ وَعَلَا؛ فالدِّين كلُّه قائمٌ على النُّصح؛ النُّصح لله، والنُّصح لكتاب الله، والنُّصح لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، والنُّصح لأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

قال أبو داود السِّجستانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفقه يدورُ على خمسةِ أحاديث: «**الْحَلَال بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**»(٢)، وقوله ﷺ: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»(٣)، وقوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٤)، وقوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»(٥)، وقوله: «**وَمَا نَهَيْتُكُمْ**

(١) رواه مسلم (٥٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٣) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وابن ماجه (٢٣٤٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٧٥١٧).
(٤) رواه البخاريُّ (١)، مسلم (١٩٠٧).
(٥) رواه مسلم (٥٥).

عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[(١)](٢).

وهذه الكلمة العظيمة «النَّصيحة» هي جماع الدِّين؛ لأنَّ الدِّين قائم عليها، ولا يكون من أهل الدِّين القائمين به حقًّا وصدقًا إلَّا النَّاصح، والنَّصيحة عمادها القلب ومدارها عليه بما في قلوب أصحابها من النَّصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البِرِّ والصِّدق والإخلاص للكبير المتعال.

وقد ذكرها الله في القرآن وصفًا لأنبيائه الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصَّالحين من عباده، قال الله تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨].

وقال تعالى عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقال تعالى عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقال تعالى عن المحسنين من عباده: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).
(٢) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١٨٨٧).

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التَّوبة:٩١].

وقد أفاد الحديث انحصار الدِّين في النَّصيحة، وأنَّ مواطن النَّصيحة خمسة: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، وتضمَّن الحثَّ على هذه المواطن الخمسةِ؛ لأنَّها إذا كانت هي الدِّين فلا شكَّ في ضرورة المحافظة عليها؛ ولهذا ينبغي على العبد المسلم أن يجاهد نفسه على تحقيق النُّصح العظيم؛ لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين، وعامَّتهم.

أمَّا النُّصح لله: فبتوحيده جلَّ في علاه وإخلاص الدِّين له وإفراده وحده جَلَّ وَعَلَا بالعبادة؛ بأن لا يُدعى إلَّا الله، وأن لا يُسأل إلَّا الله، وأن لا يستغاث إلَّا بالله، وأن لا يُصرف شيء من العبادة إلَّا له، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وأن يكون الدِّين كلُّه لله، وأن يُخْلَص الدِّين لله، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمر:٣]، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ إنَّما خلق الخلق وأوجدهم ليعبدوه وليفردوه بالعبادة، كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، وهي حقُّ الله على العباد الَّذي خلقهم لأجله وأوجدهم لتحقيقه، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(١).

(١) رواه البخاريُّ (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

فالنَّصيحة لله تكون بالتَّوحيد والتَّعظيم لله جَلَّ وَعَلَا، وحُسن المعرفة به، وبإخلاص الدِّين له، وبالبراءة من الشِّرك والخلوص منه، وأن يحافظ العبد على طاعة الله من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وغير ذلك من الطَّاعات، وأن يقصد بها التَّقرُّب إليه ونيل رضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والفوز بجنَّته.

وأمَّا النَّصيحة لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا: فبتعظيم هذا الكتاب، ومعرفة قدره العظيم، وأنَّه وحي منزَّل، وأنَّه كلام ربِّ العالمين، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعراء:١٩٢-١٩٥]، وباعتقاد عظمة هذا الكتاب، فإنَّ الفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بين الله وخلقه. وأن يعنى العبد بهذا الكتاب تلاوةً وتدبُّرًا وعملًا بهدايات كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١]، فإنَّ هذا القرآن أُنزل ليُعمل به وليُهتدى بهداياته ولتُتدبَّر آياته، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فالاهتداء بهدايات القرآن والاستشفاء به وحسن العمل به كُلُّ ذلك من النُّصح لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

ومن النُّصح لكتاب الله أن يحذر العبد من أن يتَّخذ كتاب الله مهجورًا، سواء بهجر التِّلاوة، أو هجر التَّدبُّر، أو هجر العمل به. فالواجب على العبد أن يحذر من ذلك كلِّه ليكون من أهل النُّصح لكتاب الله، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

وأمَّا النَّصيحة لرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: فبمعرفة قدر هذا الرَّسول ﷺ

ومكانته العظيمة، وأنَّه أوْلى بكُلِّ مؤمنٍ ومؤمنة من نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]؛ لأنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنصح لكُلِّ امرئ من نفسه، وأحرص على كُلِّ امرئ من نفسه، وأشفق على كُلِّ امرئ من نفسه، وما ترك خيرًا إلَّا دلَّ الأُمَّة عليه ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه صلوات الله وسلامه عليه.

ومن النَّصيحة له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُحَبَّ محبَّةً مُقَدَّمة على محبَّة النَّفس والوالد والولد والنَّاس أجمعين، وأن يُتَّبع أمره ويتمسَّكَ بهديه القويم ونهجه المستقيم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور:٦٣].

وأمَّا النَّصيحة لأئمَّة المسلمين وهم الحكَّام والعلماء: فبمعرفة ما أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تجاههم من نصحٍ لهم، وأعظم ما يقوم عليه النُّصح لهم: أن يُحِبَّ لهم الخير والعافية وصلاح الشَّأن؛ ولهذا ليس من النُّصح لأئمَّة المسلمين في شيء أن يفرح بزلَّةٍ إن وقعت أو خطأ إن حصل، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١).

فالنُّصح لهم هو أوَّلًا بسلامة القلب ونقائه تجاههم من الغلِّ والحقد

---
(١) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

والحسد والضَّغائن ونحو ذلك، وكذلك بسلامة اللِّسان تجاههم؛ فلا يكون فيه ثلْبٌ وشتم ووقيعة، بل ليس فيه إلَّا الدُّعاء لهم بالخير والعافية، وأن يقدِّم لهم كذلك من النُّصح والبيان بالطُّرق الشَّرعيَّة والمسالك المرعيَّة ممَّا دلَّ عليه هدي كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه. وكُلُّ مخالفة لشرع الله فيما يتعلَّق بحقوق الولاة يُعَدُّ غشًّا وليس نصيحةً حتَّى وإن فعله مَن فعله تديُّنًا وتقرُّبًا لله؛ فإنَّه لا يُتقرَّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمخالفة هدي رسوله ﷺ. ولهذا فإنَّ الافتيات على ولاة الأمر ونزع اليد من الطَّاعة والخروج على جماعة المسلمين هذا كلُّه من الغشِّ وليس من النَّصيحة. روى التِّرمذيُّ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(١).

وأمَّا النَّصيحة لعامَّة المسلمين: فبأَنْ يُحِبَّ لهم من الخير ما يُحِبُّه لنفسه، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢)، أي: من الخير، وأن يأتي لهم من الأعمال والأقوال ما يُحِبُّ أن يؤتى إليه، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»(٣)، وهذا هو جماع النَّصيحة لعامَّة المسلمين. راجع إلى هذين الحديثين؛ فقوله «**لَا يُؤْمِنُ**

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٦٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٤).

أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» هذا يتعلَّق بعمل القلب؛ بأن يكون القلب مُحِبًّا الخير للمسلمين غير غاشٍّ، لا يحمل غلًّا أو حقدًا أو سخيمة أو نحو ذلك، وحديث: «**وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»، هذا فيه صلاح الظَّاهر قولًا وفعلًا؛ فلا يأتي إليهم من الأقوال والأفعال إلَّا الشَّيء الَّذِي يُحِبُّ أن يعامَل به، وأمَّا ما لا يُحِبُّ أن يعامل به من الأقوال أو من الأفعال فليحذر من معاملة إخوانه المسلمين به، فإن عاملهم بذلك فهذا ليس من النَّصيحة في شيء.

عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**». رواه مسلم[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**». قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**». رواه مسلم[2].

قال أبو عمرو بن الصَّلاح رَحِمَهُٱللَّهُ: «النَّصيحة كلمة جامعة تتضمَّن قيام النَّاصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلًا.

* فالنَّصيحة لله تعالى توحيدُه ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عمَّا يضادُّها ويخالفها، وتجنُّب معاصيه والقيام بطاعته ومحابِّه بوصف

(١) رواه مسلم (٥٦).
(٢) رواه مسلم (٢١٦٢).

الإخلاص، والحبُّ فيه والبغض فيه، وجهاد مَن كفر به تعالى، وما ضاهى ذلك والدُّعاءُ إلى ذلك والحثُّ عليه.

* والنَّصيحة لكتابه؛ الإيمان به وتعظيمه وتنزيهه وتلاوته حقَّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله وتدبُّر آياته والدُّعاء إليه وذبُّ تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه.

* والنَّصيحة لرسوله ﷺ -قريب من ذلك-؛ الإيمان به وبما جاء به وتوقيره وتبجيله والتَّمسُّك بطاعته وإحياء سُنَّته واستنشار علومه ونشرها ومعاداة مَن عاداه وموالاة مَن والاه ووالاها، والتَّخلُّق بأخلاقه والتَّأدُّب بآدابه، ومحبَّة آله وأصحابه ونحو ذلك.

* والنَّصيحة لأئمَّة المسلمين؛ معاونتهم على الحقِّ وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم والدُّعاء لهم بالتَّوفيق وحثُّ الأغيار على ذلك.

* والنَّصيحة لعامَّة المسلمين؛ إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم وسدُّ خلَّاتهم، ونصرتهم على أعدائهم والذَّبُّ عنهم، ومجانبة الغشِّ والحسد لهم، وأن يُحِبَّ لهم ما يُحِبُّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه وما شابه ذلك»[(١)].

رزقنا الله خشيته في السِّرِّ والعلن، وجعلنا من الأتقياء النَّاصحين.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٢٢).

٥٥
علاج حر المصيبة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى». متَّفق عليه(١).

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا -أَوِ ابْنًا لَهَا- فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ». فَعَادَ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا. قَالَ: فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ». متَّفق عليه(٢).

يقول الله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

هذه الحياة الدُّنيا دار ابتلاء، وكلُّ امرئ عُرضة فيها للابتلاء، فما مُلئ بيتٌ فرحة إلَّا ومُلئ ترحة، وما مُلئ بيتٌ بالسُّرور إلَّا ومُلئ بالأحزان، وما من إنسان إلَّا وهو مبتلى ولا بُدَّ، كما قال ربُّنا جلَّ في علاه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾، وهذه الآية الكريمة تهيئ المسلم التَّهيئة الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها عندما يبتلى سواء في صحَّته أو في ماله أو في ولده، أو في أيِّ أمر من أموره.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالى: أنَّه لا بُدَّ أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبيَّن الصَّادق من الكاذب، والجازع من الصَّابر، وهذه سُنَّته تعالى في عباده؛ لأنَّ السَّرَّاء لو استمرَّت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الَّذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشَّرِّ. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردّهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية: أنَّه سيبتلي عباده ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ من الأعداء ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنَّه لو ابتلاهم بالخوف كلِّه، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تُمَحِّص لا تهلك.

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النَّقص المعتري للأموال من جوائح سماويَّة، وغرق، وضياع، وأخذ الظَّلمة للأموال من الملوك الظَّلمة، وقطَّاع الطَّريق وغير ذلك.

﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن مَن يحبُّه، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النَّخيل، والأشجار كلِّها، والخضار بِبَرْدٍ، أو بَرَدٍ، أو حرق، أو آفة سماويَّة، من جراد ونحوه.

فهذه الأمور، لا بدَّ أن تقع، لأنَّ العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم النَّاس قسمين: جازعين وصابرين؛ فالجازع، حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصَّبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصَّبر والرِّضا والشُّكران، وحصل له السَّخط الدَّالُّ على شدَّة النُّقصان.

وأمَّا مَن وفَّقه الله للصَّبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التَّسخُّط، قولًا وفعلًا واحتسب أجرها عند الله، وعلم أنَّ ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة الَّتِي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقِّه؛ لأنَّها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثَّواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: بشِّرهم بأنَّهم يُوَفَّوْن أجرهم بغير حساب.

فالصَّابرون، هم الَّذِين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثمَّ وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كلُّ ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما ممَّا تقدَّم ذكره.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مُدَبَّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرَّف أرحم الرَّاحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبوديَّة العبد، علمه، بأنَّ وقوع البليَّة من المالك الحكيم، الَّذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك، الرِّضا عن الله، والشُّكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أنَّنا مملوكون لله، فإنَّا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كلَّ عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظُّنا إلَّا السَّخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصَّبر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصَّبر المذكور ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عظيمة، ومن رحمته إيَّاهم، أن وفَّقهم للصَّبر الَّذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ الَّذين عرفوا الحقَّ، وهو في هذا الموضع، علَّمهم بأنَّهم لله، وأنَّهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلَّت هذه الآية، على أنَّ مَن لم يصبر، فله ضدُّ ما لهم، فحصل له الذَّمُّ من الله، والعقوبة، والضَّلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقلَّ تعب الصَّابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النُّفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصَّبر، وبيان ما يعين على الصَّبر، وما

للصَّابر من الأجر، ويعلم حال غير الصَّابر، بضدِّ حال الصَّابر.

وأنَّ هذا الابتلاء والامتحان، سُنَّة الله الَّتِي قد خلت، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا، وبيان أنواع المصائب»[(١)].

روى التِّرمذيُّ عَنْ أَبِي سِنَانٍ، قَالَ: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا، وَأَبُو طَلْحَةَ الخَوْلَانِيُّ جَالِسٌ عَلَى شَفِيرِ القَبْرِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ الخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانٍ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَرْزَبٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الحَمْدِ**»[(٢)].

وحظُّ كلِّ عبد من المصيبة ما تُحدِث له؛ فمَن رضي فله الرِّضا، ومَن سخِط فله السَّخط؛ مَن أحدثت له مصيبته سخطًا وكفرًا كُتب في ديوان الهالكين، ومَن أحدثت له جزعًا وشكايةً وتفريطًا كُتب في ديوان المُفرِّطين، ومَن أحدثت له تسخُّطًا على الله وجرأةً على حكمة الله وتبرُّمًا من قضاء الله وقدره كُتب في ديوان الخاسرين، ومَن أحدثت له رضًا كُتب في ديوان الرَّاضين، ومَن أحدثت له صبرًا كُتب في ديوان الصَّابرين، ومَن أحدثت له شكرًا كُتب في ديوان الحامدين الشَّاكرين.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (ص٧٥).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (١٠٢١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

ومن أعظم ما ينبغي على العبد في هذا المقام -مقام الابتلاء والمصاب- أن يتعلَّم من هدي الإسلام والشَّريعة الغرَّاء ما ينبغي أن يكون عليه حال الابتلاء؛ وذلك أنَّ المصيبة لها ألمٌ وحرارة وشدَّةٌ ووجع، لكنَّ المؤمن إذا اهتدى بهدايات الإسلام وتحلَّى بآداب الدِّين وضوابطه سُلِّي في مصابه ونال الخير في الدُّنيا والآخرة؛ ولهذا يحتاج العبد أن يتعلَّم من هدي الإسلام ما يعالج به حرَّ المصيبة، وهدايات الإسلام في هذا بيِّنةُ المعالم واضحةُ الأمارات، والموفَّق من عباد الله مَن يُوَفِّقه الله جَلَّ وَعَلَا للزومها والعناية بها عند المصاب.

ومن أعظم ما تعالج به المصيبة الصَّبر والاسترجاع؛ قال الله تعالى في السِّياق المُتقَدِّم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]، فهذا من أنفع العلاج وأعظمه أن يذكُر العبد حال مصابه أنَّه لله عبد وأنَّه إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى راجع، فبذكر هذين الأصلين العظيمين يسلو عن مصابه مهما عظُم وكبُر.

وممَّا تعالج به المصيبة: أن يعلم العبد علم يقينٍ لا شكَّ فيه ولا ريب؛ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد:٢٢].

وممَّا تعالج به المصيبة: أن يتأمَّل المصاب في مصيبته مقارنًا لها بغيرها من

المصائب، فيجد أنَّ في مصائب الآخرين ما هو أعظم من مصيبته وأشدُّ فيسْلو بذلك.

ومن علاج المصيبة: أن يعلم أنَّ جزعه عند المصاب وتسخُّطه لا يردُّ شيئًا فائتًا ولا يحُول بين العبد وبين ما أصابه، بل لا يزيده جزعه وتسخُّطه إلَّا وهنًا وضعفًا وشدَّةً.

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّ ما يفوته من الثَّواب والأجر الَّذي دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، إن تسخَّط وجزع ولم يصبر؛ أعظم من المصاب نفسه.

ومن علاج حرِّ المصيبة رجاء الخلَف من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ مَن أصابته مصيبة فصبر واسترجع وفزع إلى الله ولجأ؛ أجاره الله جَلَّوَعَلَا في مصابه وأخلفه خيرًا، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ -مَا أَمَرَهُ اللهُ-: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**». قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. رواه مسلم[(١)].

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّه إن لم يصبر إيمانًا واحتسابًا وطلبًا لثواب الله جَلَّوَعَلَا؛ صبر بعد أيَّام من مصيبته ولا بُدَّ صبر اضطرار، ولهذا يقال:

---

(١) مسلم (٩١٨).

«مَن لم يصبر ويسلو في مصيبته إيمانًا واحتسابًا ورجاءً لموعود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سلا بعد ذلك سلوَّ البهائم»، وفي الحديث عن نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[١].

ومن علاج حرِّ المصيبة: أن يعلم العبد أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يرسل تلك المصائب والابتلاءات ليُهْلِك بها عباده المؤمنين، وإنَّما أرسل ذلك وأنزله تمحيصًا للعباد وتمييزًا للصَّابر من الجازع؛ فينبغي على العبد أن يلحظ هذا المعنى ليكون من الصَّابرين الرَّاضين فيفوز بعظيم ثواب الله وجزيل موعوده جلَّ في علاه، وفي الحديث يقول نبيُّنا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٢].

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يتأمَّل في أحوال النَّاس أجمع، وأن يُفَتِّش وينظر في أحوال النَّاس في العالم كلِّه؛ فإنَّه لن يجد فيهم إلَّا مَن هو مبتلى، فإنَّ سرور الدُّنيا كأحلام نوم أو كظلٍّ زائل، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ حَبرَةً إِلَّا وَمُلِئَ مِثْلَهَا عَبْرَةً**»[٣].

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يعلم العبد أنَّ في المحنة منحة، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يرحم عبده بما أصابه به، ومن ذلك: أنَّ العبد إذا استمرَّ في صحَّته وعافيته

(١) رواه البخاريُّ (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٣) رواه وكيع في الزُّهد (٥٠٧)، وأحمد في الزُّهد (٩٠١).

وكثرة أمواله رُبَّمَا داخله من الغرور والكِبْر والعجب ما يكون مهلكةً له، فإذا أنزل الله جَلَّوَعَلَا عليه المصاب في بدنه أو في ماله أو في شيء من أموره انكسر قلبه وخضع لربِّه وذهب عنه كِبْره وعُجبه، فسبحان مَن يرحم مَن شاء من عباده بالابتلاء.

ومن علاج حرِّ المصيبة أن يعلم العبد أنَّ مرارة المصيبة في الدُّنيا مع الصَّبر والاحتساب تكون حلاوةً عظيمةً يوم القيامة، ولأن يصبر العبد على مرارةٍ قليلةٍ زائلة ليفوز بحلاوة دائمة مستمرَّة خيرٌ له من أن تكون حاله على العكس من ذلك.

وإذا كان العبد في عافيةٍ وصحَّة وأمنٍ وأمان وسلامةٍ وإسلام فإيَّاه أن يغترَّ، وهل أهل البلاء اليوم إلَّا من أهل العافية بالأمس!!

رزقنا الله أجمعين الاتِّعاظ والاعتبار، وهدانا أجمعين إليه صراطًا مستقيمًا، وأصلح لنا شأننا كلَّه، وجعل كلَّ قضاءٍ يقضيه لنا خيرًا.

٥٦

الأمور المعينة على الصَّبر على أذى الخلق

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ؛ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ، إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ -قَالَ- فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ**». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**». متَّفق عليه(١).

وفي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ كُلٌّ، وفيه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ**». قُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَا أَجِدُ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النُّور:١١] الْعَشْرَ آيَاتِ(٢). متَّفق عليه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٤١٣)، ومسلم (٢٧٧٠).

هذا نوع من أنواع الصَّبر ومجال من مجالاته ألا وهو: «الصَّبر على أذى الخلق»، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، والآيات كثيرة في هذا المعنى.

ومن المعلوم أنَّ الإنسان في هذه الحياة لا يسْلم من أذى الخلق؛ لأنَّ النَّاس أجناس ومتفاوتون في أخلاقهم ومعادنهم وطبائعهم وتعاملاتهم، فينبغي للمسلم أن يكون متحليًّا بالصَّبر ليعظم بذلك أجره عند الله، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**». رواه ابن ماجه(١).

وقد ذكر أهل العلم أمورًا تعين المرء على الصَّبر على أذى الخلق، ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تفصيلات نافعة تعين العبد على ذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويُعِينُ العبدَ على هذا الصَّبر عدَّةُ أشياءَ:**

أحدها: أن يشهدَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالقُ أفعالِ العباد؛ حركاتِهم وسَكَناتِهم وإراداتِهم، فما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرَّك في العالم العُلْوِيِّ

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

والسُّفليِّ ذرَّة إلَّا بإذنه ومشيئتِه، فالعباد آلة، فانظر إلى الَّذِي سَلَّطَهم عليك ولا تَنظُرْ إلى فِعلِهم بكَ، تَسْتَرِحْ من الهمِّ والغَمِّ.

الثَّاني: أن يَشْهَد ذُنُوبَه وأنَّ الله إنَّما سلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورى:٣٠]. فإذا شهد العبدُ أنَّ جميع ما يناله منْ المكروه فسببُه ذنوبُه؛ اشتغلَ بالتَّوبة والاستغفار من الذُّنوب الَّتِي سلَّطهم عليه بسببها عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم. وإذا رأيتَ العبدَ يقع في النَّاس إذا آذَوْه ولا يَرجع إلى نفسِه باللَّوم والاستغفار فاعلمْ أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: «هذا بذنوبي» صارتْ في حقِّهِ نعمةً. قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلمةً من جواهرِ الكلام: «لَا يَرجُوَنَّ عبدٌ إلَّا ربَّه، ولا يَخافَنَّ عبدٌ إلَّا ذنبَه»[(١)]. ورُوِي عنه وعن غيرِه: «ما نزلَ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولا رُفِع إلَّا بتوبة»[(٢)].

الثَّالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثَّواب الَّذِي وعده الله لمَن عَفَا وصَبَر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشُّورى:٤٠]. ولمَّا كان النَّاسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقِّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدرِ حقِّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقَّه، ذَكَر الأقسامَ الثَّلاثة في هذه الآية، فأوَّلها للمقتصدين، ووسطها للسَّابقين، وآخرها للظَّالمين. ويشهد نداءَ المنادي يوم القيامة: «أَلَا لِيَقُمْ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٥).

(٢) قاله عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في عيون الأخبار للدِّينوريِّ (٢/ ٣٠٣).

اللهِ»[١]، فلا يَقُمْ إلَّا مَن عفا وأصلح، وإذا شهِدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء سَهُلَ عليه الصَّبر والعفو.

الرَّابع: أن يشهد أنَّه إذا عَفا وأحسنَ أورثَه ذلك من سلامةِ القلب لإخوانه ونَقائِه من الغِشِّ والغِلِّ وطلبِ الانتقام وإرادةِ الشَّرِّ، وحصَلَ له من حلاوة العفو ما يزيد لذَّتَه ومنفعتَه عاجلًا وآجلًا على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، فيصير محبوبًا لله، ويصير حالُه حالَ من أُخِذَ منه درهمٌ فعُوِّضَ عليه ألوفًا من الدَّنانير، فحينئذٍ يَفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحًا يكون.

الخامس: أن يعلم أنَّه ما انتقم أحدٌ قَطُّ لنفسه إلَّا أورثَه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عَفى أعزَّه الله تعالى، وهذا ممَّا أخبر به الصَّادق المصدوق ﷺ حيث يقول: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»[٢]. فالعِزُّ الحاصل له بالعفو أحبُّ إليه وأنفع له من العَزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عِزٌّ في الظَّاهر وهو يُورِث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

السَّادس: وهي من أعظم الفوائد: أن يَشهدَ أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّه نفسه ظالمٌ مذنب، وأنَّ مَن عَفا عن النَّاس عَفَا الله عنه، ومَن غَفَر لهم غَفَر الله له. فإذا شَهِدَ أنَّ عفوه عنهم وصفحَه وإحسانَه مع إساءتِهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله؛ فيعفو عنه ويصفح ويُحسِن إليه على ذنوبه، ويَسْهُل عليه عفوُه وصبرُه، ويكفي العاقلَ هذه الفائدةُ.

---

(١) ورد مرسلاً عن الحسن البصريِّ، كما في السِّياسة الشَّرعيَّة لابن تيميَّة (ص١٠٧).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

السَّابع: أن يَعلم أنَّه إذا اشتغلتْ نفسُه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه وتفرَّقَ عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه ما لا يُمَكِن استدراكُهُ، ولعلَّ هذا أعظم عليه من المصيبة الَّتِي نالتْه من جهتهم، فإذا عفا وصَفحَ فَرغَ قلبُه وجسمُه لمصالحه الَّتِي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثَّامن: أنَّ انتقامَه واستيفاءَه وانتصارَه لنفسِه وانتقامه لها، فإنَّ رسول الله ﷺ ما انتقمَ لنفسِه قَطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أنَّ أَذَاه أَذَى الله، ويتعلَّقُ به حقوق الدِّين، ونفسه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها وأبعدُها من كلِّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكلِّ خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه الَّتِي هو أعلم بها وبما فيها من الشُّرور والعيوب، بل الرَّجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها.

التَّاسع: إن أُوذِيَ على ما فعلَه لله أو على ما أُمِرَ به من طاعتِه ونُهِي عنه من معصيتِه وجبَ عليه الصَّبْرُ ولم يكن له الانتقام، فإنَّه قد أوذِي في الله فأجرُه على الله؛ ولهذا لمَّا كان المجاهدون في سبيل الله ذهبتْ دماؤهم وأموالُهم في الله لم تكن مضمونةً، فإنَّ الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثَّمن على الله لا على الخلق، فمَن طلبَ الثَّمنَ منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنَّه مَن كان في الله تَلَفُه كان على الله خَلَفُه، وإن كان قد أُوذِي على مصيبة فليَرجعْ باللَّومِ على نفسِه ويكون في لَومِه لها شُغْلٌ عن لَومِه لمَن آذاه، وإن كان قد أُوذِي على حظٍّ فليُوطِّن نفسَه على الصَّبر، فإنَّ نيلَ الحُظوظِ دونَه أمرٌ أَمَرُّ من الصَّبر، فمَن لم

يصبر على حرِّ الهَوَاجر والأمطارِ والثُّلوج ومشقَّةِ الأسفارِ ولصوصِ الطَّرِيقِ، وإلَّا فلا حاجةَ له في المتاجرة. وهذا أمر معلوم عند النَّاس أنَّ مَن صدَقَ في طلب شيء من الأشياء بُدِّل من الصَّبر في تحصيله بقدر صدقِه في طلبِه.

العاشر: أن يَشهدَ معيَّة الله معه إذا صَبَر، ومحبَّة الله له إذا صَبَر، ورِضاه. ومَن كان الله معه دَفَع عنه أنواعَ الأذى والمضرَّات ما لا يَدفعُه عنه أحدٌ من خلقِه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

الحادي عشر: أن يَشهد أنَّ الصَّبْرَ نِصفُ الإيمان، فلا يبدِّل من إيمانه جَزاءً في نُصرةِ نفسِه، فإذا صَبَر فقد أَحرزَ إيمانَه وصانَه من النَّقص، والله يدفع عن الَّذِين آمنوا.

الثَّاني عشر: أن يشهد أنَّ صبرَه حكمٌ منه على نفسِه وقَهرٌ لها وغَلَبَةٌ لها، فمتَى كانتِ النَّفسُ مقهورةً معَه مغلوبةً لم تطمعْ في استرقاقِه وأَسْرِه وإلقائِه في المهالك، ومتى كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها لم تزَلْ به حتَّى تُهلِكَه، أو تتداركَه رحمةٌ من ربِّه. فلو لم يكن في الصَّبر إلَّا قَهرُه لنفسِه ولشيطانِه؛ فحينئذٍ يَظهرُ سلطانُ القلبِ وتَثبُتُ جنودُه ويَفرَحُ ويَقوَى ويَطْرُد العدوَّ عنه.

الثَّالث عشر: أن يعلم أنَّه إن صَبَرَ فاللهُ ناصرُه ولا بُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر، وأحالَ ظالمَه على الله، ومَن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه فكان هو النَّاصر لها، فأينَ مَن ناصرُه اللهُ خيرُ النَّاصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز النَّاصرين وأضعفُه؟

الرَّابع عشر: أنَّ صَبْرَه على مَن آذاه واحتمالَه له يُوجِبُ رجوعَ خَصْمِه عن ظُلمِه ونَدامتَه واعتذارَه ولومَ النَّاسِ له، فيعودُ بعد إيذائِه له مستحييًا منه نادمًا على ما فعلَه، بل يَصيرُ مواليًا له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلت: ٣٤-٣٥].

الخامس عشر: ربَّمَا كان انتقامُه ومقابلتُه سببًا لزيادة شرِّ خصمِه وقوَّةِ نفسِه وفكرته في أنواع الأذى الَّتِي يُوصِلُها إليه كما هو المشاهَد، فإذا صبر وعفا أَمِنَ من هذا الضَّرر، والعاقلُ لا يختارُ أعظمَ الضَّررين بدَفْعِ أدناهما. وكم قد جلبَ الانتقامُ والمقابلةُ من شرٍّ عَجَزَ صاحبُه عن دفعِه، وكم قد ذهبتْ نفوس ورِئاسَات وأموال لَو عفا المظلومُ لبقيتْ عليه.

السَّادس عشر: أنَّ مَن اعتادَ الانتقام ولم يَصبِرْ لا بُدَّ أن يقعَ في الظُّلم، فإنَّ النَّفس لا تَقتصِرُ على قدرِ العَدْل الواجب لها لا علمًا ولا إرادةً، ورُبَّما عجزت عن الاقتصار على قدرِ الحقِّ، فإنَّ الغضبَ يَخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يَعقِلُ ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم يَنتظِرُ النَّصْرَ وَالعِزَّ إذ انقلبَ ظالمًا يَنتظِرُ المقتَ والعقوبةَ.

السَّابع عشر: أنَّ هذه المَظْلَمَةَ الَّتِي ظُلِمَها هي سبب إمَّا لتكفيرِ سيِّئتِه أو رَفْعِ درجتِه، فإذا انتقمَ ولم يَصبِرْ لم تكنْ مُكفِّرةً لسيِّئتِه ولا رافعةً لدرجتِه.

الثَّامن عشر: أنَّ عفوَه وصبْرَه من أكبر الجُنْدِ له على خَصْمِه؛ فإنَّ مَن صَبَرَ وعفا كان صبْرُه وعفْوُه مُوجِبًا لذُلِّ عدوِّه وخوفِه وخَشيتِه منه ومن النَّاس، فإنَّ

النَّاس لا يسكتون عن خصمِه وإن سَكتَ هو، فإذا انتقمَ زالَ ذلك كلُّه، ولهذا تَجِدُ كثيرًا من النَّاس إذا شَتَم غيرَه أو آذاه يُحِبُّ أن يَستوفِيَ منه، فإذا قابله استراحَ وألقَى عنه ثِقلًا كان يجده.

التَّاسع عشر: أنَّه إذا عفا عن خصمِه استشعرتْ نفسُ خصمِه أنَّه فوقَه وأنَّه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نفسَه دونَه، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعَفْوِ.

العشرون: أنَّه إذا عفا وصَفَحَ كانت هذه حسنةً، فتُوَلِّدُ له حسنةً أخرى، وتلك الأخرى تُولِّدُ له أخرى، وهَلُمَّ جَرًّا، فلا تزال حسناتُه في مزيد، فإنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنة، كما أنَّ من عقاب السَّيِّئةِ السَّيِّئة بعدها، وربَّما كان هذا سببًا لنجاتِه وسعادتِه الأبديَّة، فإذَا انتقم وانتصرَ زال ذلك»[١].

الحاصل أنَّ هذه أمور عظيمة تعين العبد على الصَّبر على أذى الخلق، إذا وُفِّق العبد لتأمُّلها بأناة وحسن تفهُّم لها، حتَّى تتمكَّن من نفسه وتتعمَّق في قلبه، وَوُفِّق لاستحضارها في المقامات الَّتِي يحصل له فيها أذى من الخلق، ونسأل الله أن ينفعنا أجمعين، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

---

(١) قاعدة في الصبر لابن تيميَّة (ص٩٤ - ١٠٧).

٥٧
التَّراحم

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**». رواه مسلم(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**». رواه التِّرمذيُّ وأبو داود(٢).

هذا خلق من أخلاق الإسلام العظيمة التَّراحمُ بين أهل الإيمان، بأن تكون قلوبهم عامرة بالرَّحمة يرحم بعضهم بعضًا ويعطف بعضهم على بعض، بل جعلهم في التَّراحم كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كلُّه، وإنَّما جعلهم كذلك؛ لأنَّ الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء فيتأذَّى الكُلُّ بتأذِّي البعض، وكذلك الشَّأن في أهل الإيمان يتأذَّى بعضهم بتأذِّي البعض.

وقد ضرب أصحاب النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهم خير أُمَّته- في هذا الباب

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

أروع الأمثلة، وحقَّقوا فيه رفيع المقامات وقد نوَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك في القرآن، قال في سورة الفتح في تمامها: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح:٢٩]، أي: يرحم بعضهم بعضًا ويرأفُ بعضهم ببعض ويعطف بعضهم على بعض، آمالهم واحدة وآلامهم واحدة، كالجسد الواحد، فإنَّ الجسد الواحد يألم لألم بعضه ويفرح لفرح بعضه، وهكذا ينبغي أن تكون حال أهل الإيمان، وإذا ضعُف فيهم هذا الخلق فهو من ضعف إيمانهم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ**»[(١)]، وأخوَّة الإسلام من مقتضياتها ومتطلباتها التَّراحم بين أهله، وأن يكونوا بهذه المثابة كالجسد الواحد، وأن يكونوا كالبنيان كما قال ﷺ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»[(٢)]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٣)]؛ وكلٌّ يحبُّ لنفسه من إخوانه أن يرحموه وأن تكون قلوبهم منطويةً على رحمة له، لا يريد أن تنطوي قلوب إخوانه عليه بحقد أو حسد أو غلٍّ أو كيد أو غشٍّ أو غير ذلك، ولا يرضى أن تنطوي قلوب إخوانه عليه بمثل هذه الأخلاق، وما لا يرضاه لنفسه من الأخلاق فيجب عليه أن لا يرضاه لإخوانه، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»[(٤)]، وما

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٦٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٣) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٤) رواه مسلم (١٨٤٤).

من شكٍّ أنَّ كلَّ واحد يحبُّ لنفسه أن يعامَل بالرَّحمة ومقتضياتها، وإذا عومل يومًا بغير الرَّحمة سخط لذلك ولم يرضَه لنفسه؛ لأنَّ النُّفوس تأبى كلَّ خصلةٍ تجانب العطف والرَّحمة. ولهذا كان متأكَّدًا على المسلم أن يعامل إخوانه بالمعاملة الطَّيِّبة الكريمة الفاضلة الَّتِي يُحِبُّ أن يعامَل بها.

ونبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «نَبِيُّ الرَّحْمَةِ»، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(١)، وهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبيُّ الرَّحمة في خُلقه فخلقه كلُّه رَحْمَةٌ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة:١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وفي دعوته حيث تكرَّر نصحه المتواصل لأُمَّته أن يكونوا متراحمين، والأحاديث عنه في هذا الباب كثيرة.

بل بيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ انتزاع الرَّحمة من قلب الإنسان دليلٌ على شقائه، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ**». رواه التِّرمذيُّ(٢)، فالله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرَّأفة والرَّحمة، وإذا أراد أن يُعَذِّبه نزع من قلبه الرَّحمة والرَّأفة وأبدله بهما الغلظة والقسوة، ففي صحيح مسلم عَنْ عِيَاضِ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَأَهْلُ الْجَنَّةِ**

(١) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

ثَلَاثَةٌ؛ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ». رواه مسلم(١).

وفي الصَّحيحين عن حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ**». قَالُوا: بَلَى. قَالَ ﷺ: «**كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**». ثُمَّ قَالَ «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ**». قَالُوا بَلَى. قَالَ: «**كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**»(٢).

وليست رحمة الإسلام مقصورة على قريب أو صديق، بل هي رحمة عامَّة شاملة لكلِّ النَّاس، فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحَمُوا**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ النَّاسِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٣).

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه الحضُّ على استعمال الرَّحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرَّحمة التَّعاهد بالإطعام والسَّقي والتَّخفيف في الحمل وترك التَّعدِّي

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).
(٣) رواه الطَّبرانيُّ، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره» في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٢٥٣).
(٤) رواه البخاريُّ (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

بالضَّرب»[١].

وليست أيضًا خاصَّة بالنَّاس بل تشمل حتَّى البهائم والدَّوابِّ والطُّيور، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا، أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا، فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ، وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**». رواه أحمد[٢]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةً** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». رواه البخاريُّ في الأدب المفرد[٣]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**»[٤]. متَّفق عليه. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا؟ فَقَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[٥].متَّفق عليه. أي: هل كلُّ بهيمة نحسن إليها

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٩١٢)، ونقله الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٤٤٠) وزاد فيه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٥٥٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٧٣)، وصححه الألبانِيُّ.

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٨١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

ونرحمها نؤجر؟! فذكر لهم ﷺ هذه القاعدة الجامعة في الباب: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

والَّذِي يرحم الدَّوابَّ والطَّير حريٌّ أن يفوز بنصيب وافر من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له فيسعد في دنياه وفي أخراه، وقد تقدَّم في الحديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[١]. أي: ارحموا مَنْ على الأرض، وهذا يشمل النَّاس ويشمل أيضًا الدَّوابَّ والبهائم والطُّيور، «**يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» أي: يرحمكم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العليُّ على خلقه، المستوي على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه. وفي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[٢].

ومن أبواب الرَّحمة العظيمة الَّتِي حثَّ عليها الإسلام رحمةُ العيال رحمةُ الوالد لولده؛ فإذا وُجدت الرَّحمة في قلوب الآباء والأمَّهات؛ حلَّت الخيرات وتوالت البركات وتحقَّقت المصالح الكبيرة والمنافع العظيمة؛ برًّا ووفاءً وإحسانًا واستقامةً على الطَّاعة بإذن الله.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ قَالَ: وَاللهِ مَا نُقَبِّلُهُمْ، قَالَ: لَا أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَزَعَ مِنْكَ الرَّحْمَةَ**». رواه أحمد[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٣) رواه أحمد (٢٤٤٠٨)، وابن حبَّان في صحيحه (٥٥٩٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وهذا فيه بيان شناعة هذا الأمر الَّذِي أخبر به هذا الرَّجل عن نفسه وعن قومه، وأنَّه يتنافى مع الرَّحمة الَّتِي ينبغي أن تكون في القلوب تجاه الصِّغار، وفيه تنبيه إلى الارتباط بين الباطن والظَّاهر؛ الرَّحمةِ والقبلة، فلمَّا قال الرَّجل: «لا نُقَبِّلهم» هذا الظَّاهر من عملهم، وهو دليل على وجود خلل في الباطن وهو انتزاع الرَّحمة من القلب؛ لأنَّ القُبْلة للصَّغير نابعة عن رحمة له في القلب، ومَن كان يصف نفسه بأنَّه لا يُقبِّل صبيانه أنفة فهذا دليل على أن الرَّحمة منزوعة من قلبه؛ لأنَّها لو وجدت في قلبه وجدت آثارها.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**». متَّفق عليه[(١)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ. قَالَ عَمْرٌو فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ**»[(٢)]. رواه مسلم. ظئرين أي: مرضعتين.

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٣١٦).

أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**». رواه التِّرمذيُّ(١).

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**». رواه التِّرمذيُّ(٢).

وفي هذين الحديثين تحذير من عدمِ الرَّحمة بالصِّغار، ووصفُ مَن كان كذلك بـ «ليس منَّا»، وهذا يدلُّ على خطورة هذا الأمر، وأنَّه فعل شديد الخطورة.

وليتأمَّل إدراكًا لعظيم شأن الرَّحمة في مقام تربية الأولاد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، مع قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ**»(٣)، أي: أنَّ الأصل في الوالد مع ولده أن يكون رحيمًا بهم؛ ولهذا فإنَّ جماعة من المُفَسِّرين أوردوا هذا الحديث تحت هذه الآية في سياق بيان معناها؛ تنبيهًا لعظم شأن الرَّحمة في مقام التَّأديب والتَّربية، وأنَّ انتزاع الرَّحمة مِنَ القلوب موجب للتَّفكُّك والشِّقاق، ومَنْ يوفَّق لرحمة أبنائه فهذا موجب لنيل رحمة الله -سبحانه- له.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تَسْأَلُ

(١) رواه التِّرمذيُّ (١٩١٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (١٩٢٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) رواه النَّسائيُّ (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وقال الألبانِيُّ: «حسن صحيح».

وَمَعَهَا صَبِيَّانِ فَأَعْطَتْهَا ثَلَاثَ تَمْرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ تَمْرَةً تَمْرَةً، وَأَمْسَكَتْ لِنَفْسِهَا تَمْرَةً، فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ التَّمْرَتَيْنِ، فَعَمَدَتْ إِلَى التَّمْرَةِ فَشَقَّتْهَا نِصْفَيْنِ فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا نِصْفَ تَمْرَةٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ فَقَالَ: «**وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْهَا لَقَدْ** رَحِمَهَا اللَّهُ **بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا**». رواه البخاريُّ في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك[1].

نسأل الله التَّوفيقَ لرضاه، والمعونةَ على طاعته، والهداية إلى صراطه المستقيم.

(١) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

٥٨
الحياء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**». متَّفق عليه[١].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ**». متَّفق عليه[٢].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا**». متَّفق عليه[٣].

إِنَّ الحياءَ مِن أعظَمِ خِلَالِ الدِّينِ ومِن أَعظَمِ أَوصَافِ عبَادِ اللَّهِ المُؤمِنينَ ومِن أجَلِّ شُعَبِ الإيمان، وهو خَصلةٌ عظيمةٌ وخَلَّةٌ كريمَة تَبعَثُ على التَّحلِّي بالفضائلِ والتَّخلِّي من الرَّذائلِ.

وهو مُشتقٌّ في أصلِهِ مِنَ الحياةِ؛ فكُلَّما عظُمَتِ الحياةُ في القلْبِ عَظُمَ

(١) رواه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).
(٢) رواه البخاريُّ (٢٤)، ومسلم (٣٦).
(٣) رواه البخاريُّ (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

الحياءُ، وكُلَّما ضَعُفَتِ الحياةُ في القلْبِ والرُّوحِ ضَعُفَ الحيَاءُ، قال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ»[(١)].

والحياءُ مَعدَنُ الأَخلَاقِ الفَاضلةِ ومنبعُ المُعاملاتِ الكريمةِ وهو خيرٌ كُلُّهُ، كما أَخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ في حديث عِمرانَ بنِ حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**». متَّفق عليه[(٢)].

وقد ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحديث السَّابق: أنَّ الإيمان ليس خَصْلة واحدة أو شعبة واحدة بل شُعَب كثيرة وخصال عديدة؛ أفضلها كلمة الإخلاص والتَّوحيد لا إله إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطَّريق، أي: إزالةُ كُلِّ ما يؤذي النَّاس من حجر أو شوك أو زجاج أو غير ذلك عن الطَّريق، وأنَّ الحياء شعبة من شعب الإيمان كُلَّما ازداد العبد منه ازداد إيمانه. كما تقدَّم في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**». متَّفق عليه[(٣)].

وفي الحديث الآخر: عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ**». رواه الحاكم[(٤)]، أي: أنَّهما متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، ومعنى ذلك أنَّ قُوَّة أحدهما قُوَّة للآخر وضَعْف أحدهما ضَعْف للآخر لما بينهما من تلازم وترابط.

وقد ذكر النَّبِيُّ ﷺ فضائل عديدة لخُلُق الحياء، ومن ذلك ما رواه

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (٩٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٥٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٦٠٣).

أبـو هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**الْحَيَـاءُ مِـنَ الْإِيمَـانِ، وَالْإِيمَـانُ فِي الْجَنَّـةِ، وَالْبَـذَاءُ مِـنَ الْجَفَـاءِ، وَالْجَفَـاءُ فِـي النَّـارِ**». رواه التِّرمـذيُّ[١].

وهذه فضيلة عظيمة من فضائل الحياء أنَّه يُفْضِي بأهله إلى الجنَّة والفوز بنعيمها المقيم.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لِلْأَشَجِّ العَصَرِيِّ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ**». رواه ابن ماجه[٢]، أي: جبلك الله على ذلك.

والحياء فيه ما هو جِبِلِّيٌّ وما هو مُكْتَسَب، والنَّاس متفاوتون فيه، ومَن جاهد نفسَه على التَّحلِّي به مستعينًا بالله نال منه نصيبًا وافرًا.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «**واعلم أنَّ الحياء نوعان:**

أحدهما: ما كان خُلُقًا وجِبِلَّةً غيرَ مُكْتَسَب، وهو من أجلِّ الأخلاق الَّتِي يمنحُهَا الله العبد ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[٣]، فإنَّه يكفُّ عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحثُّ على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

والثَّاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله، ومعرفة عظمته وقربه من عباده، واطِّلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، فهذا من أعلى

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٠٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٨٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان»[(١)].

فالحياءُ مِن أفضَلِ الخِصَالِ وأكمَلِ الخِلالِ وأعظمِهَا نفعًا وأكْبرِهَا عائِدةً، وكُلَّما كان العبدُ مُتحلِّيًا بالحياءِ كان ذلك دافِعًا له وسائِقًا إلى فِعلِ الخيرَاتِ واجتِنَابِ المُنكراتِ، فمَن كان ذَا حياءٍ حجزهُ حيَاؤُهُ عنِ الرَّذائِلِ ومَنَعَهُ مِنَ التَّقصِيرِ في الحُقُوقِ والواجباتِ، وأمَّا منزُوعُ الحياءِ فهو والعِياذُ باللَّهِ لَا يُبَالِي أيَّ رذِيلَةٍ ارتكب وأيَّ كبِيرة اقترف وأيَّ معصِيةٍ اجترح.

وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**». رواه ابن ماجه[(٢)].

فيه إشارة إلى أنَّ الخُلُق السَّيِّء مفتاح كلِّ شرٍّ، والخلق الحسن مفتاح كلِّ خير، والحياء من أعظم الأخلاق الحسنة؛ فلا يكون في شيء إلَّا حَسُن وطاب.

قال سلمان الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ هَلَاكًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا»[(٣)].

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**». رواه البخاريُّ[(٤)].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبليِّ (١/ ٥٠١).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٨٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (١١٣).

(٤) رواه البخاريُّ (٦١٢٠).

فمنزُوعُ الحياءِ لَا يُبَالِي في أعماله ولا يتوقَّى في أُمُورِهِ؛ فهو لَا يَستَحِي مِن ربِّه وخالقِهِ ومولاه، ولَا يَستَحِي مِن عِبادِ اللَّهِ، ومَن قلَّ حياؤه لَا يُبَالِي بارتكَابِ المعصِيةِ في أيِّ مكانٍ، وربَّما يُشِيعُهَا ويُشهِرُ نفسَهُ بها ويتحدَّثُ بها عَن نَفسِهِ وكأنَّهُ يتحدَّثُ عَن أفضَلِ الخِصالِ وأطيَبِ الخِلَالِ!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: «إذا لم تستحي، فاصنع ما شئت»، **في معناه قولان:**

أحدهما: أنَّه ليس بمعنى الأمر: أن يصنع ما شاء، ولكنَّه على معنى الذَّمِّ والنَّهي عنه، وأهل هذه المقالة لهم طريقان:

أحدهما: أنَّه أمر بمعنى التَّهديد والوعيد، والمعنى: إذا لم يكن لك حياء، فاعمل ما شئت، فإنَّ الله يجازيك عليه، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فُصِّلت:٤٠].

والطَّريق الثَّاني: أنَّه أمر، ومعناه: الخبر، والمعنى: أنَّ مَن لم يستحي، صنع ما شاء، فإنَّ المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمَن لم يكن له حياء، انهمك في كُلِّ فحشاء ومنكر، وما يمتنع من مثله مَن له حياء.

والقول الثَّاني: أنَّه أمر بفعل ما يشاء على ظاهر لفظه، وأنَّ المعنى: إذا كان الَّذِي تريد فعله ممَّا لا يستحيى من فعله، لا مِنَ الله ولا مِنَ النَّاس، لكونه من أفعال الطَّاعات، أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة، فاصنع منه حينئذ ما شئت»[(١)].

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبليّ (١/ ٤٩٧).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثمَّ تأمَّل هذا الخلق الَّذِي خُصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلقُ الحياء الَّذِي هو من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّة فمَن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانيَّة إلَّا اللَّحمُ والدَّمُ وصورتُهما الظَّاهرة، كما أنَّه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضَّيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم يُؤَدَّ أمانة، ولم يَقْضِ لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرَّجلُ الجميلَ فآثره والقبيحَ فتجنَّبه، ولا سَتَرَ له عورةً ولا امتنع من فاحشة، وكثيرٌ من النَّاس لولا الحيَاءُ الَّذِي فيه لم يُؤَدِّ شيئًا من الأُمُور المفترضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا ولم يَصِل له رَحِمًا ولا بَرَّ له والدًا؛ فإنَّ الباعث على هذه الأفعال إمَّا دينيٌّ وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإمَّا دنيويٌّ علويٌّ وهو حياء فاعلها من الخلق.

قد تبيَّن أنَّه لولا الحياءُ إمَّا من الخالق أو مِنَ الخلائق لم يفعلها صاحبها، وفي التِّرمذيِّ وغيره مرفوعًا: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**»، قالوا: وما حقُّ الحياء؟ قال: «**أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَالبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَتَذْكُرَ المَقَابِرَ وَالبلَى**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[(٢)]. وأصحُّ القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين: أنَّه تهديد كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فُصِّلت:٤٠]، وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات:٤٦].

وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى: أنَّك إذا أردت أن تفعل فعلًا

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٢٠).

فانظر قبل فعله؛ فإن كان ممَّا يُستحيا فيه من الله ومن النَّاس فلا تفعله، وإن كان ممَّا لا يُسْتَحيا منه فافعله؛ فإنَّه ليس بقبيح.

وعندي أنَّ هذا الكلام صورتُه صورةَ الطَّلب ومعناه معنى الخبر، وهو في قُوَّة قولهم: مَن لا يستحي صنع ما يشتهي فليس بإذن ولا هو مُجَرَّد تهديد وإنَّما هو في معنى الخبر، والمعنى: أنَّ الرَّادع عن القبيح إنَّما هو الحياء فمَن لم يستح فإنَّه يصنع ما شاء، وإخراج هذا المعنى في صيغة الطَّلب لنكتة بديعة جدًّا وهي أنَّ للإنسان آمرين وزاجرين؛ آمرٌ وزاجرٌ من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كُلِّ ما يشتهي، وله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الهوى والطَّبيعة فمَن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشَّهوة ولا بُدَّ، فإخراج الكلام في قالب الطَّلب يتضمَّن هذا المعنى دون أن يقال: مَن لا يستحي صنع ما يشتهي»[١].

والحياء المطلوب المأمور به المُثْنَى على أهله هو الحياء فيما شُرِعَ الحياء فيه، فأمَّا حياءٌ يُؤَدِّي إلى ترك تعلُّم العلم فليس بمشروع، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»[٢]، وقالت أمُّ سُلَيم: يا رسول الله، إنَّ الله لا يستحي من الحقِّ هل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**»[٣]، وقال الحسن البصريُّ: «لا يتعلَّم مستحٍ ولا متكبِّر»[٤]، وكذلك ليس من الحياء ما يُؤَدِّي؛ إلى ترك الأمر

---

(١) مفتاح دار السَّعادة، لابن القيِّم (١/ ٢٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٦٤٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٨٢)، ومسلم (٣١٣).

(٤) انظر: المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢١٣).

بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والحكم بالحقِّ، والقيام به، وأداء الشَّهادات والنُّصح لعباد الله.

وكان نبيُّنا وقدوتنا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ النَّاس حَيَاءً كما تقدَّم في الحديث، والقصص في ذكر حيائه كثيرة:

عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذكر لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وفيه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ لِي مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَرَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي». رواه البخاريُّ[١].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَا رُؤِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَانًا». متَّفق عليه[٢]. فيه أنَّ الله

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٧)، ومسلم (٣٤٠).

جبله على أحسن الأخلاق والحياءِ الكامل، فلذلك غشي عليه وما رؤي بعد ذلك عُرْيَانًا.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «**ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ**»، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ**»، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ». رواه البخاريُّ[١]. وهذا حياء الكرم دعاهم إلى وليمة زينب وطوَّلوا الجلوس عنده فقام واستحيى أن يطلب منهم الانصراف.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ قَالَ: فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: «**تَطَهَّرِي بِهَا. سُبْحَانَ اللهِ**». وَاسْتَتَرَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٩٣).

-وَأَشَارَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ- قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ. رواه مسلم[(١)].

وفي رواية للحديث: «اسْتَحَى فَأَعْرَضَ عَنْهَا»[(٢)].

(١) رواه مسلم (٣٣٢).

(٢) رواه أبو نعيم في مستخرجه على مسلم (٧٤٠).

٥٩

كظم الغيظ والعفو عن النَّاس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**». رواه مسلم(١).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ**». رواه التِّرمذيُّ وغيره(٢).

إنَّ كَظْمَ الغيظِ والعفوَ والصَّفحَ خلقٌ كريم وأدبٌ عظيم جاءت الشَّريعة بالحثِّ عليه والتَّرغيب فيه؛ وهو باب عظيم من أبواب الإحسان، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣].

وهو بابٌ عظيمٌ من أبواب نيل الرَّحمة والغفران؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤].

وهو باب لنيل عظيم الأجور وجزيل الثَّواب؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشُّورى:٤٠].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وهو بابٌ رفيع للفوز بالجنان ونيل رضا الرَّحمن؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وأهل العفو هم الأقرب لتحقيق تقوى الله جَلَّ وَعَلَا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٣٧].

والعَفُوُّ: اسم من أسماء الله الحسنى، والعَفْوُ صفة من صفاته وهو الَّذي يمحو السَّيِّئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو سبحانه لم يَزَلْ ولا يَزَال بالعَفْوِ والتَّجاوز معروفًا، وبالصَّفح والغفران موصوفًا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:٧٦]، وهو سبحانه يُحِبُّ العَفْوَ، وقد علَّم النَّبِيُّ ﷺ أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ تقول: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[(١)]. فهو يُحِبُّ أن يعفوَ عن عبده، ويُحِبُّ من عباده أن يعفُو عن إخوانهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النِّساء:١٤٩].

فحَرِيٌّ بالمؤمن أن يقفَ وقفةً صادقة مُتَأَمِّلًا في هذه الآيات ومُتَدَبِّرًا لهذه الهدايات، ثمَّ ينظر إلى واقعه وحقيقة حاله في هذا الباب؛ كظمِ الغيظ والعَفْوِ عن المسيء والصَّفْحِ عنه والتَّجاوُزِ عن إساءته، وأَعْظِمْ بها من خصلة لا تنهض

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ

لفعلها إلَّا القلوبُ الصَّادقة والنُّفوس الكبيرة المُؤَيَّدَةُ بالمعونة والتَّوفيق من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إنَّ العفوَ والصَّفحَ مقامٌ عظيم ومنزلةٌ رفيعة، وهو صفة نبيِّنا ﷺ وصفة أتباعه بإحسان.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الجَدَلِيِّ قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: «**لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ**»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، قَالَ: فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا». رواه البخاريُّ(٢).

وهو ﷺ في هذا عامل بقول الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨] وقوله ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلت:٣٤].

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٣٨).

فهذا أدب عظيم، «ومن مكارم الأخلاق الَّتِي أمر الله بها رسوله ﷺ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنَّه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإنَّ ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنَّه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنَّه أدعى لجلب المسيء إلى الحقِّ، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتَّوبة عمَّا فعل، وليتَّصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عَدُوَّه الشَّيطان، وليستوجب الثَّواب من الله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشُّورى:٤٠]»(١).

ومقام العفو والصَّفح لا يزيد صاحبه إلَّا عزًّا ورفعةً وسموَّ قدرٍ في الدُّنيا والآخرة، كما تقدَّم في الحديث: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»(٢).

خلاف ما يظنُّه كثير من النَّاس أنَّه ذُلٌّ ومهانة؛ فتقول النَّفس الأمَّارة بالسُّوء: كيف تعفو وتصفح وقد فَعل بك ما فعل وتدفعه إلى الانتقام وتوهمه أنَّ الانتقام هو العِزُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبيَّن الصَّادق المصدوق أنَّ الله لا يزيد العبد بالعفو إلَّا عِزًّا، وأنَّه لا تنقص صدقة من مال، وأنَّه ما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله، وهذا ردٌّ لما يظنُّه مَن يتبع الظَّنَّ وما تهوى الأنفس من أنَّ العفو يذُلُّه والصَّدقة تنقص ماله والتَّواضع يخفضه»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسَّعديِّ (ص٥٨٨).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٩).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فالعِزُّ الحاصل له بالعَفْوِ أحبُّ إليه وأنفع له من العِزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عِزٌّ في الظَّاهر، وهو يُورِث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يُورِث العِزَّ باطنًا وظاهرًا»[(١)].

وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ إلَّا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله، وهذا من كمال خلقه وكريم صفحه وعفوه.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**». متَّفق عليه[(٢)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ». متَّفق عليه[(٣)].

وبالمجاهدة للنَّفس يرتقي المرء إلى هذا الخُلُق، فعن أبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**». رواه الطَّبرانِيُّ[(٤)].

---

(١) قاعدة في الصَّبر، لابن تيميَّة (ص٩٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٣) رواه البخاريُّ (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).
(٤) رواه الطَّبرانِيُّ في المعجم الأوسط (٢٦٦٣).

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا جاءك شخص يشكو آخر، فقل له: اعفُ عنه، فإنَّ العفو أقرب لتقوى الله جَلَّ وَعَلَا، فإن قال لك: إنَّ قلبي لا يحتمل العفو عنه ولكن أريد أن أنتصر منه، كما أمر الله؛ فقل له: إن كنت تُحسن أن تنتصر -أي: كما أمر الله- وإلَّا فعليك بالعفو فإنَّه بابٌ واسع»(١). وهذا تنبيه جليل لأنَّ كثيرًا من النَّاس في مقام الانتقام ممَّن أساء إليه لا يقتصر على سيِّئةٍ مثل السَّيِّئة الَّتي نِيلَ منه بها، بل يتجاوز ويتعدَّى ويظلم.

وقول القائل: «إنَّ هذا أمر لا يحتمله قلبي ولا أتمكَّن من فعله» غير صحيح؛ لأنَّ المقام مقام مجاهدةٍ واستعانةٍ بالله، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولنتأمَّل في هذا المقام أنواعًا من العفو في جوانب كثيرة جاء التَّنويه بها في القرآن الكريم -كثير من النَّاس يظنُّها أمرًا لا يمكن العفو عنها-:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:١٠٩]، فهذا عفوٌ في مقابلة الأذى في الدِّين.

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور:٢٢]. وهذا عفوٌ في مقابلة الأذى في العرض وهو من أشدِّ الأذى وأنكاه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التَّفسير (١٨٤٨٨).

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة:١٧٨]، وهذا عفوٌ في مقابلة الأذى بالدَّم والقتل.

ومن أشدِّ الأذى أذى القرابة من زوجةٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو نحو ذلك؛ وكثير من النَّاس لا يحتمل قلبه ذلك لما يرى له عليهم من حقوق قوبلت بظلم وعدوان وإساءة، فيرى كثير من النَّاس أنَّ هذا المقام مقامٌ لا يُحتمل فيه العفو والصَّفح، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤].

ونفس الإنسان ميَّالةٌ للانتقام والأخذ بالثَّأر، وإذا حُدِّثت حثًّا وترغيبًا بالعفو والصَّفح تمنَّعت عن ذلك ونفرت منه ولم تُقْبِل عليه؛ لِمَا في النُّفوس من رعونة وشدَّة ولِمَا فيها من غِلْظةٍ وفَظَاظة، لكنَّها إذا رُوِّضت بالحَقِّ وزُمَّت بزمام الشَّرع؛ فإنَّها تنقاد سلسةً بإذن الله -إذا كان العبد مستعينًا بالله طالبًا مدَّه وعونه وتوفيقه- والله جلَّ في علاه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وإذا تذكَّر المؤمن في هذا المقام ثوابَ الله وأجرَه وغفرَانه ورحمَته وما سيناله على صَفْحِه وعَفْوِه من أجورٍ عظيمة وثواب جزيل؛ هان عليه ما سوى ذلك، كما تقدَّم في الحديث: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا**

شَاءَ»[(١)].

أي: اجترع غضبًا كامنًا فيه وكان قادرًا على أن يفتك بمَن أغاظه وترك ذلك لوجه الله، فله هذا الثَّواب العظيم، أنَّه يُدْعَى على رؤوس الخلائق يوم القيامة يتخيَّر من أيِّ الحور العين شاء.

والنَّاس في هذا المقام -مقام العفو أو عدمه- أقسام ثلاثة:

- قسمٌ ينتقم ممَّن أساء إليه بأخذ حقِّه دون تجاوز.

- وقسمٌ ينتقم ممَّن أساء إليه بظلمٍ وتجاوزٍ وتعدٍّ.

- وقسمٌ ثالث يعفو ويصفح.

فالنَّاس أقسام ثلاثة في هذا المقام؛ أمَّا الأوَّل فهو المقتصد، وأمَّا الثَّاني فهو الظَّالم لنفسه ولغيره، وأمَّا الثَّالث فهو السَّابق بالخيرات، وقد جمع الله جَلَّ وَعَلَا هذه الأقسام الثَّلاثة في قوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشُّورى:٤٠]. فقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾ هذا في حقِّ المقتصد وهو مَن يأخذ حقَّه دون تجاوز، وأمَّا قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، فهذا في حقِّ السَّابقين بالخيرات أهل العفو والصَّفح والإحسان، وأمَّا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو في حقِّ مَن يعتدي ويبغي ويظلم.

ومَن يتأمَّل هذه الآيات العظيمة وما فيها من هداياتٍ مباركة وما فيها من

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أثرٍ على القلوب وتأثيرٍ في النُّفوس زكاءً وصلاحًا ورفعة، ينبغي أن يجعل لنفسه منها حظًّا ونصيبًا، لا أن يجعل نصيبه منها مُجَرَّد السَّماع؛ بل عليه أن يجاهد نفسَه ويطلب العون من الله ليعينه على تحقيق ما استمع إليه من الحقِّ والهدى والخير، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّساء:٦٦-٦٨].

وفَّقنا الله أجمعين لكُلِّ خير وبِرٍّ وصلاح.

٦٠

سلامة الصَّدر

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي». رواه التِّرمذيُّ(١).

إنَّ من سمات المؤمنين العظيمة وصفاتهم الكريمة الدَّالة على كمال إيمانهم وتمام دينهم ونُبل أخلاقهم: سلامةَ صدورهم تجاه إخوانهم المؤمنين من السَّخائم؛ فليس فيها حسدٌ أو غلٌّ أو بُغضٌ أو ضغينةٌ، بل لا يحملون في قلوبهم إلَّا المحبَّة والخير والرَّحمة والإحسان والعطف والإكرام.

وهؤلاء هم الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فنعتهم رَبُّهم بخصلتين عظيمتين وخلَّتين كريمتين؛

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

إحداهما تتعلَّق باللِّسان، فليس في ألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين إلَّا النُّصح والدُّعاء، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، والخصلة الثَّانية مُتَعَلِّقة بالقلب؛ فقلوبهم سليمة تجاه إخوانهم، ليس فيها غِلٌّ أو حسدٌ أو حقدٌ أو ضغينةٌ أو نحو ذلك.

إنَّ سلامة الصَّدر من أوضح الدَّلائل وأصدق البراهين على تمام الإيمان وكماله، وقد كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعدُّون الأفضل فيهم مَن كان سليم الصَّدر. قال إياس بن معاوية بن قُرَّة: «كان أفضلهم عندهم -أي السَّلف- أسلَمهم صدورًا وأقلَّهم غيبة»[(١)]. وقال سفيان بن دينار: «قلتُ لأبي بشر: أخبرني عن أعمال مَن كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيرًا ويؤجرون كثيرًا، قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم»[(٢)].

لقد كان السَّبب الأعظم لسلامة صدور هؤلاء الأخيار وألسنتهم هو قُوَّة صلتهم بالله وشدَّة رضاهم عنه، كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّه -أي: الرِّضا عن الله- يفتح باب السَّلامة فيجعل قلبه نقيًّا من الغشِّ والدَّغل والغلِّ، ولا ينجو من عذاب الله إلَّا مَن أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السَّخط وعدم الرِّضا، وكُلَّمَا كان العبد أشدَّ رضًا كان قلبه أسلم، فالخبثُ والدَّغل والغشُّ: قرين السَّخط، وسلامة القلب وبرُّه ونصحُه: قرين الرِّضا، وكذلك الحسدُ هو من ثمرات السَّخط، وسلامة القلب منه من ثمرات

(١) رواه الطَّبرانيُّ في مكارم الأخلاق (٧٣).
(٢) رواه هنَّاد في الزُّهد (٢/ ٦٠٠).

الرِّضا»[١] ا.هـ.

وثمرات سلامة القلب الَّذِي هو ثمرة من ثمرات الرِّضا لا تُعَدُّ ولا تحصى، فسلامة الصَّدر راحة في الدُّنيا وأنس وطمأنينة، وثوابه في الآخرة أحسن الثَّواب، وغنيمته أكبر غنيمة.

ولمَّا دُخِل على أبي دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مريض كان وجهه يتهلَّل، فقيل له: ما لوجهك يتهلَّل؟ فقال: ما من عملِ شيء أوثقُ عندي من اثنتين: كنت لا أتكلَّم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليمًا[٢].

وممَّا يعينُ المسلمَ على سلامة صدره ولسانه تجاه إخوانه: اللُّجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ وسؤاله بصدق وإخلاص، والنَّظر في العواقب الحميدة والنَّتائج المباركة في الدُّنيا والآخرة المُتَرَتِّبة على ذلك، وكذلك النَّظر في العواقب السَّيِّئة والنَّتائج الوخيمة الَّتِي يجنيها ويُحَصِّلها مَن كان في قلبه غِلٌّ أو حقدٌ أو حسدٌ أو نحو ذلك.

وقد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ في أدعية كثيرة أُثِرت عنه؛ سؤال الله هداية القلب وسلامته وثباته، فعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**»[٣]، وقوله: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»[٤]. وقوله: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ**

(١) مدارج السَّالكين، لابن القيِّم (٢/ ٥٢٩).
(٢) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر، لابن الجوزيِّ (ص٩٥).
(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).
(٤) رواه مسلم (٢٥٠).

ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[١]. وقوله: «**اللَّهُمَّ، اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا**»[٢]. إلى غير ذلك من أدعيته الشَّريفة -صلوات الله وسلامه عليه-.

والواجب على كُلِّ مسلم أن يجاهد نفسه مجاهدة تامَّة في استصلاح قلبه وتزكية فؤاده وتنقيته من الإرادات السَّافلة والشَّهوات الدَّنيئة والغايات المُنْحَطَّة، ويصبر على ذلك في حياته ليلقى الله بقلب سليم.

ومن الأدعية العظيمة النَّافعة في باب سلامة الصَّدر: ما ثبت في سنن التِّرمذيِّ وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أَبا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ؟ قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ. قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ**»[٣].

فقد تضمَّن هذا الحديث العظيم الاستعاذة بالله من الشَّرِّ وأسبابه وغايته؛ فإنَّ الشَّرَّ كُلَّه إمَّا أن يصدر من النَّفس أو من الشَّيطان، فاستعاذ بالله منهما في قوله: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ**». وغاية الشَّرِّ إمَّا أن تعود على العامل نفسه أو على أخيه المسلم، وفي هذا الحديث الاستعاذة من ذلك: «**وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**»؛ فتضمَّن هذا

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٩٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

الحديث الاستعاذة من مَصْدَرَي الشَّرِّ اللَّذين يصدر عنهما، وغايتَيْه اللَّتين يصل إليهما؛ فما أكمله من دعاء وما أجمل مقاصده، وجدير بالمسلم أن يُوَظِّفه في أذكار صباحه ومسائه وعند نومه كما أرشد إلى ذلك الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

هذا وينبغي لأهل الإيمان أن يبتعدوا عن كُلِّ سببٍ يُخِلُّ بسلامة الصَّدر ويُوجِد الضَّغائن والتَّعادي والتَّباغض؛ ولهذا جاءت النُّصوص الكثيرة في التَّحذير من التَّباغض والتَّدابُر والتَّهاجُر والتَّقاطُع، إلى غير ذلك من الأمور المُخِلَّة بسلامة الصُّدور.

روى الإمام أحمد والتِّرمذيُّ والبزَّار وغيرهم، عن الزُّبير بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»(١)، وقد صحَّ عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غير ما حديث النَّهيُ عن التَّباغض والتَّحذيرُ منه.

والنهي عن التَّباغض نهيٌ عنه وعن كُلِّ سبب مفضٍ إليه؛ ولهذا يجب على كُلِّ عبدٍ مؤمن أن يتجنَّب كُلَّ أمر يفضي إلى التَّباغض ويُؤَدِّي إليه، وثمَّة أمور توجب التَّباغض وتكون سببًا في وجوده، مطلوبٌ من المسلم أن يعرِفَها ليتَّقيها.

ومِنْ أعظم ذلك: ترك الاستمساك بالوحي المُنَزَّل كلام الله جَلَّ وَعَلَا وكلام رسوله ﷺ؛ فإنَّ النَّاس بحسْب بُعدهم عن القرآن والسُّنَّة ينالون نصيبًا من

(١) رواه أحمد (١٤١٢)، والتِّرمذيُّ (٢٥١٠)، والبزَّار (٢٢٣٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

الفرقة والبغضاء، ولنتأمَّل في ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة:١٤]، وهذا يفيد أنَّ النَّاس إذا تركوا بعض المُنَزَّل تقع بينهم العداوة والبغضاء؛ وذلك لأنَّهم لم يكن بينهم أصلٌ يجمعهم ويشتركون فيه.

ومِنْ موجبات التَّباغض: طاعة الشَّيطان في تحريشه بين أهل الإيمان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء:٥٣]، وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(١).

ومِنْ موجبات التَّباغض فعل البدع والأهواء والبُعد عن سُنَّة النَّبيِّ ﷺ الغرَّاء، ولهذا قال بعض أهل العلم في قول النَّبيِّ ﷺ: «**وَلَا تَبَاغَضُوا**»(٢) نهيٌ عن البدعة؛ لأنَّ وجودها سببٌ في وجود التَّباغض، فالسُّنَّة تجمع والبدعة تفرِّق.

ومن موجبات التَّباغض: التَّكالب على الدُّنيا والتَّنافس فيها، وأن تكون هي أكبر همِّ الإنسان ومبلغ علمه، وفي «الصَّحيحين» عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

ومِنْ موجبات التَّباغض: فعل المعاصي والذُّنوب؛ فإنَّ المعاصي مِنْ أسباب الوحشة والفرقة، وأسباب العداوة والبغضاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

ومِنْ موجبات التَّباغض: ظلم النَّاس والاعتداء عليهم، سواءٌ في أنفسهم أو في أعراضهم أو أموالهم.

ومن موجبات التَّباغض: أن يبيع الرَّجل على بيع أخيه، أو أن يسوم على سومه، أو أن يستأجر على إجارته، أو أن يخطب على خِطْبته إلى غير ذلك.

وفي «الصَّحيحين» عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١)، وكُلُّ ما كان نظيرًا لما ذُكر في هذا الحديث فإنَّه يأخذ حكمه.

ومِنْ موجبات التَّباغض: السَّعي بين النَّاس بالنَّميمة؛ فإنَّ خطرها عظيم وضررها جسيم في زرع التَّباغض وإيجاده بين النَّاس، وقد جاء في «المسند» وغيره من حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ**»(٢).

وكذلك: الغيبة والسُّخرية والاستهزاء وغير ذلك؛ ولذا لمَّا ذكر الله تعالى أهل الإيمان بوصف الأُخُوَّة في سورة الحجرات في قوله –جلَّ في علاه–:

(١) رواه البخاريُّ (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٩٩)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]؛ أتبع ذلك جَلَّ وَعَلَا بالتَّحذير من جملة أمورٍ وجودها يخرم هذه الأُخُوَّة ويخِلُّ بها، فقال -جلَّ في علاه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١١ - ١٢].

روى مسلم في «صحيحه»، والإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ**»(١). وهذه الأمور الثَّلاثة بتحقيقها والعناية بها ينتظم أمر المسلمين، وتتحقَّق لُحمتهم وتقوى أُخُوَّتهم وتزول عنهم الشُّرور والفتن.

فلنتقِ الله جَلَّ وَعَلَا، ولنحرص على تثبيت هذه الأُخُوَّة وتمكينها، ولنبتعد عن كلِّ سببٍ ينقضها أو ينقصُها أو يخِلُّ بها.

ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يؤلِّف بين قلوبنا، وأن يصلح ذات بيننا، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه، وألَّا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥).

٦١
أسباب انشراح الصَّدر

عَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**». رواه أحمد(١).

إنَّ انشراحَ الصَّدْرِ وسلامته مِنَ الهموم والغموم؛ مَطْلَبٌ عظيمٌ، ومقصِدٌ جليل، وهو مِنَّةٌ عظيمةٌ من ربِّ العالمين. والمقصودُ بانشراح الصَّدر: ارتياحُهُ وطُمأنينتُهُ، وزوالُ المُنَغِّصاتِ والمُكَدِّرات عنه، وبقاؤُه سَعِيدًا في حياة كريمةٍ طَيِّبةٍ.

وإذا منَّ اللهُ سبحانه على عبدِهِ بـه، فشَرَحَ له صدرَه ويسَّر له أمرَهُ وأذهب

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

عنه الهموم والغموم؛ تَحَقَّقَتْ له مصالحُهُ الدِّينيةُ والدُّنْيويَّةُ، ونال مقاصدَه وأهدافه؛ فسَهُلَتْ عليه العباداتُ، وتيسَّرت له الطَّاعاتُ، وتمكَّن من رعاية جميع مصالحه، بينما إذا ضاقَ الصَّدْرُ بكثرة الهموم والغموم؛ فإنَّ كثيرًا من مصالحِ العبد تتعطَّلُ؛ فلا قدرةَ له على عَمَلٍ، ولا نشاطَ له للوُلُوج في أبواب البرِّ، بل لا يزال متنقِّلًا من همٍّ إلى آخرَ، ومن غمٍّ إلى غمٍّ.

فشرحُ الصَّدر أعظم معين للعبد على تحقيق غاياته ونيل مصالحه؛ ولهذا لمَّا أمرَ اللهُ نَبِيَّهُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذَّهابِ إلى الطَّاغيةِ فِرعونَ لدَعْوَتِه وتحذِيرِه مِنْ مَغَبَّةِ طُغيانِهِ؛ توجَّهَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اللهِ بالدُّعاء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٥-٢٦].

ويقول الله تعالى ممتنًّا على عبدِه ورسولِه ومصطفاه محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١]؛ أي: فهذه مِنْحَةٌ إلهيَّةٌ، وعطيَّةٌ ربانيَّةٌ منَّ الله تعالى عليك بها، «فشرح الصَّدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضَّلال، كما أن شرحه من أجلِّ النِّعم، وتضييقه من أعظم النِّقم»(١).

ولا يُمْكِنُ نيلُ هذا المَطْلَبِ العَظِيم، إلَّا بالعنايةِ بهذا الدِّين والقيامِ به، فكُلَّما كان العَبْدُ أَحْرصَ على استقامتِهِ على هذا الدِّين، والتزامِهِ بما جاء فيه؛ كان حظُّه ونصيبُهُ من انشراحِ الصَّدر بحسبِ ذلك، ولهذا يمكنُ أن تُخْتَصَرَ جميع الأسباب المؤدِّية لانشراح الصَّدر **في أمرين؛ يترتَّبُ أحدُهما على الآخَرِ:**

فالأمرُ الأوَّلُ: أنَّ انشراحَ الصَّدرِ لا يُنالُ إلَّا بتوفيقِ الله تعالى وإعانتِهِ للعبدِ.

(١) شفاء العليل لابن القيِّم (١/ ٣٥١).

والأمرُ الثَّاني: أنَّ هذه المِنَّة والهِبةَ مِنَ الله تعالى لا تتأتَّى إلَّا بطاعتِه ولُـزُومِ شرعِه.

فـهذان الأمران هُما جِماعُ هذا الموضوع وأساسُه، إذِ القلوبُ بيدِ الله تعالى يُقَلِّبُها كيفَ يشاءُ، وهي طَوْعُ تدبيرِه وتَسخيرِه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّمر:٢٢].

فانشِراحُ الصَّدرِ لا يُنال إلَّا بتوفيقٍ مِنَ الله وحدَهُ؛ لذلك ينبغي أن يكون طلبُه منه سبحانه، وعن طريقِ شرعِهِ ووَحْيه؛ فيجتهِدُ المؤمنُ بالدُّعاء وصِدق الالتجاء إلى الله تعالى؛ ليَشْرحَ صدرَه، ويُيَسِّرَ أمرَهُ، ويكتُبَهُ تعالى في عبادِهِ السُّعداء في الدُّنيا والآخرة.

وبعد ذلك يُتْبِعُ المؤمِنُ الدُّعاءَ والالتجاءَ إلى الله، ببَذْلِ الأَسبابِ المُؤَدِّيةِ لتحقيق هذه الغاية الجليلة، والمقصد العظيم.

ولانشراح الصَّدرِ علاماتٌ بيِّنةٌ، ودلالةٌ واضِحةٌ تظهَرُ على المؤمنِ؛ فيحمَدُ به العاقبةَ في الدُّنيا والآخرة، **وتتلخَّصُ في الجملة في أمورٍ ثلاثةٍ:**

الأول: أن يُقبِلَ على دارِ الخُلودِ والبقاء.

والثَّاني: أن يتجافى عن دارِ الزَّوالِ والفناء.

والثَّالث: أن يستعدَّ للموت وما بعدَهُ.

فإذا وُجِدَت هذه الأمور الثَّلاثة في قلبِ العبدِ؛ فهو دليلٌ على انشراح صدْرِهِ، وطمأنينةِ قلبه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلامة هذا؛ انشراح الصَّدر لمنازل الإيمان وانفساحه، وطمأنينة القلب لأمر الله، والإنابة إلى ذكر الله، ومحبَّته، والفرح بلقائه، والتَّجافي عن دار الغرور. كما في الأثر المشهور[(١)]: «إذا دخل النُّور القلب انفسح وانشرح، قيل: وما علامة ذلك؟ قال: التَّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»»[(٢)].

وثمَّة أسباب عظيمة ينال بها العبد انشراحَ الصَّدر، أُورِدُ فيما يلي أهمَّها:

الأوَّل: توحيدُ الله وإخلاصُ الدِّين له؛ فالتَّوحيد وإخلاص الدِّين له يعدُّ أعظمَ سببٍ لانشراح الصَّدر، وهو الغايةُ الَّتِي خَلَقَ الله الخلقَ لأجلها، وأَوْجَدَهم لتحقيقها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦].

وكُلَّما كان العبدُ أعظمَ تحقيقًا للتَّوحيد، وأعظمَ عنايةً به، ورعايةً لحقوقِه وواجباتِه، وبعدًا عن نواقضِهِ ونواقصِهِ؛ كان ذلك أتمَّ في انشراح صدره وراحةِ قلبه، وطمأنينة نفسِه، وسعادته في الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٤٣١٤)، والطَّبريُّ في تفسيره (١٣٨٥٢).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٤٢١).

الثَّاني: النُّورُ الَّذِي يقذِفُهُ الله تعالى في قلبِ عبدِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمر:٢٢]، أي: فهو على نورٍ أمدَّهُ الله به؛ مِنَّةً وفَضْلًا، وهذا النُّور هو نورُ الإيمان، «فإنَّه يشرَحُ الصَّدر ويُوسِّعه، ويُفْرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النُّور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في أضيق سجنٍ وأصعبه، فنصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النُّور»(١).

قال الحافظ ابنُ رجَب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالقلبُ الَّذِي دَخَلَهُ نورُ الإِيمانِ، وانشرحَ به، وانفسحَ؛ يسَكُنُ للحَقِّ، ويَطْمئِنُّ به ويقبلُهُ، ويَنْفِرُ عَنِ الباطل ويكرهُهُ، ولا يقبلُهُ»(٢).

الثَّالث: تحصيلُ العَلْمِ النَّافع؛ فكُلَّما زاد تحصيلُ العبدِ مِنَ العلمِ الشَّرعيِّ المُسْتَمَدِّ من كتاب الله وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ؛ زادَ انشراحُ صَدْرِه، وزادَ صَلاحُ حالِه.

فالعِلْمُ فيه رِفعْةُ العبد، وسعادتُهُ، وفلاحُهُ في دُنياه وأُخراه، ونورٌ وضِياءٌ لطَريقِه، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وهو مع ذلك جَنَّةٌ يعيشُ فيها طالبُ العلم، وروضةٌ مُزهِرَةٌ، وبُستانٌ مُثمرٌ يَجِدُ فيه بهجتهُ وأُنسَهُ وراحتَهُ وسعادته، ويقطِفُ فيه من أطايب الثِّمار وصنوف الأزهار.

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيِّم (٢/ ٢٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٧٣٧).

الرَّابع: الإنابةُ إلى الله، وحُسْنُ الإقبالِ عليه، والتَّلذُّذ بعبادته وطاعته؛ فإنَّ الطَّاعةَ والعِبادةَ راحةُ القُلُوبِ، وأُنْسُ النُّفُوسِ، وقرَّةُ العُيُون، وسعادَةُ الصُّدور.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنابةُ إلى الله تعالى، ومحبَّتُه بكلِّ القلبِ، والإقبالُ عليه، والتنعُّمُ بعبادتِه، فلا شيءَ أشرح لصدرِ العبدِ من ذلك. حتَّى إنَّه ليقول -أحيانًا-: إن كنتُ في الجنَّةِ في مثلِ هذه الحالةِ؛ فإنِّي إذًا في عيشٍ طيِّبٍ»[(١)].

مثال ذلك: الصَّلاةُ، كم فيها من قُرَّةِ عين! وراحةِ بال! وسُكونٍ لقلبِ المؤمنِ! حتَّى قال نبيُّنا ﷺ: «**قُمْ يَا بِلَالُ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»[(٢)]. وفي الحديث الآخرِ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[(٣)].

الخامس: دوامُ ذِكْرِ الله تعالى؛ فإنَّ مداومةَ العبد على ذكر الله سبحانه من أعظم الأسباب؛ لنيل طُمأنينة القلب، وراحة النَّفس، وزوال الهمِّ والغمِّ، بل لا تُكشَفُ كُربةٌ، ولا تزولُ شدَّةٌ إلَّا بذكر الله، وصِدقِ الالتجاء إليه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرَّعد:٢٨].

فالذِّكْرُ قُرَّةُ عينٍ للذَّاكِر، وراحةٌ لبالِهِ، وأجرٌ وافِرٌ مُضاعَفٌ يلقاهُ يومَ القِيامةِ، وفيه مِنَ العوائد الحميدة والمنافع العديدة، الَّتِي تعودُ على العبدِ

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٩).
(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) رواه النَّسائيُّ (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

في الدُّنيا والآخرة، بل إنَّ كلَّ خيرٍ وسعادةٍ وأُنسٍ وراحةٍ وطُمأنينةٍ في الدُّنيا والآخرة؛ متوقِّفٌ على تحقيق ذِكر الله جَلَّ وَعَلَا.

السَّادس: الإحسان إلى عباد الله، قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

والإحسان إلى الخَلْقِ يكونُ بأمورٍ عديدةٍ حِسيَّةٍ ومعنويَّةٍ؛ سواءٌ بالجاه أو بالمال أو بالمشورةٍ، أو غيرها من أنواع المساعدات. فإنَّ العبدَ المُحْسِنَ لعباد الله يُجازيه الله تعالى بشَرْحِ صَدْرِه، وتَيْسِيرِ أَمْرِه، وحُسْنِ عاقِبَتِه ومآلِه.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(١).

السَّابع: إبعادُ أدواءِ القلوب وأسقامِها، فأدواءُ القُلُوبِ وأسقامُها وغوائِلُها كثيرةٌ، والقلوب تَمْرضُ كما تَمْرضُ الأبدان، بل إنَّ أمراضَ القلبِ لها تأثيرٌ عظيمٌ على صاحبِها؛ كالحَسَدِ، والغِلِّ، والحِقْدِ، وغيرها مِنَ الأمراض القلبيَّة. فإنَّ هذه الخِصالَ الذَّميمةَ والأدواءَ المَشِينةَ، إذا دَخَلَتْ إلى القُلُوبِ أَعْطَبَتها، وإذا وَصَلَتْ إلى الصُّدُورِ أَظْلَمتها، وتَرتَّبَ عليها ضِيقُ صَدْرِ صاحِبها، وكآبةُ حالِه، وسُوءُ عاقِبَتِه ومآلِه.

وأمَّا مَن سَلِمَ من هذه الأمراض، وامتلأَ قلْبُهُ بأضدادها -كالأمانة والوفاء

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

والصِّدقِ والإيثار- فإنَّ هذه المعاني تنعكِسُ على صاحبها بالانشراح في صدره، والرَّاحةِ في قلبه، والطُّمأنينة في نفسِهِ.

الثَّامن: تركُ فُضولِ الأمور؛ فمن أسباب انشراح الصَّدر: صيانةُ اللِّسانِ عن فضولِ الكلامِ، وصِيانةُ الأُذُنِ عن فضول الاستِماع، وصيانةُ العَين عن فُضُول النَّظَرِ.

فإنَّ انشِغالَ نَفْس الإنسان وقلبه بالفُضُول عَنِ الأُمورِ المهمَّةِ، الَّتِي تكون بها سعادته وفلاحُهُ وصلاحُهُ في دنياه وأخراه؛ له أثرٌ بالغٌ على حياة الإنسان بالضِّيق والنَّكَدِ والحَرَجِ، بل إنَّ فُضُولَ السَّمعِ والبَصَرِ والكَلامِ سببٌ لجلبِ الهُمُومِ والغُمُومِ، ويتـرَتَّبُ عليها مِنَ العواقِبِ الوَخِيمةِ ما لا يَحْمَدُه الإنسانُ في دُنياهُ وعُقْباه، وكم جَرَّ فضولُ النَّظَرِ أو الكلامِ أو السَّماعِ على صاحبِهِ من الويلات والحَسَرات؟!

ولهذا ينبغي للمؤمن أن يجتهدَ في تهذيب نفسِهِ، وأن يَزُمَّها بالأخلاق الفاضِلة، والرِّعايةِ للأدب، والحفظِ للنَّفسِ، والبُعْدِ عن كُلِّ ما يضرُّها ويُهلكها.

التَّاسع: حُسْنُ اتِّباعِ النَّبيِّ الكَريمِ ﷺ؛ فاتِّباعُ سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، ولُزُومُ نهجه القويم، والاقتداءُ بهديه؛ من أعظمِ أسباب انشراح الصَّدر، بل هو جماع هذا الباب كُلِّه؛ وذلك لأنَّه ائتساءٌ بأَشْرحِ النَّاسِ صَدْرًا ﷺ، وأَطْيَبِهم خُلُقًا، وأَجْمَلِهِم سِيرةً، وأزكاهم سَريرَةً.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشَّرح:١]. وشَرْحُ الله تعالى لقلبِ

النَّبِيِّ ﷺ، هو باتِّساعِهِ وجَمْعِهِ للفضائلِ كُلِّها، والكمالات والآداب بأنواعِها.

ولذلك كُلَّما كان العبدُ أكثرَ اتِّباعًا لرسول الله ﷺ واقتداءً بهديه الكريم؛ كان ذلك أحظى للعبدِ بشَرْح الصَّدر، وراحة البال، وطمأنينة القلب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود: أنَّ رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كُلِّ صفة يحصل بها انشراح الصَّدر، واتِّساع القلب، وقرَّة العين، وحياة الرَّوح؛ فهو أكمل الخلق في هذا الشَّرح، والحياة، وقرَّة العين، مع ما خصَّ به مِنَ الشَّرح الحسِّيِّ.

وأكمل الخلق متابعة له أكملهم انشراحًا ولذَّة وقرَّة عين، وعلى حسب متابعته؛ ينال العبد من انشراح صدره، وقرَّة عينه، ولذَّة روحه ما ينال فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصَّدر، ورفع الذِّكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه، والله المستعان»(١).

اللَّهُمَّ اشرح صدورنا، ويَسِّر أمورنا، وأعِنَّا على سلوك الصِّراط المستقيم، صراط الَّذِين أنعمت عليهم مِنَ النَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقًا.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٢ - ٣٣).

٦٢
سوء الظَّنِّ بالمسلم

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[(١)].

إنَّ من المطالب العظيمة الَّتِي ينبغي على كلِّ مسلم أن يرعاها وأن يحافظ عليها؛ تقويةَ الأخوَّة الإيمانيَّة والرَّابطة الدِّينيَّة الَّتِي هي أعظم الرَّوابط وأوثق الصِّلات، والحذرَ من كلِّ ما يُضعِفها و يوهِّيها أو يخرمها ويهدمها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

وثمَّة أمور حذَّر الشَّرع منها، ونهى عنها تؤثِّر في هذه الأخوَّة تأثيرًا عظيمًا ضعفًا ووهاءًا؛ ومن ذلك الظَّنُّ السَّيِّء يظنُّه المسلم بأخيه، قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**» أي: حديث النَّفس؛ لأنَّه من إلقاء الشَّيطان في نفس الإنسان، والمراد: النَّهي عن ظنِّ السُّوء. ونظيره ما جاء في القرآن

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣).

الكريم بعد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، قال عَزَّوَجَلَّ -في هذا السِّياق-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

إنَّ الظَّنَّ السَّيِّءَ الَّذِي يظنُّه المسلم بأخيه -وهو من آفات القلوب- يترتَّب عليه من الآثار العظيمة والأضرار الوخيمة في إضعاف هذه الأخوَّة، بل وفي إذهابها ما لا يعلم مداه إلَّا الله. والظَّنُّ السَّيِّء هو التُّهمة الَّتِي تقع في القلب بلا دليل ولا مستند إثر كلمةٍ يسمعها المرء من أخيه أو فعلٍ يراه من أفعاله؛ فيبني عليه ظنونًا وأوهامًا وتُهمًا باطلة يُبنى عليها عداواتٌ وقطيعةٌ وتناحرٌ وعِداء؛ فكم من علاقاتٍ زوجيَّة تهدَّمت، وكم من صحبة ورفقة تفكَّكت، وكم من إخاء ومودَّة تقطَّعت بسبب الظُّنون السَّيِّئة؛ ولهذا يجب على المسلم أن يحذر أشدَّ الحذر من الظَّنِّ السَّيِّء بأخيه، وهي التُّهمة والتَّخوُّن الَّذِي يقع في القلب، بل يلقيه الشَّيطان في القلب دون أن يكون له مستند.

والمسلم النَّاصح إذا بلغته الكلمةُ من أخيه وتواردت على ذهنه الظُّنون والأوهامُ والتُّهم أبعدها وتلمَّس لأخيه العذر والمحامل الطَّيِّبة، قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا**»(١)، أي: التمس لها المحامل الطَّيِّبة؛ لتسْلَمَ وليسلَمَ منك أخاك، وإن لم يجد محملًا طيِّبًا قال: لعلَّ له عذرًا خفي عليَّ، كما قال محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «إذا بلغك عن أخيك شيء، فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا، فقل: لعلَّ له عذرًا»(٢).

(١) رواه المحامليُّ في الأمالي (٤٤٧)، وأبو الشَّيخ في التَّوبيخ والتَّنبيه (١٥١).
(٢) رواه أبو الشَّيخ في التَّوبيخ والتَّنبيه (١٠٠)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٨٣٤٢).

وأمَّا إذا دخل المرء في الظُّنون الواهية تُهمًا وتخوُّنًا وظنونًا فاسدةً؛ فإنَّه يضرُّ نفسه ضررًا عظيمًا، بل رُبَّما صارت حاله أسوء حالًا ممَّن ناصبه العِداء بسبب موقف ما أو خطأٍ. روى البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأدب المفرد عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَا يَزَالُ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ يَتَظَنَّى، حَتَّى يَصِيرَ أَعْظَمَ مِنَ السَّارِقِ**»[(١)]؛ «يتظنَّى» أي: يدخل في الظُّنون والأوهام، وهذه حال كثير من النَّاس إذا سُرق منه أو ارتُكب في حقِّه خطأٌ لا يدري مَن فعَله، يدخل في الظُّنون: «أعتقد أنَّه فلان، بل إنَّه فلان، نعم لقد رأيت فلانًا في ذلك المكان»، ثمَّ يدخل في تُهم وغيبة ووقيعة ونميمة وآثام عظيمة، حتَّى إنَّ حاله لتصبح أعظمَ إثمًا من إثم السَّارق. وقُل مثل ذلك في سائر الأخطاء والمخالفات. وعلى سبيل المثال: قد يصاب المرء بالعين فيتضرَّر إمَّا في بدنه أو في بعض ممتلكاته فيدخل في هذه الظُّنون والتُّهم: «إنَّه فلان، بل هو فلان، إنَّني أعرف من فلانٍ كذا»، ويخوض في أعراض إخوانه تُهمًا باطلة ودعاوى زائفة لا تقوم على دليل، غيبةً ونميمةً واستطالةً وأذًى عظيمًا؛ فتكون حاله أشدَّ حالًا من العائن الَّذِي حسده أو أصابه بالعين.

فعلى المسلم أن يريح نفسه في هذا الباب ويريح قلبه، وأن يحسن الظَّنَّ بإخوانه ويحمْل أخطاءهم أو أقوالهم على أحسن المحامل، كما يُحِبُّ أن يُفعل معه لو كان هو صاحب ذلك القول أو الفعل. قال بكر بن عبدالله المزنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لم تؤجر، وإن أخطأتَ فيه أثِمت؛

(١) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٨٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وهو سوء ظنِّك بأخيك المسلم»[١]، أي: إن أصبت في سوء ظنِّك فيه وصار الأمر مطابقًا للواقع لم تؤجر على ذلك، فليس من وراء سوء الظَّنِّ فائدة، وإن لم تُصِب وكان الأمر مجرَّد تهمة بلا دليل؛ فإنَّك تبوء بإثمٍ عظيم، ولاسيَّما إذا تبع هذا الظَّنَّ السَّيِّء ما تبِعه من أمور وأعمال، وفي الغالب أنَّ الظَّنَّ يتبعه أمور كثيرة منها التَّجسُّس؛ إذا ظنَّ فيه السُّوء أخذ يتجسَّس عليه وعلى أفعاله، وإذا تجسَّس ترتَّب على ذلك وقيعةٌ وغيبةٌ ونحوُ ذلك، ولهذا لما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الظَّنِّ السَّيِّء أتبع ذلك بالنَّهي عن التَّجسُّس، ثمَّ أتبعه بالنَّهي عن الغيبة؛ لأنَّها أمورٌ وشرور يتوالدُ بعضها من بعض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظَّنِّ، وهو التُّهمة والتَّخوُّن للأهل والأقارب والنَّاس في غير محلِّه؛ لأنَّ بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا»[٢].

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهى الله تعالى عن كثير من الظَّنِّ السُّوء بالمؤمنين، فـ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك، كالظَّنِّ الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظنِّ السُّوء، الَّذِي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المُحَرَّمة، فإنَّ بقاء ظنِّ السُّوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرَّد ذلك، بل

(١) رواه ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (٧/ ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٢٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٣٧٧).

لا يزال به، حتَّى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا، إساءة الظَّنِّ بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تفتِّشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبَّعوها، واتركوا المسلم على حاله، واستعملوا التَّغافل عن أحواله الَّتِي إذا فُتِّشت، ظهر منها ما لا ينبغي.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ والغيبة، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ**»[(١)].

ثمَّ ذكر مثلًا مُنفِّرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ شبَّه أكل لحمه ميتًا، المكروه للنُّفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنَّكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا، فاقدَ الرُّوح، فكذلك، فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًّا»[(٢)].

ليحذر المؤمن من هذه الظُّنون والأوهام الَّتِي أفسدت في حياة النَّاس كثيرًا، ونخَرت في أُخُوَّتهم وعلاقاتهم وأوجدت بينهم من العداوات والبغضاء ما لا يعلمه إلَّا الله سبحانه، وليعامل غيره بما يُحِبُّ أن يعامل به؛ فإنَّ المؤمن يُحِبُّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه.

ولا يضرُّ المسلم إذا هجمت على قلبه ظنونٌ ما لم يتكلَّم بها ويبدها، قال سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الظَّنُّ ظَنَّانِ: فَظَنٌّ إِثْمٌ، وَظَنٌّ لَيْسَ بِإِثْمٍ، فَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي**

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).
(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٠١).

هُوَ إِثْمٌ فَالَّذِي يَظُنُّ ظَنًّا وَيَتَكَلَّمُ بِهِ، وَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي لَيْسَ بِإِثْمٍ فَالَّذِي يَظُنُّ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهِ»[(١)].

وعليه في مثل هذا المقام أن يُذَكِّر نفسه بحقوق المسلم عليه، ويكثر من الدُّعاء له بخير؛ فإنَّ هذا يصرف عنه تسلُّط الشَّيطان عليه بمثل تلك الظُّنون.

قال ابن قدامة المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإنَّ ذلك يغيظ الشَّيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السُّوء خيفة من اشتغالك بالدُّعاء والمراعاة. وإذا تحقَّقت هفوة مسلم، فانصحه في السِّرِّ. واعلم أنَّ من ثمرات سوء الظَّنِّ التَّجسُّس، فإنَّ القلب لا يقنع بالظَّنِّ، بل يطلب التَّحقيق فيشتغل بالتَّجسُّس، وذلك منهيٌّ عنه؛ لأنَّه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم»[(٢)].

ثمَّ إنَّ الغيرة قد تدخل المرء في ظنون لا أساس لها، ولا يسلم من ذلك حتَّى الصُّلحاء الأخيار.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ -يَوْمًا-: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي؟ قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ. قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ في سننه تحت حديث (١٩٨٨).

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص١٧٢).

رِجْلَيْهِ وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ، فَدَخَلَ فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَةً**». قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ. قَالَ: «**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي**». قُلْتُ نَعَمْ. فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: «**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ**». قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ نَعَمْ. قَالَ: «**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**». قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»[1]. رواه مسلم.

ورواه البزَّار ولفظه: أنَّها قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فقدت رسول الله ﷺ عن فراشه، فظننت أنَّه ذهب إلى بعض نسائه فوجدته قام سريعًا فأخذ رداءه على كتفه،

---

(١) رواه مسلم (٩٧٤).

فأخذت إزاري، قلت: ما يصنع؟ فخرج وخرجت خلفه، كلَّما أسرع أسرعت حتَّى أتى البقيع فرفع يديه يدعو ثلاث مرَّات، ثمَّ انصرف فأسرع وأسرعت حتَّى دخلت البيت ودخل على أثري، فقال: ما شأنك؟ خشيت أن يحيف الله عليك ورسوله؟ أتاني جبريل ﷺ فأمرني أن آتي أهل البقيع فأستغفر لهم»(١).

فينبغي للمسلم إذا ظنَّ ألَّا يُحَقِّق، وعليه أن يكره ذلك من نفسه، ولا يضرُّه ذلك ما لم يَعْتَدِ به يدًا أو لسانًا. ولا ينبغي للمرأة على وجه الخصوص أن تغلبها الغيرة فتشقى وتسيء وتظلم.

وليتفكَّر المسلم في هذا المقام، كم من الشُّرور والمظالم تترتَّب على إعمال الظَّنِّ السَّيِّء من عداوات وخصومات وقطيعة، لا مستند لها غير سوء الظَّنِّ واتِّهام السَّرائر جزافًا.

عن أبي حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لَا تُعَادِيَنَّ رَجُلًا وَلَا تُنَاصِبَنَّهُ، حَتَّى تَنْظُرَ إِلَى سَرِيرَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنْ تَكُنْ لَهُ سَرِيرَةٌ حَسَنَةٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَكُنْ مُخْذِلَهُ بِعَدَاوَتِكَ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ سَرِيرَةٌ رَدِيَّةٌ؛ فَقَدْ كَفَاكَ مَسَاوِئُهُ، فَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ لَمْ تَقْدِرْ»(٢).

وما أجمل الشَّأن بالمسلم أن يجاهد نفسه على التَّمتُّع بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، من هدايات هذه الشَّريعة وتوجيهاتها العظيمة الَّتي تكفُل للنَّاس في حياتهم راحةً وأمنًا وطمأنينةً وقوَّةً في المحبَّة والصَّفاء والإخاء،

(١) رواه البزَّار في المسند (٢٢٤).
(٢) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (١١٠٠).

بل هذا متأكِّدٌ على كلِّ مسلم أن يرعى هذه الحقوق والآداب تجاه إخوانه المسلمين إبقاءً لِأُخُوَّة الإيمان ورابطةِ الدِّين.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحفظ علينا أخوَّتنا وأمْننا وإيماننا، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه، إنَّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ سميع الدُّعاء.

٦٣
ذمُّ اليأس والقنوط

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**». رواه البزَّار(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**». رواه مسلم(٢).

اليأس من روح الله والقنوط من رحمته جلَّ في علاه وصفان موبِقان، جاءت الشَّريعة بذمِّهما والتَّحذير منهما وبيان خطورتهما، إذا سيطرا على القلوب أهلكاها، وإذا ولجا إلى النُّفوس أعطباها، وهما معدودان في كبائر الذُّنوب وعظائم الآثام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

ومنشأ القنوط واليأس؛ الجهل بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبكماله سبحانه في أسمائه

---

(١) رواه البزَّار (١٠٦ كشف)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٦٠٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٥).

وصفاته، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا عليمٌ أحاط بكلِّ شيء علمًا، قديرٌ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، توَّابٌ رحيمٌ يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيءُ النَّهار، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيءُ اللَّيل، كريمٌ جواد يمينُه ملأى لا يغيضها نفقةٌ سحَّاءُ اللَّيل والنَّهار، غفورٌ غفَّار لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، حييٌّ محسن يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفرًا، إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى وصفاته العليا المقتضية لآثارها من العبوديَّة لله وكمال الثِّقة به وحُسن الالتجاء إليه وقوَّة التَّوكُّل عليه وشدَّة الطَّمع فيما عنده دون إياسٍ أو قنوط، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول في الحديث القدسيِّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[١]، ويقول في الحديث الآخر: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»[٢]. ويقول جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسيِّ الآخر: «**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[٣]. فلِمَ الإياس ولم القنوط!! والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ومن علِم أنَّ الأمور كلَّها بتدبير الله وتسخيره جلَّ في علاه، وأنَّها ماضيةٌ بما قدَّره وقضاه، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وآمن بذلك حقًّا استراح قلبه ولم يضطرب، واطمأنَّ فؤاده ولم ينزعج، وهل اضطراب القلب يردُّ أمرًا مقدورًا؟ وهل انزعاجه يجلب أمرًا غير مقدَّر؟! اللَّهُمَّ إلَّا الآلامَ والغُصصَ والحسرات الَّتِي تؤذي القلوبَ وتُضعِف إيمانَها وتوهِّي من صلتها بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولهذا جاء دعاءُ الهمِّ والحَزَنِ رادًّا العبدَ المهمومَ المحزون إلى هذا الأصل المتين، روى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»(١).

ومَن كان إياسه وقنوطه بسبب كثرة ذنوبه وتعدُّد خطاياه فليتأمَّل كثيرًا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، وهي أرجى آيةٍ في

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٨٢٢).

كتاب الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فالله تَبَارَكَوَتَعَالَى لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره ولا حاجةٌ يُسألها أن يعطيها جلَّ في علاه، وهو سبحانه أجود مَن سُئِل، وأوسع مَن أعطى، وأرحم مَن استرحم، وأكرم مَن قُصد، وأعزُّ مَن التجىء إليه، وأكفى مَن تُوكِّل عليه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، ولهذا قيل في حدِّ الرَّجاء هو النَّظر إلى سعة رحمة الله.

والواجب على العبد في هذا المقام أن يجاهد نفسه على الطَّاعة، وأن يحرص على مباعدتها عن العصيان، غير مستسلمٍ ليأسٍ أو قنوط، بل مجاهدًا نفسه على طاعة الله، عاملًا على نيل رضاه جلَّ في علاه، وليتأمَّل في حاله مع مصالحه الدُّنيويَّة ومبتغياته من مُتع الحياة، أليس يتعامل معها دون إياسٍ أو قنوط؟ فها هو الجائع لا يستسلم لجوعه، والعطشانُ يبحث عمَّا يروي ظمأه، إلى غير ذلك من مصالح الدُّنيا وحاجاتها، فلِمَ الاستسلام للذُّنوب؟ لِمَ لا تُدفع العقوبة الأخرويَّة بالتَّوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والإقبال عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟ وإذا كان العبد يتوقَّى كثيرًا من الأطعمة خوف مضرَّتها، لِمَ لا يتَّقِ الذُّنوب خوف معرَّتها؟ أليس هو قادم على الله، ومؤاخذ على ما قدَّم في هذه الحياة؟! فكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدُّنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنَه أو تؤثِّرَ على صحَّته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: «عجبتُ لِمَن يحتمي من الطَّيِّبات مخافة الدَّاء، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النَّار»[١].

---

(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ (ص٩٧).

وقال حمَّاد بن زيد: «عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها، كيف لا يحتمي من الذُّنوب لمعرَّتها»(١).

ولهذا وجب على المسلم أن يكون ناصحًا لنفسه، مقبلًا على ربِّه، غير مستسلمٍ ليأسٍ أو قنوط، ولا متماديًا في تأخيرٍ أو تسويف. والكيِّس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

ولا يعني عدم القنوط والبُعد عن الإياس تمادي المرء في الذُّنوب والخطايا والآثام اتِّكالًا على سعة الرَّحمة وعِظم المنِّ والغفران، قال الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه الصَّحيح: «كَانَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يُذَكِّرُ النَّارَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطِ النَّاسَ؟ قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ! وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر:٥٣]، وَيَقُولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣]، وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالْجَنَّةِ عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ»(٢).

ومن عظيم ما يُذكَّرُ به في هذا المقام قولُ الخليفةِ الرَّاشد عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لَا يَرْجُو عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا ذَنبَه**»(٣)، فعلى هذين الأمرين مدارُ النَّجاة

---

(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ (ص١٠٣).
(٢) انظر: صحيح البخاريِّ (٦/ ١٢٦).
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٥).

والسَّعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة؛ والرَّجاء والخوف عملان قلبيَّان لا يطَّلع عليهما ولا يعلم بهما إلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ العليم بما في الصُّدور، الَّذِي أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا.

والرَّجاء إنَّما يكون للخير فيما يؤمِّله ويطمع فيه العبد من خيرات الدُّنيا والآخرة، وكلُّ ذلك إنَّما هو بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه لا يأتي بالحسنات إلَّا الله ولا يصرف السَّيِّئات إلَّا هو جلَّ في علاه، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس:١٠٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]. ولهذا وجب على العبد في كلِّ رجائه أن يكون معلَّقًا قلبه بالله؛ فلا يرجو إلَّا الله، ولا يطمع في نوالٍ في الدُّنيا والآخرة إلَّا من الله، فإنَّ الخير بيده وحده جلَّ في علاه، لا يُعَلِّق قلبه ولا رجاءه لا في نفسه ولا في ذكائه ولا في فهمه ولا قدرته ولا في أيِّ أحد من الخلق، وإنَّما يُعَلِّق رجاءه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يكون ذلك منه مجرَّد دعوى، فإنَّ من اليسير على كلِّ لسانٍ أن يقول: «ما أرجو إلَّا ما عند الله»، لكنَّ الشَّأنَ في تحقيق ذلك عقيدةً وإيمانًا في القلب تثمر ثقةً بالله، وحُسنَ توكُّلٍ عليه، وجِدًّا في الإقبال على طاعته ونيل رضاه؛ فهذا هو المطلوب من العبد الصَّادق في إيمانه الصَّادق في رجائه.

والخوف يكون من الشُّرور والأخطار والعقوبات، وموجبها ذنوبُ العباد وخطايُاهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥]،

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورى:٣٠]. أي: بسبب ما كسبت أيديكم، ولهذا لا يخافنَّ عبد إلَّا ذنبه، فإنَّ ذنوب العباد هي الَّتِي من وراء حصول الشُّرور والعواقب الوخيمة والأضرار الأليمة في الدُّنيا والآخرة.

وعندما يكون العبد بهذه الصِّفة؛ لا يرجو إلَّا الله ولا يخاف إلَّا من ذنوبه؛ فإنَّ حياته كلَّها تستقيم على الطَّاعة وحُسن العمل والبُعد عن الذُّنوب وتحقيق التَّوحيد لله جلَّ في علاه. وليحذر العبد في هذا المقام أن يكون حظُّه من ذلك مجرَّدَ القول والدَّعوى، وقد يقع في شيء من ذلك من حيث يشعر أو لا يشعر. روى الإمام أحمد في كتابه الزُّهد عن معاوية بن قُرَّة قال: «دخلتُ على مسلم بن يسار، فقلت له: ما عندي من كبير عمل إلَّا أنِّي أرجو الله عَزَّوَجَلَّ وأخاف منه»، فقال: «ما شاء الله، مَن خاف من شيء حذر منه، ومَن رجا شيئًا طلبه، وما أدري ما حسْب خوف عبدٍ عرَضَتْ له شهوة فلم يدعها لما يخاف؟ أو ابتلي ببلاءٍ فلم يصبر عليه لما يرجو؟» قال معاوية: «فإذا أنا قد زكَّيت نفسي وأنا لا أعلم»(١).

نعم لنجاهد أنفسنا حقيقةً بيننا وبين الله في إصلاح قلوبنا وإقامتها على طاعة الله جَلَّوَعَلَا رجاءً منه وحده وخوفًا وطمعًا وحُسن إقبال عليه جلَّ في علاه، ومَن كان بالله أعرف؛ كان منه أخوف، ولفضله أرجى، وعن معصيته أبعد، وإلى طاعته أقرب، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨].

وعندما يستقيم العبد على هذا الرَّجاء والخوف إلى أن يتوفَّاه الله ينال

---

(١) رواه أحمد في الزُّهد (١٤٠٠).

فضلًا عظيمًا وخيرًا عميمًا لا يعلمه إلَّا الله جلَّ في علاه؛ وليتأمَّل في هذا ما رواه التِّرمذيُّ وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قَالَ: «**وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(١).

وروى التِّرمذيُّ وغيره عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ**»(٢)؛ وقد جمعت هذه الدَّعوة أمرين عظيمين: التَّوحيدَ والاستغفار؛ فإنَّ «**لا إله إلَّا الله**» كلمة التَّوحيد، وقوله: «**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» اعترافٌ بالذَّنب متضمِّن طلب الغفران.

والتَّوحيد يفتح للعبد أبواب الرَّجاء في الدُّنيا والآخرة، والاستغفار يغلق عن العبد أبواب الشُّرور؛ وما أعظم أن يكون العبد في هذه الحياة مكثرًا من كلمة التَّوحيد «**لا إله إلَّا الله**» لتفتح له أبواب الخيرات في الدُّنيا والآخرة، فإنَّها مفتاح كلِّ خير وفضيلة، وأن يكثِر من كلمة «**استغفر الله**»؛ لتكون مغلقة عنه أبواب الشُّرور، وطوبى لمَن وجد في صحيفته يوم القيامة استغفارًا كثيرًا.

غفر الله ذنوبنا وأصلح قلوبنا.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٦٤
التَّطيُّر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**». متَّفق عليه(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ: الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ**». متَّفق عليه(٢).

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**». قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». رواه مسلم(٣).

لقد جاء الإسلام بهدايات مباركة فيها بناء المسلم؛ على العقيدةِ القويمة، والإيمانِ الرَّاسخ، والثِّقةِ الكاملة بالله وحُسنِ التَّوكُّل عليه جلَّ في علاه، والبعدِ عن الأوهام والظُّنُون والخرافات ونحو ذلك من التَّعلُّقات الباطلات، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿قُل

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) رواه البخاريُّ (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).
(٣) رواه مسلم (٢١٨).

لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التَّوبة:٥١].

وممَّا يتنافى مع هذا الاعتقاد والثِّقة بالله وحسن التَّوكُّل عليه جلَّ في علاه؛ الطِّيَرة والتَّطيُّر والتَّشاؤم؛ فإنَّها من أعمال الجاهليَّة وهَدْيِ أهل الضَّلال والباطل، وهي اعتقادٌ مبنيٌّ على الوهم والخرافة والظُّنُون الفاسدة.

والطِّيَرةُ سوءُ ظنٍّ بالله، ومجلبةٌ للأوهام والظُّنُون، واتِّباعٌ لخطوات الشَّيطان، وخللٌ في الإيمان والاعتقاد، وضعفٌ في الثِّقة بالله والتَّوكُّل عليه، ومجلبةٌ للشُّرور والآفات؛ ولهذا تكاثرت الأحاديث عن نبيِّنا ﷺ تحذيرًا منها ونهيًا عنها وبيانًا لفساد التَّعلُّق بها.

وأصل الطِّيرة عند أهل الجاهليَّة: هي تعلُّقهم بحركات الطَّير وأصواتها وهيئاتها؛ فيتشاءمون من بعض أصواتها، أو بعض حركاتها، أو بعض أصنافها؛ ممَّا يجعل الواحد منهم ينثني عن حاجته ولا يقوم بمقصده عند حصول هذا التَّشاؤم له.

جاء في صحيح مسلم عن معاوية بن الحَكَم السُّلميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يسأل النَّبيَّ ﷺ عن بعض أعمال أهل الجاهليَّة الَّتي كانوا يصنعونها، قال: «**كُنَّا نَتَطيَّرُ**»، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**»(١)، أي: ليحذر المؤمن بالله الواثق به جلَّ في علاه أن يصُدَّه ما يهجم على قلبه من هذا التَّطيُّر لشيء يراه أو يسمعه، «**فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**»، أي: عن حاجتكم.

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

وفي سنن أبي داود عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**». «**وَمَا مِنَّا إِلَّا** -وهذا من قول ابن مسعود- **وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»[1]. «**وَمَا مِنَّا إِلَّا**»، أي: قد يهجم على القلب في بعض الأوقات شيء من ذلك لمرأًى رآه أو صوتٍ سمعه أو أمرٍ شاهده، «**وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»، أي: توكُّل المؤمن الصَّادق على الله جلَّ في علاه يُذهب عنه هذا الوهم ويطرده عنه.

كان ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع نفرٍ من أصحابه في طريق فسمع أحدهم طائرًا يصيح، فقال: «خيرٌ خير». فقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ»[2].

وكان طاووس مع صاحب له في طريق فسمع صوت غراب يصيح، فقال: «خير». فقال: «وَأَيُّ خَيْرٍ عِنْدَ هَذَا!!»[3]. أي: أنَّ هذه مُجَرَّد تعلُّقات وظنون قد ترد على القلب فإذا صَدَّت المرء عن حاجته فقد وقع في بابٍ من أبواب الشِّرك، وضَرْبٍ من ضُرُوب الجاهليَّة الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان.

وخطورة الطِّيَرة على العبد إنَّما هي عندما يكون لها تأثيرٌ في سلوكه وعمله؛ ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح في المسند وغيره عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ،**

---

(١) رواه أبو داود (٣٩١٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (٩٣٧).

(٣) رواه الخلاَّل كما في الآداب الشَّرعيَّة لابن مفلح (٣/ ٣٦٩).

وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١). أي: مَن ردَّته عن مصالحه فرجع بسببها عن سفره وامتنع عمَّا عزم عليه؛ فقد قرع باب الشِّرك وبريء من التَّوكُّل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتَّعلُّق بغير الله. لكنَّ المسلم الواثق بالله إذا عَرَض له شيء من ذلك لم يلتفت إليه ولم يبالِ به ومضى في حاجته مستعينًا بالله مُتوكِّلًا عليه. وقول المسلم في هذا المقام: «**اللَّهُمَّ، لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**». نافع غاية النَّفع؛ لأنَّ فيها تجديد الإيمان بأنَّه لا يأتي بخير ولا يدفع شرًّا إلَّا الله، وأنَّه لا خير في الدُّنيا والآخرة إلَّا خير الله فكُلُّ خير فيهما فهو من الله تعالى تفضُّلًا على عباده وإحسانًا إليهم وأنَّ الإلهيَّة كلَّها لله، ليس فيها لأحد من الملائكة والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شِرْكة فضلًا عن أن يُشرِكَ فيها ما يراه ويسمعه ممَّا يتشاءم به.

والطِّيرة عندما تكون مسلكًا للإنسان، أي: يبني عليها مصالحة إقدامًا أو إحجامًا كانت حينئذ شرًّا وبلاءً عليه، روى ابن حِبَّان في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لا طِيَرَةَ، وَالطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّرَ**»(٢). ولنتأمَّل قول نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّرَ**»، أي: أنَّها عندما تكون مسلكًا للمرء تكون مجلبةً للشُّرور عليه عقوبةً من الله له. أمَّا المؤمن المُتوَكِّل على الله جلَّ في علاه فلا يضُرُّه شيء من ذلك.

وفي هذا الباب -باب التَّحذير من الطِّيَرة- يقول نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في

(١) رواه أحمد (٧٠٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣١٩٨).

(٢) رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٦١٢٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ، وانظر: السِّلسلة الصَّحيحة (٧٨٩).

الصَّحيحين: «**لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»، قَالُوا: «**وَمَا الْفَأْلُ؟**» قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»(١). والكلمة الطَّيِّبة حين يسمعها المؤمن وهو ماضٍ في حاجته تُحدِث له في نفسه سرورًا وغبطة وفرحًا ونشاطًا، وهي من مقتضى الطَّبيعة والفطرة الَّتِي فطر الله العباد عليها، ولا تضُرُّ المؤمن، ولهذا كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ الفأل ويكره الطِّيَرَة؛ لأنَّ الفأل لا يُخِلُّ بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق للقلب بغير الله، بل فيه من المصلحة إدخال النَّشاط والسُّرور على القلب، وتقوية العزائم والهمم، وشحذ النُّفوس للسَّعي في تحقيق المقاصد النَّافعة والغايات الحميدة، بخلاف النَّظرة المتشائمة، فإنَّها نظرة مُتَعَثِّرة تخلخل التَّفكير وتعوق القلب وتقطع النَّفس وتُثَبِّط الهِمَم وتَجْلِب لصاحبها التَّواني والكسل، فلا غَرْوَ أن يأتي الدِّين الحنيف بذَمِّ هذه النَّظرة القاتمة ومحاربة هذا التَّفكير المظلم.

وتبلغ النَّظرة المتشائمة أوج فسادها وغاية هلكتها عندما تكون مُتَّجهة للدِّين العظيم نفسه، سواء للدِّين كُلِّه أو لبعض أحكامه العظيمة وآدابه الكريمة، كما هو الشَّأن في أعداء الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ومن الأمثلة على ذلك:

ما حكاه الله عن قوم موسى ممَّا كانوا عليه من تَطَيُّرٍ به وبمَن معه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ

(١) رواه البخاريُّ (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٢٢٤).

إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠- ١٣١]، أي: أنَّهم حال الخصب والرَّخاء والرِّزق يقولون: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي: نحن مُسْتحِقُّون لها؛ فلم يشكروا الله عليها، وإذا أصابتهم السَّيِّئة، وهي القحط والجدب ونقص الرِّزق تَطَيَّرُوا بموسى ومَن معه، أي: يقولون: إنَّما جاءنا هذا بسبب مجيء موسى والدَّعوة الَّتِي يحملها وأتباعه الَّذِين استمسكوا بدعوته، فردَّ الله عليهم نظرتهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: أنَّ ما يقع عليهم، فإنَّما هو بقضاء الله وقدره وليس كما قالوا، بل إنَّ ذنوبهم وكفرهم؛ هو السَّبب في ذلك.

ولمَّا دعا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى عبادة الله وحذَّرهم من فعل السَّيِّئات ورغَّبهم في الاستغفار؛ لينالوا بذلك رحمة الله، نظروا إليه تلك النَّظرة المتشائمة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النَّمل:٤٥-٤٧]، فزعموا: أنَّهم لم يروا من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ خيرًا، وأنَّه هو ومَن معه من المؤمنين صاروا سببًا لمنع مطالبهم الدُّنيويَّة ومقاصدهم وغاياتهم في هذه الحياة، فردَّ عليهم نبيُّ الله صالح هذه النَّظرة المتشائمة بقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّ ما يصيبكم من مصائب وما يحلُّ بكم من نكبات، فهو بقضاء الله وقدره، وسببه ذنوبكم وإعراضكم عن دينه الحنيف الَّذِي لا يجلب لأهله إلَّا الخير والمَسرَّة في الدُّنيا والآخرة.

وهكذا أجاب قوم ياسين رسلهم بهذه النَّظرة المتشائمة عندما دعوهم إلى هذا الدِّين العظيم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس:١٣-١٩]، فقابلوا نصح هؤلاء المرسلين وحسن دلالتهم إلى الخير بهذه النَّظرة المتشائمة، فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾، أي: لم نَرَ في قدومكم علينا واتِّصالكم بنا إلَّا الشَّرَّ، وهذا من أعظم القلب للحقائق؛ إذ كيف يُجْعَل مَن قدم عليهم بأجَلِّ النِّعم وأعظم الخير على هذا الوصف.

وهكذا ما أخبر الله عن حال مَنْ قابلوا النَّبِيَّ ﷺ ودعوته بهذه النَّظرة المتشائمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النِّساء:٧٨، ٧٩]، أي: أنَّ هؤلاء المُعْرضين عمَّا جاء به حالهم أنَّهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب أو كثرة مال أو توفُّر أولادٍ وصحَّة؛ قالوا: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، بينما إذا أصابتهم سيِّئة، أي: جدب أو فقر أو مرض أو موت أولاد أو فَقْد أحباب قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، أي: بسبب ما جئتنا به؛ فتطيَّر هؤلاء برسول الله ﷺ ونظروا إليه وإلى ما جاء

به تلك النَّظرة المتشائمة، كما هو الشَّأن في أمثالهم من أهل الشِّرك والضَّلال، فلمَّا تشابهت قلوب هؤلاء بالكفر والصُّدود والإعراض، تشابهت أقوالهم وأفعالهم وتوافقت عقولهم وآراؤهم، وهكذا يلتقي في التَّشابه مع هؤلاء، كلُّ مَنْ نسب حصول الشَّرِّ أو زوال الخير لما جاءت به الرُّسُل أو لبعضه، ويلحق مَن كان كذلك مِنَ الذَّمِّ ما لحق أولئك بحسب ما قام فيه من نظرة متشائمة تجاه المرسلين، أو تجاه ما دَعَوْا إليه من الإيمان والهدى والخير العظيم.

ومَن فقه دين الله حقًّا؛ علم أنَّ الخير والشَّرَّ والحسنات والسَّيِّئات كلَّها بقضاء الله وقدره، وأنَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يأتون بشيء يترتَّب عليه ضرر أو شرٌّ على النَّاس؛ لأنَّهم قد بُعِثُوا بصلاح الدِّين والدُّنيا والآخرة، وفي الحديث: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**». رواه مسلم(١)، فهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هداة الخلق ودعاة الحقِّ ومنارات الخير؛ بل لا خير إلَّا من طريقهم، ولا شرَّ إلَّا بمفارقة ما جاؤوا به.

ونحمد الله أن هدانا لهذا الدِّين العظيم، وأن نجَّانا به من الخرافة والضَّلال والباطل، له الحمد أوَّلًا وآخرًا، وله الشُّكر ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

٦٥
ذمُّ الكِبْر

عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**». رواه مسلم(١).

وَعَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**». متَّفق عليه(٢).

الكِبْر آفة من آفات القلوب وداء من أدوائها، وهو أوَّل ذنب عُصِيَ الله به؛ وأوَّل مَن ارتكبه إبليس وسَنَّه لأتباعه ورضيه لهم، وأوقعهم في المهالك العظيمة والمعاطب الجسيمة بارتكابه، وهو من أشنع الذُّنوب وأضرِّها، يجب على عبد الله المؤمن أن يكون على حذر شديد منه؛ لأنَّه ذنبٌ يوقِع في ذنوب وشرٌّ يجرُّ إلى شرور.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف١١-١٨].

وحاصل هذه الآيات: أنَّ هذه الخصلة سُنَّةٌ سنَّها إبليس، وكانت سببًا في إهباطه وسفوله وانحطاط رتبته فجدَّ واجتهد في أن يُكثِّر من أتباعه فيها، ونصب لهذا الإنسان أنواعًا من الحبائل والمصائد حتَّى يجعله من المؤتسين به في هذا الكِبْر؛ ولهذا فإنَّ مَن يتكبَّر مِنَ النَّاس فقدوته إبليس.

وقد جعل اللهُ النَّارَ دار المُتكبِّرين، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النَّحل:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمر:٦٠]، وأخبر سبحانه أنَّ أهل الكِبْر والتَّجبُّر هم الَّذين طبع الله على قلوبهم، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

والكِبْر يتلخَّص في أمرين:

١- ردُّ الحقِّ وعدمُ قَبُوله.

٢- والتَّعالي على النَّاس وازدراؤهم وانتقاصهم.

كما تقدَّم في الحديث: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**».

وبطر الحقِّ: ردُّه وعدمُ قبوله والتَّعالي عليه. وغمطُ النَّاس: ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاصهم.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبهذا التَّفسير الجامع الَّذِي ذكره النَّبِيُّ ﷺ يتَّضح هذا المعنى غاية الاتِّضاح؛ **فإنَّه جعل الكِبْر نوعين:**

كِبْر النَّوع الأوَّل: على الحقِّ، وهو ردُّه وعدمُ قبوله. فكُلُّ مَن ردَّ الحقَّ؛ فإنَّه مستكبر عنه بحسب ما ردَّ مِنَ الحقِّ. وذلك أنَّه فرض على العباد أن يخضعوا للحقِّ الَّذِي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

فالمتكبِّرون عن الانقياد للرُّسُل بالكُلِّيَّة كُفَّارٌ مُخَلَّدون في النَّار؛ فإنَّه جاءهم الحقُّ على أيدي الرُّسُل مؤيَّدًا بالآيات والبراهين. فقام الكِبْر في قلوبهم مانعًا، فرَدُّوه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر:٥٦]، وأمَّا المُتكبِّرون عن الانقياد لبعض الحقِّ الَّذِي يخالف رأيهم وهواهم: فهم -وإن لم يكونوا كُفَّارًا- فإنَّ معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم مِنَ الكِبْر وما تأثَّرُوا به من الامتناع عن قبول الحَقِّ الَّذِي تبيَّن لهم بعد مجيء الشَّرع به، ولهذا أجمع العلماء أنَّ مَنِ استبانت له سُنَّة رسول الله ﷺ لم يحلَّ له أن يعدل عنها لقول أحدٍ كائنًا مِنَ النَّاس مَن كان.

وأمَّا الكِبْر على الخلق -وهو النَّوع الثَّاني- فهو غمطهم واحتقارهم وذلك ناشئ عن عجب الإنسان بنفسه وتعاظمه عليه، فالعجب بالنَّفس يحمل على التَّكبُّر على الخلق واحتقارهم والاستهزاء بهم وتنقيصهم بقوله وفعله»[(١)].

وقد جاء في الأدب المفرد بسند حسن: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟» قَالَ: «**لَا**»، قيلَ: «فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ، لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟» قالَ: «**لَا**»، قَالَ: «فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟» قالَ: «**لَا**»، قَالَ: «فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟» قَالَ: «**لَا**»، قَالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟» قَالَ: «**سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْصُ النَّاسِ**»[(٢)].

فبهذين الأمرين يتلخَّص الكِبْر؛ أن يكون المرء رادًّا للحقِّ غير قابلٍ له، حتَّى لو كان في أقلِّ القليل؛ ولهذا جاء في الحديث في صحيح مسلم: «أَنَّ رَجُلًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكَلَ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، قَالَ: «لَا أَسْتَطِيعُ»، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا اسْتَطَعْتَ**»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ»[(٣)]. وهكذا يصنع الكِبْر بصاحبه، يجعله رادًّا للحقِّ غير قابلٍ له ممتنعًا من قبوله، ولهذا كم من أمورٍ وآثام وذنوب تولَّدت عن الكِبْر ونجمت عنه، بل لم يقع فيها صاحبها إلَّا بسبب ما قام في قلبه من كِبْر.

وفي قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث المُتَقَدِّم: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ**

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار، للسِّعديِّ (ص١٦٥ - ١٦٦).

(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) رواه مسلم (٢٠٢١).

كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، ما يدلُّ على أنَّ الكِبْر خصلة تقوم في القلب ثمَّ من بعد ذلك تظهر على الجوارح آثارها، وآثارها كما تقدَّم تتلخَّص في ردِّ الحقِّ وغمط النَّاس؛ ازدراءً لهم وتعاليًا عليهم ورؤية نفسه فوقهم عاليًا.

والجزاء من جنس العمل، والعقوبة من جنس الذَّنب؛ ولهذا جاء في التِّرمذيِّ بسند ثابت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**»[(١)].

ويعين المسلم على الخلاص من الكِبْر إعانةً تامَّة أمران عظيمان:

فأمَّا الأوَّل: فهو أن يعرف ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعظمته وجلاله وعِزِّه وكبريائه، أن يعرف ربَّه عَزَّوَجَلَّ بنعوت الجلال وصفات العظمة والكبرياء والكمال؛ سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، والكبرياء صفة الله عَزَّوَجَلَّ خاصَّةٌ بجلاله وكماله وعظمته، ولهذا جاء في الحديث عن نبيِّنا ﷺ قال: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»»[(٢)].

وأمَّا الثَّاني: فأن يعرف الإنسان نفسه وكيف نشأ؟ وما هي أطوار خلقه؟ وكيف أنَّه عبدٌ ذليل ومخلوقٌ ضعيف؟ فينظر كيف أنَّه كان قبلُ؟! لم يكن شيئًا مذكورًا، ثمَّ خُلق من تراب، من طين لازب، ثمَّ من نطفة من ماء مهين، ثمَّ كان علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ تطوَّر في هذا الخلق إلى أن أصبح سميعًا بصيرًا ذا عقلٍ يتحَرَّك ويتكلَّم، وكُلُّ ذلك بمنِّ الله ومدِّه جلَّ في علاه. فإذا نظر الإنسان

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٤٩٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

في هذه الأطوار عرف نفسه، وإلى هذا المعنى الإشارة في قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧-٢٢]. فعلام الكِبْر وهذه الحال!!

وعلى الضِّدِّ من ذلك فإنَّ من أخلاق الإسلام الفاضلة وآدابِه العليَّة الرَّفيعة التَّواضع بنوعيه للحقِّ وللخلق، وما زاد عبدٌ بتواضعٍ إلَّا رفعةً وعُلُوًّا، ولا زاد بتكَبُّرٍ إلَّا ضعةً وسُفُولًا، وفي الحديث: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ**»(١). والتَّواضع ديانةٌ وقربة يتَقَرَّبُ به العبد إلى الله؛ فالتَّواضع ليس خُلُقًا نفْعِيًّا وأمرًا يُفعلُ لمصلحةٍ ما، بل يُفْعَل قربة يُتَقَرَّب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولذا قال العلماء: التَّواضع نوعان؛ محمودٌ ومذموم، فالمحمود ما كان لله وقَصَد به المتواضع وَجْه الله، والمذموم ما كان مقصودًا به المنفعة والمصلحة؛ كأن يتواضع لذي مالٍ لماله، أو لذي جاهٍ لجاهه، أو لذي رئاسةٍ لرئاسته، ونحو ذلك.

والتَّواضع شرفٌ لصاحبه وعلوٌّ له ورفعةٌ في دنياه وأخراه، ولئن كان المتواضع يرى نفسَه صغيرًا؛ فإنَّه عند الله وعند النَّاس كبير، بخلاف المُتكَبِّر فإنَّه يرى نفسَه كبيرًا وهو في غاية الحقارة وتمام الضَّعَةِ والصِّغر.

وقد بيَّن نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقيقة التَّواضع، وبيَّن ضدَّه بكلامٍ واضحٍ لا يبقى معه إشكال ولا يبقى معه لقائلٍ مقال؛ بقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**». فبيَّن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ المُتكَبِّر مَن يبطُر الحقَّ ويغمُط الخلق؛ فلا يقبل حقًّا ولا يرعوي لِهُدًى، ويتعالى على عباد الله جَلَّ وَعَلَا ويترفَّعُ

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

عليهم، وضدُّه المتواضع وهو الَّذِي يقبل الحقَّ ولا يستنكف ولا يتعالى عليه ولا يستكبر ولا يرى نفسَه شيئًا ولا يتعالى على عباد الله ولا يتكبَّرُ عليهم.

وأفاد الحديث أنَّ التَّواضعَ نوعان: تواضعٌ مع الحقِّ، وتواضعٌ مع الخلق.

أمَّا التَّواضعُ مع الحقِّ: فبقبوله والاستكانةِ لله والخضوعِ له جَلَّ وَعَلَا والذُّلِّ بين يديه وتحقيق العبوديَّة له، فمَن كان كذلك فهو متواضع، ومَن كان بخلاف ذلك فهو المُتكَبِّر قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصَّافَّات:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النِّساء:١٧٢]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، أي: حقيرين ذليلين جزاءً وفاقًا.

وأمَّا التَّواضعُ للخلق: فإنَّه يكون بعدم الاستطالةِ عليهم، وقد روى الإمام مسلم في كتابه الصَّحيح عن عياض المجاشِعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»(١)؛ فبيَّن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ عدمَ التَّواضع مع عباد الله يكون بالاستطالة عليهم.

والاستطالةُ على عباد الله لها منحيان:

- إمَّا أن يكون مستطيلًا عليهم بحقٍّ، أي: بصفاتٍ موجودةٍ فيه فعلًا، فإذا كان كذلك فقد افتخر.

- أو أن يستطيل على عباد الله بغير حقٍّ، أي: بصفاتٍ ليست موجودةً فيه، فإنَّه بهذه الحال يكون قد بغى.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

والواجب ألَّا يكون من عبدٍ تجاه إخوانه المؤمنين أيُّ استطالةٍ وترفعٍ وتعالٍ -لا بحقٍّ ولا بغير حقٍّ- بل يرى نفسَه دومًا وأبدًا في تواضعٍ وطمأنينةٍ وبُعدٍ عن العُلُوِّ والتَّرفُّع، ولا يزدادُ العبد بذلك إلَّا علوًّا ورفعةً، ولا يزدادُ بضدِّ ذلك -وهو التَّكَبُّر- إلَّا سفولًا وانحطاطًا.

والمتواضع لله ولعباده يرفعه الله درجات؛ فقد ذكر الله الرِّفعة في قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]. فمن أجلِّ ثمرات العلم والإيمان: التَّواضع؛ فإنَّه الانقياد الكامل للحقِّ، والخضوع لأمر الله ورسوله؛ امتثالًا للأمر، واجتنابًا للنَّهي، مع التَّواضع لعباد الله، وخفض الجناح لهم، ومراعاة الصَّغير والكبير، والعالم والجاهل.

أَلَا ما أجمل التَّواضع وما أرفعَه وما أعلى مقامات أهله في الدُّنيا والآخرة؛ فهم الأعلون دائمًا شأنًا وقَدْرًا، وهم الأعظم ثوابًا وأجرًا.

وما أحوج العبد في هذا المقام -وفي كُلِّ مقام- إلى اللُّجوء إلى الوهَّاب تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يهب له من أمره رشدًا، وفي الدُّعاء «**وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»(١)، وفي التَّعوُّذ المأثور: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).
(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٩١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٦٦
مداواة العجب

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**». رواه البزَّار[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**». رواه مسلم[٢].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ خَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذلِكَ الْعُجْبَ الْعُجْبَ**». رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان[٣].

العُجْبُ خلق ذميم وداء مهلك، وهو من أعظم آفات القلوب، وكم من إنسانٍ كان هلاكُه بسبب عُجْبِه بنفسِه؛ بأن ينال حظًّا من الدُّنيا من مالٍ أو رئاسةٍ أو غير ذلك فيُصاب بعُجْبٍ يَتَعَالَى به على الآخرين، فإذا أُصيب بهذا الدَّاء

---

(١) رواه البزَّار في مسنده (٣٣٦٦)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره»، كما في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٤٥٣).

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨).

(٣) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٧٢٥٥).

أهلكه. وهو يدعو إلى الكِبْر، والكِبْر يتولَّد عنه، ومِنَ الكِبْر يتولَّد آفات كثيرة، وبين الكِبْرِ والعُجْبِ فرق، قال أبو وهب المروزيُّ: سألت ابن المبارك: ما الكِبْر؟ قال: «أن تزدري النَّاس». فسألته عن العُجْبِ؟ قال: «أن ترى أنَّ عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المُصَلِّين شيئًا شرًّا من العُجْبِ»(١).

وكلاهما من أدواء القلوب إلَّا أنَّ الكِبْر يستدعي مُتَكَبَّرًا عليه يرى نفسه فوقه وأعلى منه، وأمَّا العُجْب فاسترواحٌ للنَّفس وركون إلى رؤيتها، ولا يستدعي غير المعجب به، بل لو لم يكن إلَّا وحده تُصُوِّر أن يكون معجبًا ولا يُتَصَوَّر أن يكون مُتَكَبِّرًا. والعُجْبُ يفضي إلى التَّكَبُّر، والتَّكَبُّر لا يكون إلَّا عن عُجْبٍ؛ إذ هو أثر من آثاره.

وإذا اجتمع في المرء كِبْر وعُجْب فقد استحكم هلاكه، فإنَّهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرَّذائل، وليس لمَن استوليا عليه إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب.

وَلْيُتَأَمَّل في ذلك قصَّة صاحب الجنَّتين الَّتِي ضربها الله في القرآن تبيانًا لخطورة هذه الآفة، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ

(١) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٨٢٦٠).

يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف:٣٢-٤٣].

فهذا رجل أهلكه العُجْب دَخَلَ جَنَّتَهُ مع صاحبه يطوف به فيها ويريه حُسْنها وهو ظالمٌ لنفسه، قد تمادى به عُجْبه إلى أن قال: ما أظُنُّ أن تفنى هذه الجنَّة أبدًا، وما أظُنُّ أنَّ السَّاعة قائمة ولئن رجعت إلى ربِّي لأجدن في ذلك اليوم خيرًا منها مُنْقَلبًا.

ولمَّا أحلَّ الله به العقوبة وأحيط بثمره، أي: أصابه عقابٌ أحاطَ بالثَّمر، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثَّمر تستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه، فندم لذلك، واشتدَّ أسفه، وأصبح يُقَلِّب كفَّية مُتَحَسِّرًا على كثرة الأموال الَّتِي صرفها فيها، فاضمحلت وتلاشت، وندم أشدَّ النَّدامة على ما كان منه من كُفْر وعُجْب.

وقوْل صاحبه له وهو يعِظُه ويُنَاصحه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [الكهف:٣٩]، يُعَدُّ نصيحةً بالغة ما أحوج كلَّ إنسان إليها عندما يُصاب بالعُجب، فإنَّ هٰذه الكلمة طاردة للعُجْب، فإذا قالها المرءُ عند إعجابه بشيءٍ تميَّزَ به من تِجارةٍ أو غير ذلك أبعدت عنه العُجْب.

عن هشام بن عروة، عن أبيه: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى مِنْ مَالِهِ شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهِ، قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ، لَا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ». رواه البغويُّ في شرح السُّنَّة[(١)].

وذلك لأنَّها توقفه على حقيقة الأمر، وهو أنَّ هذا الَّذِي ناله إنَّما وقع له بمشيئةِ الله، فلولا مشيئةُ الله عَزَّوَجَلَّ وإذنُه الكَونيُّ القدَريُّ لما حصل له ذلك، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا قوَّة للعبد في تحصيل أمرٍ من الأمور أو اكتساب مصلحةٍ من المصالح إلَّا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فتكون هٰذه الكلمة مُوقِفةً له على الحقيقة، فبها يتذكَّر فضل الله عليه، وأنَّ هٰذا الأمر إنَّما هو بمشيئة الله، وأنَّه لولا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ شاء ذلك وتفضَّل به لما كان، فيتحوَّل من عُجْبٍ إلى حَمْدٍ وشُكْر وثَنَاءٍ على المُنْعِم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ومن غرور إلى إقرار للمُنْعِم جلَّ شأنه بنعمته، وأنَّه لولا فضلُ الله عليه ورحمتُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لما حصَّل شيئًا من ذلك.

ويحتاج العبد في مداواة العُجْب وطرده عن نفسه إلى استحضار أمور ثلاثة تطرد عنه العُجْب:

الأوَّل: أن يُذَكِّر نفسَه بذنوبه وجوانب التَّقصير الأخرى الَّتِي عنده، فإذا أُعجب مثلًا بعبادته أو بحفظه أو بصفات وُجدت فيه؛ فلينظر إلى ذنوبه وجوانب القُصور الَّتِي عنده، والعبد لا يزال مقصِّرًا مفرِّطًا، لا يزال عنده جوانب نقص، فإذا أخذ يذكِّر نفسَه بجوانب النَّقص الَّتِي عنده ومواضع الخلل الَّتِي فيه

(١) رواه البيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٣٧١)، والبغويُّ في شرح السُّنَّة (١٦/ ١٦٦).

كان هذا خيرًا له، لتنشغل نفسه بتدارك النَّقص ومعاجلة الخلل بدل الإعجاب بجانبٍ معيَّن وُفِّق فيه للإحسان والإتقان.

وقد تقدَّم في الحديث قول النَّبيِّ ﷺ: «**لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ خَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذلِكَ الْعُجْبَ الْعُجْبَ**»[1]. فالذُّنوب الَّتي يقع فيها العبد -وكُلُّ بني آدم مذنبٌ خطَّاء- تطرد عن العبد العُجْب إن وُفِّقَ لاستحضارها.

الأمر الثَّاني: أن يُذَكِّر نفسَه بأنَّ هٰذا الأمر الَّذي حصل له هو فَضْلُ الله عليه ونعمته، وأنَّه لولا فضل الله جَلَّ وَعَلَا ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما وقع منه هٰذا الأمر، كما تقدَّم في قول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فيُذَكِّر نفسَه بفضل المُنْعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنَّ هٰذا محْضُ فضل الله عليه.

والأمر الثَّالث: أن يُذَكِّر نفسَهُ بالقُصُور الَّذي عنده في العمل نفسِه الَّذي قام به؛ لأنَّه مهما قدَّم الإنسان من أعمال لا بُدَّ أن يكون عنده قصور، إن كان الَّذي أُعْجِب به حفظًا مثلًا يُذَكِّر نفسَه بالأمور الأخرى الَّتي قصَّر فيها في الحفظ، أو في العبادة يُذَكِّر نفسه بالأمور الأخرى الَّتي قصَّر فيها في العبادة، وهكذا.

فباستحضار هذه الأمور الثَّلاثة يَذْهَب -بإذن الله- عن العبد العُجْب، والنُّفوس تحتاج إلى مداواة، والعبد إذا لم يعمل على مداومة مداواة نفسه ومعالجة رعونتها وسفهها؛ فإنَّها تُورِدُه المهالك.

يُوَضِّح ذلك ما جاء في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

---

(١) رواه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٧٢٥٥).

قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ**»، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟! قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ**»(١).

وطالب العلم على وجه الخصوص إن أصيب بالعُجْب جرَّه إلى الكِبْر والتَّفاخر والتَّعالي على النَّاس، فيهلك.

أورد الحافظ المنذريُّ في كتابه «التَّرغيب والتَّرهيب» تحت باب «التَّرهيب من الدَّعوى في العلم والقرآن»، أورد فيه أحاديث؛ منها حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي البَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَؤُنَ القُرْآنَ يَقُولُون: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟! مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟! مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟!**» ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «**هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قال: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**»(٢). قال المنذريُّ: «رواه الطَّبرانِيُّ في «الأوسط»، والبزَّار بإسناد لا بأس به».

روى الإمام أحمد عن الحارث بن معاوية الكنديِّ أنَّه قال لعمر: إنَّهم أرادوني على القصص، أي: أراده قومه أن يكون قاصًّا عليهم، فقَالَ له عمر: «أَخْشَى عَلَيْكَ أَنْ تَقُصَّ فَتَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسِكَ، ثُمَّ تَقُصَّ فَتَرْتَفِعَ، حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ فَوْقَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الثُّرَيَّا، فَيَضَعَكَ اللهُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) رواه البزَّار في مسنده (٢٨٣)، والطَّبرانِيُّ في المعجم الأوسط (٦٢٤٢)، وقال الألبانِيُّ: «حسن لغيره»، كما في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٣٥).

بِقَدْرِ ذَلِكَ»(١).

فهذا مدخل من مداخل العُجْب على النُّفوس نبَّه عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك عندما يتصدَّر المرء للوعظ والتَّذكير والخطابة ويرى مثلًا النَّاس قد تأثَّروا بوعظه وخطابته، فقد يدخل عليه العجب فيقول: إذا كنت قد أثرَّت فيهم هذا التَّأثير وتسبَّبت في بكائهم وهدايتهم فأنا أفضل منهم، فيهلك بذلك، وتكون مصيبته عظيمة، إذ النَّاس تهتدي على يديه وتستفيد وتستقيم وتصلح أحوالهم وهو في هلاك.

أورد ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «القُصَّاص والمذكِّرين» عن ميمون بن مهران -ذكر القُصَّاص رَحِمَهُ اللَّهُ فقال كلامًا عجيبًا- قال: «المستمع شريك المُتَكَلِّم، ولا يخطئ المُتَكَلِّم إحدى ثلاث: إمَّا أن يسمن قوله بما يهزل دينه، وإمَّا عجب بنفسه، وإمَّا أن يأمر بما لا يفعل. والمستمع أيسر مؤنة: المستمع ينتظر الرَّحمة، والمُتَكَلِّم ينتظر المقت»(٢).

فالمستمع ينتظر الرَّحمة؛ لأنَّه في مجلس وعظ وتذكير يستفيد وينتفع، والمُتَكَلِّم ينتظر المقت إن أصيب بالعجب أو داخله الرِّياء ونحو ذلك من خوارم النِّيَّة.

والعجب يهلك المرء؛ لأنَّه يريه نفسَه كاملة ويعميه عن قصورها وتقصيرها.

(١) رواه أحمد في مسنده (١١١).
(٢) انظر: القُصَّاص والمُذَكِّرين (ص٢٠٣).

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اثنتان مهلكتان: العُجْبُ، والقُنُوطُ».

رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»(١).

ووجه الجمع بينهما في الإهلاك أنَّ القانط لا يطلب السَّعادة؛ لشدَّة قنوطه، والمُعْجَب لا يطلبها أيضًا؛ لظنِّه أنَّه قد ظفر بها، واجتمعت فيه مُوجِبَاتُها.

وعلى العبد أن يكون ناصحًا لنفسه فيشهد مِنَّةَ الله عليه وإمداده له بالنِّعم وهدايته لهذا الدِّين القويم.

قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فالله -سُبحانه- هو الَّذي جعَل المسلمَ مسلمًا، والمصلِّي مصلِّيًا والعالم عالمًا، كما قال الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء:١١٣].

فالمِنَّة لله وحدَه في أن جعَل عبدَه قائمًا بطاعتِه، وكان هذا مِن أعظم نعمِه عليه، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وهذَا المشهَد من أعظم المشاهد، وأنفعِها للعَبد.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٩٨).

وفيه منَ الفائدة أنَّه يحولُ بينَ القَلب وبينَ العُجب بالعَمل ورؤيتِه؛ فإنَّه إذا شَهد أنَّ اللهَ -سُبحانه- هُو المانُّ به، الموفِّق له، الهادي إليه، شغَله شُهودُ ذلكَ عن رؤيتِه والإعجابِ به.

والله وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٦٧
الغضب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي، قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ**». رواه البخاريُّ[١].

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ**». رواه أحمد[٢].

لقد جاء الإسلام بتوجيهاته القويمة هاديًا لكُلِّ فضيلة، داعيًا إلى كُلِّ خير، مسدِّدًا النَّاس في الأقوال والأعمال، مبعِدًا نفس الإنسان عن رعونتها، وعن التَّصرُّفات الهوجاء، والأفعال النَّكراء، والأقوال الشَّنيعة، وهذا من كمال هذا الدِّين وجماله وحُسن وفائه بمصالح العباد، حيث أرشد إلى كمال الأخلاق ومجامع الخير وأصول البِرِّ في أحوال النَّاس كُلِّها، وشؤونهم جميعها، وفي كُلِّ ما يأتون ويذرون.

وعندما نتأمَّل وصايا الإسلام في جانب الأخلاق نجد أجمل الأخلاق

(١) رواه البخاريُّ (٦١١٦).
(٢) رواه أحمد (٢٣١٧١)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٧٤٦).

وأزكاها، وأطيب الآداب وأرفعها مُتَمَثِّلة فيما يدعو إليه الإسلام، وإنَّ ممَّا يتنافى مع الخُلُق العظيم الَّذِي دعا إليه دين الإسلام؛ سرعة الانفعال والغضب والتَّفاعل مع ما يمليه الغضب من أفعال قبيحة وأقوال نكراء.

ذلك أنَّ الغضب يجرُّ الإنسان إلى الوقوع في تصرُّفاتٍ هوجاء وأعمالٍ شنيعة وأقوالٍ بذيئة، يندم بعد ذهاب جمرة الغضب على فعلها غاية النَّدم؛ وقد قيل: «الغضب أوَّله جنون، ونهايته ندم»[(١)].

والغضب هو غليان دم القلب وازدياد خفقانه طلبًا لدفع أمر مؤذٍ يتوقَّع الإنسان حصوله، أو طلب الانتقام ممَّن حصل منه الأذى؛ فيفضي بالإنسان إلى أقوالٍ سيِّئة، وإلى أفعالٍ شنيعة؛ وعندما تزداد شدَّة الغضب ووطأته على القلب لا يملك الإنسان في الغالب زمام نفسه بل ينطلق اللِّسان بالسَّبِّ والفحش والبذاء، وتنطلق الجوارح بالقتل والضَّرب والعدوان، ويأتي الإسلام داعيًا المسلم أن يملك نفسه عند الغضب؛ إذ تركه -وهذه نتائجه- يُعَدُّ من مجامع الخير ومن أصول البِرِّ وأسس الفضيلة.

قال جعفر بن محمَّد: «الغضب مفتاح كُلِّ شرٍّ»[(٢)].

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة. قال: «تَرْكُ الغَضَبِ»[(٣)].

---

(١) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص٤٠٤).

(٢) انظر: إحياء علوم الدِّين (٣/ ١٦٦).

(٣) انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢/ ٢٢٤).

وقول النَّبِيِّ ﷺ في هذه الوصيَّة الجامعة: «**لَا تَغْضَبْ**»، **يتضمَّن أمرين عظيمين لا بُدَّ منهما:**

الأوَّل: أن يُدَرِّب المسلم نفسه على الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة من الصَّبر والحلم والأناة والبعد عن العجلة، إلى غير ذلك من الأخلاق، فإذا ورد عليه وارد الغضب تلقَّاه بجميل خُلُقه وعظيم أدبه وحسن حلمه وطيب صبره.

والأمر الثَّاني أنَّه عندما يوجد الغضب وتنعقد أسبابه؛ فعلى المسلم أن يملك نفسه أقواله وأفعاله، فلا يندفع وقت غضبه لا بقولٍ ولا فعل، فلا يقول شيئًا ولا يُقْدِم على فعلٍ حتَّى تنطفئ جمرة الغضب.

وعليه أن يبادر في هذا المقام إلى التَّعوُّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم؛ لأنَّ الشَّيطان هو الَّذِى يُزَيِّن للإنسان الغضب، وله نزغ عجيب ودخول سريع على الإنسان وقت فورة غضبه، فيدفعه إلى الأفعال الشَّنيعة والأقوال السَّيِّئة، جاء في «الصَّحيحين» من حديث سليمان بن صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ**»(١).

وبالمبادرة إلى التَّعوُّذ عند شدَّة وطأة الغضب وشدَّة تأثيره، تحمد العاقبة

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٤٨)، ومسلم (٢٦١٠).

فيسلَم المرء من حضور الشَّيطان ونزغه، والله تعالى يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ثمَّ إنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وجَّه إلى أمرين عظيمين على المسلم أن يعتني بهما حال غضبه؛ الأمر الأوَّل يتعلَّق باللِّسان، والأمر الثَّاني يتعلَّق بالجوارح.

- **أمَّا الأوَّل:** ففي «المسند» للإمام أحمد عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[(١)]، أي: ليمنع نفسه من الكلام حال الغضب؛ لأنَّه إن تكلَّم وهو غضبان سيتكلَّم بما لا يُحمد عاقبته؛ من أقوال سيِّئة وكلمات بذيئة ولعن وشتم، بل لَرُبَّمَا بعض النَّاس يلعن نفسه ويلعن ولده، ثمَّ إذا هدأ الغضب ندم أشدَّ النَّدم على ما كان منه من أقوال بذيئة وأفعال سيِّئة.

فعليه وقت الغضب ألَّا يقول ولا كلمة واحدة، بل يمتنع عن الكلام حال الغضب؛ لأنَّه حال غضبه لا يدرك ما يقول ولا يعي ما يتكلَّم به، فإذا امتنع عن الكلام حتَّى تطفأ جمرة الغضب وتذهب فورتُه؛ فحينئذ سيكون الكلام سديدًا وتكون العاقبة حميدة.

قال مورق العجليُّ: «ما قلت في الغضب شيئًا إلَّا ندمت عليه في الرِّضا»[(٢)].

وأمَّا الأمر الثَّاني: وهو يتعلَّق بالأفعال، ففي «المسند» عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ**

(١) رواه أحمد (٢١٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٩٣).
(٢) انظر: شرح حديث عمَّار بن ياسر، لابن رجب الحنبليِّ (ص١٦٦).

عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»(١).

ذلك أنَّ الغضبان وقت شدَّة فورة الغضب حال القيام وأمامه مَن أغضبه؛ فإنَّه سيكون قريب التَّناول للاعتداء والبطش والظُّلم، لكنَّه إن ملك نفسه حين الغضب فقعد يكون تباعد ممَّن أغضبه، فإن سكن الغضب فبها ونِعْمَت، وإن لم يسكن فإنَّه يضطجع فيكون أبعد وأبعد.

ومَن يفعل هذين التَّوجيهين العظيمين؛ التَّوجيه الَّذي يتعلَّق بالقول بالامتناع من الكلام، والتَّوجيه المُتَعَلِّق بالأفعال بالامتناع من الحركة، وذلك بالقعود أو الاضطجاع حتَّى تنطفئ جمرته؛ يُحَقِّق كمال الرُّجولة وحقيقة الشِّدَّة والقُوَّة، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(٢). «فإنَّ مَن لا يملك نفسه عند الغضب إذا غضب، قال فيمَن غضب عليه ما ليس فيه من العظائم، وهو يعلم أنَّه كاذب، ورُبَّمَا علم النَّاس بذلك ويحمله حقده وهوى نفسه عَلَى الإصرار عَلَى ذلك»(٣).

«**والصُّرَعَة**: الَّذِى يصرع النَّاس ويكثر منه ذلك، فأراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ الَّذِي يقوى على ملك نفسه عند الغضب ويردُّها عنه هو القويُّ الشَّديد والنِّهاية في الشِّدَّة لغلبته هواه المردي الَّذِى زيَّنه له الشَّيطان المغوي، فدلَّ هذا أنَّ مجاهدة النَّفس أشدُّ من مجاهدة العَدُوِّ؛ لأنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ جعل للَّذِي يملك نفسه عند

(١) رواه أحمد (٢١٣٤٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٦٩٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٣) انظر: شرح حديث عمَّار بن ياسر، لابن رجب الحنبليِّ (ص١٦٧).

الغضب من القُوَّة والشِّدَّة ما ليس للَّذِي يغلب النَّاس ويصرعهم»[(١)].

كان ابن عون رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا اشتدَّ غضبه عَلَى أحد قال: «بارك الله فيك، ولم يزد».

الحاصل: أنَّ من ركائز الأخلاق المُهِمَّة البعد عن رعونة النَّفس، وألَّا ينساق الإنسان فِي أفعاله وكلماته وتصرُّفاته مع الرُّعونات الَّتِي تكون فيها النَّفس ولاسيَّما عند الغضب، فإنَّ مَن يتكَلَّم أو يفعل وقت الغضب يكون كلامه وفعله غير منضبط بضابط الخُلُق؛ لأنَّ الكلام وقت الغضب غير مُتَّزن وغير منضبط، والأفعال أيضًا وقت الغضب غير مُتَّزنة ولا منضبطة، والَّذِي يقول أو يفعل وقت الغضب أفعاله وأقواله بعيدة عن الخُلق بعيدة عن الأدب.

فهذا الحديث يُعَدُّ من الأحاديث الجامعة فِي باب الأخلاق، وليتأمَّل قول الصَّحابِيِّ الَّذِي طلب من النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يوصيه قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فأعاد فكرَّر النَّبِيُّ ﷺ «**لَا تَغْضَبْ**»، فقال: «**فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ**»[(٢)]، أي: لما كرَّر النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الوصيَّة بلا تغضب دعاه هذا إلى التَّأمُّل فِي الغضب فوجد أنَّه جماع الشَّرِّ، أي: يجمع شرورًا كثيرة.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الرَّجل ظنَّ أنَّها وصيَّة بأمر جزئِيٍّ، وهو يريد أن يوصيه النَّبِيُّ ﷺ بكلام كُلِّيٍّ، ولهذا ردَّد فلمَّا أعاد

---

(١) انظر: التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح (٢٨/ ٤٩٠).

(٢) انظر: شرح حديث عمَّار بن ياسر، لابن رجب الحنبلِيِّ (ص١٦٧).

عليه النَّبيُّ ﷺ عرف أنَّ هذا كلام جامع. وهو كذلك؛ فإنَّ قوله: «**لَا تَغْضَبْ**» **يتضمَّن أمرين عظيمين:**

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب، والتَّمرُّن على حسن الخلق، والحلم والصَّبر، وتوطين النَّفس على ما يصيب الإنسان من الخلق، من الأذى القولِيِّ والفعلِيِّ، فإذا وفِّق لها العبد، وورد عليه وارد الغضب احتمله بحسن خلقه، وتلقَّاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإنَّ الأمر بالشَّيء أمر به، وبما لا يتمُّ إلَّا به. والنَّهي عن الشَّيء أمر بضدِّه. وأمر بفعل الأسباب الَّتِي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثَّاني: الأمر -بعد الغضب- ألَّا يُنَفِّذ غضبه؛ فإنَّ الغضب غالبًا لا يتمكَّن الإنسان من دفعه وردِّه، ولكنَّه يتمكَّن من عدم تنفيذه. فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال والمُحَرَّمة الَّتِي يقتضيها الغضب.

فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضَّارَّة، فكأنَّه في الحقيقة لم يغضب. وبهذا يكون العبد كامل القُوَّة العقليَّة، والقُوَّة القلبيَّة، كما قال ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(١).

فكمال قوَّة العبد: أن يمتنع من أن تُؤَثِّر فيه قُوَّة الشَّهوة، وقُوَّة الغضب الآثار السَّيِّئة، بل يصرف هاتين القُوَّتين إلى تناول ما ينفع في الدِّين والدُّنيا، وإلى دفع ما يضرُّ فيهما. فخير النَّاس: مَن كانت شهوته وهواه تبعًا لما جاء به الرَّسُول ﷺ، وغضبه ومدافعته في نصر الحقِّ على الباطل، وشرُّ النَّاس: مَن

(١) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

كان صريع شهوته وغضبه. ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله»[(١)].

هذا، وجماعُ الخلق في أربعة أحاديث مَن حَفِظَها وحقَّقها جمع أصول الأخلاق والآداب.

قال أبو محمَّد بن أبي زيد القيروانِيُّ: «جماعُ آداب الخير وأزمَّته تتفرَّعُ من أربعة أحاديث: قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(٣)]، وقوله للَّذِي اختصر له في الوصيَّة: «**لَا تَغْضَبْ**»[(٤)]، وقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٥)]»[(٦)].

في الحديث الأوَّل: الإرشاد إلى ضبط اللِّسان، بالتَّفكُّر والتَّدبُّر فيما سيقوله، فإن كان فيه خيرٌ نطق به، وإن كان فيه شرٌّ أمسك عنه، وإن اشتبه عليه فلا يدري أخيرٌ هو أم شرٌّ أمسَك عنه، ومَن لم يُحسن ضَبْطَ لسانِه لم يكن من أهل حُسن الخلق.

وفي الثَّاني: الإرشاد إلى ترك الفضول، من القَول والسَّماع والنَّظر ونحو ذلك.

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار للسِّعديِّ (ص١٦٣ - ١٦٤).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٤) رواه البخاريُّ (٦١١٦).
(٥) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٦) انظر: الرِّسالة للقيروانِيِّ (ص١٥٤).

وفي الثَّالث: الإرشاد إلى ضبط النَّفس وعدم الانسياق مع انفعالات النَّفس ورعونتها.

وفي الرَّابع: الإرشاد إلى سلامة قلب المؤمن تجاه إخوانه المسلمين، فلا يكون فيه غلٌّ، ولا حقدٌ، ولا حسدٌ، ولا غير ذلك من أدواء القلوب.

أصلح الله قلوبنا وزكَّا سرائرنا وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

٦٨
ذم الحسد

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ**». متَّفق عليه(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**». متَّفق عليه(٢).

إنَّ ديننا الإسلاميَّ دين إصلاحٍ وصلاح، وتربيةٍ وأدب، وخُلق وزكاء، وسموٍّ ورفعة؛ جاء بتزكية القلوب وتطهيرها، وتنقية النُّفوس وتصفيتها، وإصلاح وطهارة الظَّاهر والباطن، يطهِّر القلوب من أدرانها، والنُّفوس من سخائمها، ومن الدُّعاء المأثور عن النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(٣).

والمؤمن في هذه الحياة مأمور بإصلاح باطنه كما هو مأمور بإصلاح

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣).
(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).

ظاهره، وكما أنَّ الظَّاهر يحصل له أنواع من الأمراض والأسقام فكذلك باطن الإنسان يتعرَّض لأنواعٍ من الأضرار والأسقام والبعد، وعندما يتأثَّر الباطن فإنَّ الظَّاهر تبعٌ له في صلاحه وفساده، ولهذا كان متأكِّدًا على كُلِّ مسلم أن يُفَتِّش عن قلبه، وأن يتأمَّل في نفسه وأن يتدبَّر في أخلاقه الباطنة؛ هل هي أخلاق زاكية وأعمالٌ فاضلة أم هي بخلاف ذلك؟ فيصلح ما فسد ويحافظ على ما صَلَح.

ومن خصال القلوب الذَّميمة وخلالها المشينة الَّتِي جاء الإسلام بالتَّحذير منها والنَّهي عنها وبيان خطورتها على الأفراد والمجتمعات؛ خصلة الحسد.

والحسد شرٌّ عظيم ووباء مهلك وداء فتَّاك إذا سرى في الإنسان أفسده وأضرَّ به ضررًا عظيمًا، وهو شرٌّ يُتعوَّذ بالله منه، كما قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]، وجاء في النَّهي عنه والتَّحذير منه نصوص متكاثرة وأحاديث متضافرة عن النَّبِيِّ ﷺ.

وهو صفة الأشرار من الخلق، ولهذا حسد إبليس قديمًا أبانا آدم على ما آتاه الله من النِّعمة والفضل، وما منَّ عليه آدم به من الفضائل؛ حيث خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنَّته، وعلَّمه أسماء كُلِّ شيء فحسده إبليس حتَّى تسبَّب في خروجه من الجنَّة.

والحسد هو الَّذِي أفضى بأحد ابني آدم إلى قتل أخيه حسدًا وعدوانًا، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي

مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

الحسد صفة اليهود الأشرار: حسدوا نبيَّنا الكريم ﷺ على ما اصطفاه الله به وعلى ما منَّ الله عليه به من النُّبوَّة والرِّسالة، فحسدوه على ذلك وامتنعوا من قبول دعوته لا لشيء إلَّا حسدًا له ولأُمَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأضمروا لهم كُلَّ عداوة وأكنُّوا لهم كُلَّ بغضاء، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النِّساء:٥٤].

والحاسد عدُوٌّ لنعمة الله، لا يقِرُّ له قرار ولا يهدأ له بال ولا يطمئنُّ له خاطر ولا يزول عنه همٌّ وغمٌّ؛ إلَّا إذا رأى النِّعمة زالت وارتحلت ولم تبقَ بيدي مَن يحسده.

والحاسد مثله كمثل أفعى مليئة بالسُّمِّ لا يهدأ بالها حتَّى تُفَرِّغ سُمَّها، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ النَّفس الخبيثة الحاسدة تتكيَّف بكيفيَّة خبيثة، وتقابل المحسود، فتُؤَثِّر فيه بتلك الخاصِّيَّة، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى؛ فإنَّ السُّمَّ كامن فيها بالقُوَّة، فإذا قابلت عَدُوَّها، انبعثت منها قُوَّة غضبيَّة، وتكيَّفت بكيفيَّة خبيثة مؤذية، فمنها ما تشتدُّ كيفيَّتها وتقوى حتَّى تُؤَثِّر في إسقاط الجنين، ومنها ما تُؤَثِّر في طمس البصر»[1].

(١) انظر: زاد المعاد، لابن القيِّم (٤/ ٢٣٧).

والحاسد عدُوٌّ لنعمة الله على عباده لا يرضى قسمة الله ولا يرضى بحكمة الله ولا يرضى بتدبيره جَلَّوَعَلَا، فإذا رأى اللهَ أنعم على عبده بنعمة ومنَّ عليه بمنَّة وميَّزه بميزة امتلأ قلبه حسدًا وكراهيةً وبغضًا لذلك، ولهذا فإنَّ أعظم أوصاف الحاسد أنَّه عدوٌّ لنعمة الله على عباده.

قال أبو حاتم البستيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بئس الشِّعار للمرء الحسد؛ لأنَّه يورث الكمد ويورث الحزن وهو داء لا شفاء له، والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما في قلبه كمين على وجهه مبين، وما رأيت حاسدًا سالم أحدًا، والحسد داعية إلى النَّكد ألا ترى إبليس حسد آدم فكان حسده نكدًا على نفسه فصار لعينًا بعدما كان مكينًا، ويسهل على المرء ترضِّي كُلَّ ساخط في الدُّنيا حتَّى يرضى إلَّا الحسود؛ فإنَّه لا يرضيه إلَّا زوال النِّعمة الَّتِي حسد من أجلها»(١).

فالحاسد لا يرضى بأقدار الله ولا يرضى بتدبيره سبحانه، ولا يقنع بحكمة الله؛ فإذا أنعم الله على عبدٍ بنعمة عن حكمةٍ بالغة وتدبيرٍ سابغ، كره ذلك وأبغضه وشنأ ذلك وقلاه وامتلأ قلبه غيظًا وحنَقًا.

وإذا امتلأ قلب الحاسد بغضًا للمحسود رُبَّمَا حمَله حسدُه على البغي والعدوان والظُّلم والقتل، كما تقدَّم في قصَّة قتل أحد ابني آدم أخاه حسدًا وبغيًا.

فالحسد يتولَّد منه شرور عظيمة من البغي والظُّلم والعدوان وغير ذلك

(١) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص١٣٧).

من أنواع الآثام، وقد تقدَّم قول النَّبيِّ ﷺ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١)، فالتَّناجش والتَّباغض والبيع على بيع الأخ وغير ذلك من الأعمال، كلُّها في الغالب أثرٌ من آثار الحسد ونتيجةٌ من نتائجه المشينة.

والحاسد شغَله حسده عن شكر الله على نعمائه والاعتراف لله بقدره وقضائه، فلا يزال بهمِّه وحسده مغمومًا، وبغِلِّه وحقده متماديًا، لا يزال على هذه الحال ماضيًا؛ فهو عن الطَّاعات بعيد، ومن المعاصي والعدوان والإثم قريب.

والحسد يترتَّب عليه أضرارٌ كثيرة وأخطارٌ عظيمة وأضرارٌ جسيمة على الحاسد نفسه وعلى المجتمع المسلم؛ ينشر بغيًا وعدوانًا ويفكِّك بين الأسر المترابطة والبيوت المجتمعة ويفرِّق بين المتحابِّين، وله من الآثار الجسيمة والأخطار العظيمة ما لا حدَّ له ولا عدَّ.

وعندما يتأمَّل الحاسد في النَّتائج الَّتِي يُحَصِّلها والآثار الَّتِي ينالها من حسده لا يجد شيئًا؛ لا يجد ثمارًا نافعة، ولا فوائد حميدة؛ وإنَّما يجد آثارًا سيِّئة وحصادًا مُرًّا في الدُّنيا والآخرة.

فالواجب على كُلِّ مؤمن أن يقنع بما آتاه الله، وأن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ على فضله، وأن يسأله سبحانه من فضله العظيم وخيره العميم، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣).

نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النِّساء:٣٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ويندفعُ شرُّ الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:**

أحدها: التَّعوُّذُ بالله تعالى من شرِّه والتَّحصُّنُ به واللَّجأ إليه.

السَّبب الثَّاني: تقوى الله وحفظُه عند أمره ونهيه؛ فمَن اتَّقى الله تولَّى الله حفظه ولم يَكِلْه إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النَّبِيُّ لعبد الله بن عبَّاس: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»(١)، فمَن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجَّه، ومَن كان الله حافظَه وأمامه فمِمَّن يخاف.

السَّبب الثَّالث: الصَّبر على عَدُوِّه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يُحَدِّث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر على حاسده وعَدُوِّه بمثل الصَّبر عليه.

السَّبب الرَّابع: التَّوكُّل على الله، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]. والتَّوكُّل من أقوى الأسباب الَّتِي يدفع بها العبدُ ما لا يطيقُ من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك؛ فإنَّ الله حسبه أي: كافية ومَن كان الله كافيَه وواقيَه فلا مطمع فيه لعدُوِّه.

السَّبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكرِ فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله، كُلَّما خطر له فلا يلتفتُ إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شرِّه.

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

السَّبب السَّادس: الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبَّته وترَضِّيه والإنابة إليه في محلِّ خواطر نفسه وأمانيها، تدُبُّ فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا حتَّى يقهرَها ويغمرَها ويذهبَها بالكُلِّيَّة، فتبقى خواطرُه وهواجسُه وأمانيُّه كلُّها في محابِّ الرَّبِّ والتَّقرُّب إليه.

السَّبب السَّابع: تجريد التَّوبة إلى الله من الذُّنوب الَّتِي سلَّطت عليه أعداءَه؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورى:٣٠].

السَّبب الثَّامن: الصَّدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشرِّ الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلَّا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلَّط على محسن مُتَصَدِّق وإن أصابه شيء من ذلك كان معامَلًا فيه باللُّطف والمعونة والتَّأييد، وكانت له فيه العاقبةُ الحميدة.

السَّبب التَّاسع: وهو من أصعب الأسباب على النَّفس وأشقِّها عليها ولا يُوَفَّق له إلَّا مَن عظم حظُّه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكُلَّمَا ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

السَّبب العاشر: وهو الجامع لذلك كلِّه، وعليه مدار هذه الأسباب

وهو تجريد التَّوحيد والتَّرحُّل بالفكر في الأسباب إلى المُسَبِّب العزيز الحكيم، والعلمُ بأنَّ هذه آلات بمنزلة حركات الرِّياح وهي بيد مُحَرِّكها وفاطرها وبارئها ولا تضرُّ ولا تنفع إلَّا بإذنه، فهو الَّذي يمسُّ عبده بها وهو الَّذي يصرفُها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال النَّبيُّ لعبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(١)، فإذا جرَّد العبدُ التَّوحيدَ فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفردُ اللهَ بالمخافة وقد أمَّنه منه وخرج من قلبه اهتمامُه به واشتغالُه به وفكرُه فيه، وتجرَّدَ لله محبَّةً وخشيةً وإنابةً وتوكُّلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرى أنَّ إعمالَه فكره في أمر عَدُوِّه وخوفَه منه واشتغالَه به من نقص توحيده، فالتَّوحيد حصن الله الأعظم الَّذي مَن دخله كان من الآمنين، قال بعض السَّلف -هو الفضيل بن عياض-: «مَن خاف الله خافه كلُّ شيء، ومَن لم يخف الله أخافه من كُلِّ شيء»(٢)». بدائع الفوائد باختصار(٣).

هذا، والله وحده المرجو أن يحفظ علينا إيماننا، ويُطَهِّر قلوبنا من الحسد والغِلِّ وكُلِّ خلق ذميم، إنَّه خير مسؤول.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٤٦).

(٣) انظر: بدائع الفوائد لابن القيِّم (٢/ ٢٣٨ - ٢٤٥).

٦٩
علاج الشَّهوة

روى الإمام أحمد في مسنده عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ(١).

ورواه الطَّبرانِيُّ وزاد: «**فَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٧٠).

(٢) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (١٠٦٦).

إنَّ هدي نبيِّنا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أعظم الهدي وأكمله، وأسدُّه وأقومه، وأنفعه للعباد في كلِّ أمرٍ وفي كلِّ مجالٍ وفي كلِّ باب، وما أحوج النَّاس إلى عودةٍ صادقة إلى هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإلى مَعِين سُنَّته العذب للنَّهل من هداياته النَّافعة وإرشاداته العظيمة ولطفه وحكمته.

وهذا حديثٍ عظيم في معالجة آفةٍ خطيرة وبليَّةٍ عظيمة وجرمٍ وخيم، قد يتعرَّض للافتتان به والوقوع في حمأته كثيرٌ من الشَّباب، ولاسيَّما إذا كثرت الفتن وتنوَّعت مغريات الفساد.

لنتأمَّل هذه الحادثة العجيبة والقصَّة المؤثِّرة؛ شابٌّ يأتي إلى مجلس النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بحضور أصحابه الكرام، ويطلب من النَّبِيِّ ﷺ أن يأذن له بالزِّنا وهو يعلم خطورة الأمر، لكنَّ نفسه فيها شهوة ملتهبةٌ، ثائرةٌ متأجِّجة، فقالها صراحةً: «**يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا**»، فغضب الصَّحب الكرام وزجروه ونهروه، وأسكتوه، فقال لهم النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَرُوهُ**»، وطلب من الفتى أن يدنو منه، وتأمَّل رفق النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما أعظمه، وحلمه وأناته ولطفه ورحمته وحسن نصحه صلوات الله وسلامه عليه، فدنا الفتى وجلس بين يدي خير معلِّم ﷺ.

ولنتأمَّل -أيضًا- هذا الشَّابُّ جاء وقد تأجَّجت في قلبه الشَّهوة وثارت ثورة شديدة واشتعلت في صدره وأصبحت هي المسيطرة عليه، فعالجه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معالجةً حكيمة لطيفة رفيقة استخرج بها الدَّاء الَّذِي أصيبت به نفسه، فدعاه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أن يستثير من كامن نفسه -مكان هذه

الشَّهوةِ الثَّائرةِ- الغيرةَ العظيمة الَّتِي جعلها الله في قلوب أهل الإيمان على حرمات الله، فبدل أن تكون الشَّهوة هي الثَّائرة المسيطرة على قلبه أراد النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن تكون الغيرة الكامنة على المحارم هي المسيطرة، وكلُّ أحدٍ بلا ريب في قلبه غيْرة على أُمِّه، وعلى ابنته، وعلى أخته، وعلى عمَّته، وعلى خالته؛ لا يرضى أن يدنَّس شرفه أو أن تُنتهك حرمته أو أن تُلَوَّث كرامته، يأبى ذلك أتمَّ إباء ولا يرضاه، فكم هو جميل إذًا تحريك هذا الدَّواء النَّافع للقلوب واستثارة هذا العلاج الكامن لمداوة هذه الشَّهوة المُحَرَّمة إذا ثارت في النَّفس.

وما أحوج الشَّاب في خضمِّ الفتن العظيمة الَّتِي تعصِف وتجرِف وتحرِف إذا ابتلي بشيء من ذلك؛ أن يستثير في نفسه هذه الغيرة العظيمة، بأن يتذكَّر أنَّ له أمًّا أو بنتًا أو أختًا أو عمَّةً أو خالةً ولا يرضى أن تدنَّس كرامته أو ينتهك عرضه، وكلَّما خَطَتْ قدمه إلى شيء من هذه الآثام زمَّها بهذا الزِّمام، واستثار فيها هذه الغيرة؛ فإنَّها بإذن الله صِمَامُ أمان وواقٍ عظيم من الولوج والانغماس في هذه الرَّذيلة، وليس هذا الأمر في الزِّنا وحده، بل وفي كلِّ مقدِّماته وأسبابه؛ فهذه قاعدة جامعة تتذكَّر دائمًا وأبدًا: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». مثلًا: لو أنَّ شابًّا حدَّثته نفسه أن يتخاطب مع فتاة عبر جوَّال أو غيره مخاطبةً آثمة حتَّى ولو لم يبلغ حدَّ الزِّنا؛ فليتذكَّر هذا الكلام العظيم الجامع: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، «**أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». فإنَّ كلَّ إنسان شريفٍ كريم النَّفس سليم الطَّبع لا يرضى شيئًا من ذلك، لا يرضى أن

يكون لابنته أو أخته أو عمَّته أو خالته شيء من ذلك أن يستدرجها شابٌّ أو يستثير فيها عاطفةً آثمة.

ثمَّ أولئك الآثمون الَّذِين استغلُّوا هذه الأجهزة الحديثة، وأخذوا من خلالها يورِّطون بعض الفتيات ويستدرجون بعض البنات ويبتزُّون بعض الغافلات عبر خطواتٍ وخطوات؛ ألا يتذكَّر هؤلاء الآثمون هذا الحديث العظيم عن النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ!!

ولنتأمَّل أثر هذا الدَّواء وعظم نفع هذا العلاج لقلب ذلك الشَّابِّ وهو يستمع إلى النَّبِيِّ ﷺ، وفي كلِّ مرَّة يقول للنَّبِيِّ ﷺ: «**لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ**»؛ يقسم بالله العظيم بأنَّه لا يحبُّ ذلك، لا لأُمِّه، ولا لأخته، ولا لابنته، ولا لعمَّته، ولا لخالته؛ وهذا لسان صاحب كلِّ نفس أبيَّة، إذا قيل له ذلك قال: لا، والله لا أرضى ذلك، فإن كان لا يرضى ذلك لأمٍّ أو بنتٍ أو أختٍ أو عمَّةٍ أو خالة؛ فليتذكَّر أنَّ النَّاس كلَّهم مثله لا أحدٌ منهم يرضى لشرفه أن يُدَنَّس أو لعرضه أن يُنتهك، والمرء المسلم يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ لذلك الشَّابِّ، كما في رواية للحديث: «**فَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»[(١)].

وهذا نظير قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٢)]. وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ**

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في مسند الشَّاميِّين (١٠٦٦).
(٢) رواه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

وهذا يتناول كفَّ الأذى والمكروه عن النَّاس، وأن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشَّرِّ ولم يذكره في الحديث؛ لأنَّ حبَّ الشَّيء مستلزم بغض نقيضه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فينبغي للمؤمن أنْ يُحِبَّ للمؤمنينَ ما يُحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لِنفسه، فإنْ رأى في أخيه المسلم نقصًا في دينه اجتهدَ في إصلاحه. قال بعضُ الصَّالحين مِن السَّلف: أهلُ المحبَّة لله نظروا بنور الله، وعطَفُوا على أهلِ معاصي الله، مَقَتُوا أعمالهم، وعطفوا عليهم ليزيلوهُم بالمواعظ عن فِعالهم، وأشفقوا على أبدانِهم من النَّار»(٢).

ثمَّ لنتأمَّل مع كمال هذا الإحسان وجمال هذا النُّصح والبيان توَّج النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك بتلك الدَّعوة العظيمة المباركة الميمونة؛ فوضع يده الشَّريفة ﷺ على صدر ذلك الشَّاب وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»؛ دعا له بهذه الدَّعوات الثَّلاثة العظيمة: غفرانِ الذَّنب وطهارة القلب وتحصين الفرج، وكم تمسُّ حاجة الشَّابِّ إلى هذه الدَّعوات وتكرارها، ولاسيَّما إذا كثرت أسباب الفتن ومغرياتها، فكُلَّما حدَّثته نفسه بشيء من ذلك لجأ إلى الله داعيًا بهذه الدَّعوات بصدق وإخلاص، كما قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٨).

ﵟٱلۡمُخۡلَصِينَﵞ [يوسف:٢٤] أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السُّوء، وكذلك كلُّ مخلص، كما يدلُّ عليه عموم التَّعليل.

وليتذكَّر أنَّ فلاحه في الدُّنيا والآخرة معلَّق بحفظ فرجه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، قال تعالى: ﵟقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَﵞ [المؤمنون:١-٧].

وهذا يتضمَّن ثلاثة أمور: أنَّ مَن لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنَّه من الملومين، وأنَّه من العادين. ففاته الفلاح، واستحقَّ اسم العدوان، ووقع في اللَّوم. فمقاساةُ ألم الشَّهوة ومعاناتُها أيسر له من بعض ذلك.

هذا وقد تنوَّعت الهدايات المباركة والتَّوجيهات المسدَّدة المأثورة عن النَّبيِّ الكريم عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في علاج هذا الدَّاء وكبح هذه الشَّهوة المُحَرَّمة، وأعظم ما جاء في ذلك كلمته العظيمة البليغة الَّتي قالها عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خطبته الجامعة يوم خسفت الشَّمس؛ فإنَّه عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطب النَّاس على إثر صلاته ذلك اليوم خطبةً عظيمةً جامعة، وممَّا قال فيها عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**». متَّفق عليه من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا[(١)].

وهذا أعظم بابٍ لإغلاق كلِّ بلاء وصدِّ كلِّ فتنة؛ أن يتذكَّر المرء أنَّ ربَّ

(١) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

العالمين يراه، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا مطَّلع عليه، وأنَّه سبحانه يغار أن يزني عبده وأن تزني أمته. فيحذر سخط الله وعقابه، ويتجنَّب كلَّ أمرٍ يجرُّه إلى ما يسخط الله ويغضبه سبحانه.

والغيرة على محارم الله لها شأن عظيم في صلاح القلب، فهي كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُخرج ما فيه من الخَبَث والصِّفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذَّهب والفضَّة والحديد. وأشرف النَّاس وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرة على نفسه، وخاصَّته، وعموم النَّاس.

ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أغيرَ الخلق على الأُمَّة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١).

وفي الصَّحيح أيضًا عنه أنَّه قال في خطبة الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٢).

وفي الصَّحيح أيضًا عنه أنَّه قال: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ**»(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٣) رواه البخاريُّ (٧٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠).

فجَمَعَ في هذا الحديث بين الغيرةِ الَّتِي أصلُها كراهةُ القبائح وبغضُها، ومحبَّةِ العذرِ الَّذِي يوجب كمال العدل والرَّحمة والإحسان. وأنَّه سبحانه مع شدَّة غيرته يحِبُّ أن يعتذر إليه عبدُه، ويقبل عذرَ مَن اعتذر إليه، وأنَّه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يَغار من ارتكابه حتَّى يُعذِرَ إليهم؛ ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا.

وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال، فإنَّ كثيرًا ممَّن تشتدُّ غيرته من المخلوقين تحمله شدَّةُ الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قَبول لِعذر مَن اعتذر إليه؛ بل يكون له في نفس الأمر عذرٌ، ولا تَدَعُه شدَّةُ الغيرة أنَ يقبل عذرَه. وكثير ممَّن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلَّةُ الغيرة حتَّى يتوسَّع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتَّى يُعذِر كثير منهم بالقدَر.

وكلٌّ منهما غيرُ ممدوح على الإطلاق، وقد صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، فَالَّتِي يُبْغِضُهَا الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ**»(١). وذكر الحديث. وإنَّما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محلِّ الغيرة، ويُعذِر في موضع العذر. ومَن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا.

ولمَّا جمع سبحانه صفات الكمال كلَّها كان أحقَّ بالمدح من كلِّ أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحَه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسَه وأثنى على نفسه.

فالغيور قد وافق ربَّه سبحانه في صفة من صفاته، ومَن وافق الله في صفة من

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، والنَّسائيُّ (٢٥٥٨)، وابن ماجه (١٩٩٦)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

صفاته قادته تلك الصِّفة إليه بزمامه، وأدخلَتْه على ربِّه، وأدْنَتْه منه، وقرَّبتْه من رحمته، وصيَّرتْه محبوبًا له؛ فإنَّه سبحانه رحيم يحبُّ الرُّحماء، كريم يحبُّ الكرماء، عليم يحبُّ العلماء، قويٌّ يحبُّ المؤمن القويَّ، وهو أحبُّ إليه من المؤمن الضَّعيف، حييٌّ يحبُّ أهل الحياء، جميل يحبُّ الجمال، وِتْر يحبُّ الوتر»[1].

هذا وإنَّ من الخير العظيم للمرء أن يقف مع هدايات السُّنَّة ودلائلها المباركات، ليداوي بها أدواء نفسه وأسقام قلبه وما قد يقع فيه من انحراف وزلل، ليُهدى إلى أقوم السُّبل ويوقى من غوائل النَّفس وكوامن مكائدها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدينا أجمعين إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يوفِّقنا للزُّوم سُنَّة النَّبِيِّ الكريم وأن يجنِّبنا منكرات الأخلاق والأهواء والأعمال والأدواء، إنَّه سميع قريب مجيب.

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص٦٦ - ٦٧).

٧٠
عواقب الذنوب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٤]». رواه التِّرمذيُّ(١).

إنَّ من الأمور النَّافعة للعبد في إصلاح قلبه النَّظر في عواقب الذُّنوب ومضارِّها الجسيمة على المرء في دنياه وأخراه، ولا سِيَّما أضرارها على قلبه، فإنَّ للمعاصي من الآثار الخطيرة بالقلب ما لا يعلمه إلَّا الله سبحانه، وللإمام ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه الدَّاء والدَّواء تفاصيل نافعة في ذكر هذه الآثار، وفيما يلي تلخيص لبعض ما ذكر.

فمنها: حرمان العلم، فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النُّور.

ولمَّا جلس الشَّافعيُّ بين يدي مالك وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه؛ فقال: «إِنِّي أَرَى اللهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ المَعْصِيَةِ»(١).

وقال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدَني إلى ترك المعاصي

وقال اعلَمْ بـأنَّ العلـمَ فضـلٌ ... وفضـلُ الله لا يؤتـاه عـاصِ

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذَّة أصلًا. ولو اجتمعت له لذَّاتُ الدُّنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يَحسُّ به إلَّا مَن في قلبه حياة. و «ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ»، فلو لم يترك الذُّنوب إلَّا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًّا بتركها.

شكا رجل إلى بعض العارفين وحشةً يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنتَ قد أوحشتك الذُّنوبُ ... فدَعْهـا إذا شئتَ واستـأنسِ

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسُّ بها كما يحسُّ بظلمة اللَّيل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظُّلمة الحسِّيَّة لبصره. فإنَّ الطَّاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلَّما قويت الظُّلمة ازدادت حيرته، حتَّى يقع في البدع والضَّلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة اللَّيل يمشي وحده.

قال عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الوَجْهِ، وَنُورًا فِي القَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي البَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الخَلْقِ. وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ

(١) رواه البيهقيُّ في مناقب الشَّافعيِّ (١/ ١٠٣).

سَوَادًا فِي الوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي القَلْبِ، وَوَهَنًا فِي البَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبِغْضَةً فِي قُلُوبِ الخَلْقِ»[١].

ومنها: أنَّ المعاصي توهن القلب والبدن.

أمَّا وهنها للقلب، فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتَّى تزيل حياته، وأمَّا وهنها للبدن، فإنَّ المؤمن قُوَّته من قلبه، وكُلَّما قوي قلبه قوي بدنه.

ومنها: حرمان الطَّاعة. فلو لم يكن للذَّنب عقوبة إلَّا أنَّه يصدُّ عن طاعة تكون بدَلَه، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه طريقُ ثالثةٍ، ثمَّ رابعةٍ، وهلمَّ جرًّا. فينقطع عليه بالذَّنب طاعات كثيرة، كلُّ واحدة منها خير له من الدُّنيا وما عليها. وهذا كرجل أكل أكلةً أوجَبَتْ له مرضة طويلةً منعته من عدَّة أكَلات أطيب منها.

ومنها: أنَّ المعاصي تزرع أمثالَها ويُوَلِّد بعضها بعضًا حتَّى يعزُّ على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السَّلف: إنَّ من عقوبة السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدها، وإنَّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها[٢]. فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثَّانية كذلك، وهَلُمَّ جرًّا، فتضاعف الرِّبح، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السَّيِّئات أيضًا، حتَّى تصير الطَّاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة.

ومنها: -وهو من أخوفها على العبد- أنَّها تُضعِف القلبَ عن إرادته،

---

(١) نقله شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٠)، وابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٥٤).
(٢) مجموع الفتاوي (١٠/ ١١).

فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التَّوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التَّوبة بالكُلِّيَّة، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله.

ومنها: أنَّه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ النَّاس له، ولا كلامَهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التَّهتُّك وتمام اللَّذَّة، حتَّى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويُحَدِّث بها مَن لم يعلم أنَّه عملها، فيقول: يا فلان عملتُ كذا وكذا!

وهذا الضَّرب من النَّاس لا يُعافَون، وتسدُّ عليهم طريق التَّوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ. وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ عَلَى الْعَبْدِ، ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيَهْتِكُ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ**»(١).

ومنها: أنَّ العبد لا يزال يرتكب الذَّنب، حتَّى يهون عليه، ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك؛ فإنَّ الذَّنب كلَّما صغُر في عين العبد عظُم عند الله.

وقد ذكر البخاريُّ في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ. وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، فَطَارَ**»(٢).

ومنها: أنَّ المعصية تورث الذُّلَّ، ولا بدَّ؛ فإنَّ العزَّ كُلَّ العزِّ في طاعة الله

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٦٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣٠٨).

تعالى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر:١٠]. أي: فليطلبها بطاعة الله؛ فإنَّه لا يجدها إلَّا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السَّلف: «اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ، وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ»(١).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيتُ الذُّنوب تميت القلوبَ وقد يورث الذُّلَّ إدمانُها
وتـركُ الذُّنـوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانُهـا

ومنها: أنَّ المعاصي تفسد العقل؛ فإنَّ للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل، ولا بدَّ؛ وإذا طَفِئ نورُه ضعُفَ ونقَصَ.

وقال بعض السَّلف: «مَا عَصَى اللهَ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ»(٢).

وهذا ظاهر، فإنَّه لو حضره عقله لَحجَزه عن المعصية، وهو في قبضة الرَّبِّ تعالى وتحت قهره، وهو مطَّلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكتُه شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النَّار ينهاه، والَّذِي يفوته بالمعصية من خير الدُّنيا والآخرة أضعافُ أضعاف ما يحصل له من السُّرور واللَّذَّة بها.

ومنها: أنَّ الذُّنوب إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها، فكان من الغافلين؛ كما قال بعض السَّلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين ١٤] قال: هو الذَّنب بعد الذَّنب.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٩٦).
(٢) نقله ابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٥٩).

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَعْمَى القَلْبُ»(١).

وقال غيره: «لَمَا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ»(٢).

وأصل هذا أنَّ القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصَّدأ حتَّى يصير رانًا، ثمَّ يغلب حتَّى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف؛ فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولَّاه عدوُّه، ويسوقه حيث أراد.

ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تطفئ من القلب نارَ الغيرة الَّتي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزيَّة لحياة جميع البدن. فالغيرة حرارته وناره الَّتي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصِّفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذَّهب والفضَّة والحديد. وأشرف النَّاس وأعلاهم همَّةً أشدُّهم غيرة على نفسه، وخاصَّته، وعموم النَّاس.

ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أغيرَ الخلق على الأُمَّة، والله سبحانه أشدُّ غيرةً منه، كما ثبت في الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهِ أَغْيَرُ مِنِّي**»(٣).

وفي الصَّحيح أيضًا عنه أنَّه قال في خطبة الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»(٤).

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في التَّوبة (١٩٦).

(٢) نقله ابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء (ص٦٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٤) رواه البخاريُّ (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الَّذِي هو مادَّة الحياة للقلب، وهو أصل كُلِّ خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي الصَّحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**»[(١)].

وقال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ!**»[(٢)].

ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ، وتُضْعِف وقارَه في قلب العبد، ولا بدَّ، شاء أم أبى. ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه.

وكفى بالعاصي عقوبةً أن يضمحلَّ من قلبه تعظيمُ الله جَلَّجَلَالُهُ، وتعظيمُ حرماته، ويهونَ عليه حقُّه.

ومن عقوباتها: أنَّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة «الإحسان» وتمنعه ثوابَ المحسنين؛ فإنَّ الإحسان إذا باشر القلبَ منَعَه من المعاصي، فإنَّ من عَبَدَ الله كأنَّه يراه لم يكن ذلك إلَّا لاستيلاء ذكره ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنَّه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها.

ومن عقوباتها: أنَّها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلى الله والدَّار الآخرة، أو تعوقه، أو توقفه وتقطعه عن السَّير، فلا تدَعه يخطو إلى الله خطوةً. هذا إن لم تردَّه عن

---

(١) رواه مسلم (٣٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٤٨٤).

وجهته إلى ورائه! فالذَّنب يحجب الواصل، ويقطع السَّائر، وينكس الطَّالب. والقلب إنَّما يسير إلى الله بقُوَّته، فإذا مرض بالذُّنوب ضعفت تلك القوَّة الَّتِي تُسَيِّره. فإن زالت بالكُلِّيَّة انقطع عن الله انقطاعًا يبعُد تداركُه.

فالذَّنب إمَّا أن يميت القلب، أو يُمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قُوَّته، ولا بدَّ، حتَّى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثَّمانية الَّتِي استعاذ منها النَّبِيُّ ﷺ. وهي: الهمُّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلَع الدَّين وغلبة الرِّجال.

ومن عقوبات الذُّنوب أنَّها تُزيل النِّعم وتُحِلُّ النِّقَم. فما زالت عن العبد نعمة إلَّا بذنب، ولا حلَّت به نقمة إلَّا بذنب؛ كما قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاءٌ إلَّا بذنب، ولا رُفِعَ بلاءٌ إلَّا بتوبة».

وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورى ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال ٥٣].

فأخبر تعالى: أنَّه لا يُغيِّر نعَمه الَّتِي أنعم بها على أحد حتَّى يكون هو الَّذِي يُغيِّر ما بنفسه، فيُغيِّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه. فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليه جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّام للعبيد، فإنْ غيَّر المعصيةَ بالطَّاعة غيَّر الله عليه العقوبةَ بالعافية، والذُّلَّ بالعِزِّ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرَّعد: ١١].

ومن عقوباتها: أنَّها تَصْرِفُ القلبَ عن صحَّته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا، لا ينتفع بالأغذية الَّتِي بها حياته وصلاحه، فإنَّ تأثير الذُّنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذُّنوب أمراض القلوب وأدواؤها، ولا دواء لها إلَّا تركها.

وقد أجمع السَّائرون إلى الله أنَّ القلوب لا تعطى مُناها حتَّى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتَّى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتَّى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصحُّ لها ذلك إلَّا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد(١).

حفظ الله قلوبنا أجمعين وصانها ووقاها.

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء (ص٦٦ - ٧٦).

٧١
الأسباب المعينة على النجاة من فتنة الشَّهوات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[١]. متَّفق عليه.

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ». رواه أحمد[٢].

هذا حديث عن نوع عظيم من أنواع الصَّبر وهو صبر النَّفس بحبسها عن ارتكاب الفاحشة مهما كانت الدَّوافع ومهما بلغت المغريات، وقد ذكر الله

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٥٧)، وقال الألبانيُّ: «صحيح لغيره»، في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٩٠١).

في القرآن مثالًا عجيبًا للغاية في هذا الباب، ألا وهو صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد تنوَّع صبره بتنوُّع الابتلاءات الَّتِي حصلت له، وما أعظم صبره عَلَيْهِ السَّلَامُ على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عَزَّ وَجَلَّ السَّلامة والنَّصر والتَّأييد، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، أي: لا يدع له شيئًا من الأجر على إحسانه إلَّا كافأه به وافيًا.

وكان من أشدِّ البلاء الَّذِي حصل له فصبر عنه مراودُة امرأة العزيز له عن نفسه، وذلك أنَّها أحبَّته حبًّا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمَّلت له، وغلَّقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، فاستعاذ بالله واستعصم، فنجَّاه الله وأعاذه ووقاه.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا

عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [٢٣-٣٥].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجُبِّ وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإنَّ هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصَّبر، وأمَّا صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنَّفس، ولاسيَّما مع الأسباب الَّتي تقوى معها دواعي الموافقة؛ فإنَّه كان شابًّا وداعية الشَّباب إليها قويَّة. وعزبًا ليس له ما يُعَوِّضه ويَرُدُّ شهوته. وغريبًا والغريب لا يستحيي في بلد غربته ممَّا يستحيي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحُرِّ. والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيِّدته وقد غاب الرَّقيب، وهي الدَّاعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص، ومع ذلك توعَّدته إن لم يفعل بالسِّجن والصَّغار ومع هذه الدَّواعي كلِّها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجُبِّ على ما ليس من كسبه؟!»(١).

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ١٥٦)، والمستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٤).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر (الله) عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال الَّتِي صار إليها يوسف بصبره وعِفَّته وتقواه، مع أنَّ الَّذِي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلَّا مَن صبَّره الله؛ فإنَّ مواقعة الفعل بحسب قوَّة الدَّاعي وزوال المانع، وكان الدَّاعي هاهنا في غاية القوَّة، **وذلك من وجوه:**

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبع الرَّجل من ميله إلى المرأة.

الثَّاني: أنَّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان شابًّا، وشهوة الشَّباب وحدَّته أقوى.

الثَّالث: أنَّه كان عزبًا، ليس له زوجة ولا سرِّيَّة تكسر شدَّة الشَّهوة.

الرَّابع: أنَّه كان في بلاد غربة، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتَّى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أنَّ المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إنَّ كلَّ واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السَّادس: أنَّها غير ممتنعة ولا آبية.

السَّابع: أنَّها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطَّلب وذلَّ الرَّغبة إليها، بل كانت هي الرَّاغبة الذَّليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثَّامن: أنَّه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرَّغبة والرَّهبة.

التَّاسع: أنَّه لا يخشى أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فإنَّها هي الطَّالبة الرَّاغبة، وقد غلَّقت الأبواب وغيَّبت الرُّقباء.

العاشر: أنَّه كان في الظَّاهر مملوكًا لها في الدَّار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا يُنْكَر عليه.

الحادي عشر: أنَّها استعانت عليه بأئمَّة المكر والاحتيال، فأرته إيَّاهُنَّ، وشكت حالها إليهِنَّ؛ لتستعين بهِنَّ عليه، واستعان هو بالله عليهِنَّ، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٢٣].

الثَّاني عشر: أنَّها توعَّدته بالسِّجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد مَن يغلب على الظَّنِّ وقوع ما هدَّد به، فيجتمع داعي الشَّهوة، وداعي السَّلامة من ضيق السِّجن والصَّغار.

الثَّالث عشر: أنَّ الزَّوج لم يظهر منه الغيرة والنَّخوة ما يُفَرِّق به بينهما، ويبعد كُلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. وشدَّة الغيرة للرَّجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدَّواعي كلِّها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبُّه لله على أن اختار السِّجن على الزِّنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ﴾ [يوسف:٢٣].

وعلم أنَّه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأنَّ ربَّه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهُنَّ؛ صبا إليهِنَّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربِّه وبنفسه.

وفي هذه القِصَّة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلَّنا إن وَفَّق الله أن نفردها في مصنَّف مستقل»[(١)].

وفتنة النِّساء من أشدِّ الفتن فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[(٢)]؛ فيحتاج المرء -ولاسيَّما الشَّابُّ- أن يتفقَّه في هذا الباب فيما يعينه على الخلاص من هذه الفتنة والنَّجاة من الوقوع فيها، لاسيَّما إذا كثرت المغريات وتنوَّعت الدَّواعي.

ولا أنفع في هذا المقام من التَّأمُّل في قصَّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّ فيها أعظم عبرة، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرَّض لهذه الفتنة تعرُّضًا هو من أشدِّ ما يكون، فدعته امرأة العزيز إلى نفسها، وتهيَّأت له وعملت على إغرائه، وغلَّقت الأبواب، واجتهدت في أن توقعه في شراك هذه الفتنة بكلِّ ما أوتيت من سبيل؛ فنجَّاه الله. فيحتاج المرء وبخاصَّةٍ الشَّابُّ أن يتأمَّل في الأسباب الَّتِي كانت نجاةً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، مستفيدًا منها ما يُعينه على الخلاص من هذه الفتنة.

وبالتَّأمُّل في هذا السِّياق الكريم؛ نجد أنَّ الأسباب المعينة على النَّجاة من هذه الفتنة مستخلصةً **من قصَّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سبعةُ أسباب:**

الأوَّل: الاستعاذة بالله، فإنَّ مَن استعاذ بالله أعاذه، ومَن توكَّل على الله كفاه، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]؛ ولهذا بادر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى التَّعوُّذ بالله جَلَّ وَعَلَا، فقال حين راودته: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]،

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص٢٠٨).
(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

أي: أستعيذ بالله. والاستعاذة حصنٌ حصين وحرزٌ متين يقي المسلم بإذن الله من الفتن كلِّها والشُّرور بجميع صورها.

الأمر الثَّاني: أن يستحضر المرء في هذا المقام أنَّ هذه الفَعلة ظلمٌ وأيُّ ظلم، وهو أمرٌ لا يرضاه المرء لأهله، ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ مستحضرًا ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]؛ فهذا ظلمٌ لا يفلح مَن قارفه بل إنَّه يكون من الخاسرين، وفي المسند للإمام أحمد في قصَّة الشَّابِّ الَّذِي جاء إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا**»[(١)]، فنهره الصَّحابة، فأدناه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال له: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**»، «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**»، «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**»، «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» وفي كلِّ ذلك يقول الشَّابُّ: «**لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ**»، فقال له النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يَرْضَوْنَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ... وَلَا لِبَنَاتِهِمْ... وَلَا لِأَخَوَاتِهِمْ... وَلَا لِعَمَّاتِهِمْ... وَلَا لِخَالَاتِهِمْ**»؛ لأنَّه ظلمٌ شنيع، وفي رواية قال له: «**فَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**».

الأمر الثَّالث: تجديد الإيمان وتقويته؛ فإنَّ الإيمان عصمةٌ لصاحبه ونجاة من الفتن، وتأمَّل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]؛ والمراد ببرهان ربِّه على الصَّحيح في معناه: أي ما معه من العلم والإيمان. وأعظم الإيمان ردعًا وزجرًا: الإيمان بالله وعظمته جلَّ في علاه، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ مُطَّلع على العباد يعلم سرَّهم ونجواهم لا تخفى عليه من

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٧٠).

العباد خافية، فهذا برهانٌ عظيم إذا حضر في قلب المؤمن عند الفتنة استحيا من ربِّه ومولاه أن يراه حيث نهاه.

الرَّابع: تحقيق الإخلاص؛ فإنَّ الإخلاص خلاصٌ من الفتن، ونجاة من المحن، وسلامة من البلايا والشُّرور، وتأمَّل في قصَّة يوسف يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وفي قراءة «المخلِصين» أي: المخلِصين لله. فمَن أخلص قلبه لله خلَّصه الله فلم تجد هذه الشَّهوات المُحَرَّمة والمَلَذَّات المنهي عنها سبيلًا إلى قلبه.

الخامس: الفرار بالنَّفس من الفتن ولاسيَّما عند انعقاد أسبابها ووجود موجبات وقوعها، فها هو يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما وُجِدَت هذه الفتنة العصيبة فرَّ متَّجهًا إلى الباب، ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف:٢٥]، فرارًا من الفتنة ناجيًا بنفسه، وهكذا ينبغي أن يكون عبد الله المؤمن؛ لا يخطو خطوات تفضي به إلى الفتنة، وإذا بلي بشيء من ذلك فعليه أن ينجو بنفسه فرارًا من الفتن، لا أن يستشرف لها أو يعرِّض نفسه للوقوع فيها، بل عليه أن يفرَّ من الفتن طلبًا لنجاة نفسه وسلامتها وعافيتها.

الأمر السَّادس: الاستعصام؛ وهذا شأنه عظيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ ذاكرًا عن امرأة العزيز في هذا السِّياق: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف:٣٢]، والاستعصام هو القوَّة والحزم مع النَّفس بمنعها وكفِّها وزجرها والأخذ بأسباب نجاتها وسلامتها، وهكذا كان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. والنَّاس في هذا المقام عند ورود الفتن بين مستعصِمٍ ومستسلم؛ ومَن استعصم نجا، ومَن استسلم للفتنة هلك.

الأمر السَّابع: الإلحاح على الله بالدُّعاء وصدق الالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنَّ مَن دعا الله صادقًا أجاب الله دعاءه وحقَّق رجاءه وأعطاه سؤله، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لجأ إلى ربِّه معتصمًا بالله طالبًا نجاته وسلامته ممَّن بيده الأمر كلَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]؛ دعا بهذه الدَّعوات الصَّادقات ملتجئًا إلى ربِّ الأرض والسَّماوات؛ فأجاب الله دعوته وحقَّق طِلبته، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا أجمعين بصيرةً في دينه، وحُسن تدبرٍ لكتابه، وجمال ائتساء بأنبيائه وأصفيائه، وأن يلحقنا بالصَّالحين من عباده.

٧٢
لَمَّة الملك ولَمَّة الشَّيطان

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**». قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**». رواه مسلم[(١)].

عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا. قَالَتْ فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ، أَغِرْتِ**». فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ**». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَمَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ**». رواه مسلم[(٢)].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا؛ لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ،**

(١) رواه مسلم (٢٨١٤).
(٢) رواه مسلم (٢٨١٥).

وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ؛ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى؛ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة:٢٦٨] الآيَةَ». رواه التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ[١].

إنَّ من الأمور الجديرة بالعناية في باب إصلاح القلوب معرفةَ الفرق بين لمَّة الملك ولمَّة الشَّيطان، واللَّمَّة ما يقع في القلب من خطرات، فيقفُ المرءُ عند كلِّ خاطرٍ يَخْطُرُ في قلبه ليعلم أهو من لمَّة الملك أو من لمَّة الشَّيطان، ويمعنُ فيه النَّظر بعين البصيرة وضياء العلم ونور التَّقوى، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، فإن تبيَّن أنَّه من المَلَك حمد الله وأمضاه، وإن تبيَّن أنَّه من الشَّيطان تعوَّذ بالله منه وتوقَّاه.

ومَن يتأمَّل حال القلب مع المَلَك والشَّيطان يرى عجبًا، فهذا يُلِمُّ به مرَّة وهذا يُلِمُّ به مرَّة، فإذا ألَمَّ به المَلَك حدث له من لمَّته الانشراحُ والنُّور والرَّحمة والإخلاص والإنابة ومحبَّة الله وإيثاره على ما سواه وقصر الأمل والتَّجافي عن دار البلاء، وإذا ألَمَّ به الشَّيطان حدث له من لمَّته الضِّيقُ والظُّلمة والهمُّ والغمُّ والخوف والسَّخط على المقدور والشَّكُّ في الحقِّ والحرص على الدُّنيا والغفلة عن الله.

والنَّاس في هذه المحنة مراتبُ لا يحصيها إلَّا الله: فمنهم مَن تكون لمَّة

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٩٨٨)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١٠٩٨٥)، وصححه الألباني، التعليقات الحسان، الحديث رقم (٣٩٩).

الملك له أغلب من لمَّة الشَّيطان وأقوى، وهو يقذف في القلب الصِّدق والعدل واتِّباع الهُدَى، ومنهم مَن تكون لمَّة الشَّيطان أغلب عليه، وهو يوسوس في القلب العقائد الفاسدة والظُّلم واتِّباع الهوى، فالمَلَك والشَّيطان يتعاقبان على القلب تعاقب اللَّيل والنَّهار فمِن النَّاس مَن يكون ليله أطول من نهاره وآخر نهاره أطول من ليله، ومنهم مَن يكون زمنُه نَهَارًا كلُّه وآخر زمنه ليلًا كلُّه.

«ومبدأ العلم الحقِّ والإرادة الصَّالحة: من لمَّة الملك. ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة: من لمَّة الشَّيطان، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ [البقرة:٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥]. أي: يُخَوِّفكم أولياءه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ [الأنفال:٤٨]. والشَّيطان وسواس خنَّاس إذا ذكر العبد ربَّه خنس، فإذا غفل عن ذكره وسوس؛ فلهذا كان ترك ذكر الله سببًا ومبدأً لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب»(١).

ومن النَّافع والمفيد في هذا الباب: أن يعرف المرء أسباب دُنُوِّ الملائكة منه وأسباب تباعدها، وأسباب دُنُوِّ الشياطين منه وأسباب تباعدها، ليأخذ بأسباب الخير والسَّلامة وليجانب أسباب الشَّرِّ والهلاك، فإنَّ دُنُوَّ الملائكة من العبد خير ورحمة، ودُنُوَّ الشَّياطين منه شرٌّ وهلكة، والذُّنوب والمعاصي تباعد الملائكة وتُقَرِّب الشَّياطين.

---

(١) الانتصار لأهل الأثر (ص٥١)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٣٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوباتها: أنَّها تباعد عن العبد وليَّه وأنفعَ الخلق له وأنصحَهم له، ومَن سعادتُه في قربه منه، وهو المَلَك الموكل به، وتدني منه عَدُوَّه وأغشَّ الخلق له، وأعظمَهم ضررًا له، وهو الشَّيطان؛ فإنَّ العبد إذا عصى الله تباعد منه المَلَك بقدر تلك المعصية.

ولا يزال المَلَك يقرب من العبد حتَّى يصير الحكم والطَّاعة والغلبة له، فتتولَّاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [فُصِّلت:٣٠-٣١].

وإذا تولَّاه المَلَك تولَّاه أنصحُ الخلق وأنفعُهم وأبرُّهم، فثبَّته وعلَّمه، وقوَّى جنانه، وأيدَّه الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢].

فيقول الملك عند الموت: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالَّذِي يَسُرُّك، ويثبِّته بالقول الثَّابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدُّنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة المَلَك له، وهو وليُّه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومُحَدِّثه في سرِّه، ويحارب عنه عَدُوَّه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويَعِدُه بالخير ويُبَشِّره به، ويَحُثُّه على التَّصديق بالحقِّ.

وإذا اشتدَّ قرب المَلَك من العبد ألقى على لسانه القول السَّديد، وإذا بعد منه وقرب الشَّيطان، ألقى عليه قول الزُّور والفحش، وكان أحدهم يسمع الكلمة الصَّالحة من الرَّجل الصَّالح، فيقول: ما ألقاه على لسانك إلَّا الملك، ويسمع ضدَّها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلَّا الشَّيطان، فالمَلَك يلقي بالقلب الحقَّ ويلقيه على اللِّسان، والشَّيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللِّسان.

فمن عقوبة المعاصي أنَّها تبعد من العبد وليَّه الَّذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عَدُوَّه الَّذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته.

فمَلَك المؤمن يرُدُّ عنه ويحارب ويدافع عنه، ويُعَلِّمه ويثبِّته ويُشَجِّعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنَّه ضيفه وجاره.

وإذا كان إكرام الضَّيف من الآدميِّين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظَّنُّ بإكرام أكرم الأضياف، وخيرِ الجيران وأبرِّهم؟

ولا ألأم ممَّن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يُجِلُّه ولا يُوَقِّره، وقد نبَّه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجِلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذَّى ممَّن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان يعمل مثل عمله، فما الظَّنُّ بأذى الملائكة

الكرام الكاتبين؟». الدَّاء والدَّواء باختصار[١].

ومن النَّافع أيضًا في هذا الباب: أن يعرف العبد الضَّوابط الَّتِي يُمَيَّز بها بين لمَّة الملك ولمَّة الشَّيطان، وفي هذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الفرق بين إلهام الملَك وإلقاء الشَّيطان من وجوه:**

- **منها:** أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسوله؛ فهو من المَلَك وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشَّيطان.

- **ومنها:** أنَّ ما أثمر إقبالًا على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهِمَّة صاعدة إليه؛ فهو من إلقاء المَلَك، وما أثمر ضِدَّ ذلك فهو من إلقاء الشَّيطان.

- **ومنها:** أنَّ ما أورث أُنْسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصَّدر؛ فهو من المَلَك، وما أورث ضِدَّ ذلك فهو من الشَّيطان.

- **ومنها:** أنَّ ما أورث سكينة وطمأنينة؛ فهو من المَلَك، وما أورث قلقًا وإنزعاجًا واضطرابًا فهو من الشَّيطان؛ فالإلهام الملكيُّ يكثر في القلوب الطَّاهرة النَّقيَّة الَّتِي قد استنارت بنور الله، فلِلْمَلَك بها اتِّصال وبينه وبينها مناسبة، فإنَّه طيِّب طاهر لا يجاور إلَّا قلبًا يناسبه فتكون لمَّة الملك بهذا القلب أكثر من لمَّة الشَّيطان، وأمَّا القلب المظلم الَّذِي قد اسودَّ بدخان الشَّهوات والشُّبُهات، فإلقاء الشَّيطان ولمَّه به أكثر من لمَّة المَلَك»[٢].

---

(١) الدَّاء والدَّواء (ص١٠٦ - ١٠٩) بتصرُّف.

(٢) الرُّوح لابن القيِّم (٢/ ٧١٤).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كُلَّ وارد يبقي الإنسان بعد انفصاله نشيطًا مسرورًا نشوانًا؛ فإنَّه وارد ملكيٌّ، وكُلُّ وارد يبقي الإنسان بعد انفصاله خبيث النَّفس كسلان ثقيل الأعضاء والرُّوح يجنح إلى فتور؛ فهو وارد شيطانِيٌّ.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كُلَّ وارد أعقب في القلب: معرفة بالله ومحبَّة له وأنسًا به وطمأنينةً بذكره وسكونًا إليه؛ فهو ملكيٌّ إلهيٌّ وخلافه بخلافه.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كلَّ وارد أعقب صاحبه تقدُّمًا إلى الله تعالى والدَّار الآخرة، وحضورًا فيها حتَّى كأنَّه يشاهد الجنَّة قد أزلفت والجحيم قد سُعِّرت؛ فهو إلهيٌّ ملكيٌّ وخلافه شيطانِيٌّ نفسانِيٌّ.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كُلَّ وارد كان سببه النَّصيحة في امتثال الأمر والإخلاص والصِّدق فيه؛ فهو إلهيٌّ ملكيٌّ وإلَّا فهو شيطانِيٌّ.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كُلَّ وارد استنار به القلب وانشرح له الصَّدر وقوي به القلب؛ إلهيٌّ ملكيٌّ وإلَّا فهو شيطانِيٌّ.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ كُلَّ وارد جمعك على الله فهو منه، وكُلَّ وارد فرَّقك عنه وأخذك عنه فمِنَ الشَّيطان.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ الوارد الإلهيَّ لا يصرف إلَّا في قربة وطاعة ولا يكون سببه إلَّا قربة وطاعة؛ فمستخرجه الأمر ومصرفه الأمر، والشَّيطانِيُّ بخلافه.

- **ومن الفرقان أيضًا:** أنَّ الوارد الرَّحمانِيَّ لا يتناقض ولا يتفاوت ولا يختلف بل يُصَدِّق بعضه بعضًا، والشَّيطانِيُّ بخلافه يُكَذِّب بعضه بعضًا»[(١)].

وكلُّ شَرٍّ في العالم سببه الشَّيطان، ويمكن حصر شرِّه في ستَّة أجناس لا يزال بابن آدم حتَّى ينال منه واحدًا منها أو أكثر.

* «**الأوَّل شرُّ الكفر والشِّرك**، وهو أوَّل ما يريد من العبد، فلا يزال به حتَّى يناله منه.

- فإذا يئس منه من ذلك، نقله إلى:

* **المرتبة الثَّانية من الشَّرِّ وهي البدعة**، وهي أحبُّ إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأنَّ ضررها في نفس الدِّين، وهو ضرر مُتعدٍّ وهي ذنب لا يتاب منه.

- فإن أعجزه من هذه المرتبة نقله إلى:

* **المرتبة الثَّالثة من الشَّرِّ** وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشدُّ حرصًا على أن يوقعه فيها.

- فإن عجز الشَّيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

* **المرتبة الرَّابعة** وهي الصَّغائر الَّتِي إذا اجتمعت فرُبَّما أهلكت صاحبها، ولا يزال يُسَهِّل عليه أمر الصَّغائر حتَّى يستهين بها.

- فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

---

(١) مدارج السَّالكين (٣/ ٢٦٧).

* **المرتبة الخامسة** وهي إشغاله بالمباحات الَّتِي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثَّواب الَّذِي ضاع عليه باشتغاله بها.

- فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة -وكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النَّعيم والعذاب- نقله إلى:

* **المرتبة السَّادسة** وهو أن يشغله بالعمل المفضول عمَّا هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويُفَوِّته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويَحُضُّه عليه ويُحَسِّنه له إذا تضمَّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه». بدائع الفوائد بتلخيص[1].

أعاذنا الله أجمعين وذُرِّيَّاتنا والمسلمين من الشَّيطان الرَّجيم، وأصلح لنا شأننا كُلَّه، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٠).

٧٣

خطورة الشيطان على القلب

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ؛ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ». رواه أحمد والنَّسائيُّ[(١)].

في هذا الحديث بيان لخطورة الشَّيطان البالغة على قلب المسلم، وأنَّه أحرص ما يكون على العبد عندما يهمُّ قلبه بالخير أو يدخل فيه فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه، وكُلَّما كان الفعل أنفع للعبد وأحبَّ إلى الله تعالى كان اعتراض الشَّيطان له أشدَّ.

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٥٨)، والنَّسائيُّ (٣١٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٦٥٢).

وهذه العداوة من الشَّيطان لابن آدم قديمة؛ إذ لمَّا سأله الله عن امتناعه عن السُّجود لآدم احتجَّ بأنَّه خير منه، فأخرجه الله من الجنَّة، فسأل الله أن ينظره فأنظره، ثمَّ قال عدوُّ الله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّبل الَّتي يسلكها الإنسان أربعة لا غير؛ فإنَّه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه. فأيُّ سبيل سلكلها من هذه وجد الشَّيطان عليها رصدًا له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويبطئه وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملًا له وخادمًا ومعينًا وممنيًا ولو اتَّفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك»(١).

ولهذه الآية نظائر في بيان شدَّة تسلُّط الشَّيطان على قلب ابن آدم؛ لصدِّه عن الخير وإيقاعه في الشَّرِّ.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النِّساء:١١٨ - ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤].

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٠٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصِّلت:٢٥].

ولقد أنذر الله جلَّ في علاه عباده من اتِّباع خطوات الشَّيطان في أربعة مواضع من القرآن الكريم؛ موضعين في سورة البقرة، وموضع في سورة الأنعام، وموضع في سورة النُّور، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:١٤٢]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور:٢١].

وخطوات الشَّيطان هي نزغاته وسمومه الَّتي ينفثها في القلوب، وما يدعو إليه من كفرٍ أو بدعةٍ أو معصيةٍ لله، وكلُّ عاصٍ لله أيًّا كانت معصيته فهو متَّبعٌ لخطوات الشَّيطان، والنَّاس في ذلك متفاوتون بين مقلٍّ ومستكثر.

وإنذار الله للعباد من اتِّباع خطوات الشَّيطان، وتحذيره لهم من السَّير وراءه، واتِّخاذه إمامًا فيما يدعو إليه؛ لأنَّ الشَّيطان عدوٌّ للإنسان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وهو حريصٌ أشدَّ الحرص باذلٌ كلَّ الجهد والوسع في إغواء الإنسان

وصدِّه عن طاعة الرَّحمن، وهو قاعدٌ لابن آدم في كلِّ طريق صدًّا وإغواءً وصرفًا عن طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، روى الحاكم في المستدرك وابن حِبَّان في صحيحه عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا أَصْبَحَ إِبْلِيسُ بَثَّ جُنُودَهُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ الْيَوْمَ مُسْلِمًا أَلْبَسْتُهُ التَّاجَ، فَيَخْرُجُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَتَزَوَّجَ، وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَقَّ وَالِدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَبَرَّ، وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى أَشْرَكَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى زَنَى فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيَجِيءُ هَذَا، فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَ فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ، وَيُلْبِسُهُ التَّاجَ**»(١).

فهذه منافسةٌ يجريها الشَّيطان كلَّ يومٍ إذا أصبح بين جنوده وشياطينه وأعوانه، لإغواء الإنسان وصدِّه وإبعاده عن طاعة الرَّحمن وإيقاعه في شراك الذُّنوب ووحل المعاصي، بل ونقْله إلى الإشراك بالله والكفر به سبحانه.

ثمَّ إنَّ الشَّيطان ينصِب في طريق الإنسان عقبات يريد أن يوقعه فيها مهتمًّا بأعظمها عنده، ثمَّ الَّتِي تليها، وأولى تلك العقبات الإشراك بالله والكفر به سبحانه والسُّخرية من دينه وتكذيب أنبيائه ورسله، والخروج من طاعته جلَّ في علاه، فإن لم يتمكَّن من إيقاعه في هذه العقبة نقله إلى عقبة البدع، إمَّا البدع الاعتقاديَّة بأن يعتقد ما لم يشرعه الله، أو البدع العمليَّة بأن يتقرَّب إلى الله بما لم يأذن به، فإن لم يتمكَّن من ذلك نقله إلى الكبائر وعظائم الذُّنوب وزيَّنها

(١) رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٦١٨٩)، والحاكم في مستدركه (٨٠٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٢٨٠).

في عينيه حتَّى يقع فيها ويكون من أهلها، فإن لم يتمكَّن نقله إلى الصَّغائر، وهكذا عدوُّ الله يتدرَّج بالإنسان تنقُّلًا بين هذه العقبات إغواءً وصدًّا للإنسان عن طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

وللشَّيطان مدخلان على الإنسان: مدخل الشَّهوة، ومدخل الشُّبهة، ولا يبالي عدوُّ الله بأيِّ الأمرين ظفَر، فإن رأى في الإنسان تديُّنًا وطاعة دخل عليه من مدخل الشُّبهات حتَّى يوقعه في الغلوِّ في الدِّين وممارسة البدع الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان، وإن وجد في الإنسان تفلُّتًا زيَّن له الشَّهوات حتَّى يوقعه في حمأتها. والواجب على العبد المؤمن أن يكون يقظًا عارفًا بهذا العَدُوِّ، مستعيذًا بالله منه، آخذًا بأسباب النَّجاة، مجاهدًا نفسه على الفكاك والخلاص، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]، ومَن يجاهد نفسه في طاعة الله، والبعد عن الشَّيطان الرَّجيم يهديه الله جَلَّ وَعَلَا ويكفيه.

وقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنَّ الشَّيطان ليس له سلطان على عبد الله المؤمن المعتصم بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥].

وإنَّ من أهمِّ ما ينبغي للمسلم أن يعنى به في هذا المقام العنايةَ بالحروز الواقية له من الشَّيطان؛ **وأنَّ أهمَّها وأعظمها عشرة حروز:**

الحرز الأوَّل: التَّعوُّذ بالله منه؛ والتَّعوُّذ: اعتصام بالله والتجاء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأعظم شرٍّ يُتعوَّذ بالله منه شرُّ الشَّيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصِّلت:٣٦].

الثَّاني: قراءة المُعوِّذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]، وقد صحَّ في الحديث عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**مَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(١)، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتعوَّذ بهما كلَّ ليلة إذا أوى إلى فراشه ﷺ(٢)، وصحَّ عنه أنَّ مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاث مرَّات في الصَّباح وثلاث مرَّات في المساء كُفي من كلِّ شَرٍّ(٣).

الثَّالث: قراءة آية الكرسيِّ عندما يأوي المرء إلى فراشه لينام؛ فإنَّها عظيمة الشَّأن في الوقاية من الشَّيطان وطرده وإبعاده من المكان، فقد ثبت في الصَّحيح عن نبيِّنا ﷺ ما يدلُّ على أنَّ مَن قرأها إذا أوى إلى فراشه لم يزل عليه من الله حافظًا ولا يقربه شيطان حتَّى يصبح(٤).

الرَّابع: قراءة سورة البقرة بتمامها؛ فإنَّ لها شأنًا عجيبًا عظيمًا للغاية في طرد الشَّياطين من البيوت، ففي صحيح مسلم عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»(٥).

الخامس: قراءة الآيتين العظيمتين من خاتمة سورة البقرة، ففي الصَّحيح

---

(١) رواه أبو داود (١٤٦٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) رواه البخاريُّ (٥٠١٧).
(٣) رواه أبو داود (٥٠٨٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٤) رواه البخاريُّ (٢٣١١).
(٥) رواه مسلم (٧٨٠).

أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»(١). أي: من كلِّ شَرٍّ وسوء، ومن شرِّ الشَّيطان وشركه.

السَّادس: قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فإنَّ هذه الكلمة العظيمة كلمة التَّوحيد من أعظم ما يُتحرَّز به من الشَّيطان ويُتَّقى به شرَّه، ففي الصَّحيحين عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ»(٢).

السَّابع: أن يقول المرء -حين تُسَلَّط الشَّياطين عليه في منامه-: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ»، ففي التِّرمذيِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ»(٣).

الثَّامن: البسملة؛ أن يقول المرء: «**بسم الله**» في دخوله لمنزله، وفي تناوله لطعامه، وغير ذلك من أحواله؛ فإنَّ له في ذلك حفظًا عظيمًا من الشَّيطان، وقد ورد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ

(١) رواه البخاريُّ (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٧).
(٢) رواه البخاريُّ (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٢٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قال: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»[(١)].

التَّاسع: أن يحذر المرء من فضول النَّظر، وفضول الطَّعام، وفضول الكلام، وفضول المخالطة؛ فإنَّ هذه الأربعة مداخل عظيمة للشَّيطان على الإنسان، فيُتحرَّز من الشَّيطان باتِّقاء الفضول في هذه الأشياء حفظًا للنَّفس ورعاية لها واتِّقاءً للشَّيطان.

العاشر: كثرة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مختلف الأوقات؛ فإنَّ المكثرين من ذكره جلَّ في علاه، ليس للشَّيطان عليهم طريق، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:٦٥]، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزُّخرف:٣٦]. أي: يغفل، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزُّخرف:٣٦]، وقد جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر: أنَّ يحيى بن زكريَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أوصى قومه بذكر الله قال: **«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»**[(٢)].

ونسأل الله سبحانه أن يعيذنا وذُرِّيَّاتنا من الشَّيطان الرَّجيم.

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٨٦٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٧٤

خطورة الوساوس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ**». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**». رواه مسلم(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ، حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟!**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟! فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٣).

وفي رواية لمسلم: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟! فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»(٤). وزاد

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) رواه مسلم (١٣٤).

في رواية «**وَرُسُلِهِ**»[(١)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**». رواه أبو داود[(٢)].

وعَنْ أَبِي زُمَيْلٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟**» قَالَ: وَضَحِكَ، قَالَ: «**مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ**»، قَالَ: حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ الْآيَةَ [يونس:٩٤]، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ:** ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]». رواه أبو داود[(٣)].

هذه الأحاديث العظيمة فيها تنبيه إلى أمر عظيم يتعلَّق بإصلاح القلوب ومداواتها، ألا وهو صيانتها من هذه الوساوس والشُّكوك الَّتِي قد تهجم على قلب العبد وتدخل بدون استئذان، فيفاجأ المرء إذ بها قد ولجت إلى قلبه فماج بسببها في متاهات هذه الوساوس الممرضة للقلوب، وليتأمَّل المرء النَّاصح لنفسه من خلال هذه الأحاديث الحَلَّ الأمثل والسَّبيل الأقوم للسَّلامة من هذه الوساوس وكيفيَّة الخلاص منها.

---

(١) رواه مسلم (١٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) رواه أبو داود (٥١١٠)، وقال الألبانِيُّ: «حسن الإسناد».

وقد ذكر النَّبِيُّ ﷺ الدَّواء النَّافع، لهذ الوساوس المهلكة، **وهي ثلاثة أشياء:**

- الانتهاء عن هذه الوساوس الشَّيطانيَّة وعدم الاسترسال معها؛ لقوله: «**وَلْيَنْتَهِ**».

- والاستعاذة من شرِّ مَن ألقاها وشبَّه بها، ليضلَّ بها العباد عن صراط الله المستقيم؛ لقوله: «**فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ**».

- والاعتصام بعصمة الإيمان الصَّحيح الَّذِي مَن اعتصم به كان من الآمنين؛ لقوله: «**فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ**».

وأرشد ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لطرد هذه الوساوس أن يقرأ المسلم: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فإذا قرأها المسلم مستشعرًا معاني هذه الأسماء الحسنى، ففيها من تحقيق الإيمان وقوَّة اليقين ما يطرد الوساوس.

وذلك أنَّ الباطل يتَّضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها: العلم بمنافتها للحقِّ، فإنَّ كلَّ ما ناقض الحقَّ فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[(١)]. وفي رواية: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»[(٢)]. أي: أنَّ حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهةِ العظيمة له ودفعهِ عن القلب هو من صريح الإيمان؛ كالمجاهد الَّذِي جاءه العدوُّ فدافعه حتَّى غلبه؛ فهذا أعظم الجهاد أن يبغض المرء هذه الوساوس ويعمل على طردها من قلبه.

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

والواجب على العبد أن يحترس من هذه الوساوس وممَّا تثمر من الأعمال، وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال فإنَّ العمل السَّيِّئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثمَّ يَعرض للقلب من فساد العمل قسوة فيزداد مرضًا على مرضه حتَّى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له، وكلُّ ذلك من انفعاله بوسوسة الشَّيطان وركونه إلى عدُوِّه الَّذِي لا يفلح إلَّا مَن جاهد نفسه على السَّلامة من وساوسه.

ثمَّ إنَّ العبد كُلَّما أقبل على الطَّاعة كان الشَّيطان عليه أحرص، ولهذا يعرض للنَّاس من الوساوس في الصَّلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يُصَلُّوا؛ لأنَّ الشَّيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى رَبِّه والتَّقرُّب إليه والاتِّصال به؛ فلهذا يعرض للمُصَلِّين ما لا يعرض لغيرهم.

عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزِبٌ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ؛ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**». قَالَ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي. رواه مسلم[(١)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَنَمَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دَخَلَ المَسْجِدَ فَصَلَّى، فَأَخَفَّ الصَّلَاةَ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا اليَقْظَانِ! لَقَدْ خَفَّفْتَ؛ قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَنِي انْتَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةَ الشَّيْطَانِ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي**

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣).

الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا». رواه أحمد(١).

وذلك أنَّ الوسواس كلَّما قلَّ في الصَّلاة كانَ أكمل في ثوابها، وكلَّما زاد ضاعَ من صلاة العَبد بحَسْبه، فحاجَةُ العَبد إلى دفعِه ماسَّة؛ ليفُوز بأجر صلاتِه، فإنَّه ليس له مِن صلاتِه إلَّا ما عقلَ منها، والشَّيطان لا يريد له تحصيل هذا الخير، والَّذي يُعينُ العبد على السَّلامة من هذه الوساوس الَّتِي تعرض للمرء في صلاته شيئان: قوَّة المقتَضي، وضَعف الشَّاغل. وقد فصَّل فيهما شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تفصيلًا نافعًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أمَّا الأوَّل:** فاجتهاد العَبد في أن يعقلَ ما يقولُه ويفعَلُه، ويتدبَّر القراءةَ والذِّكر والدُّعاء، ويستَحضر أنَّه مُناجٍ لله تعَالى كأنَّه يراه، فإنَّ المصلِّي إذا كان قائمًا فإنَّما يُناجي ربَّه.

والإحسانُ: أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يراك، ثمَّ كلَّما ذاقَ العبدُ حلاوةَ الصَّلاة كانَ انجذابُه إليها أوكَد، وهذا يكونُ بحَسْب قوَّةِ الإيمان.

والأسبابُ المُقوِّية للإيمان كثيرة؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢)، وفي حديث آخر أنَّه قال: «**أَرِحْنَا -يَا بِلَالُ- بِالصَّلَاةِ**»(٣). ولم يقل: أرحنا منها.

---

(١) رواه أحمد (١٨٨٩٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٦٢٦).

(٢) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

فإنَّ ما في القَلب من معرفة الله، ومحبَّته، وخشيته، وإخلاص الدِّين له، وخوفه، ورجائه، والتَّصديق بأخباره، وغير ذلك، ممَّا يتباين النَّاس فيه، ويتفاضلون تفاضلًا عظيمًا، ويقوى ذلكَ كلَّما ازداد العبد تدَبُّرًا للقرآن، وفهمًا ومعرفةً بأسماء الله وصفاته وعظمَته، وتفقُّره إليه في عبادته واشتغالِه به، بحيثُ يجد اضطرارَه إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظَم من اضطراره إلى الأكل والشُّرب؛ فإنَّه لا صلاح له إلَّا بأن يكونَ الله هُو معبوده الَّذي يطمئنُّ إليه، ويأنسُ به، ويلتذُّ بذكره، ويستَريح به، ولا حصولَ لهذا إلَّا بإعانة الله، ومتَى كانَ للقلب إلهٌ غيرُ الله فسدَ وهلكَ هلاكًا لا صلاحَ معه، ومتَى لم يُعِنه الله على ذلكَ لم يُصْلِحه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به، ولا ملجأَ ولا منجَا منه إلَّا إليه.

وأمَّا زوال العَارض: فهو الاجتهاد في دفع ما يُشْغل القلبَ مِن تفكُّر الإنسان فيما لا يَعنيه، وتدبُّر الجواذب الَّتي تجذب القلبَ عن مقصود الصَّلاة، وهذا في كلِّ عبد بحسبه، فإنَّ كثرةَ الوسواس بحَسب كثرةِ الشُّبهات والشَّهوات، وتعليقِ القَلب بالمحبوبات الَّتي ينصرفُ القلبُ إلى طلبها، والمكروهاتِ الَّتي ينصرفُ القلب إلى دفعِها.

والوساوس: إمَّا من قَبيل الحبِّ، مِن أن يخطر بالقَلب ما قَد كان؛ أو مِن قبيل الطَّلب، وهو أن يخطر في القَلب ما يريد أن يفعَله.

ومن الوساوس ما يكونُ من خواطر الكُفر والنِّفاق، فيتألَّم لها قلبُ المؤمن تألُّمًا شديدًا، كما قال الصَّحابة: «**يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي**

نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: أَوَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[(١)].

قال كثير من العلماء: فكراهةُ ذلك وبغضُه وفرار القَلب منه هو صَريح الإيمان، والحمد لله الَّذي كان غاية كيد الشَّيطان الوسوسَة، فإنَّ شيطان الجنِّ إذا غلب وَسْوَس، وشيطان الإنس إذا غَلَب كَذَب، والوسواس يعرِضُ لكلِّ مَن توجَّه إلى الله تعالى بذكرٍ أو غيرِه، لا بدَّ له من ذلك، فينبغي للعَبد أن يثبت ويصبر، ويلازم ما هو فيه من الذِّكر والصَّلاة ولا يضجر، فإنَّه بملازمة ذلك ينصرفُ عنه كيد الشَّيطان، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٧٦].

وكلَّما أراد العبد توجُّهًا إلى الله تعالى بقَلبه جاء منَ الوسواس أمورٌ أخرى، فإنَّ الشَّيطان بمَنزلة قاطع الطَّريق، كلَّما أراد العَبد أن يسير إلى الله تعالى أرادَ قطع الطَّريق عليه؛ ولهذا قيل لبَعض السَّلف: إنَّ اليهودَ والنَّصارى يقولون: لا نُوَسْوِس، فقال: صَدَقوا؛ وما يصنَعُ الشَّيطان بالبيتِ الخرِب»[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والنَّاس في الصَّلاة على مراتب خمسة:**

أحدها: مرتبة الظَّالم لنفسه المُفَرِّط وهو الَّذِي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثَّاني: مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظَّاهرة ووضوئها، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) ذكره شيخ الإسلام عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨).

الثَّالث: مَن حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نَفْسَه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوِّه لئلَّا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرَّابع: مَن إذا قام إلى الصَّلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبُه مراعاةَ حدودها وحقوقها لئلَّا يُضَيِّع شيئًا منها، بل همُّه كلُّه مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصَّلاة وعبوديَّة ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها.

الخامس: مَن إذا قام إلى الصَّلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضعه بين يدي ربِّه عَزَّوَجَلَّ ناظرًا بقبله إليه مراقبًا له ممتلئًا من محبَّته وعظمته كأنَّه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربِّه، فهذا بينه وبين غيره في الصَّلاة أفضل وأعظم ممَّا بين السَّماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربِّه عَزَّوَجَلَّ قرير العين به.

فالقسم الأوَّل معاقب، **والثَّاني** محاسب، **والثَّالث** مُكَفَّر عنه، **والرَّابع** مثاب، **والخامس** مُقَرَّب من ربِّه؛ لأنَّ له نصيبًا ممَّن جُعِلَت قُرَّة عينه في الصَّلاة فمَن قرَّت عينه بصلاته في الدُّنيا قرَّت عينه بقربه من ربِّه عَزَّوَجَلَّ في الآخرة»[(١)].

أصلح الله قلوبنا أجمعين، وأعاذنا من الشَّيطان الرَّجيم.

---

(١) الوابل الصَّيِّب لابن القيِّم (ص٢٣).

٧٥
إصلاح الخطرات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ**». متَّفق عليه(١).

إنَّ مبدأ أعمال المرء خيرِها وشرِّها، صالحها وفاسدها؛ من خطراتٍ تجول في قلبه، وخواطر تدور في نفسه، ثمَّ تتحوَّل تلك الخطرات إلى إراداتٍ وعزوم، ثمَّ تتحوَّل إلى أعمال؛ ولهذا مَن ضبط خواطر نفسه وخطراتها، وأحسن رعايتها، وكان بوَّابًا على قلبه يحوطه ويحرسه من خطرات وخواطر السُّوء، صدًّا لها وإبعادًا لها عن قلبه؛ سلِم قلبه مِنَ الهلكة والعطب، ومَن ترك خطرات السُّوء وخواطر الشَّرِّ تجول في قلبه وتتردَّد في نفسه، ثمَّ أخذ يستجلبها وينمِّيها في قلبه؛ تولَّد عنها شرٌّ عظيم وفسادٌ كبير.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا الخطرات فشأنها أصعب، فإنَّها مبدأ الخير والشَّرِّ، ومنها تتولَّد الإرادات والهمم والعزائم، فمَن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومَن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومَنِ استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردَّد على القلب،

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

حتَّى تصير مُنًى باطلة، ﴿كَسَرَابِۢ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النُّور:٣٩]»[١].

وأنفع ما يكون للعبد في هذا الباب: أن يحصر خواطر قلبه في أمور أربعة:

- خواطر يستجلب بها منافع دنياه.

- وخواطر يستدفع بها مضارَّ دنياه.

- وخواطر يستجلب بها منافع آخرته.

- وخواطر يستدفع بها مضارَّ آخرته.

فإذا حصرها في هذه الأربع أفلح وأنجح، وسعد في دنياه وأخراه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات -كتزاحم مُتَعَلَّقاتها- قدَّم الأهمَّ فالأهمَّ الَّذِي يخشى فوته، وأخَّر الَّذِي ليس بأهمَّ ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران:

أحدهما: مُهِمٌّ لا يفوت.

والثَّاني: غير مُهِمٍّ، ولكنَّه يفوت.

ففي كُلٍّ منهما ما يدعو إلى تقديمه؛ فهنا يقع التَّردُّد والحيرة، فإن قدَّم

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٤).

المُهِمَّ خشي فوات ما دونه، وإن قدَّم ما دونه فاته الاشتغال به عن المُهِمِّ، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلَّا بتفويت الآخر.

فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن هاهنا ارتفع مَن ارتفع، وأنجح مَن أنجح، وخاب مَن خاب، فأكثر مَن ترى ممَّن يعظم عقله ومعرفته، يؤثر غير المُهِمِّ الَّذِي لا يفوت على المُهِمِّ الَّذِي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقلٌّ ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى الَّتِي عليها مدار الشَّرع والقدر، وإليها مرجع الخلق والأمر، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة الَّتِي هي دونها، والدُّخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيُفَوِّت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها»(١).

وأعلى الخواطر وأنفع الفِكَر؛ ما كان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والدَّار الآخرة، **وما كان كذلك ينحصر في أنواع:**

الأوَّل منها: فكرة في آيات الله المُنَزَّلة؛ كلامِه جَلَّ وَعَلَا، الَّذِي أنزله سبحانه هدًى للنَّاس وبيِّنات مِنَ الهدى والفرقان، أنزله هدايةً للعباد ورشادًا وفلاحًا وسعادةً في الدُّنيا والآخرة، والله عَزَّوَجَلَّ إنَّما أنزل هذا القرآن لتُتدبَّر آياتُه وليُهتدى بهداياته وليُعمل ببيِّناته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ

(١) الجواب الكافي (ص١٥٥).

لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]؛ أنزله سبحانه لذلك، إلَّا أنَّ مِنَ النَّاس مَن جعل حظَّه من هذا القرآن مُجَرَّد التِّلاوة دون الفهم والعمل، قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ؛ فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا**»[1].

الثَّاني: فكرة وتأمُّل في آيات الله المشهودة، ومخلوقاته العظيمة، وكونه الفسيح. فإنَّ هذا التَّأمُّل في هذه الكائنات، وهذه المخلوقات؛ يهدي قلب العبد إلى تعظيم مَن خلقها جلَّ في علاه، وتهدي قلب المُتَفَكِّر إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبَّته، ورجائه، وخوفه، والعمل بما يرضيه جَلَّوَعَلَا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

الثَّالث: فكرةٌ وتفكُّرٌ في نِعم الله العظيمة، وآلائه الجسيمة، وعطاياه الَّتِي لا تُعَدُّ ولا تحصى؛ فإذا شغل المرء فكره في ذلك تحوَّل إلى: عبدٍ شاكرٍ لِأَنْعُم الله، ذاكرٍ لله حامدٍ له، مثنٍ عليه جلَّ في علاه، والله جَلَّوَعَلَا لمَّا عدَّد نعمه العظيمة وآلاءه الكثيرة، في سورة النَّحل الَّتِي تُعْرَف بسورة النِّعم، قال في خاتمة عَدِّه لها: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النَّحل:٨١]، وهذا فيه إلماحةٌ وإشارة إلى أنَّ تبصُّر العبد وتفكُّره في نعم الله يهديه إلى الإسلام لله، والخضوع له جلَّ في علاه.

---

(١) رواه الآجرِّيُّ في أخلاق أهل القرآن (٣٧)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١١٦).

والرَّابع من هذه الفكر: أن يتفكَّر المرء في عُيُوب نفسه، وتقصيره في حقِّ ربِّه، وتفريطه في جنب الله جلَّ في علاه، يتفكَّر في ذلك؛ فإذا أعمل فكره في ذلك أفضى به إلى كسر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، وأفضى أيضًا به إلى طرد العُجْب والغرور ونحو ذلك مِنَ القلب؛ ليتحوَّل إلى قلب منكسر خاضع لله جلَّ في علاه، مدركٍ تفريطه في حقِّ الله، مجتهدٍ في الوصول والبلوغ إلى مرضاة الله جلَّ في علاه.

الخامس من هذه الفكر النَّافعة: الفكرة في واجب الوقت وفريضته؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس يسبح فكره في أمانٍ باطلة وتمنيَّاتٍ زائفة وينسى يومه، منهم مَن يُخَطِّط إلى أعمال تمتدُّ إلى عشرات السَّنوات، وهو مُضَيِّع لواجب اليوم وفريضته. وقد قيل -قديمًا-: «الإنسان ابن يومه»؛ فيتفكَّر في عمل اليوم وواجبه، ويجمع همَّته وقلبه على ذلك: مجاهدًا نفسه على أن لا تغيب شمس يومه إلَّا وقد أدَّى واجب الله فيه، مبتعدًا فيه عن كُلِّ ما يُسْخط الله، ولا يزال كذلك مع كرِّ الأيَّام ومَرِّ الأوقات؛ فتكون الأيَّام تلو الأيَّام زيادة له في الرِّفعة والعُلُوِّ عند الله جلَّ في علاه، وتكون كذلك أيَّامه زيادةً له في كُلِّ خير ورفعة عند الله جَلَّوَعَلَا. وما سوى هذه الفكر، إنَّما هي وساوس في الصُّدور وأمانٍ باطلة وخدع كاذبة، لا ينال منها صاحبها نفعًا، بل هي وبال ومَضَرَّة عليه في دنياه وأخراه، أصلح الله قلوبنا أجمعين وزكَّى نفوسنا وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدِّي مُتَعلَّقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤدِّيها إلى التَّذكُّر، فيأخذها الذِّكر فيؤدِّيها إلى

الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوَّتها وتمامها. فإنَّها تهجم عليه هجوم النَّفس، إلَّا أنَّ قوَّة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه»(١).

قيل -لبعض الحكماء-: ما سبب الذَّنب؟ قال: الخطرة، فإن تداركْتَ الخطرة بالرُّجوع إلى الله؛ ذهبت، وإن لم تفعل تولَّدت عنها الفكرة، فإن تدارَكْتَها بالرُّجوع إلى الله؛ بطلت، وإلَّا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة فتولد عنها الشَّهوة، وكُلُّ ذلك بَعْدُ باطنٌ في القلب لم يظهر على الجوارح، فإن استدرَكْتَ الشَّهوة وإلَّا تولَّد منها الطَّلب، فإن تداركْتَ الطَّلب وإلَّا تولَّد منه الفعل.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: كيف أقدر على دفع خطرات تخطر لا أملكها؟ فالجواب: أنَّها ما لم تكن عزمًا لا تضرُّ غير أنَّه لا ينبغي أن تؤخَّر بالخوف ممَّن يعلم ما تخفي الصُّدور لتشاغل القلب بوظائف بعيدة تلهيه عَنِ الأمر الَّذِي خلق له، ومتى كففت جوارحك، ولم تعزم على الخطايا بقلبك؛ فقد عفي لك عَنِ الوسواس والخواطر، فإذا زجرتها بالخوف فقد بالغت في النَّظافة»(٢).

ومِنَ الدَّعوات المأثورة عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا،**

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص٢٥٤).
(٢) ذمُّ الهوى لابن الجوزيِّ (ص١٤٥).

وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[(١)]؛ وفي هذه الدَّعوة سؤال الرَّبِّ جلَّ في علاه أن يُزَكِّي القلب وأن يُطَهِّره، وزكاة القلب وطهارته إنَّما تكون بسلامته من خواطر السُّوء، وخطرات الفساد، وإراداتِ الشَّرِّ، وهموم الباطل والسُّوء؛ فإذا سلِم القلب من ذلك وعُمِر بالطَّاعة والإيمان كان قلبًا زكيًّا طاهرًا نقيًّا، وهو النَّاجي يوم لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّما النَّجاة لمَن أتى الله بقلب سليم.

وهذا المقام يتطلَّب مِنَ العبد في تزكيته لقلبه وصيانته له، أن يكثر من دعاء الله؛ فإنَّ القلوب بيده جلَّ في علاه، وأن يجاهد نفسه؛ على صيانة القلب، ورعايته، وإصلاحه، وإبعاده عن كُلِّ ما يفسده. والقلب فساده مِنَ الواردات، وهي ترِد عليه؛ إمَّا من خلال السَّمع أو البصر، فإذا صان نفسه وكان بوَّابًا وحارسًا لها؛ حُفظت بإذن الله، والحافظ الله وحده جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ ورود الخاطر لا يضرُّ، وإنَّما يضرُّ استدعاؤه ومحادثته. فالخاطر كالمارِّ على الطَّريق، فإنْ لم تستدعِه وتركتَه مرَّ وانصرف عنك، وإن استدعيتَه سَحَرك بحديثه وخَدْعه وغروره. وهو أخفُّ شيء على النَّفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنَّفس الشَّريفة السَّماويَّة المطمئنَّة.

وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نفسًا أمَّارةً ونفسًا مطمئنَّة، وهما متعاديتان، فكلُّ ما خفَّ على هذه ثَقُل على هذه، وكلُّ ما التذَّت به هذه تألَّمت به الأخرى.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

فليس على النَّفس الأمَّارة أشقُّ مِنَ العملِ لله، وإيثارِ رضاه على هواها؛ وليس لها أنفعُ منه. وليس على النَّفس المطمئنَّة أشقُّ مِنَ العمل لغير الله، وإجابةِ داعي الهوى؛ وليس عليها أضرُّ منه. والملَك مع هذه عن يَمنةِ القلب، والشَّيطان مع تلك عن يَسْرةِ القلب. والحروب مستمرَّة لا تضع أوزارها إلى أن تستوفي أجلَها مِنَ الدُّنيا. والباطل كلُّه يتحيَّز مع الشَّيطان والأمَّارة، والحقُّ كلُّه يتحيَّز مع الملَك والمطمئنَّة. والحروب دُوَل وسِجال، والنَّصر مع الصَّبر. ومَن صَبَر، وصابرَ، ورابَطَ، واتَّقى الله؛ فله العاقبة في الدُّنيا والآخرة. وقد حكم الله حكمًا لا يبدَّل أبدًا أنَّ العاقبة للتَّقوى، والعاقبة للمُتَّقين.

فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تُنْقَش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب، وغرور، وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأيُّ حكمة وعلم وهدًى يَنتقش مع هذه النُّقوش؟ وإذا أراد أن يَنتقش ذلك في لوح قلبه؛ كان بمنزلة كتابة العلم النَّافع في محلٍّ مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإنْ لم يُفرَّغ القلبُ مِنَ الخواطر الرَّديَّة لم يستقرَّ فيه الخواطر النَّافعة»(١).

وأسأل الله أن يحفظ علينا قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٧).

الفهرس